مقـدّمـة

حاولنا في هذه الدراسة أن نرسم صورة لعبد الرحيم البيساني العسقلاني، المصري (القاضي الفاضل)، وزير صلاح الدين، ولدوره البارز في أحداث عصره في مصر والشام (أي فلسطين وسوريا ولبنان). كما حاولنا أن نبحث في علاقاته ببعض الوزراء الفاطميين، وقد مهّدت له السبيل للقيام بأدوار تاريخية، ووجّهت بعض أحداث عصره، وأدّت إلى ظهور صلاح الدين في مصر، وقضائه بمساعدة القاضي الفاضل على الخلافة الفاطمية، ومن ثم العمل على تحرير المنطقة من الفرنج.

كان القاضي الفاضل الرجل الثاني في دولة صلاح الدين، وقد اعتمد عليه في تدبير دولته، وتجهيز جيوشه، وتأمين رعاياه، ولا سيّما في مصر، وفي مفاوضاته مع رجالات عصره، وفي تربية أبنائه وتدريسهم، وفي تعيين موظّفي دولته. وقد دعت هذه المسؤوليات التي قام القاضي الفاضل بها إلى وصفه بأنه «كان الدولةَ الصلاحية».

ولم تقتصر سيرة القاضي الفاضل على إدارته وسياسته وتدبيره، بل تعدّتها إلى الأدب من نثر وشعر، وكان هذا الأدب قد كوّن طاقاته العملية ووجّهها في بداية الأمر في الاتجاه الذي نبغت فيه. وهكذا، يمكن القول إنه عدا عن كون القاضي الفاضل «الدولة الصلاحية»، فإنه أديب، أي ناثر وشاعر، عُزِيت إليه مدرسة نثرية سُمّيت «المدرسة الفاضلية»، أي مدرسة أسلوب القاضي الفاضل. ولا شك في أنّ هذا الشرف الذي أضفاه عليه معاصروه ومن تلاهم من كتّاب ومؤرّخين، راجع إلى كونه مؤسِّس قواعد أو أصول الكتابة الرسمية في عصر صلاح الدين، ناقلا إيّاها من نظام خلافةٍ إسماعيليّ، إلى نظام عسكري سنّي. وقد ظلّت كتاباته الرسمية، من سجلات وتعيينات ورسائل، نموذجا يُحتذى لأجيال تلته.

وسيرة القاضي الفاضل ودوره في عصره، تعكس سيرة الإنسان المفكّر، ذي الطاقات اللامحدودة، الذي اقتُلع من أرضه ووطنه فكرّس فكره وطاقاته لاستعادة الأرض والوطن والهويّة.

لقد لفت القاضي الفاضل نظر واهتمام المؤرخين إلى سيرة صلاح الدين. فقرنوا اسمه باسم صلاح الدين، ولجأوا إلى كتاباته من رسمية وإخوانية متّخذين منها مصدرا رئيسيا لدراسة صلاح الدين وعصره. وسيلاحظ القارىء المصادر التي اعتمدت على كتابات القاضي الفاضل من خلال البحث.

ومع اهتمام المؤرّخين بالاستقاء من كتابات القاضي الفاضل، فإنهم حفظوا لنا

قسما منها، بعضها تاريخي وبعضها أدبي. وكما أن المؤرخين حفظوا لنا بعض كتابات القاضي الفاضل، فإن بعض المعجبين بها جمعوا ما راق لهم منها في مجموعات، لا يزال معظمها مخطوطا في بعض المكتبات الأوروبية والتركية، وفي مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، وسنعمل على نشر مختارات منها في المستقبل القريب. ولقد أشرنا إلى هذه المخطوطات في سياق البحث وأثبتناها في الفهرست.

لقد وجدت هذه السيرة جذورها في الجامعة الأميركية في بيروت، موضوعا لأطروحة الماجستير، في دائرة الأدب العربي سنة ١٩٦١م. وقد ركّزنا آنذاك على أدب القاضي الفاضل، الذي حكمنا عليه ـ ضمن الحركة الأدبية المتّجهة في تلك السنوات إلى التحرّر من القيود والمحسّنات، والداعية إلى الطبعية والاسترسال ـ بأنه مملّ إلى حدّ ما، وعليه فإننا نعمل على متابعة الدراسة أو التوسّع فيها. ولكن عندما حان وقت كتابة رسالة أطروحة الدكتوراه في جامعة ميتشيغن، آن آربور، اقترح علينا بعض الأساتذة التركيز على دور القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين، فأضفنا جانبا جديدا إلى الدراسة الأولى، بعنوان: Al-Qādī al-Fāḍil: His Life and Political Significance وأحسسنا آنذاك بأن الأسلوب، على الرغم من تعقيده في بعض الأحيان، جميل معبّر عن الوضع المعيّن، ولعلّ للغربة أثرا في تغيّر الحكم على الأسلوب.

ثم اتّجهنا بعد ذلك إلى البحث في موضوعات أدبية وعقائدية وتاريخية في العصور الوسطى، مهملين القاضي الفاضل، إلى أن تقدّم الأستاذ برهان الدجاني إلينا بعرض لإعادة كتابة سيرة القاضي الفاضل، بحيث نركّز على خلفيته الفلسطينية وتأثيرها في مسيرته وأثره في عصره، وننظر إليه كإنسان حيّ لا يزال يعيش بيننا، يهدينا بفكره وآرائه في أوضاعنا التاريخية الحالية. فوجد اقتراحه صدى في النفس، وبدأنا العمل من جديد بإشرافه ورعايته وحسن توجيهه. كما وجد الاقتراح تشجيعا من مؤسّسة الدراسات الفلسطينية التي تبنّته وعرضت نشره ضمن مجموعة دراسات التراث. وإننا للأستاذ برهان الدجاني وللمؤسّسة لَمِنَ الشاكرين.

ومع ما وجدناه من تشجيع ودعم من المؤسّسة التي ستقوم بتكاليف نشره، فإن هناك تكاليف أخرى، غير قليلة، كالسفر إلى أوروبا أو الشرق الأوسط، والطباعة والمراجعة، وقد قامت جامعة تورنتو، أو Humanities and Social Sciences Committee of the University of Toronto (Canada) بتقديم هبة مادية ساعدت في إعداد مخطوط الكتاب، ولا يسعنا إلّا أن نقدّم الشكر والامتنان لهذا المعهد.

وفي الختام، نرجو أن نكون قد وفّينا القاضي الفاضل ـ هذا الإنسان العظيم ـ حقّه أو بعض حقّه، وأن نتعلّم منه.

هادية دجاني ـ شكيل

تورنتو، ١٩٩٣

الفصل الأوّل
المشهد(1)

أولا: الاجتياح

وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى الديار المقدسة سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، واندفعت فيها من دون أن تلقى مقاومة تُذْكَر. فلم تجد في وجهها جيوشا تنازلها في ساحات القتال، بل كان كل ما وجدته مدنا بعضها مكشوف وخالٍ من كل تحصينات الدفاع، وبعضها محصّن خلف الأسوار، ولا يربط بينها نظام دفاعي. ولئن حاول السكان نجدة بعضهم بعضا، فقد تمّ ذلك من خلال تدفّق المتطوعين إلى داخل المدن ذات الأسوار. فإذا وقعت مدينة تحت الحصار كان عليها أن تواجه الغزاة وحدها، بما يتوفر لأبنائها من قدرة على القتال، ولسكانها من قدرة على الصمود. وأما الغزاة فكانوا قادرين على توجيه قوتهم كلها للحصار والهجوم، من دون خشية هجوم كثيف من قوة مسانِدة أو مستغِلّة لفرصة انشغالهم بالحصار.

لقد أصبحت الجيوش الصليبية الآن القوة المتحركة الوحيدة، وتسنّى لها أن تهاجم مدينة في إثر مدينة، بقدر ما كان يتوفر لها من الموارد القتالية، وبقدر ما كانت تحتاج إلى تثبيت أقدامها، وتأمين مواقعها، وتعميق احتلالها.

وكانت طبيعة القتال الذي خاضه الصليبيون مستمَدّة من أهدافهم البعيدة المدى من وراء الحملة كلها ـ من ناحية ـ ومن الأوضاع القتالية العاجلة التي كانوا يواجهونها من الناحية الأخرى. وقد التقت الأهداف البعيدة والأوضاع العاجلة لتجعل حربهم تلك حربا موجهة ضد السكان وضد القوات المقاتلة، بلا تمييز، وبالقدر نفسه من الشراسة والقسوة تقريبا. فأما الحرب ضد السكان فكان هدفها إفراغ البلاد منهم، واستيراد سكان من أوروبا يحلّون محلّهم. ولقد اعتقدوا، بغير شكّ، أن الأراضي المقدسة لن تخلص لهم

---

(1) اعتمدنا في بعض هذا الفصل على المقال التالي، الذي ترجمه برهان الدجاني:

Hadia Dajani Shakeel, «Displacement of the Palestinians During the Crusades,» *The Muslim World,* Vol. LXVIII, No. 3 (1978), pp. 157-175.

إلا إذا غيّروا طبيعتها السكانية، وأحلّوا أقوامهم محلّ أهلها.(٢)

ولقد تبدّى هذا الأسلوب القتالي في بداية الهجوم الصليبي بشكل إمعان في القتل، إلى حد الإبادة لعدد من المدن التي اقتحموها.(٣) فيذكر لنا مؤرخو القرون الوسطى أن الصليبيين قتلوا ما بين أربعين ألفا وسبعين ألفا من سكان مدينة القدس سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، وأبادوا سكان مدينة حيفا إبادة تامة في السنة التالية، ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م،(٤) وأبادوا سكان مدينة بيروت في السنة نفسها تقريبا،(٥) وأبادوا الذكور من سكان مدينة قيسارية.(٦) ولم يقتصر الأمر على القتل، بل انتهج الصليبيون نهج التنكيل والتقطيع فيمن آثر من السكان أن يبقى في مكانه، ويحتمل كل المخاطر والأذى. فيروي لنا ألبرت الإيكسي، مثلا، أن أربعين من فرسان غودفري (أول ملوك اللاتين، سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) باغتوا الآلاف من سكان وأهالي أرصوف في يوم من الأيام، وهم يعملون في حقولهم، واختاروا خمسمئة منهم ليمثّلوا بهم، جادعين أنوفهم، ومقطعين أيديهم وأرجلهم.(٧) ولقد أثارت هذه الفظائع الهلع والفزع بين السكان جميعا، فعمّت البلاد موجة من النزوح عن المدن المكشوفة والعاجزة عن الدفاع إلى

---

(٢) أشار وليم الصُّوريّ إلى هذا الهدف في سياق بحثه عن احتلال الفرنج للقدس، ذاكرا أن الفرنج قتلوا عائلات بأكملها حين دخلوا القدس، كي يحتلّوا المدينة ببيوتها وكنوزها من دون أهلها.

William of Tyre, *A History of Deeds Done beyond the Sea*, tr. by C.A. Babcock and A.C. Krey (New York: Columbia University Press, 1943), Vol. I, p. 372.

(٣) احتلال المعرّة وإنطاكية. أنظر:

Ibid., pp. 258-311.

وللمزيد من المعلومات: أبو يعلى حمزة بن القلانسي، «ذيل تاريخ دمشق» (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيّين، ١٩٠٨)، ص ١٣٦؛ ولوصف احتلال القدس راجع:

Fulcher of Chartres, *Chronicle of the First Crusade*, tr. by Martha E. McGinty (Philadelphia: University of Pennsylvania, 1941), pp. 122-123.

وراجع: عز الدين بن الأثير، «الكامل في التاريخ» (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧)، ج ٩، ص ١٩.

(٤) William B. Stevenson, *The Crusaders in the East* (Cambridge: Cambridge University Press, 1907), p. 42; Steven Runciman, *A History of the Crusades*, 3 Vols. (Cambridge: Cambridge University Press, 1951-54), Vol. I, p. 316; Joseph F. Michaud, *Histoire des Croisades*, 3 Vols. (Paris: Furne, Jouvet, 1812-1822), Vol. I, p. 228.

(٥) Stevenson, *op.cit.;* Runciman, *op.cit.*, Vol.II, p. 92.

(٦) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. I, p. 437; Runciman, *op.cit.*, Vol. II, p. 73.

(٧) John C. Andressohn, «The Ancestry and Life of Godfrey of Bouillon,» *Indiana University Publications, Social Science Series*, No. 5 (Bloomington, 1947), p. 115.

أقرب ملجأ يحتمون به، إمّا بالإقامة في مدن مسوّرة داخل مسارح القتال، وإمّا بالجلاء إلى المناطق البعيدة عن ميادين القتال.(٨) ويروي لنا المؤرخون أن بعض من اضطروا إلى الجلاء أوغلوا في الابتعاد حتى وصلوا إلى خراسان، في أقصى شرق بلاد فارس (أبعد الديار الإسلامية في ذلك الحين) وأقاموا فيها. غير أن هؤلاء لم يكونوا سوى قلّة من الناس. وأما الكثرة الكبرى منهم فقد ارتمت في بلاد قريبة من مواطنها، في الديار الشامية مثل دمشق ومناطق حمص وحماة وحلب، أو في الديار المصرية،(٩) وكان موقع البلاد الساقطة هو العامل الحاسم في تقرير موقع الارتماء. فالمدن والمناطق الساحلية الواقعة إلى الشمال من يافا، لجأ سكانها في الغالب إلى المدينتين الصامدتين صيدا وصور، بقدر ما احتملتا، ومن ثَمَّ انتقلوا عندما سقطت هاتان المدينتان إلى دمشق وديار الشام لاحقين بمن سبقهم إليها. وأما سكان يافا والجنوب فقد احتموا في عسقلان، ومن ثَمَّ لجأوا عندما سقطت إلى الديار المصرية.(١٠)

ويروي لنا مؤرخو القرون الوسطى أحاديث المدن التي دخلها الصليبيون وهي خاوية على عروشها، بعد أن فارقها سكانها، وأفرغوها ما بين عشية وضحاها، أو ما بين طرفة عين وانتباهتها. فعندما نزل بحارة أسطول بيزا إلى مدينة يافا يوم ١٧ حزيران (يونيو) ١٠٩٩م / شعبان ٤٩٢هـ، وجدوها «خرائب» تنعى من بناها، لا أثر للسكان ولا للحياة فيها، إذ غادرها أهلها بكامل جمعهم؛ واحتموا بمدينة عسقلان.(١١) وأما مدينة الرملة التي كانت قد سقطت قبل ذلك بأسبوعين، في ٣ حزيران (يونيو) ١٠٩٩م / شعبان ٤٩٢هـ، فيذكر لنا المؤرخ اللاتيني وليم الصوري أن الصليبيين وجدوها خالية من سكانها الذين غادروها مع زوجاتهم وكل أقربائهم، تاركين وراءهم محاصيل لم يجنوها، وطعاما لم يأكلوه، وسلاحا لم يحاربوا به.(١٢) وكذلك فعل سكان بيسان وطبريا وغيرهما من بلاد الأغوار الذين كانت بلادهم تابعة لدمشق، فقد هاموا على وجوههم قبل أن يصل إليها هجوم قوات تانكرد سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. واحتمى معظمهم في دمشق، في حين اتجهت قلّة منهم إلى عسقلان. ويذكر لنا فولكر الشارتري الذي

---

(٨) Dajani-Shakeel, *op.cit.*, pp. 162-164.

(٩) Stevenson, pp. 40-41.

راجع أيضا: محمد بن علي يوسف بن ميسّر، «أخبار مصر» (القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩١٩)، ص ٣٩.

(١٠) Runciman, *op.cit.*, Vol. I, p. 277; William of Tyre, *op.cit.*, Vol. I, p. 438.

للمزيد من المعلومات: ابن القلانسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١١.

(١١) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. I, p. 357.

(١٢) *Ibid.*, Vol. I, p. 333, 438; Fulcher of Chartres, *op.cit.*, p. 115.

رافق إحدى الحملات إلى تلك المنطقة، أنه شاهد إلى الجنوب من البحر الميت قرية غادرها سكانها المسلمون جميعهم «عندما وصلت إليهم الشائعات عنا»، إلا بعض الأتباع السود، «وقد تركنا هؤلاء في أماكنهم، مزدرينهم، وكأنهم مجرد أعشاب مائية.»(١٣)

ولجأ بعض سكان الجليل الأعلى من بني عاملة إلى السهول الواقعة بين دمشق وحمص.(١٤) ولئن استمرت عمليات الاحتلال والإفراغ من السكان إلى أكثر من نصف قرن بعد ذلك، فإن الفظاعة التي رافقتها تراجعت. وقد تبدّى هذا التحوّل أول مرة في معاملة سكان عكا التي سقطت سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، عندما خيّر بلدوين الأول سكانها بين البقاء فيها ودفع الجزية أو مغادرتها بأمان حاملين معهم كل ما يستطيعون من الأموال المنقولة. بل إنه ترك لهم جانبا من المسجد الكبير يؤدّون صلواتهم فيه.(١٥) وقد غادر الكثيرون منهم مدينتهم إلى صور ودمشق، وبقي آخرون فيها. ويذكر لنا ابن شداد أن صلاح الدين وجد في عكا، عندما استعادها، أربعة آلاف من المسلمين.(١٦) وقد دخل الصليبيون في سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م صيدا التي استسلمت للملك بلدوين الأول بعد مقاومة عنيدة، في مقابل عهد بالأمان للأهالي، فغادر المدينة خمسة آلاف من سكانها وبقي فيها كثيرون.(١٧) وأُعطيت صور التي سقطت سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م المعاملة نفسها، بعد دفاع مجيد. وغادرها الكثيرون من سكانها أيضا، وبقي بعض منهم، وعاد بعض الذين غادروها لاحقا مفضّلين الرجوع إلى أرض الوطن، ولو تحت حكم الكفّار، كما يحكي لنا ابن جبير.(١٨)

ويبدو أن مرحلة الإفراغ الجزئي، التي ابتدأت بسقوط عكا، كانت مرحلة خروج كرهي لا إكراهي، أثارته عوامل متعدّدة، بينها عدم الاطمئنان إلى العهود، بعد تجارب الفظائع والتنكيل والتمثيل، والعزوف عن عيش ذليل في ظل حكم عدو كافر، والابتزاز

---

(١٣) Fulcher of Chartres, *op.cit.*, p. 146; Runciman, *op.cit.*, Vol. I, p. 304.

(١٤) Runciman, *op.cit.*, Vol. I, p. 304.

(١٥) محمد بن أحمد بن جبير، «رحلة ابن جبير» (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١)، ص ٢٤٩. راجع أيضا:
William of Tyre, *op.cit.*, Vol. I, p. 455.

(١٦) بهاء الدين يوسف بن رافع بن شدّاد، «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤)، ص ٧٩.

(١٧) Runciman, *op.cit.*, Vol. 2, pp. 92-93.

(١٨) جمال الدين بن تغري بردي، «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٣٩)، ج ٥، ص ١٨٣؛ ابن جبير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢؛ ابن القلانسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١١.

الضريبي الذي كانوا يعانونه في ظلّ هذ الحكم. ولقد كانت آخر موجة من موجات النزوح طوعية، وذات أسباب دينية ودنيوية تتمثل في التمسّك بالجماعة الدينية، والكرامة الإنسانية إلى جانب الابتعاد عن الحيف الابتزازي الناجم عن الضرائب الباهظة. ففي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م غادر عدد كبير من سكان نابلس وثمانٍ من القرى المحيطة بها موطنهم، على مدى ثلاث سنوات متوالية، بعد أن عاشوا في ظلّ الحكم الفرنجي زمنا، استجابة لدعوة فقيههم، إمام قرية جّماعيل أحمد بن قدامة، وهربا من ظلم أمير المدينة اللاتيني بلدوين الإبليني وتجبّره.[١٩]

أما الأسباب التي دعت الصليبيين إلى التخفيف من الغلوّ في الفظاعة، فإننا نستطيع أن نتوصّل إليها عن طريق الاستنتاج أو التخمين. إذ يبدو مثلا، ممّا يرشح عن المصادر التاريخية المعاصرة، أن الصليبيين أدركوا أنهم لا يستطيعون إدامة دولة تتألف في أغلبيتها من المحاربين، وتمارس القتال، تأهّبا، وتوقّعا، ونزالا، ونزفا، وإحباطا، من دون أن يلوح في أفق وجودها أمل بحقبة من السلم المتاحة، وضرورة التوصل إلى اكتفاء ذاتي في هذا المجال. وثمة ما يدلّ على أن استقدام السكان من أوروبا لم يتحقق بالقدر الذي تتطلبه حاجات الزراعة، والتجارة، والصناعات الحرفية، بحيث أخذ الصليبيون يفضّلون ترك المزارعين في مزارعهم، بدل تقطيع أيديهم وأرجلهم، وإجلائهم. وربّما شجّعوا بعض التجّار على البقاء، أو حتى على العودة إلى ديار خرجوا منها، ليستأنفوا دورا تجاريا كانوا يقومون به في تلك الديار. ثم إن حاجات التمويل لخزائن الأمراء والملوك أوجبت أن يكون هنالك «دافعو ضرائب». ولكنّ المبالغة في الابتزاز الضريبيّ عقّدت الأمر في بعض الأحيان. ومن الجائز أن يكون الاختلاط بالسكان قد خفّف من حاجز الكراهية أو العجرفة والتمييز.

غير أن أهدافهم الاستراتيجية الكبرى، والنجاح الجزئي الذي حققوه في الوصول إليها، كانت السبب وراء الاستعصاء الكبير الذي وجدوا أنفسهم فيه. فالمعارك التي خاضوها في الديار المقدّسة، لم تكن من نوع معاركهم فيما بينهم، في البلاد التي خرجوا منها. فهناك كانت معارك الأمراء أو الملوك تهدف إلى توسيع مُلكٍ أو رقعةِ حُكم، من دون إحداث تغيير في تراكيب الحياة، ونشاطات الناس. وكان الانتصار يعني في الغالب استبدال أمير بأمير أو ملك بملك، من دون تأثير في الحياة اليومية لجمهرة الناس. وأما في الديار المقدّسة فإن معاركهم كانت تهدف إلى استبدال قوم بقوم، ومقدّسات بمقدّسات، من دون فرصة للتعايش. فالأوروبيون لم يكونوا على إدراك كاف

---

(١٩) محمد بن طولون الصالحي، «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية» (دمشق: مكتب الدراسات الإسلامية، ١٩٤٩)، ص ٢٥.

بأنّ التعامل الأفقي بين الناس والعقائد والحضارات أمر ممكن، بل جاؤوا معهم بنظرة عمودية إلى الناس والأشياء، لم تكن ذات مرونة وقدرة على التكيّف إزاء «التعدديّة» التي عاشتها الحضارة الإسلامية زمنا طويلا، وألفتها، وأرست قواعدها. بل إنهم. على الرغم من الشعار الصليبي الذي رفعوه، لم يستطيعوا حتى الائتلاف مع المسيحيين من سكّان الديار المقدّسة، الذين ربما كانوا يشكّلون حتى ذلك الحين نسبة عالية جدا من السكّان.[٢٠] وحتى علاقاتهم بالجوار اتّسمت بالتناقضية الاستراتيجية، على الرغم من أي لقاء ظرفيّ أتاحته مصادفات معيّنة. فالمجتمعات المحيطة بهم كانت تشعر، حتى في أوقات المهادنة أو التحالفات الظرفية، بأنها مهدَّدة منهم، وأن لا مجال لتعامل مبنيّ على توازن مستقرّ، بل لا بدّ لأية خدمة يقدمونها من أن تكون باهظة الثمن العاجل، إلى جانب كونها ثغرة تستغل لانطلاق في العمق عند أول بادرة أو فرصة.

ثانيا: عسقلان

(أ) المدينة: عسقلان في الوجدان الإسلامي

«أبشركم بالعروسين غزّة وعسقلان»[٢١]

(محمد بن عبد الله، صلّى الله عليه وسلّم)

مدينة عسقلان التي ولد فيها عبد الرحيم بن علي البيساني، القاضي الفاضل، من مدن فلسطين الساحلية الجنوبية الجميلة. وقد اشتهرت منذ العصور القديمة بسبب موقعها على الطريق التجاري بين مصر والشام، لقربها من القدس والرملة من المدن الداخلية ويافا من المدن الساحلية. واشتهرت كذلك بتلالها الرملية المحيطة بها وبشاطئها وبمينائها الذي كان يستخدم للسفن على الرغم من عمق الماء حوله. وقد مرّت على عسقلان أمم كثيرة سكنتها واختلطت بسكانها، مثل أهل كريت ـ الفلسطينيين ـ فالرومان فالبيزنطيين فالعرب الذين حكموها منذ بداية العهد الإسلامي. وقد سكنها من العرب قبيلتان ـ بنو لخم وبنو كنانة ـ وظلتا فيها حتى سقوطها في يد القوات الفرنجية سنة ١١٥٣م.

كان لموقع عسقلان وطبيعتها مكانة في الوجدان العربي والإسلامي، إذ يُعتقد أن

---

(٢٠) Jacque De Vitry, *The History of Jerusalem*, tr. A. Stewart (London: Palestine Pilgrims' Text Society, 1896), p. 67.

(٢١) أبو بكر أحمد بن الهمذاني المعروف بابن الفقيه، «مختصر كتاب البلدان» (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨)، ص ٩٩.

جدّ الرسول الأكبر هاشم بن عبد مناف مرّ بها في بعض رحلاته التجارية إلى مصر، ومات في غزة القريبة منها، ودفن فيها.[٢٢] ويقال إن عبد الله والد الرسول مرّ بها أيضا. ولا شك في أن العرب في مكة وضواحيها كانوا يتمثلون بجمالها وبطيب فاكهتها، حتى قيل إن الرسول عليه السلام تحدّث عنها كثيرا ومدحها بأقوال عديدة وأحاديث جُمعت واستُشهد فيها في أدب الفضائل. وقد زادت هذه الأحاديث في أهمية عسقلان لدى المسلمين. فمن جملة هذه الأحاديث ما نقله ابن عباس عن الرسول، بقوله: جاء رسول الله رجل، فقال: يا رسول الله إني أريد العراق، فقال له الرسول: عليك بالشام فإن الله عزّ وجلّ قد تكفّل بالشام وأهله ثم الزم من الشام عسقلان فإنه إذا دارت الرحى في أمتي كان أهل عسقلان في راحة وعافية.[٢٣] ومنها أيضا ما نقله أبو أُمامة الباهلي من قول الرسول عليه السلام: مَن رابط بعسقلان يوما وليلة ثم مات بعد ذلك بستين سنة مات شهيدا ولو مات في أرض الشِّرْك.[٢٤]

لا ندري متى جُمعَت هذه الأحاديث، فإنْ كان ذلك في القرن الثاني عشر فأهميتها كأهمية باقي الأحاديث الواردة في فلسطين في إثر احتلال الفرنج لها، جُمعت لخلق وعي لدى الأمة الإسلامية بأهمية هذه المدينة في الوجدان والتاريخ الإسلامي. وكان هذا النوع من الأدب أحد الحوافز الدافعة إلى تحرير المدن الفلسطينية المحتلّة. وأما بالنسبة إلى عسقلان، وهي المدينة الوحيدة التي صمدت أكثر من نصف قرن في وجه هجمات الفرنج المتوالية، فلا شك في أن هذه الأحاديث قد شدّت في أعضاد أهلها وحُماتها وزادتهم رغبة في الدفاع عنها.

لم تتوقف أهمية عسقلان في الوجدان الإسلامي عند حدّ أقوال الرسول، فقد ربط سكانها تاريخ بعض آثارها بتاريخ بعض الأنبياء الذين اعتُقد أنهم مرّوا بها. ففيها عين تُسمى عين إبراهيم، ويُظنّ أن لها علاقة بالنبيّ إبراهيم (عليه السلام).[٢٥] وقد أثارت تلالها الرملية البعيدة المدى مخيّلة بعض الكتّاب والمفسّرين الذين استشفّوا علاقة بينها وبين سورة النمل في القرآن الكريم من ناحية، وسيرة النبيّ سليمان (عليه السلام) من ناحية أخرى. فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:

---

(٢٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدّسي، «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» (ليدن: بريل، ١٩٠٦)، ص ١٧٤. ويذكر المقدّسي أن قبر هاشم بن عبد مناف في غزّة، وغزّة وعسقلان هما على الطريق المؤدّي إلى مصر.

(٢٣) الهمذاني، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٩٧.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَنَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إذا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.(٢٦)

وقد أشار بعض المفسّرين إلى أن وادي النمل يقع قرب عسقلان، فازدادت أهمية هذا الوادي لدى أهل عسقلان وجنوب فلسطين، فكانوا يحتفلون مرّة كل سنة بموسم وادي النمل. وبهذا أصبحت عسقلان ملتقى لأهل جنوب فلسطين. وإنّ نظرة متعمّقة في الآيات تشير إلى عزم الأرض ومَن عليها لمقاومة الدخلاء.

احتلّت عسقلان مكانة عُليا لدى الشيعة، ولا سيّما بعد أن أصبحت من مدن الخلافة الفاطمية الساحلية. فقد ذُكر أن رأس الإمام الحسين بن عليّ (عليهما السلام) كان قد دُفِنَ في بقعة خارج المدينة، فبحث عنه الوزير المصري الأرمني الأصل بدر الجمالي وبنى فوق البقعة مشهدا عُرف بمشهد الحسين،(٢٧) وأصبح يؤمّه المصريون الشيعة في أعيادهم ومناسباتهم الدينية. ولا شكّ في أن وجود هذا المشهد في المدينة، ومرور الشيعة بأعداد كبيرة بها في أثناء السنة، ساعد في بثّ بعض المعتقدات الشيعية في المدينة التي كان أغلب أهلها من السنّة. وربما أراد الوزير الجمالي وابنه الأفضل الذي خلفه في الوزارة من بناء هذا المشهد مضاهاة كربلاء، لأن وصول المصريين الشيعة والإسماعيليين إلى كربلاء كان صعبا لوجود الخلافة العبّاسية المناوئة لهم. وفي أية حال، فقد نجح هذان الوزيران في إعلاء قدر عسقلان وجعلها مركزا دينيا يتدفق الزائرون عليه.

زار المقدّسيّ، العالم الفلسطيني المعروف، مدينة عسقلان في القرن العاشر للميلاد، ووصفها بقوله: «عسقلان على البحر جليلة، كثيرة المحارس والفواكه، ومعدن الجُميّز. جامعها في البزّازين قد فُرش بالرخام، بهية، فاضلة، طيبة، حصينة، قزُّها فائق وخيرها دافق والعيش بها رافق. أسواق حسنة، ومحارس نفيسة، إلاّ إن ميناءها رديء وماءها عذيبي ودَلَمها مؤذٍ.»(٢٨)

ووصفها ناصر خسرو في منتصف القرن الحادي عشر بأن فيها سوقا وجامعا، وأشار إلى أن ضواحي عسقلان عامرة بكثير من القرى والمدن.(٢٩)

هذه المدينة الجميلة العامرة بالزراعة والتجارة والحِرَف الصناعية، وجدت نفسها

---

(٢٦) القرآن الكريم، سورة النحل، الآيتان ١٧ و ١٨.

(٢٧) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، «اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمّة الفاطميين الخلفا»، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد (القاهرة: لجنة إحياء التراث، ١٩٧١)، ج ٣، ص ٢٢.

(٢٨) المقدّسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٤.

(٢٩) ناصر خسرو، «سفرنامة»، ترجمة يحيى الخشّاب (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣)، ص ٦١.

فجأة وسط النيران المتأجّجة التي أوقدتها الحروب الصليبية. فلقد كانت عسقلان سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، وهي سنة احتلال الصليبيين للقدس، تابعة للدولة الفاطمية، شأنها في ذلك شأن مدينة القدس. ومن الطبيعي أن تكون عسقلان مستهدفة من الجيوش الصليبية، كسائر المدن التي هاجموها واحتلّوها، بالنظر إلى أهمية موقعها ونشاطاتها وقدراتها.

(ب) عسقلان والفرنج

وقد تعرّضت عسقلان لجميع التقلّبات السياسية والعسكرية التي تعرّضت المنطقة لها، وكانت مسرحا لكثير من المؤامرات والمنافسات، وشهدت الدفاع البطولي المجيد، مثلما شهدت حالات من التخاذل والارتباك.

ففي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وقع أول هجوم صليبي عليها، بعد أن أتمّ الصليبيون فتح القدس. ويبدو أن الوزير الفاطمي - الأفضل - استغرب هذا الهجوم. فلقد كانت له اتصالات بالصليبيين في المراحل الأولى من حملتهم، بلغت حدّ تحريضهم أو التحالف معهم، وربما ظنّ أنه يستطيع من خلال هذه الاتصالات أن يستغلّهم ضد خصومه ومنافسيه، وأن يتجنّب عداءهم في الوقت ذاته.(٣٠) وكان السلاجقة قد انتزعوا معظم فلسطين من الدولة الفاطمية قُبيل الاجتياح الصليبي، وتولاّها اثنان من قوّادهم هما سقمان بن أرتق وأخوه إيلغازي، وجعلا من القدس عاصمة لهما. فلمّا هُزم السلاجقة بقيادة قوام الدولة قربوغا في معركة أنطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م، سارع الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي إلى إرسال جيش إلى فلسطين، فاحتلّها كلها وجعل الحدّ الأعلى للدولة الفاطمية شمالي بيروت بقليل. ولم يستطع استعادة القدس إلا بعد أن رمى أسوارها بالمنجنيق فهدم جانبا منها،(٣١) ووجدها الصليبيون على هذه الحال حين حاصروها واقتحموها في السنة التالية. فلمّا دخلوا القدس وأعملوا في أهلها السيف كتب إلى زعمائهم موبّخا على المجازر التي ارتكبوها في المدينة.(٣٢) وكان قد جاء من مصر ومعه بعض الجنود المصريين، وعسكر خارج عسقلان تحسّبا لهجوم على المدينة التي أصبحت الآن تشكّل الخط الدفاعي الأول عن مصر ذاتها. وردّ الزعماء الصليبيون عليه بالتعنيف والتخويف، وتبعوا رسله حتى وصلوا إلى مقربة من مخيّمه، ثم اشتبكوا مع جنوده وأفنوا عددا كبيرا منهم، فهرب الأفضل وبعض جنوده واحتمى داخل

---

(٣٠) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. I, pp. 325-326.

(٣١) المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢.

(٣٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٤.

أسوار المدينة. ويذكر المقريزي أن بعض جنوده ممّن لم يستطيعوا الاحتماء داخل الأسوار تعلّقوا بأشجار الجمّيز الباسقة المنتشرة حول المدينة، فأشعل الفرنج النار بهذه الأشجار واحترقت بمن فيها.(٣٣)

وتقدم الفرنج إلى عسقلان وحاصروها، ولكن المدينة هبّت للدفاع عن نفسها، وتكبدت في القتال خسائر باهظة وصفها ابن القلانسي بقوله: «فأتى القتل على الراجل والمطّوعة وأهل البلد»، وكان سكانها آنذاك زهاء عشرة آلاف نفس فاستشهد نحو ألفين وخمسمئة «من شهودها وتُنّائها وتجارها وأحداثها.»(٣٤) ويظهر من هذا الوصف أن جميع أبناء المدينة، على اختلاف فئاتهم وأعمارهم، قد ساهموا في الدفاع عنها، صامدين بكل ثبات. ولكنهم، عندما رأوا قدراتهم تتراجع أمام الخسائر الرهيبة في الأنفُس، فكّروا في القيام باستسلام مشروط، فاتصلوا بريموند الصنجيلي عارضين تسليم مدينتهم إليه، واختاروه لأنه كان قد أبقى على بعض المصريين الذين كانوا في القدس خلال احتلالها، وسمح لهم بالسير إلى عسقلان لقاء مبلغ من المال، واشترطوا عليه إعطاء حق المرور الآمن لكل من أراد التوجه إلى مصر من سكان المدينة، وعرضوا أن يدفعوا جزية سنوية مقدارها عشرون ألف دينار.(٣٥) ولقد جاءت هذه المبادرة بنتائج إيجابية، ربما لم تكن متوقعة، وعجلت في النهاية بانسحاب الصليبيين وفك حصارهم عن عسقلان. إذ إن ريموند وافق في الحال على هذا العرض، ولكن غودفري أول حاكم فرنجي للقدس منعه من قبوله.(٣٦) وربما كان هذا المنع راجعا إلى المنافسات التي نشأت بين الصليبيين في شأن الغنائم، وإلى بداية التباين بينهم فيما يتعلق بسياسات التعامل مع السكان. ومن الجائز أيضا أن تكون المقاومة الضارية قد كبّدتهم خسائر ذات بال، الأمر الذي جعلهم يفضّلون ترك عسقلان أملا بفرصة أفضل لاحتلالها. وهكذا، فقد نجت المدينة من دون أن تدفع إلى الصليبيين شيئا من المال.(٣٧) وقد توطّدت بنتيجة هذا

---

(٣٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٤؛ ابن ميسّر، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

(٣٤) ابن القلانسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣؛ المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤.

(٣٥) ابن القلانسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣؛ المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤.

(٣٦) يشير جون ريشارد إلى أن ريموند وافق على تسلُّم عسقلان من سلطاتها. ليخطّ لنفسه إمارة فيها وحولها. ولكن عندما تصدّى له جودفري انسحب بعد أنْ أرسل للسلطات فيها رسالة يقول لهم فيها: دافعوا عن مدينتكم.

Jean Richard, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, tr. by J. Shirly (Amsterdam: North Holland publishing Co., 1979), p. 20.

(٣٧) Richard, *op.cit.*, p. 20.

للمزيد من المعلومات: ابن القلانسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣؛ المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤.

النجاح روح الصمود فيها، وتراصّت صفوف أبنائها، واكتسبت ثقة بالنفس تبدّت طوال نضالها الذي استمر أكثر من نصف قرن بعد هذه المحاولة. وأما الوزير الفاطمي الأفضل فقد تلقّى من الصليبيين الدرس الذي يستحقه من جراء تأرجحه بين ممالأتهم ضد باقي المسلمين، وبين مواجهتهم دفاعا عن بلاد ومدن تابعة لمصر، وعاد مقهورا إلى القاهرة بعد أن فقد الكثيرين من جنوده وأمواله، وعمل على تغطية هزيمته بحملة إعلامية ألقت اللوم على جنوده ـ قائلا إنّ بعضهم ثار ضده، وتآمر للفتك به ـ وعلى حكّام مسلمين غيره تخاذلوا عن حماية البلاد. وكان الشعراء، بطبيعة الحال، هم الوسائط التي أطلقت هذه الحملة، وتجادلت في شأنها.

وقد عبّر الشاعر أبو الصلت أمية ـ وهو واحد من شعرائه ـ عن وجهة نظره الاعتذارية هذه بقوله:

جرّدتَ للدّين والأسيافُ مُغْمَدَةٌ سيفاً تُفَلُّ به الأحداثُ والغِيَرُ

* * *

وإن همُ «نكصوا» يوما فلا عجبٌ قد يَكْهَمُ السيفُ وهو الصارمُ الذَّكَرُ
العَوْدُ أحمدُ والأيامُ ضامنةٌ عُقبى النجاحِ ووعدُ الله ينتظرُ
وربما ساءت الأقدار ثم جرتْ بما يسرُّك ساعاتٌ لها أُخَرُ[٣٨]

إلا أن شاعرا آخر ـ كان قد التجأ إلى الفرنج ـ وصف تلك المنازلة بقوله:

وما سمِعَ الناسُ فيما رَوَوْهُ بأقبحَ من «كسرة» الأفضلِ[٣٩]

وسواء أكانت تلك المعركة «نكصة» أم «كسرة»، فقد كانت آخر موقعة شارك فيها الأفضل بنفسه ضد الفرنج. ولكنه لم يتخلّ مع ذلك عن واجب مصر في الدفاع عن المدينة، باعتبارها قلعة أمامية للدفاع عن مصر التي ستصبح عاجلا أو آجلا هدفا للصليبيين أنفسهم بوصفها دولة إسلامية. ولذلك، فقد آزر عسقلان في صدّ هجوم صليبي ثانٍ تعرضت له سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠ ـ ١١٠١م. لكنه أدرك بعد ذلك أن مصر لا تستطيع مواجهة هذه الهجمات المتكررة بمفردها طويلا، فاتصل عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م بأتابك دمشق طغتكين، طالبا منه المساعدة في حماية عسقلان، بجهد مصري شامي مشترك. وكانت تلك أول محاولة لتطبيق منهاج دفاعي متسع يتجاوز المدينة الواحدة والبلد الواحد. وقد استجاب طغتكين للطلب فقام الأفضل من جانب مصر بتجهيز حملة

---

(٣٨) محمد كامل حسين، «في أدب مصر الفاطمية» (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٣)، ص٢٦٧.
(٣٩) المصدر نفسه.

من العربان، وأنفق عليها بسخاء، وأمّر عليها ابنه شرف المعالي، وأرسل طغتكين من جانب الشام مجموعة من الفرسان جُلّهم من الأتراك. وقدّر المقريزي عدد القوات المصرية بخمسة آلاف، وعدد القوات الشامية بألف وثلاثمئة.(٤٠) وقد تلاقت هذه القوات بالقرب من عسقلان، والتحمت مع قوات الفرنج - بقيادة الملك بلدوين الأول - في بعض المعارك بين يافا وعسقلان. وتكبّدت القوات الإسلامية في هذه المعارك زهاء ألف قتيل، بينما تكبد الفرنج نحو ألف ومئتي قتيل. وانتهى السجال القتالي بتراجع الجميع عن ساحات القتال.(٤١) وأخذت التظاهرات العسكرية والمناورات السياسية بعد ذلك مكان المجابهات القتالية. وعمد الصليبيون إلى أسلوب الإغارة، فقام الملك بلدوين الأول بغارة خارج أسوار المدينة سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، وظن حاكمها شمس الخلافة أسد أنه يستطيع أن يأمن شر بلدوين ويهادنه، فاتفق معه على دفع جزية له في مقابل عزوفه عن الإغارة على عسقلان. واعتبر الأفضل أن هذا الاتفاق سيؤدي إلى إلقاء عسقلان في أحضان الصليبيين وانتقالها إلى سيطرتهم، فأرسل بعض جيشه لتأديب حاكمها شمس الخلافة، الذي سرعان ما استنجد بالملك بلدوين وطلب منه إمداده بالرجال، ووعد بتسليم المدينة إليه لقاء ثمن ملائم. وجرت مناورات ومناوشات كثيرة بين الجند المصريين وشمس الخلافة، حسمها أهل المدينة بأن تآمروا عليه واغتالوه وأرسلوا رأسه إلى الأفضل،(٤٢) معلنين بذلك تمسكهم بالانتماء الإسلامي واستمرار الصمود والجهاد، والالتجاء إلى مصر في الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وتوحيد مقدّراتهم مع حاجات أمن مصر وسلامتها.

وقد تجاوبت مصر مع هذه البادرة المصيرية، على الرغم من التدهور الكبير الذي طرأ على الخلافة الفاطمية وأضعفها. وبلغ التجاوب ذروته في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م) الذي كان هو نفسه عسقلاني المولد، وربما شعر بسبب ذلك بمسؤولية خاصة تجاه المدينة، وتقدير خاص لولاء أهلها ووفائهم لمصر. ويذكر المقريزي أن الحافظ كان يُخرج كل ستة أشهر عسكرا من القاهرة إلى عسقلان تقويةً لمن فيها من المركزية والكنانية. وكان يجعل على كل مئة فارس أميرا (مقدَّما) وعلى رأسهم أميرا يكون أمير المقدَّمين، وتُسلم إليه الخريطة التي تتضمَّن أوراق العرض ليتّفق مع والي عسقلان على عرض العسكر بمقتضاها.(٤٣)

---

(٤٠) المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٥.

(٤١) ابن ميسّر، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥؛ المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٥.

(٤٢) المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٦؛ ابن القلانسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٢.

(٤٣) المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ١٩٠.

كذلك أظهر وزير الحافظ رضوان بن ولخشي (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) الذي تولّى الوزارة سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م اهتماما كبيرا بعسقلان وتعلّقا شخصيا بها، وربما كان له دافع إلى ذلك، مثل الخليفة الحافظ نفسه إذ كان قد وُلّي عسقلان قبل تولّيه الوزارة، سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م، فاهتم بتحصينها وتزويدها بالآلات والعُدَد، بل أعلن أنه سيذهب بنفسه للدفاع عنها. ولكنه ذهب ضحية المؤامرات المحيطة بمنصب الوزارة.[٤٤] ولم يكن الفتور الذي تلا وفاته إلا موقتا، إذ عاد الاهتمام في زمن ابن السلار، الوزير السني (ت محرم ٥٤٨هـ الموافق شباط/ فبراير ١١٥٣م) الذي جدّد محاولة إشراك دمشق في الدفاع عن عسقلان، فأرسل أسامة بن منقذ، الشاعر الشامي المقيم في مصر، رسولا إلى نور الدين الذي كان يحاصر دمشق آنذاك، مقترحا عليه خطة تقوم على إشغال الصليبيين على جبهتين، فيرسل نور الدين قوة إلى طبريا لمنازلتهم فيها، واجتذاب جانب من قواتهم إليها، بينما يقوم هو - ابن السلار - بإرسال قوة مصرية إلى غزّة لتخريب سور كان الصليبيون قد بدأوا ببنائه لفرض حصار على عسقلان. وعرض على نور الدين أن يساهم في تمويل التحرك الشامي. واقترح عليه، في حال الاعتذار، أن يشارك في الخطة البديلة بأن يأذن لأسامة بن منقذ في تجنيد المتطوعة من أهل الشام، لينضمّ بهم إلى المدافعين عن المدينة. واختار نور الدين الخطة البديلة، فجند أسامة بن منقذ ثمانمئة وستين فارسا وقصد بهم إلى عسقلان، وأرسل معه نور الدين قوة رمزية تتألف من ثلاثين فارسا جعل على رأسهم عين الدولة ياروق الياروقي، ليؤكد مساندته لصمود المدينة. وقد نازلت هذه القوة الفرنج، وقامت بغارات على مواقعهم في بيت جبرين ويبنة، وانضمت إلى المدافعين عن المدينة في عسقلان. وعندما دعا ابن السلار أسامة إلى العودة إلى مصر، أحلّ أسامة أخاه عز الدين مكانه في عسقلان، فاستشهد في إحدى الغارات على غزّة.[٤٥] وتشكل هذه الأحداث - التي ربما تكون قد وقعت سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م - جزءا من حرب استنزاف كانت القوات المصرية تقوم بها ضد الصليبيين في البر والبحر. ويذكر المقريزي، مثلا، أن ابن السلار أرسل المراكب البحرية وسيّرها إلى يافا فأوقعت بالصليبيين، غير أن أيا من الخصمين الإسلامي والصليبي لم يكن قد تأهّب بعد لخوض معركة شاملة حاسمة، بل انصرف همّهما إلى الإعداد لتلك المعركة التي أخذ موعدها بالاقتراب.[٤٦]

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٤٥) أسامة بن منقذ، «كتاب الاعتبار»، تحرير فيليب حتّي (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠)، ص ١٥ - ١٨.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٥ - ١٨؛ المقريزي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٢.

وماذا كان أمر مدينة عسقلان ذاتها. ماذا كان دور سكانها في تلك المنازلات الدائرة حول مدينتهم، والتي كان الصليبيون يرمون من ورائها إلى إضعاف دفاعاتها تمهيدا للهجوم عليها واقتحامها؟

لم يكن أهل المدينة مجرّد متفرجين على ما يجري بشأن مصيرهم. غير أنهم كانوا يعلمون منذ البداية أن الأمر يتجاوز قدراتهم، فما بلدتهم إلا مدينة واحدة وسط حرب ضارية تقف خلفها قارة بأسرها، تحت راية صليبية واحدة لا يمكن في النهاية مجابهتها إلا إذا نازلها عالم المسلمين في صف واحد، وتحت راية واحدة.

ومع ذلك فقد انصرفت مدينة عسقلان إلى ما كانت تستطيع أن تقوم به في هذه الحرب الضروس، وأخذت الآن تصقل قدراتها، وتُعدّ نفسها ليوم لا ريب فيه، هو يوم الدفاع في وجه هجوم صليبي مصمِّم على احتلال المدينة والقضاء النهائي عليها.

(ج) الملحمة

كان سكان عسقلان، عشية وقوع الهجوم الفرنجي على الديار المقدّسة، من المنتسبين إلى قبيلتي بني لخم وكنانة.(٤٧) ولقد جاء توطّن هؤلاء فيها في إطار النهج الإسلامي بإقامة الثغور على السواحل وعند الحدود، وملئها بالحاميات السكانية، لا بمجرّد الجنود، لتكون أكثر اعتمادا على الموارد المحلية، وأقل تكلفة للدولة المركزية. وقد حُوِّلت عسقلان إلى ثغر منذ أوائل الفتح الإسلامي. ومن هنا فإن الروح العسكرية، والتهيؤ القتالي، وإرادة الصمود والدفاع، والاستعداد للبذل والتضحية، كانت كلها من المكوِّنات التي بُنيت المدينة عليها. إذ إن أية مدينة لا تتألف من مجرد الحجارة والمساكن والأنشطة والوظائف ومشاغل الحياة اليومية، بل إن لكل مدينة روحا مكتسبة من أوضاعها ومن استعداد سكانها للتآلف مع تلك الأوضاع. ولئن تعودت عسقلان أن تتوقّع الخطر طافيا من الغرب، فهي تواجهه اليوم زاحفا من الشرق، فلا يختلط الأمر عليها ولا تهن إرادتها، ولا تفلّ عزيمتها.

لقد وقفت عسقلان وقفتها الأولى أمام الفرنج سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م وهي سنة وصولهم إلى بيت المقدس، وسقط ربع سكانها ـ البالغ عددهم عشرة آلاف ـ شهداء في تلك الوقفة. وتحقق هذا الصمود بالموارد المتاحة للمدينة، بعد أن هُزمت القوة المصرية التي عسكرت خارجها بقيادة الوزير الأفضل. وقطعت المدينة على نفسها أوهام الاستسلام عندما ثارت على حاكمها شمس الخلافة أسد سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، وقتلته،

(٤٧) مصطفى الدبّاغ، «القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين» (بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦)، ص ١٨٦.

ولم يبقَ أمامها بعد ذلك سوى الصدق والصبر. ولم يقض أبناؤها أوقاتهم بالتفرّج على ما يجري من قتال، خارج المدينة، وإنما ساهموا في غارات الاستنزاف التي خاضتها القوات المصرية والشامية، ودأبوا إلى جانب ذلك على شنّ الهجمات الفردية والجماعية على الفرنج المجاورين لهم، وعلى نصب الكمائن للقادمين منهم بدعوى الحج أو الاستيطان، فنشروا بينهم الخوف، ورروحا من عدم الاستقرار، ولا سيّما في الأعوام الأولى من قدومهم، حين كانت أعدادهم بعدُ قليلة.[٤٨]

غير أن أوضاع المدينة تعقّدت منذ سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، إذ التجأ عدد كبير من أهالي المدن الساحلية مثل يافا وجنوبها، والمدن الداخلية كالرملة وبيسان، إلى عسقلان،[٤٩] واحتمى بأسوارها، فضيّق عليها أوضاع العيش ولا سيّما أن الفرنج كانوا يفرضون حصارا من حولها. وكان للإدارة المصرية الفاطمية وقفة رشيدة وكريمة إزاء هذا الوضع، إذ أدركت منذ البداية أن عسقلان قد أصبحت الآن تشكل خط الدفاع الأول عن مصر ذاتها.[٥٠] ويذكر المؤرخ اللاتيني وليم الصُّوريّ أن الحكومة الفاطمية كانت تدفع معاشات لكل أفراد المدينة، حتى الأطفال منهم، ويعلل ذلك بأنه يعكس سياسة تشجيع للسكان على البقاء في المدينة والدفاع عنها خوفا من سقوطها في يد الفرنج، وما قد يتلو ذلك من زحف على مصر ذاتها. ويرسم لنا المقريزي صورة لحجم المعونة المصرية، فيذكر في سياق حوادث سنة ١١٢٣م مثلا: «حُمل إلى عسقلان ثلاثة وعشرون ألفا وستمئة وواحد وثلاثون أردبا من الغلال.»[٥١] وقد كان الطريق البحري بين مصر وعسقلان شريانا مهمّا للمدينة فوّت على الصليبيين جانبا من آثار الحصار البري الذي ضربوه حولها، وظل هذا الطريق متاحا ما دام الأسطول الفاطمي قادرا على توفير قدر من الحماية له.

بذلك أمكن دمج اللاجئين في حياة المدينة وفي المجهود الدفاعي عنها، بل في صقل شخصيتها وتوسيع آفاقها واتصالاتها، وفي إغناء حياتها الثقافية، وتطوير المهارات السياسية والإعلامية والإدارية لدى سكانها، الأمر الذي مكّنهم من أن ينقلوا قضيتهم إلى العُمق المصري، ويجعلوها قضية السياسة المصرية بأعلى مستوياتها، بل يساهموا في

(٤٨) Saewulf, *The Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem and the Holy Land*, ed. C.W. Wilson (London: Palestine Pilgrims' Text Society, 1895), p. 8.

(٤٩) Dajani-Shakeel, *op.cit.*, pp. 150-160.

(٥٠) William of Tyre, *op.cit.* Vol. II, pp. 220.

(٥١) المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ١٠٦.

إحداث تغيّرات فكرية وإدارية في مصر، جعلت هذا القطر الإسلامي العظيم أقدر على أداء رسالته الدفاعية والحضارية والروحية.

وتابعت مصر بانتظام إرسال الأبدال العسكرية مرتين في السنة إلى عسقلان. ولكن الخلافة الفاطمية تضعضعت بعد وفاة الخليفة الحافظ (ت جمادى الآخرة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، واندفعت في طريق التدهور السريع. إذ ولي الخلافة بعده الظافر (ت ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)، وعمره سبعة عشر عاما، وفي عهده سقطت عسقلان. وقد عُرف عنه حبه للعب والغناء، وانصرافه إلى اللهو مع الجواري، وانحرافه الخُلقي.(٥٢)

في فترة التدهور العظيم هذه بدأ الصليبيون بتضييق الخناق على عسقلان، فنازلوها سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٢م، ولكن حُماة المدينة من جند البَدَل المصريين وسكانها استطاعوا الصمود. وكان الوزير العادل ابن السلار يدبّر الأمر ويتابع شؤون الدفاع عن عسقلان بالسياسة والحرب، متقرّبا من نور الدين في دمشق، ومجهّزا الغارات على الفرنج، وراصدا تحركاتهم ونياتهم، ومتيقّظا لإحباط استعداداتهم، كما شاهدنا في تنظيمه لمهمّة أسامة بن منقذ مع نور الدين، بهدف هدم السور الذي كان الفرنج يبنونه لمهاجمة المدينة. وفي سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، سيّر عسكر البَدَل لحفظ ثغر عسقلان، وجعل على رأسه ابن زوجته ركن الدين المظفّر أبا منصور عباس بن تميم، وراح يجهّز القوات البحرية لإرسالها إلى عسقلان لتلحق بقوات عباس وتلتقي بها في بلبيس.(٥٣)

ويرسم لنا المقريزي في حوادث سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م صورة مفجعة لما حدث بعد ذلك، إذ خرج عباس بن تميم مصطحبا معه ابنه ناصر الدين (نصر) الذي كان صديقا للخليفة الظافر ورفيقا له في اللهو والعبث، وأسامة بن منقذ وعددا من الأمراء، وعند وصول القوة إلى بلبيس وهي نقطة لقاء القوات البريّة والبحرية الموجهة إلى عسقلان «تذكر عباس وأسامة مصر وطيبها، وما هم خارجون إليه من مقاساة السفر ولقاء العدو، فتأوه عباس أسفا على مفارقته لذّاته بمصر وأخذ يلوم العادل (ابن السلار) ويثرّب عليه من أجل كونه أخرجه، فقال له أسامة: لو أردت كنت أنت سلطان مصر. فقال له وكيف لي بذلك؟ فقال هذا ولدك ناصر الدين بينه وبين الخليفة مودة عظيمة، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر (وزيرها) موضع عمك (ابن السلار) فإنه يحبك ويكره عمك، فإذا أجابك فاقتل عمك. فوقع هذا الكلام من عباس بموقع وقبله، واستدعى ابنه وأسرّ

---

(٥٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٩. للمزيد من المعلومات: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، «كنز الدُرر وجامع الغُرَر»، تحقيق صلاح الدين المنجّد (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦١)، ج ٦، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

(٥٣) المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

إليه بما تقرر بينه وبين أسامة، وسيّره سرا إلى القاهرة.»[٥٤] وتوجه نصر إلى القاهرة متربّصا بابن السلار الذي ما كاد يعود إلى بيته، بعد أن فرغ من تجهيز الحملة البحرية المعدّة للتوجه إلى عسقلان، حتى هاجمه نصر وقتله بمساعدة بعض خدمه.[٥٥] وعندما علم الخليفة بما حدث، أرسل نصرا إلى أبيه عباس يستدعيه إلى القاهرة. ولكن عباس كان قد استبق الدعوة مترقّبا نتائج مؤامرته على ابن السلار، وشرع في رحلة العودة قبل استلام الدعوة، ودخل القاهرة في اليوم التالي لمقتل العادل ابن السلار. وبنجاح هذه المؤامرة الانقلابية اعتلى عباس منصب الوزراة ولُقِّبَ بالأفضل ركن الإسلام، وكان أول ما قام به من عمل أن «بَطّلَ سير العساكر إلى عسقلان» كما يقول المقريزي، أي أوقف البدل الذي كان مقررا أن يقوده برا إلى عسقلان.[٥٦] ويبدو أن دور مصر في الدفاع عن المدينة اقتصر بعد ذلك على مدّها بالزاد والعدة من البحر. وأصبح العبء القتالي مُلقى كله تقريبا على عاتق أهلها.

وبينما كانت هذه الأحداث تقع في مصر، كانت أحداث أُخرى تقع في الجانب الصليبي، وفي إطار المملكة اللاتينية لتجعل من احتلالهم لعسقلان هدفا مُلحّا وحيويا. إذ إن الحملة الصليبية الثانية، التي اشترك فيها عدد من كبار الملوك في أوروبا، مثل الإمبراطور كونراد الثالث ملك ألمانيا والملك لويس السابع ملك فرنسا، أخفقت في احتلال دمشق، التي انبرت لاحتلالها بمشاركة من الحكام اللاتين في بلاد الشام، من أجل تأمين التخوم الشرقية للمملكة اللاتينية.[٥٧] بل إنه تبع هذا الفشل ظهور نور الدين زنكي على المسرح الشامي فأخذ يُشاغل الفرنج ويُضيّق عليهم، ويسترد الأراضي منهم. فآثروا تحويل ثقل قوّاتهم إلى مصر، تأمينا لحدودهم الجنوبية، وطمعا في ثروة مصر أن تصبح عونا لهم على تغطية نفقات قواتهم المقاتلة وحاجاتهم المالية. فأصبح احتلال عسقلان أمرا لا غنى عنه لتحقيق هذا الاندفاع الجنوبي. وبينما كانوا ينازلون عسقلان في تشرين الثاني(نوفمبر) ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م تعرّضوا لهجوم برّي جاء عبر نهر الأردن، وقُطع الطريق بين القدس وأريحا. ولكنهم نجحوا في صدّ هذا الهجوم في تشرين الثاني (نوفمبر) ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، فأمنوا بذلك مؤخرتهم من الشرق، وجمعوا كل قوات المملكة اللاتينية واتجهوا بها غربا نحو عسقلان.[٥٨]

---

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٥٧) Hans Eberhard Mayer, *The Crusades*, tr. by John Gillingham (Oxford: Oxford University press, 1981), pp. 103-109.

(٥٨) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 216.

ويصف لنا المؤرّخ وليم الصُّوريّ هذا الاندفاع وكيف ابتدأ الصليبيون بتخريب البساتين والمحاصيل سعيا لتجويع المدينة. ثم قرروا فرض حصار بحري عليها، ليمنعوا وصول الزاد والمؤن من مصر. وبدأوا يشنون هجماتهم يوميا عليها، ولكن أهل المدينة كانوا لهم بالمرصاد يدافعون عن مدينتهم الجيدة التحصين بشجاعة بحسب ما يقول هذا المؤرّخ. ويصف لنا كيف أن أهل المدينة كانوا يتناوبون الأدوار في حراسة المدينة ليلا ونهارا، بمشاركة من قادة المدينة، من دون كلل أو تراخ. وعجزت قوات المملكة اللاتينية بعد شهرين من الحصار عن اقتحام المدينة. وصادف أن أهلت فترة الحج المسيحي في عيد الفصح، وتوافد الحجاج المسيحيون من كل أوروبا، فارتأى الملك بولدوين الثالث أن يشركهم في القتال ضد المدينة، وعرض أن يدفع لهم أجورا لقاء انضمامهم إلى قواته فوافقوا على ذلك،[٥٩] وازداد عدد جنده بينما كان جند المدينة يتناقصون باستشهاد بعضهم وإصابة البعض الآخر. وبدأت المدينة تحسّ بنقص المؤن، بعد أن فقدت مصادرها الخاصة. وبدأت المعنويات تتراجع بعدما وصلت إلى علم المدافعين أنباء مقتل ابن السلار وإبطال البَدَل العسكري، واستغلّ الصليبيون هذه الأنباء في تسعير الحرب النفسية، إذ أخذوا يقولون لأهلها ـ بحسب ما يروي المقريزي ـ «لقد قتله ابنه (ابن زوجته) وأنتم تقاتلون لمن؟ فلما صح الخبر لهم وهنوا لانقطاع المدد عنهم حتى أخذها الفرنج وتقوّوا بأخذها.»[٦٠] إلا إنه يبدو أن الحملة البحرية التي ربما كان ابن السلار مشغولا بتجهيزها عند مقتله، استطاعت شقّ الحصار البحري والوصول إلى عسقلان، إذ يذكر وليم الصُّوريّ أنه بعد مضيّ خمسة أشهر على حصار المدينة وصل أسطول مصري من سبعين مركبا يحمل الزاد والمعونة الحربية إلى أهل المدينة.[٦١] غير أن هذا المدد أتى متأخرا فلم يستطع تغيير الموقف. إذ بعدما بذل أهل عسقلان التضحيات الكبيرة، وأوقعوا في صفوف الصليبيين الكثير من القتلى، أخذوا يحسّون آثار النزف أمام هجوم لم يعد مقتصرا على قوات المملكة اللاتينية، بل شارك فيه جند من كل أوروبا. وهنا قرّر أهل عسقلان الاستسلام، وطلبوا هدنة من الفرنج لدفن ضحاياهم وللمفاوضة بشأن تسليم المدينة.[٦٢] وكان الملك بلدوين مع المقاتلين، فقبل التفاوض معهم، واستقبل وفدهم المفاوض، ووافق على شروطهم،

---

(٥٩) *Ibid.*, Vol. II, pp. 217-223.

(٦٠) المقريزي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٠٦.

(٦١) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 230.

(٦٢) *Ibid.*

أنظر أيضا: ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٣٩٢.

ومنحهم مهلة ثلاثة أيام للخروج من المدينة. ولكنهم أكملوا الجلاء في يومين - بحسب ما يقول وليم - وأرسل معهم، بحسب الاتفاق، أدلّاء من الإفرنج أوصلوهم إلى العريش. ودخل الفرنج عسقلان في ١٢ آب (أغسطس) ١١٥٤ م.(٦٣)

وحين دخل الفرنج عسقلان كان أول ما فعلوه أن رفعوا الصليب على جامعها. وقد منحت عسقلان لأموري - كونت يافا - أخي الملك بلدوين الثاني، الذي خلفه بالملك في إثر وفاته سنة ١١٦٢م فأصبح ملكا للمملكة اللاتينية.(٦٤) وفي عهده أصبح التطلع إلى الهيمنة على مصر محور السياسة الصليبية. ولقد حلّ الفرنج محل سكانها، كما أسكن الفرنج فيها بعض المسيحيين الشرقيين. ومع مرور الوقت عاد بعض المسلمين للسكن فيها.(٦٥)

وظلّت عسقلان في يد الفرنج حتى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، عندما استردها صلاح الدين. وحين تهادن صلاح الدين وريتشارد بعد ذلك، فإنه قام بهدم أسوار عسقلان وغزّة طبقا لاتفاقهما لتصبح بذلك منطقة «منزوعة السلاح» في عُرف هذه الأيام.(٦٦) وأصبحت مع الأيام مجرد اسم تاريخي. ونشأت على مقربة منها مدينة المجدل العربية التي ظلّت حتى سقوطها سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٨م تمارس الأنشطة الاقتصادية التي مارستها عسقلان من قبل، بما في ذلك زراعة البساتين، وصناعة المنسوجات - ولا سيّما الحريرية - بالنول اليدوي. وتقع إلى الشرق منها قرية الفالوجة، وإلى الجنوب مدن قطاع غزّة التي شهدت سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٨م معارك بطولية بين القوات المصرية وقوات الغزو والاحتلال الإسرائيلي، استطاعت القوات المصرية بنتيجتها أن تحافظ على قطاع غزة. وأنشأت الإدارة المصرية فيه بعد ذلك قوة عسكرية صغيرة من السكان الفلسطينيين، قامت بدور مهمّ في حرب ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، إذ خاضت معارك رفح وغزّة، وفي حرب ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م إذ خاضت معركة خان يونس. ولكن انسحاب القوات المصرية من القطاع ومن سيناء سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، أتاح لإسرائيل أخيرا احتلال القطاع الذي ما زال يناضل منذ ذلك الحين للتحرّر من هذا الاحتلال بالقتال المسلّح حينا (١٣٨٧ - ١٣٨٩هـ / ١٩٦٧ - ١٩٦٩م)، وبالحجارة حينا آخر.

---

(٦٣) William of Tyre, *op.cit.*, p. 232.

(٦٤) *Ibid.*, p. 232.

(٦٥) Meron Benveniste, *The Crusaders in the Holy Land* (Jerusalem: Israel Universities press, 1970), p. 116.

(٦٦) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(د) الإنسان: القاضي الفاضل وعسقلان

تتألف الظروف الخارجية التي تشكل «قدر» الإنسان، من الموقع الذي يعيش فيه، بكامل نطاق معانيه الطبيعية والمجتمعية، من الظرف التاريخي الذي يعاصره، بكامل نطاق أحداثه، ورجالاته، وفرصه، ولزومياته، وحرّياته، وحتمياته، ومن البيئة الخاصة التي يولد فيها ولها، ويترعرع في أحضانها، بما تتيحه له من عناصر وراثية، ومن خبرات وقيم وتطلعات يتعرّض لها ويتأثّر بها. ويشقّ الإنسان طريقه في الحياة وسط هذه العلامات والمعالم والعوالم.

ولقد أحببنا أن نعطي ومضة عن الظرفين المكاني والزماني اللذين عاش القاضي الفاضل وسطهما، قبل أن نشرع في سيرته التي ستوضح تفاعله الفذّ مع تلك الظروف. ولا بدّ، قبل اختتام هذه الومضة المشهدية، من الإشارة إلى بعض معالم بيئته الخاصة ذات الأثر المهمّ في تكوينه.

فمن هذه المعالم اسمه الذي يتضمّن في وقت واحد معاني العمق الانتمائي المكاني، أو الجغرافي في حياته، ومعالم رحلة العمر؛ فهو القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، العسقلاني، فالمصري. فمدينة العائلة هي بيسان من أعمال غور نهر الأردن في فلسطين، ومنها أُخرج جدّه بفعل الحملة الصليبية الأولى. ومدينة اللجوء والاحتماء هي عسقلان على الساحل الفلسطيني. ونراه يسير في الحياة كأنه يحمل هاتين المدينتين على كتفيه، كلّا منهما على كتف. وتقع المدينتان في طرفي الامتداد الفلسطيني من الشرق إلى الغرب، أو من النهر (بيسان) إلى البحر (عسقلان)، في لغة هذه الأيام. ومن خلال التشبّث بالاسم يصبح المكان رمزا مستدخلا في الذات الإنسانية، ومعنى، وشوقا، ومحرّكا. فنراه لا يتخفف من اسمه القديم طرحا، أو تجنّبا، أو نبذا، بل يبقيه أمانة حُملها، ويضيف إليه اسما جديدا يشكل أمانة أُخرى. وتستقرّ رحلة العمر في مصر العظيمة فيحمل اسمها بعد أن يألفها ويأتلف معها، مؤمنا بدورها الإسلامي الكبير، ومؤدّيا واجبه ونصيبه في هذا الدور. ويقضي القاضي الفاضل عمره خادما لمصر، بنزاهة وإخلاص، ومدافعا عنها، وعالما باضطراب أوضاعها في عهد الخلافة الفاطمية، وعاملا على تصحيح تلك الأوضاع، من دون أن ينسى لحظة واحدة واجبه وواجب مصر لاسترداد عسقلان وبيسان، إذ من دون ذلك لا حريّة لمصر، ولا استقرار، ولا أمن، ولا مستقبل. ولا أمل لـ «عالم» يتعرض لغزو من «عالم» آخر، إلا بالنضال حتى النصر.

ومن هذه المعالم تعامل القاضي الفاضل مع نفسه. إذ عندما تتداخل الخيوط، وتضطرب الحظوظ، وتشتدّ حلكة الظلام، وتقصر الرؤية، وتختفي الطريق، وعندما ينهار عالم خاص ومجتمعي، بكل موارده وعلاقاته، وعندما يتبعثر الناس ـ كل في طريق

ـ وعندما يفقد كل إنسان سيطرته على كل عناصر حياته، ويجد نفسه وقد عاد إلى نقطة الصفر، فإن استئناف السير، والشروع في رحلة جديدة يبدآن في اكتشاف الذات الكامنة في الإنسان، وتسخيرها للتوضيح، والرؤية، والعمل، وتحديد الهدف وشحذ الإرادة، محافظة على جوهر النفس، وروحها، وكرامتها، حتى لا تضلّ إنسانيتها، بل لتعلو بها من جديد، من فوق كل ركام مادي ومعنوي، وصولا إلى مرتقى جديد للإنسان، ووطنه، ومجتمعه، وللإنسانية جمعاء.

ولقد أعدّ القاضي نفسه إعداد جادًا وجيدا للمهمّات التي حدّدها لنفسه، فتسلّح بالعلم المعروف في عصره وساعده في ذلك الجو العائلي، إذ كان أبوه وجدّه من «أهل العلم»الذين تقلّدوا المناصب العلمية في القضاء. ولا شك في أن هذا الجو الفقهي قد قوّى انتماءه إلى الإسلام تراثا وحضارة، فالتقى عنده الانتماء المكاني المتمثّل في الأرض والوطن، مع الانتماء الحضاريّ في التراث الإسلامي، لشحذ همّته من أجل استعادة الوطن و«العودة» إليه، لتنقية الجو التراثي بالعودة إلى السلفية والمنهج السني.

أخيرا، فإن القاضي الفاضل قد أظهر نبوغا وتفوّقا في مجال الإدارة حيث تقلد أعلى المناصب العامة، وأظهر الكفاءة العالية في إدارتها، متحلّيا بروح المسؤولية والنزاهة، وملتزما المبادىء وما يُمليه الضمير. ومن خلال كفاءته اتصل وتوصّل وارتقى ونال النفوذ، ووضع تلك الكفاءة في خدمة كل وظيفة أُسندت إليه. وكان قد حدّد لنفسه «رسالة» يستهدي بها، ويُثابر على تحقيقها، والتقت في حياته الوظيفة بالرسالة، والنجاح الخاص بالواجب العام.

ونكاد إذ نشهد هذا كله أن نتبينّ فيه رجلا من رجال هذا العصر إذا تساءلنا كيف حافظ الفلسطيني على كرامته، بعد أن فقد أرضا يقف عليها، ووطنا يعتاش فيه، ومجتمعا يتآلف معه؟ وكيف استطاع أن يحمل الأرض والوطن في قلبه، ويخوض مجالات العيش والرزق ويتفوق فيها، وأن يضع نجاحه الخاص في خدمة رسالته وقضيته؟

لقد استطاع ذلك كله من خلال صدقية نالها بشقّ النفس، وحافظ عليها، وارتقى بها. وما هي إلا صدقية العلم، والعمل الجادّ، والخُلُق الرفيع، والانتماء الثابت، والهدف الواضح، والرسالة الملتزمة.

كم من الناس سيرون في هذا الإنسان الفاضل مثلا يُقدر، ويُشكر، ويُحتذى. وعظماء الناس هم الذين يؤدون العمل الجليل في حياتهم، ويشكّلون النموذج الصالح والمُلهم لأجيال من بعدهم. رحم الله عبد الرحيم بن علي البيساني العسقلاني المصري، فهو النموذج الخالد للإنسان «الفلسطيني».

الفصل الثاني
السيرة

أولا: القاضي الفاضل
عبد الرحيم البيساني العسقلاني المصري
(٥٢٦ ـ ٥٩٦هـ / ١١٣١ ـ ١١٩٩م):

تقديم

«كان القاضي الفاضل رحمه الله هو الدولة الصلاحية، كان كاتبها ووزيرها، وصاحبها ومشيرها والحامل لكلها، والحاكم في كُلها، والمجهز لبعوثها، والمبرز عند اقعاء ليوثها، والدائرة به مناطق مبانيها، والسائرة به شموس أيامها ولياليها، فلهذا أذعنت لقلمه الرماح، وطلبت صلح كلمه الصفاح. إذا سافر كان هو المساير للسلطان إذا ركب، والمسامر إذا جلس، وكان إذا تأخر السلطان في بلد ناب عنه فيه، أو كان له ردءا لمن ينوب فيه من إخوة السلطان وبنيه، ويكون هو القائم بالمُلْك والقائل بالحياة والهُلك.»[1]

ولقد شهد صلاح الدين بدور القاضي الفكري والإداري البارز في استرداد الأراضي المقدسة وفي تأثيره فيه وفي حكمه في قوله المأثور:

«لا تظنوا أني فتحت البلاد بالسيوف، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل.»[2]

وشهد المؤرخون بدور القاضي الفاضل في الجهاد، وبوقوفه إلى جانب صلاح الدين وآله موقف إخلاص وصدق طوال حياته، وقرن بعضهم اسم صلاح الدين باسمه، تأكيدا لأهمية دوره الإداري والفكري في عهد صلاح الدين.

---

(١) أحمد أحمد بدوي، «القاضي الفاضل: دراسة ونماذج» (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٦٧)، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) سبط ابن الجوزي، «مرآة الزمان»، تحقيق ريتشارد جويت (شيكاغو: جامعة شيكاغو، ١٩٠٧)، ج ٨، ص ٣٠٤.

وأطلق هؤلاء المؤرخون على القاضي الفاضل لقبين يمثّلان دوره في دولة صلاح الدين، فأشار البعض إليه بمحيي الدين، والبعض الآخر بمجير الدين؛ فهو محيي الدين لأنه ساعد صلاح الدين في القضاء على الخلافة الفاطمية وإحياء السنّة في مصر؛ وهو مجير الدين لوقوفه إلى جانب صلاح الدين في تحرير الأراضي المقدسة، وإعادتها إلى حظيرة الإسلام.

وأما لقب «القاضي الفاضل» الذي غلب عليه، فلقب حصل عليه في مصر لعمله في الإدارة المصرية؛ و«الفاضل» بصورة خاصة لقب له دلالة خُلقية تشير إلى مُثُل تحلّى وتميّز بها في أثناء عمله الإداري.

عمل القاضي الفاضل في مستهل حياته بالإدارة المصرية في الإسكندرية والقاهرة خلال الفترة الواقعة بين سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وسنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م. وما لبث أن تدرّج في مناصب عدّة إلى أن أصبح وزيرا مرموقا في دولة صلاح الدين في سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. ولو لم يصل إلى درجة متميّزة من المكانة والرفعة لما اهتم المؤرّخون والكتّاب بالإشارة إليه، ومتابعة حركاته وسكناته، ولما تناوله معاصروه من شعراء وعلماء بمختلف ردات الفعل من مدح أو هجاء، أو حتى بوصفه في قوالب تندريّة أو جديّة تعكس أكثر من جانب من شخصيته أو سيرته. وقد رأينا، في هذه المقدمة، أن نرسم صورة شاملة لهذه الشخصية الفذّة التي شغلت عصرها قرابة نصف قرن.

ثانيا: الصورة

«دخلنا عليه، فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب وهو يكتب ويملي على اثنين ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوّة حرصه على إخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملة أعضائه. وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه تعالى: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: أين جواب إذا؟ وأين جواب لو في قوله تعالى: ولو أن قرآنا سُيّرت به الجبال، وعن مسائل كثيرة، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والإملاء. وقال لي: ترجع إلى دمشق، وتجري عليك الجرايات: فقلت: أريد مصر، فقال: السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها، فقلت: لا بدّ لي من مصر. فكتب لي ورقة صغيرة إلى وكيله بها.

«فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله، وهو ابن سناء المُلك، وكان شيخا جليل القدر، نافذ الأمر، فأنزلني دارا قد أُزيحت عللها، وجاءني بدنانير وغلّة، ثم مضى إلى ارباب الدولة وقال: هذا ضيف القاضي الفاضل. فدرّت الهدايا والصلات من كل جانب. وكانت كل عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة القاضي الفاضل إلى مصر بمهمّات

الدولة وفيها فصل يؤكد الوصية بحقي.»[٣]

رسم هذه الصورة للقاضي الفاضل الطبيب موفق الدين البغدادي في مطلع سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، عندما زار مخيّمات صلاح الدين وعماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين ابن شداد والقاضي الفاضل في عكا في إثر سقوطها في يد الفرنج وذبح حاميتها مع بعض سكانها على يد ريتشارد ملك الإنكليز.

ومع أن موفق الدين البغدادي زار جميع أولئك المجاهدين والمفكّرين في يوم واحد، إلا إنه لم يتأثر بأي منهم كما تأثر بالقاضي الفاضل، الذي لم يمنحه إلا القليل من الوقت في أوضاع عصيبة كان يكتب فيها ويوجّه ويدبّر ويدير أمور دولة صلاح الدين عن قرب وعن بُعد.

هذه الصورة الحيّة تمثل القاضي الفاضل في العقد السادس من عمره، بعد أن قضى شوطا طويلا من حياته في الإدارة والسياسة والتنظيم والجهاد، شاهد خلالها سقوط عسقلان في يد الفرنج، ثم تحرير فلسطين منهم. كما رأى انكسار شوكة الفرنج بفضل جهود صلاح الدين بصورة خاصة، وجهوده مع غيره من العلماء والكتّاب بصورة عامة.

كان القاضي الفاضل عندما قابله موفق الدين البغدادي في ظاهر عكّا في خيمته المجاورة لخيمة صلاح الدين وبهاء الدين ابن شداد، قاضي عسكر صلاح الدين، وعماد الدين الأصفهاني،[٤] كاتب صلاح الدين، وهؤلاء الثلاثة من كبار مستشاري صلاح الدين. ولا تكتفي الصورة بالقاضي الفاضل ومسؤولياته في حلبة الجهاد فحسب، بل تتجاوز عكا إلى مصر، حيث بدأ القاضي الفاضل حياته العملية وتبوأ أعلى المناصب الإدارية، وخلّف عددا كبيرا من الكتّاب والإداريين الذين درّبهم على طريقته، وشبّعهم بآرائه وأفكاره وأسلوبه الكتابي، وضَمِنَ ولاءهم لصلاح الدين وله. وكان من أشهرهم الشاعر ابن سناء المُلك الذي يشير إليه موفق الدين البغدادي في تصويره للقاضي الفاضل. فقد درّب القاضي الفاضل ابن سناء المُلك منذ صغره على الكتابة، ووجه مواهبه الأدبية، وقرأ له الكثير من نظمه ونثره وموشحاته بعدما كبر مصحّحا وموجّها كتاباته إلى الجهاد، إلى جانب الموضوعات الأدبية الأخرى التي عالجها ابن سناء الملك، كما عيّنه نائبا له في مصر، اعترافا منه بموهبة تلميذه وتعبيرا عن ثقته به.[٥]

---

(٣) أحمد ابن أبي أُصيبعة، «عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء» (بيروت: دار الحياة، لا ت)، ص ٦٨٧؛ أيضا: موفق الدين عبد اللطيف البغدادي، «كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهَدَة والحوادث المعايَنة بأرض مصر»، تحقيق أحمد غسّان سبانو (دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٣)، ص ١٤٩.

(٤) ابن أبي أُصيبعة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٧.

(٥) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، «الوافي بالوفيات» (إستانبول: مطبعة الدولة، ١٩٣١ ـ ١٩٥٩)، ج ٢، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

وتمثّل لنا الصورة التي أوردها البغدادي اهتمام القاضي الفاضل بذوي العلم والمعرفة ورعايته لهم، ومدى نفوذه ودوره التوجيهي الثقافي في دولة صلاح الدين، كما تمثّل لنا أخيرا لا آخرا صورة الإنسان الفلسطيني المؤمن بقداسة قضية الأرض وربطها بوحدة بلاد الشام ومصر.

كان القاضي الفاضل مصدر عزم وقوّة لعدد كبير من الأدباء والمفكّرين في عصره، وحافزا لهم على العمل والإبداع، ومثالا لهم في الإخلاص والعمل والتواضُع، ولذا أشار عبد اللطيف البغدادي إلى بعض تلك الصفات بقوله: «إن القاضي الفاضل كان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، متقللا في مطعمه ومنكحه ولباسه، يلبس البياض، ولا يبلغ جميع ما عليه من ثياب دينارين، يركب معه غلام وركابي ولا يمكّن أحدا أن يصحبه، ويكثر لقي الجنائز وعيادة المرضى وزيارة القبور، وله معروف في السرّ والعلانية. ولم يكن له انتقام من أعدائه إلا بالإحسان إليهم والإعراض عنهم.»[٦]

ونرى في بساطة لباسه وعزوفه عن المظاهر، على الرغم من مكانته الرفيعة في الدولة - وكانت تهيِّىء له أرفع مظاهر الأبهة، لو أراد - نرى في ذلك صورة لتواضعه الجمّ وانكبابه على الجوهر من دون العَرَض، وتطلعه إلى العمل الباقي الأثر، وإيثاره للمسؤولية والتزامه متطلباتها.

كان كثير العبادة، مهتمّا بالأدب والكتب. وقد وصفه السبكي قائلا: «كان رحمه الله كثير العبادة والتلاوة يختم في كل يوم وليلة، كثير المطالعة والصدقة والصلة، سمع الحديث من جماعة، وبنى بالقاهرة إلى جانب داره مدرسة ومكتبا للأيتام، ووقف كتبه جميعها عليها، وكانت كتبا عظيمة يُقال إنها كانت تزيد على مئة ألف مجلد.»[٧]

كما وصفه عماد الدين الحنبلي بأنّه كان متصدّقا في الباطن، مهتمّا بأصحاب الفضائل ومشجّعا لهم، مُؤْثِرا أرباب البيوت وذوي النباهة، محبّا للغرباء، محسنا لأصدقائه وأعدائه. وقد علّق ابن قاضي شهبة على إحسانه وأعماله الخيرية بقوله: «كان للقاضي الفاضل بمصر ربع عظيم يؤجّر بمبلغ كبير، فلمّا عزم على الحجّ ركب ومرّ به ووقف وقال: اللّهمّ إنك تعلم أن هذا الربع ليس شيءٌ أحبَّ إليّ منه. اللّهمّ فاشهد أني وقفته على فكاك الأسرى.»[٨]

---

(٦) أبو البركات محمد بن أحمد، ابن إياس، «بدائع الزهور في وقائع الدهور» (القاهرة: مطبعة التقدُّم، ١٩٠١)، ج ١، ص ٧٥.

(٧) جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي، «طبقات الشافعية»، تحقيق عبد الله الجبّوري (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧١)، ج ٢، ص ٢٨٤.

(٨) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، «شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب» (القاهرة: دار الفكر، ١٩٧٩)، ج ٤، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

ونظرا إلى مكانته الرفيعة بين معاصريه، فقد كان مقصدا يتناوله الشعراء بالمديح إيمانا بمآثره أو تقرّبا وزلفى. فالشاعر المعروف ابن الساعاتي، المعاصر له، مدحه بقوله:

أَلِفَ التواضعَ في رفيع محلّه وكفاه كبر الشأن أن يتكبّرا

* * *

إذا مُغْفِلٌ في المُلك أعيا دواؤه به غدا حاسماً أسبابه حازماً طبّا
تحمّل عبء الملك مضطلعاً به وفاض على العافين كالبحر إذ عبّا[9]

هذا وقد مدحه شعراء عصره بصفات أخرى تميّز بها، مثل براعته في الكتابة، وكفاءته في الإدارة، وصواب رأيه وفطنته وفصاحته، كمدح عماد الدين الأصفهاني له بقوله:

مالكُ الحلِّ في الممالكِ والعَقْدِ وحُكْمِ التحليلِ والتحريمِ
مُغْمِلٌ للنَّفاذِ في كلِّ قطرٍ قَلَماً حاكماً على إقليمِ
يتلقّى الملوكُ في كل أرضٍ كُتْبَهُ القادماتِ بالتعظيمِ[10]

فالقاضي الفاضل، كما نلمس من هذه المدائح، كان قبلة لرجالات دولة صلاح الدين والأدباء، وكانت كلمته وأحكامه نافذة يؤخذ بها في أقطار الدولة كافة. وفي مجال آخر أطرى عماد الدين الأصفهاني خصال القاضي الفاضل بقوله:

جِلفُ الحصافةِ والفصاحةِ، والسماحة والحماسةِ والتُّقى والنائلِ
بحرٌ مِنَ الفضلِ الغزيرِ، خِضَمُّهُ طامي العُبابِ وما لهُ مِنْ ساحلِ[11]

ونظرا إلى أن عماد الدين كان كاتبا أكثر منه شاعرا، فقد مدح القاضي الفاضل في رسائله وفي تاريخه عنه.

ومن جانب آخر، أشاد الشاعر ابن الذروي بصفات القاضي الفاضل ودوره

---

(٩) بدوي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦، ٧٧.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(١١) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد (القاهرة: المؤسسة العامّة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٢)، ج ١، قسم ٢، ص ٦٤١ ـ ٦٤٢.

الجهادي وإنجازاته الوطنية والدينية، قائلا:

لِرأيكَ هذا النصرُ للدينِ ينتمي ... فلا يَنْتَحِلْهُ كلُّ عَضْبٍ ولَهْذَمِ
وإن كان فيه للأسنّةِ والظُّبى ... مساعدةٌ فالفَضْلُ للمُتقدِّمِ
تشيرُ على الإسلام منك فراسةٌ ... لها حزمُ طَبٍّ واحترازُ مُنَجِّمِ
وتحميه ألفاظٌ لديكَ كأنّها ... قواطعُ بُترٍ أو نوافذُ أسْهُمِ(١٢)

وإذا كان القاضي الفاضل مستهدفا بالمديح والتملّق، فقد استهدفه بعض أدباء عصره بالسخرية والنقد الجسماني، جاعلين منه موضوعا للتندّر والفكاهة بين ذوي النفوس الحاسدة. فمن هؤلاء، على سبيل المثال، الأسعد بن مماتي، أحد الإداريين الذين تمتعوا برعاية القاضي الفاضل وتوجيهه، إذ وصفه بأنه: «كان دميم الخلقة، له حدبة ظاهرة يسترها بالطيلسان كيلا تظهر للناس.» وقد أورد طرفة حدثت له مع القاضي الفاضل في بداية عمله، بقوله:

«دخلت يوما على القاضي الفاضل فوجدت بين يديه أترجّة كبيرة مفرطة في الضخامة وهي من الأترجّ الشمعي، فلمّا جلست حدّقت إليها واتفق (لي) فكر وذهول، فأخذ، رحمه الله، يتبادر على نفسه وقال: يا مولاي الأسعد: ما هذه الفكرة الطويلة؟ ما أنت مفكّر إلا في خلق هذه الأترجة وما فيها من التكتيل والتعوّج، وتعجب من المناسبة لها، وكيف اتفق الجمع بيننا وبينها، فدهشت وانخلع قلبي مني خوفا ثم رجع إليّ فقلت: لا والله! بل أفكر في معنى وقع لها فيها، ونظمت:

للحُسْنِ بل للّهِ أترُجّةٌ ... قد أذكرتْنا بجنانِ النعيمِ
كأنها قد جَمّعتْ نفسَها ... من هيبةِ الفاضلِ عبدِ الرحيمِ

«فلمّا سمع ذلك أعجبه وزال عنده ما كان قد توهمه منّي.» وأردف ابن ممّاتي تعقيبا على هذه الرواية قائلا: «ثم إني ذكرت هذه الواقعة لبعض أصحابي، فقال لي: احمد الله إذ أنشدته ذلك من لفظك ولم تكتبها له فربما تصحّفت عليه في اللفظة فيقرأها من هيئة الفاضل عبد الرحيم فيزداد حنقا من ذلك.»(١٣)

ولعل بعض الحاقدين لم يجد شيئا يهجو به القاضي الفاضل إلا هيئته، فقد هجاه

(١٢) بدوي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.
(١٣) الصفدي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

الشاعر الدمشقي ابن عُنَيْنْ في قصيدته الطويلة «مقراض الأعراض»، بالتالي:

والعزّ عبد الرحيم سيدنا   مطيلسٌ للقضاء بالشُّرب
يظنّ رائيه أنه جُرذٌ   مُطْلِعٌ رأسَه من الثقب[14]

كما وصفه في القصيدة ذاتها، بقوله:

والعسقلاني في عمامته   دلائل عن سخافة تُنبي
كأنها فوق رأس قِمّتِهِ   دوّارة الحل رخوة الهُدْبِ
يُخادع الله في الزكاة   بألفاظ محال لم تأتِ في الكُتْبِ
ذو طَرفين إذا نسبتهما   يحار في ذاك كل ذي لُبّ
فالأختُ والأم من بني شبق   والأب والابن من بني كلبِ
وحين أبصرتُ دولة الأحدب   الفاضل أربت على عُلا الشُّهْبِ
قلت للمفلسين وَيحكُمُ   تحادبوا فهي دولة الحَدْبِ[15]

ولم يكتفِ ابن عُنَيْنْ بالتندر بالجانب الخِلقي للقاضي الفاضل، بل أخذ يغمز ويسخر من جانبه الجذري بكونه فلسطيني الأصل من بيسان وعسقلان، هادفا بذلك إلى تحقيره بعبارات تنمّ عن الإقليمية البغيضة التي ما زال بعض أصدائها يتردد في عصرنا الحاضر. وقال هاجيا أو بالأحرى شاتما إيّاه وصلاح الدين في شعر آخر:

كم ذا التبظرم زائدا عن حدّه   ما كان قبلك هكذا الحُدبانُ
فحر أمّ مُلْكٍ أنت مالك أمره   من أنت يا هذا وما بيسان[16]

وتجدر بنا الإشارة إلى ظاهرة اجتماعية تعكس الانحدار الخُلقي في عصر القاضي الفاضل تجلّت في الغزل الغلماني، وهو نوع من الشعر انتشر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد مع انتشار عبيد الشراء المجلوبين من بلاد الكرج والسودان والصقلب، والأسرى الفرنج الذين تكاثروا مع فتوحات صلاح الدين. وعلى سبيل المثال، قصيدة ابن عُنَيْنْ في هجاء القاضي الفاضل التي اقترن فيها الهجاء بتلميحات غزلية غلمانية، قاصدا بذلك التقليل من أهمية القاضي الفاضل وخُلقيته، بقوله:

أظهرت فضل تُقى وفضل تعفف والله يعلم أنه بُهتانُ

---

(١٤) شرف الدين أبو المحاسن بن نصر، ابن عُنين، «ديوان ابن عُنين»، تحقيق خليل مردم (بيروت: دار صادر، ١٩٧٤)، ص ١٨٢.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٨٤.
(١٦) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

ما طال في الليل البهيم سجوده إلا ليركع فوقه السودان
فإذا سمعت سمعت أمرا منكرا وإذا رأيت رأيت لا إنسان[17]

ولم يقتصر هذا الشعر الرخيص في التندّر بحدبة القاضي الفاضل، على ابن عُنَيْن فحسب، بل شمل أيضا عددا من شعراء الشام كانوا ينفّسون عمّا في نفوسهم من ضغوط الحروب المتكررة والنفوذ غير العربي في الدولة، مثل نفوذ آل أيوب الأكراد الأصل، وعماد الدين الكاتب الأصفهاني، وغيرهم، بقصائد هجائية في وصف شخصيات الدولة الصلاحية بقالب هجائي محاولين الحطّ من شأنهم. ومن هؤلاء الشعراء فتيان الشاغوري من بلاد الشام، وركن الدين الوهراني المقيم في مصر.

ولعل من أكثر الصور التندرية في القاضي الفاضل طرافة، ما رسمه الكاتب ركن الدين الوهراني في مجموعة من المقامات والمنامات والرسائل، أشار فيها إلى تدخل القاضي الفاضل في شؤون دولة صلاح الدين وحضوره في كل مكان ممثّلا بعملائه ورسله، وإلى دوره في القضاء على الخلافة الفاطمية ومحاباته لمن يروق له من أهل العلم والكتابة، وتعيينهم في مناصب ذات شأن، وفي الوقت نفسه إبعاد مَن لا يروق له منهم. ويبدو أن هذه الخصلة في القاضي الفاضل أثارت أحقاد عدد من الشعراء والعلماء الذين لم يحظوا باهتمامه، الأمر الذي أدّى إلى اتخاذهم مواقف عدائية منه عبّروا عنها في هجاء مُقذع تعمّدوا فيه الإقلال من أهميته وإثارة الضحك الرخيص؛ كما فعل ركن الدين الوهراني في عدد من رواياته ومقاماته ورسائله التي تحمل طابع النقد الاجتماعي.[18]

ويبدو من الصور العديدة التي أوردها معاصرو القاضي الفاضل أنه كان قبيحا، يترك انطباعا منفّرا لدى رائيه أول مرة. وقد أدرك القاضي الفاضل هذه الناحية فيه إدراكا تامّا، فحاول أن يغطّي عليها بتنمية بعض المواهب الأُخرى لتغطّي على نقائصه الشكلية، بحيث يستطيع من خلالها أن يجذب انتباه الجالس معه، بمواهبه وصفاته، فيأنس إليه ويدرك أنه مع إنسان ذي مواهب فوق العادة.

ولهذا السبب بالغ في إتقان الكتابة التي اختارها مهنة له، لما لها من أهمية اجتماعية وسياسية وإدارية؛ ومن تأثير في النفوس في حال تداولها. وكان يدرك أن صاحب الموهبة الكتابية مرغوب فيه، يتلقّفه القادة وذوو النفوذ؛ فنبّههم إليها منذ بداية

---

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) ركن الدين الوهراني، «منامات الوهراني ومقاماته ورسائله»، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨)، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

عمله في الدولة الفاطمية. ولكن موهبة الكتابة لم تكن الوحيدة لديه؛ فأرفقها بقدرة فذّة على الإدارة والتخطيط، وحقق من خلالها نجاحا إعلاميا. ومن مجمل مواهبه ونجاحاته استعمال جميع مواهبه في سبيل ترقّيه في الدولة التي يخدمها.

ولئن نَظَر بعض معاصري القاضي الفاضل إلى مسيرته من خلال شكله فقط، فقد أجحفوا بحقّه، إذ قصدوا أذيته شخصيا، متجاهلين أعماله. وإنْ نَظَر إليه آخرون من خلال خصاله وصفاته ومواهبه، فقد قدّروا له ما قدّمه للدولة التي عاش في ظلّها، ولعصره، ولهم. ومن ثَمَّ فقد ركّزوا على صورة داخلية جميلة تطغى على الصورة الخارجية، وهذا ما أراده هو وعمل على تحقيقه.

ثالثا: العناصر المهمة
في شخصية القاضي الفاضل

سنحاول، في مقدمتنا هذه، أن نعرض صورة عامة لبعض المميّزات والعناصر المهمة في شخصية القاضي الفاضل كما وردت في كتابة معاصريه وفي أعماله وأقواله.

القاضي الفاضل شخصية ذات ذكاء حاد ودهاء مكّناه من التوصل إلى أعلى المراتب الإدارية في دولة صلاح الدين. وقد اجتمعت فيه خصال كفلت له النجاح في الحياة السياسية في العهدين الفاطمي والأيوبي، منها لباقته وقوته واتزانه، وحكمة مكّنته من حسن التصرف في المآزق، والحفاظ على حياته في خضم الفوضى السياسية والمؤامرات؛ ناهيك بلباقته التي استطاع أن يُنقذ بها صلاح الدين في أكثر من موقف من المواقف الحرجة. ونورد مثلا لبعضها: عندما كان صلاح الدين محاصرا في عكا احتاج إلى المعونة المصرية التي تأخر وصولها، وكان نائبه في مصر آنذاك أخاه الملك العادل، فطلب صلاح الدين من عماد الدين الأصفهاني أن يكتب بذلك إلى الملك العادل يستحثه على الإسراع في إرسال المعونة، فكتب إلى العادل «ليسيرّ لنا الحمل من مالنا أو من ماله.» ويبدو أن شدة لهجة الرسالة أزعجت الملك العادل، فكتب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان أخيه، فتدارك القاضي الفاضل الأمر، وكتب إلى الملك العادل مُدافعا عن صلاح الدين، ومحاولا في الوقت ذاته أن يُخفّف من غضب الملك العادل، قائلا: «أمّا ما ذكره المولى (صلاح الدين) من قوله: يسيّر لنا الحمل من مالنا أو ماله، فتلك لفظة ليس المقصود فيها من الملك النجعة، وإنما المقصود من الكاتب السجعة. وكم من لفظة فظة، وكلمة فيها غلظة، صيرّت عيي الأقلام، فسدّت خلل الكلام، وعلى المملوك (القاضي الفاضل) الضمان في هذه النكتة، وقد

فات لسان القلم منها أي سكتة.»[١٩]

بلغ القاضي الفاضل درجة رفيعة لدى صلاح الدين، مكّنته من التوسّط للناس لديه، ومطالبته إيّاه بالاهتمام بأمرهم ومساعدتهم وإعطائهم حقوقهم، ولفت انتباهه إلى مغبّة الإخلال باهتمامهم؛ ورسائله إلى صلاح الدين زاخرة بالشفاعات لمساعدة اللاجئين واليتامى والمحرومين والمقلّين من العلماء، إلى جانب المتقاعدين أو المسنّين من رجالات الدولة، فظهر أنه قد عيّن نفسه خادما للشعب، راعيا لحاجاته ومساندا لحقوقه.[٢٠] ولا ريب أنه كان يقوم بتلك الخدمة بوازع إنساني ربّما كان ناجما عن مروره وأفراد عائلته بأوضاع قاسية ذاقوا خلالها مرارة اللجوء والعوز.

ولا شك في أن التزام القاضي الفاضل مختلف أمور الدين وتطبيقها عمليا كان من أكبر الأمور الموجّهة لأعماله، ومن أكثر العناصر بروزا في شخصيته. فكثرة أوقافه ومؤسساته الدينية والعلمية والخيرية، إلى جانب تبرعاته، تعزّز إشارات موفق الدين البغدادي وغيره إلى هذا الجانب من شخصيته.

ومن أشهر مآثره المدرسة الفاضلية، ومكتب الأيتام في القاهرة، ودار الحديث الفاضلية في دمشق.[٢١]

وعلى الرغم من تمتّع القاضي الفاضل بالجِدّية وشدّة التديّن، فإنه لم يكن بعيدا عن خفّة الروح والظُرف اللذين يستندان إلى سرعة بديهته ودعابته الكلامية في حسن اختيار الألفاظ. وممّا يُروى عنه في هذا، أن الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين، وكان ينوب عن والده في مصر، مع أنه كان صغيرا وبرعاية القاضي الفاضل ورقابته، أحب قينة شغلته عن مصالحه، وبلغ ذلك والده فأمره بتركها ومنعها من صحبته، فشقّ ذلك على العزيز، وضاق صدره، ولم يجسر على أن يجتمع إلى قينته. فلما طال ذلك بينهما سيّرت له مع بعض الخدم كرة عنبر، فكسرها، فوجد في وسطها زر ذهب، ففكر فيه ولم يعرف معناه ووافق حضور القاضي الفاضل، فعرّفه الصورة، فعمل القاضي الفاضل في ذلك بيتين وأرسلهما إليه، وهما:

---

(١٩) ابن تغري بردي، مصدر سبق ذكره، ج ٦، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢٠) بعض رسائل القاضي الفاضل في طلب المعونة لبعض المحتاجين من رجالات الدولة وغيرهم، في «كتاب فيه من كلام القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني»، مخطوط في الجامعة الأميركية في بيروت، رقم ٥٩٠٢، ص ١٤٩ ـ ١٧٢.

(٢١) عبد القادر بن محمد النُعيمي، «الدارس في تاريخ المدارس» (دمشق: المجمع العلمي العربي، ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩)، ج ١، ص ٦٩؛ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» (القاهرة: دار الطباعة المصرية، ١٨٥٣)، ج ٢، ص ٣٦٦. (سنشير إلى ـ هذا المؤلّف بـ «الخطط» في سياق البحث).

أهدت لك العنبر في وسطه زر من التبر دقيق اللحام
فالزر في العنبر معناهما زُر هكذا مستتراً في الظلام[٢٢]

ولا ندري ما إذا كان قصده الدعابة، أو كان يشجع الملك العزيز. ويروي ابن سناء الملك أنه خرج يوما مع وفد من كبار الدولة المصرية للقاء القاضي الفاضل في إحدى رحلاته عائدا من بلاد الشام، يقول ابن سناء الملك: «فلقيناه وعدنا، فلمّا كنا عند سطح الخشبيّ عنَّ للموكب ظبي، فركض خلفه المكين ابن حيّوس طامعا أن يلحقه، وكان مثل هذا الفعل لا يليق به لأنه ليس من أهله، ولأن الصدر الملتقى (القاضي الفاضل) لا ينبغي أن يُغلَط بين يدي مثله، فعجب القاضي الفاضل منه، واتفق أن فاته الصيد الذي طلبه، وسقطت مقرعته من يده، ورجع إلى الموكب وعليه انكسار الفوات وخجل الغلط، فارتجل الأجلّ الفاضل (متندّرا) قوله:

يا عادياً عدو السفيه وعائدا عود الحليم
ضيّعت مقرعة وعدت سميّها من غير ميم»[٢٣]

ويمكن أن نوجز في إجمال، بأن تديّن القاضي الفاضل كان منبعا لجوانب الخير فيه، وعاصما له عن التورّط فيما ينفّر الناس منه، على الرغم ممّا قيل من هجاء فيه، ومرسّخا للتواضع الذي يزن نفس ذي المركز العظيم. ولذلك فلم يكن البون فيما يمدحه الشعراء به، بين حقيقة واقعة وأخيلتهم، بعيدا، وإنما كانوا يتحدّثون عن صفات حقيقية فيه، من دون حاجة إلى تخيّل أو استرسال. فإذا سمعنا ابن سناء الملك يصفه بالصفات التالية:

في الصوم والصلوات أتعبَ نفسه وضمان راحته على أتعابها
وتعجّل الإقلاع عن آثامها ثقةً بحسن مآلها ومآبها
فسواه تسبيه الملاحُ بحبّها وسواه تصيبه الطلا بحَبابها
صوّامها قوّامها علاّمها عمّالها بذّالها وهّابها[٢٤]

أدركنا أن الصدق الخُلقي في هذه الأبيات وُضع في موضعه، وأن الصفات التي ذكرها

(٢٢) عبد الرحيم بن علي البيساني، القاضي الفاضل، «ديوان القاضي الفاضل»، تحقيق أحمد أحمد بدوي (القاهرة: دار المعرفة، ١٩٦١)، ج ١، ص ١٠٦.
(٢٣) علي بن ظافر الأزدي، «بدائع البدائه: هامش شرح شواهد التلخيص المسمّى معاهد التنصيص» (القاهرة: المطبعة البهيّة، ١٨٩٨)، ج ٢، ص ١٨٣.
(٢٤) هبة الله أبو القاسم، ابن سناء المُلك، «ديوان ابن سناء المُلك»، تصحيح وتعليق وتقديم محمد عبد الحق (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٨)، ص ٥٩ ـ ٦٠.

الشاعر كذلك صادقة. ولو وصلت إلينا معلومات عن حياته العائلية بين زوجته وأبنائه لاستطعنا أن نضيف عناصر أخرى إلى شخصيته، أو ندعم الشواهد على العناصر التي أكدتها الأخبار والروايات. وكل ما نعرفه عنه في هذه الناحية أنه تزوّج ورزق بنين وبنات نعرف منهم ابنة له، كانت إلى جانبه وقت وفاته، وابنا سار على نهجه عُرف بالقاضي الأشرف بهاء الدين أبي العباس أحمد، فكان كبير المنزلة عند الملوك، مثابرا على سماع الحديث وتحصيل الكتب. وأمّا عن حياة القاضي الفاضل في بيته وبين أفراد عائلته فالمعلومات ضئيلة. ولكنْ من المؤكد أنه أشرف على تربية أبنائه وإنشائهم النشأة الحسنة، وتوجيههم نحو العلم، فكان يستحضر أي كتاب يسمع عنه مهما يبلغ ثمنه، أو يطلب نُسخا من الكتب التي لم يتمكن من شرائها، كما تشير رسالة منه إلى عماد الدين الأصفهاني في دمشق يقول فيها:

«سمعت أنه ورد إلى دمشق كتاب فيه رسائل الباخرزي، فإنْ أمكن شراؤه، وإلا فليمكن نسخه.»[٢٥] وكوّن القاضي الفاضل لنفسه مكتبة كبيرة، يقال إنها بلغت مئة وأربعة وعشرين ألف كتاب، قبل وفاته بمدة عشرين عاما تقريبا، أخذ قسما كبيرا منها من خزانة كتب الفاطميين عندما استولى صلاح الدين عليها، وقد اشترى بعضها، وأهداه صلاح الدين بعضها الآخر،[٢٦] ربما اعترافا منه بمساعدة القاضي الفاضل له في القضاء على الفاطميين. وحصل أيضا على قسم كبير من الكتب من خزانة آمد عندما فتحها صلاح الدين (٥٧٩هـ/١١٨٣ ـ ١١٨٤م)، ووصل به ولعه بالكتب إلى أن يشتري مصحف عثمان بن عفان، المكتوب بالخط الكوفي بما يزيد على ثلاثين ألف دينار، كما كان يحتفظ بنسّاخ ومجلّدين لا يتوقفون عن العمل. ومع اهتمامه الزائد بالعلوم الإسلامية واللغوية وبالأدب وما اتّصل بها من كتب، فإنه لم يُبدِ اهتماما بالعلوم الدخيلة، فقد عُرضت عليه مجموعة كتب نفيسة خاصة بالطبيب الموفق ابن المطران، فردّها من دون أن يختار شيئا منها.[٢٧]

ومن كان لديه مثل هذا الاهتمام البالغ بشؤون الكتب، لم يكن من السهل أن يتصوّر الدارس مراحل التطور في ثقافته، أو يحكم على الشوط الذي بلغه فيها. فقد تمثل محصوله العلمي في بداية أمره في حفظه للقرآن وديوان الحماسة، ثم تعلّمه فن الكتابة، واتّصاله بكثيرين من علماء وفقهاء عصره الذين أخذ عنهم واحتضنهم وتأثّر بهم كما أثّر فيهم. ولقد ظهرت آثار ثقافته ذات الطابع اللغوي الديني البياني في رسائله،

---

(٢٥) «كتاب فيه من كلام الفاضل»، مخطوط في الجامعة الأميركية في بيروت، رقم ٥٩٠٢، ص ٢٦٦.

(٢٦) المقريزي، «الخطط»، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٦٧.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٦٦.

وفي شعره. وإذا كان هذا كل ما لدينا من الروايات عن ثقافته، فلا بدّ من أن نفترض، من دون خطأ كبير، أنه كان نموذج الإنسان المثقّف في عصره، وأن شغفه بجمع الكتب لم يكن تزّيّنا أو تظاهرا، وإنما كان كثير الاطلاع والقراءة. ولعله وُهب ذاكرة عجيبة وحضورا ذهنيا فائقا، فإن طريقته في الإملاء، كما وصفها موفق الدين البغدادي، تدل على وعي بالغ وحافظة قوية.

رابعا: الجذور ـ
القاضي الفاضل وعائلته في عسقلان

(أ) النسب

ينتمي القاضي الفاضل في نسبه إلى قبيلة لخم العربية. وهذه القبيلة عريقة الجذور بأرض فلسطين، هاجرت من اليمن إلى العراق، والشام، وفلسطين في نحو القرن الثاني الميلادي، واستوطنت أماكن عديدة في فلسطين تمتد ما بين الرملة ومصر، على الساحل، وفي سيناء، كما أن أناسا منها استوطنوا بيت المقدس ونابلس ومنطقة الغور أو غور الصافية، وفي زُغر (صقر) ومنطقة البحر الميت، كما استوطن بعضهم الخليل وجبالها وصفّورية. واستوطنت أفواج أُخرى منهم مصر عندما فتحها عمرو بن العاص.[٢٨]

ينتمي القاضي الفاضل، جغرافيا ومكانيا، إلى مدينتين عريقتين في فلسطين هما: بيسان وعسقلان. وقد تحدثنا عن عسقلان في المقدمة، وسنتحدث هنا عن بيسان.

كانت بيسان مدينة صغيرة زراعية، محاطة بمناطق زراعية واسعة اشتهرت بنخيلها ومياهها الوافرة وعيونها العذبة، ومنها عين الفلوس التي أشير إليها في أدب الفضائل بأنها «من عيون الجنة». وبيسان من أوائل المدن الفلسطينية التي افتتحتها القوات العربية الإسلامية (١٥هـ/٦٣٦م)، وبالتالي فتاريخها في الإسلام مجيد كما كان من قبله في الدولة البيزنطية. ويبدو أن بيسان، بحكم موقعها على مفترق الطريق بين الجولان والأردن (كانت في فترة ما ضمن جند الأردن) وفلسطين، كانت ذات أهميّة تجارية وعسكرية ودينية؛ ففيها جامع مشهور في وسط المدينة، ويعتقد البعض أن فيها أضرحة بعض الصحابة، مثل شرحبيل بن حسنة وأبي عبيدة بن الجرّاح وغيرهم، الأمر الذي

(٢٨) مصطفى الدبّاغ، «القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين» (بيروت المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩)، ص ١٣٤؛ محمد رضا كحّالة، «معجم قبائل العرب» (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٥)، ج ٣، ص ١٠١١ ـ ١٠١٢.

شجّع المسلمين على زيارتها والتدريس في جامعها، وإنعاش حركة علمية دينية فيها.(٢٩)

وُلد جدّ عبد الرحيم البيساني (القاضي الفاضل) الأكبر في هذه المدينة العامرة، كما وُلِد ونشأ فيها جدّه القاضي السعيد محمد بن الحسن (وُلد سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧ ـ ١٠٦٨م). ومن المعروف أن القاضي السعيد عمل شاهد قضاء، أو قاضيا فيها. فالعائلة إذاً ذات مكانة مرموقة في بيسان حيث كان منصب القضاء أعلى المناصب الإدارية.(٣٠)

عاشت عائلة القاضي السعيد محمد بن الحسن البيساني آمنة سالمة في بيسان حتى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م، عندما اجتاح الفرنج فلسطين فاحتلّوا بيت المقدس ونكّلوا بأهله، وزحف من قادتهم تانكرد النورماني على منطقة الغور، فاضطر أهل بيسان إلى الهجرة، لأن مدينتهم ومنطقتهم بصورة عامة كانت مكشوفة خالية من التحصينات والقوات المدافعة.

(ب) الهجرة من بيسان

هاجر أهالي بيسان في اتجاهين: الشام ومصر، أو المدن الساحلية الفلسطينية الواقعة تحت السيطرة المصرية، ولا سيّما عسقلان لإحكام تحصيناتها. ومع أن الشام أقرب إلى بيسان من عسقلان وغزّة ومصر، فإنه يبدو أن السكان فضّلوا، في معظمهم، التوجه إلى عسقلان وغزّة أو إلى مصر، إذ كان هناك طريق تجاري معروف منذ قديم الأزمنة يربط ما بين بيسان وغزّة. ويتّجه هذا الطريق جنوبا إلى الطرف الجنوبي الغربي من البحر الميت، ومن ثَمَّ يتّجه غربا إلى غزّة فعسقلان. وهذا الطريق المتجه غربا هو طريق بيزنطي قديم يربط ما بين البتراء وغزّة.(٣١) ولا ندري كم استغرقت الرحلة آنذاك، لكنّ المعروف أن المسافة بين بيسان وغزّة، في عهد المماليك، كانت تستغرق خمسة أيام ركوبا. ويبدو أنها طالت بالنسبة إلى المهاجرين، لأن الفرنج كانوا قد احتلّوا بيسان سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م، ولذا وصل معظم المهاجرين إلى المناطق المصرية سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩ ـ ١١٠٠م، بعد عناء طويل.(٣٢)

---

(٢٩) Guy Le Strange, *Palestine under the Moslems* (Beirut: Khayyat, 1956), p. 411.

(٣٠) المقريزي، «اتعاظ»، ج ٢، ص ٢٠٠. لما كانت مؤلفات المقريزي قد أخذت تتعدّد فإننا سنشير إلى كل منها بعنوان مختصر بدل «مصدر سبق ذكره».

(٣١) يبدو أن هذا الطريق هو الطريق الذي شقّه الأنباط (النبطيون) بين البتراء وعسقلان، إذ كانت عسقلان في نهاية طريقهم التجاري.

Eugene Hoade, *Guide to the Holyland* (Jerusalem: Fransiscan Printing Press, 1973), p. 785.

(٣٢) محمد بن علي بن يوسف، ابن ميسّر، «أخبار مصر» (القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩١٩)، ص ١٤٤.

(ج) في عسقلان

عانى أفراد عائلة البيساني كغيرهم من المهاجرين، بعد استقرارهم في عسقلان، مرارة الهجرة واللجوء وعدم الاستقرار؛ فتحوّل ذلك الشعور لدى الجميع إلى إصرار على الصمود والمقاومة مهما يبلغ الثمن؛ ولذا جنّدت أفواج المهاجرين جهودها للدفاع عن عسقلان، المدينة الوحيدة الصامدة أمام قوات الفرنجة المتفوّقة عليهم عسكريا وعددا وإعدادا.

وُلِد للقاضي السعيد محمد بن الحسن البيساني ابنٌ عُرف فيما بعد بالقاضي الأشرف علي بن محمد بن الحسن البيساني، والد القاضي الفاضل، سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م، (٣٣) أي بعد هجرة العائلة بنحو ثمانية أعوام. ونشأ القاضي الأشرف في عسقلان، وعايش جوّها المشحون بالمآسي، حتى بلغ العاشرة عندما توفي والده. ولا نعرف الكثير عن حياته قبل أن أصبح قاضي عسقلان. ويبدو أنه قد درس الفقه وفنّ الكتابة إلى أن تولّى قضاءها. ويدلّ منصبه في القضاء على مكانة عائلته الدينية والاجتماعية، وعلى احترام السلطان الحاكم لها وتقديره، لأن منصب القضاء والإدارة شبه متوارث، وليس التوصّل إليه بالأمر الهيّن، ولا بدّ من أنه كان لجد القاضي الفاضل، ولوالده من بعده، مكانة دينية وعلمية واجتماعية مكّنتهما من بلوغ أعلى المراتب الدينية والإدارية.

ولم تكن مدينة عسقلان في تلك الحقبة كأية مدينة عادية؛ فهي ثغر على الساحل الفلسطيني، وبالتالي فإن إدارتها الدينية والمدنية تتطلب الكثير من الحنكة والخبرة والقدرة والحزم.

وإلى جانب ذلك فعسقلان ثغر مجاهد ومقاوم. معرّض لهجمات الفرنج من البر والبحر، ومحاصر بمستوطنات عسكرية في غزّة وبيت جبرين، تحول دون وصول المعونة والميرة إليها من مصر أو الشام. كما أنها مدينة مكتظة بالسكان من أصليين ومهاجرين من مختلف المدن الشامية، الساحلية، على امتداد الساحل من طرابلس إلى غزة، بالإضافة إلى الجنود المصريين الذين قصدوها للدفاع عنها، وغيرهم من المجاورين الشيعة، والأسرى الفرنج، والمهاجرين الأرمن الذين كانوا يقصدون مصر للانضمام إلى مجموعات الأرمن المتنفذة فيها. (٣٤)

---

(٣٣) المقريزي، «اتعاظ»، ج ٣، ص ٢٠٠؛ ابن ميسّر، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٤.

(٣٤) بحثنا في بعض هذه الأمور في الفصل الأوّل، وسنشير هنا إلى أن الأرمن والفرنج. بالنسبة إلى الأرض، راجع: المقريزي، «اتعاظ»، ص ٤٦ - ٤٧. يشير المقريزي إلى أن شمس الخلافة، أحد حكّام عسقلان، استدعى بعض الأرمن وأقرّهم بعسقلان ليستعين بهم على أهل المدينة =

وهكذا، فإنّ إدارة مدينة بمثل هذه المتناقضات لم تكن بالأمر الهيّن. ناهيك بأن قاضي المدينة كان يُعتبر الرجل الثاني في التسلسل الإداري، أي بعد الوالي. ولذا لم تقتصر مسؤولياته على القضايا الشرعية، بل تعدتها إلى الإشراف على بعض الأمور المالية، مثل سكّ النقود وضريبة الجوالي والمكوس والأوقاف والإشراف على تحصينات المدينة وتهيئة السكان المعنوية للجهاد. ويمكننا القول إن انتقال عائلة البيساني إلى عسقلان مهّد لها الفرصة لتؤدي دورا بارزا في الجهاد واستعادة فلسطين.

ولم تكن مدينة كعسقلان، في فترة تولّي القاضي قضاءها، بازدحامها وتناقضاتها الاجتماعية، ووضعها العسكري سهلة الإدارة. وقد عاش عبد الرحيم البيساني العسقلاني (القاضي الفاضل) ذلك الجو وتأثّر به.

(د) عبد الرحيم البيساني العسقلاني، القاضي الفاضل، في عسقلان

وُلِد القاضي الفاضل في عسقلان في عائلة كبيرة مؤلفة من ثلاثة أبناء وبنت. وهناك روايتان بشأن تاريخ ولادته، إحداهما تشير إلى أنه وُلِد سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م،

= والوزير المصري الأفضل، الذي اعترضوا على تحالفه مع الملك بلدوين الأوّل الإفرنجي سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م؛ كما يشير في أحداث سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م، إلى أن بعض الأرمن وصلوا إلى عسقلان بحرا في طريقهم إلى القاهرة، فحاول واليها رضوان بن ولخشي أنْ يمنعهم من الإرساء بعسقلان، الأمر الذي دعا الوزير المصري الأرمني بهرام إلى أن يصرفه عن عسقلان. أنظر: المقريزي، «اتعاظ»، ص ١٥٨.

وأمّا بالنسبة إلى الفرنج، فعلى الرغم من العلاقات العدائية بين ملوك المملكة اللاتينية في القدس والسلطات الحاكمة في عسقلان، وإصرار الملوك الفرنج على احتلال عسقلان، فإنّ بعض الأمراء الفرنج في المناطق المجاورة لعسقلان تطلّع إلى التقارب والتحالف مع العساقلة، لحماية مصالحه الخاصة من الملوك. ولعل خير مثال لهذا، لجوء الكونت هيو، حاكم يافا، سنة ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م إلى السلطات في عسقلان، واستنجاده بها على فولك أوف أنجو، ملك المملكة اللاتينية في القدس. ومفاد الخلاف، الذي عدّه وليم الصوري ثورة الكونت هيو على الملك، اتّهام الملك للكونت هيو وغيره من المقطّعين الفرنج بالتآمر على حياته وحكمه. وقد حكم عليه عن طريق مجلس النبلاء بالخيانة الكبرى، الأمر الذي اضطر الكونت هيو إلى أن يهرب إلى عسقلان، ويستنجد بسلطاتها، ويعقد معها معاهدة تحالُف وتعاوُن، عزّزها بِدَفْع بعض الرهائن الفرنج للعساقلة. وقد استغلّ العساقلة هذه المعاهدة فهاجموا الساحل الفلسطيني (الفرنجي) حتى أرصوف، لكنّ الملك تصدّى لهم وردّهم، ثم حاصر يافا وأخذها من الكونت هيو، ونفاه من المملكة. أمّا الرهائن فالأغلب أنهم ظلّوا مع غيرهم من أسرى الفرنج في عسقلان. أنظر للتفصيلات:

William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, pp. 72-75.

والأخرى تشير إلى سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م. والأرجح أنه وُلِد سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م لأنه يذكر في إحدى رسائله أنه تجاوز السبعين عاما، قائلا: «فإن السبعين جُزت عتبتها، وقطعت عقبتها، وأسأل الله الخير في القدوم عليه واللطف عند الوقوف بين يديه.» ولعّله كتب هذه الملاحظات في العام الأخير من حياته سنة ٥٩٦هـ/ ١٠٩٩ - ١٢٠٠م، وهذا يرجّح ولادته سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م.(٣٥)

ولقد عاش القاضي الفاضل نحو سبعة عشر عاما من حياته في عسقلان في كنف والديه، فدرس القرآن والحديث وديوان الحماسة، وغيرها من العلوم، في جوامع المدينة التي كانت موئلا للفقهاء من فلسطينيين وغيرهم ممن أراد الجهاد والشهادة.

في تلك الفترة الحرجة التي كانت خلالها معنويات أهالي عسقلان والمسلمين في الشام ومصر محبطة لتوالي الهزائم والإحباطات، تركزت آمال الجميع على مُنقذ يأخذ بيدهم إلى طريق النصر، فظهر عماد الدين زنكي، ونادى للجهاد وكسر الفرنج في الرُّها وحرّرها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، فأحيا الآمال بالنصر وأعاد للمسلمين شيئا من الثقة بالنفس فالتفّوا حوله وساندوه وأذاعوا أنباء نصره.

كان عمر عبد الرحيم (القاضي الفاضل) آنذاك ثلاثة عشر عاما، وكغيره من أهل عسقلان، تفاعل مع انتصارات عماد الدين، وأصبحت نظرته إلى القائد المجاهد تتمثل في شخصية عماد الدين زنكي، ثم في صلاح الدين الأيّوبي فيما بعد.

بدأت إذاً تتحدّد له، بسقوط الرها، رؤيا الجهاد، كرؤية موسّعة، غير محدَّدة بالدفاع عن مدينته فقط أو باستعادة مدينة أُخرى، بل كحركة فكرية عسكرية شاملة تشترك فيها القوى جميعها، لتحقيق هدف معيّن هو إعادة الأراضي إلى أهلها، وتطهيرها من مغتصبيها، وإحلال مبادىء الحقّ والعدل فيها.

وفي الوقت الذي أخذت الجبهة الفرنجية الشامية تتصدّع وتتحجم بسبب انتصارات عماد الدين زنكي، ومن بعده ابنه نور الدين محمود، رأى الفرنج أن يبحثوا عن جبهة أُخرى يمدّون فيها نفوذهم العسكري ويتوسّعون باحتلال أراضيها، فأخذوا يتطلعون إلى مصر وكي يتحقّق لهم ذلك، كان لزاما عليهم احتلال عسقلان، بوابة مصر. فضاعفوا من مضايقتهم للمدينة، بفرض الحصار حولها.

وكان عبد الرحيم في تلك الأثناء يدرس ويصغي إلى ما يروى من أحاديث الجهاد

---

(٣٥) الحنبلي، مصدر سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٤٢؛ شمس الدين أحمد بن محمد، ابن خلكان، «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، تحقيق إحسان عبّاس (بيروت: دار صادر، ١٩٧٢)، ج ٣، ص ١٦١ - ١٦٢؛ «كتاب المختار» (الفاضل من كلام القاضي الفاضل)، مخطوط مصوَّر، British Museum, ADD. 7307، ص ٥٠.

التي كثر شيوعها في تلك الفترة، ويشاهد مقاومة أهالي عسقلان للفرنج، وقد يشارك فيها. فالمعروف عن أهل المدينة أنهم كانوا يهبّون هبّة واحدة للدفاع عنها. ومهما يكن من أمر، فإن آراء القاضي الفاضل في الجهاد والمقاومة وجدت بذورها في هذه الفترة المبكّرة من حياته بسبب خبرته العملية والنظرية. كما أن نشأته الدينية والأدبية، وجوّ عسقلان المشحون بعدم الاستقرار والتعبئة المتواصلة، أثرا أكبر الأثر في بناء شخصيته القيادية.

الفصل الثالث
في مصر

أولا: الهجرة إلى مصر

كانت نقطة التحوّل في مسيرة عبد الرحيم البيساني العسقلاني سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، عندما قرر والده أن يرسله إلى القاهرة ليتدرب على الإدارة مثله، ويتعلّم فنّ الكتابة والإنشاء. ولم تكن هذه البادرة بالشيء النادر بالنسبة إلى عائلة فلسطينية تعيش في عسقلان؛ فقد جرت العادة بين أصحاب الدواوين في البلاد التابعة للخلافة الفاطمية، أن يرسلوا أبناءهم إلى ديوان الإنشاء في القاهرة، لما له من سمعة حسنة، ولما للمتخرّجين منه من مجالات للعمل في أي ديوان من الدواوين الأخرى، سواء كانت مركزية في القاهرة أو في المقاطعات والثغور. وربما اعتبر القاضي الأشرف عدّة أمور أخرى في اختياره القاهرة مركزا لدراسة ابنه، وحتى مقرّا دائما، بينها أن عسقلان كانت آنذاك في متناول يد الفرنج؛ فهي محاصرة من ثلاث جهات ليس أمامها سوى البحر وقد تسقط في يدهم في أية لحظة، وبالتالي فليس أمام أهل عسقلان مكان للهجرة سوى مصر، ومن ثم فمن الأفضل إعداد موقع لعائلته في مصر إذا ما اضطر إلى مغادرة عسقلان.

كما أدرك القاضي الأشرف أن ابنه موهوب أدبيا. وقد عبّر عن موهبته هذه بشعر نظمه في سنّ مبكّرة من عمره، وفي نثر متين لديوان الحماسة، وفي فهم وحفظ للقرآن قبل أن يكمل السابعة عشرة من عمره، فرأى في الكتابة الديوانية ومن ثمّ الإدارة أفضل مجال لإبراز مواهب ابنه هذا الذي اختلف عن باقي أبنائه. [1]

أرسل القاضي الأشرف ابنه عبد الرحيم على متن أحد المراكب المُقْلِعة إلى الإسكندرية، وأوصاه بالذهاب إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات الذي كان يرئسه موفق الدين يوسف بن الخلاّل، أحد كبار كتّاب مصر وأدبائها. وقد كان القاضي الأشرف يعرف ابن الخلاّل بالسماع وعن طريق المراسلة، لأن ديوان ثغر عسقلان كان من أهم

(١) ابن خلّكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

الدواوين المصرية، ومرتبطا في جميع شؤونه بدواوين القاهرة، مثل ديوان الإنشاء والجيش والمال والثغور.[٢] أما مراسلاته الرسمية فموجهة عادة إلى ديوان الإنشاء، مركز توزيع المراسلات إلى جميع الدواوين. ولقد عرف ابن الخلال بدوره القاضي الأشرف بالطريقة ذاتها وبالمراسلات الرسمية، وربّما عن طريق المكاتبات الشخصية.

أقلع عبد الرحيم من عسقلان إلى الإسكندرية بحرا، ومن ثَمّ تابع سفره ركوبا إلى مدينة مصر التي وصل إليها بعد يومين من السفر المتواصل، ومنها بدأ مسيرته بالترقّي المتدرّج حتى توصّل إلى أعلى المناصب الإدارية فيها، فتمكن من خلالها من المساهمة الفعلية في الجهاد.

حالما استقرّ عبد الرحيم في مصر، قصد ديوان الإنشاء في القاهرة، حيث قابل الشيخ موفق الدين يوسف ابن الخلال، كاتب الدست ورئيس الديوان.[٣] وكان ابن الخلال قد سمع عن نيّة عبد الرحيم وقصده من القاضي الأشرف، فاستقبله بكل لطف وحفاوة، وبادله بعض الحديث عن عسقلان وغيرها، ثم استفسر عن أهدافه، فردّ عليه عبد الرحيم بأنه قصده للتدرّب على الكتابة والإنشاء والإدارة. ولما سأله ابن الخلال عمّا أعدّه لفنّ الكتابة أجاب بأن محصوله العلمي حفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة. فأجابه ابن الخلال قائلا: في هذا بلاغ. ثم طلب منه أن يلازمه ففعل، ثم طالبه بعد ذلك بنثر ديوان الحماسة ففعل.[٤] وهكذا بدأ عبد الرحيم تدريبه على يد أحد كبار الكتّاب الاداريين في مصر.

لاحظ ابن الخلال نبوغ تلميذه الصغير فوجّهه خير توجيه، وساعده في تنمية مواهبه، كما رعاه رعاية خاصّة قلّما يقدّمها أستاذ في مثل سنّه ومركزه لطالب صغير، وربما إدراكا منه منذ البداية أنّ هذا الطالب ليس كغيره من الطلبة نبوغا ومواهب وإرادة.

ولقد أثمرت رعاية ابن الخلال لتلميذه الصغير، فلقي منه الوفاء عندما كبر وفقد بصره وحركته (ت ٥٦٦هـ/١١٦٩ ـ ١١٧٠م) ولم يبقَ له من يقوم به، فكان عبد الرحيم خير راعٍ ومعين، ومساعد مخلص، يوادّه ويزوره ويقدم له كل ما يحتاج إليه من لوازم الحياة.[٥]

درّب ابن الخلال عبد الرحيم على فنون النثر والكتابة الديوانية، كما وصله بعالِم

(٢) Duri, A.A.; Gottschalk, H.L.; and Lambton, A.SK. «Diwan,» *Encyclopedia of Islam*, Vol. II (1960), pp. 323-336.

(٣) ابن خلكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٤) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٢٥. للمزيد من المعلومات عن ابن الخلّاد انظر: محمد كامل حسين، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٨.

من كبار علماء البلاغة في عصره، هو القاضي المفضل كافي الكفاة أبو الفتح أسعد الدمياطي المعروف بابن قادوس [٦] (ت ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م)، فاحتضنه هذا الآخر، ودرّبه في فن البلاغة، ولكنه نظرا لكثرة أشغاله في الدواوين لم يكن يعطيه وقتا كافيا للمناقشة والبحث، فكان عبد الرحيم يرافقه في أثناء ركوبه من الديوان في القاهرة إلى مصر ويتباحث معه في شتى الأمور المتعلّقة بفنون الكتابة والآداب. وهكذا تدرّب عبد الرحيم في أثناء دراسته على يد اثنين من كبار المتنفذين في مصر، إذ أصبح اسمه يقترن باسميهما في بداية أمره في الديوان، ثم أصبح اسماهما يقترنان باسمه بعد أن أصبح كاتبا مبدعا تنسب إليه مدرسة فنيّة نثرية تعرف بمدرسة (أسلوب) القاضي الفاضل.

ثانيا: بين مدينتين ـ مصر والقاهرة
(٥٤٣ ـ ٥٤٩هـ / ١١٤٨ ـ ١١٥٤م)

عاش عبد الرحيم الأعوام الخمسة الأولى من حياته في مصر متنقلا بين مدينتين: إحداهما مدينة مصر، مركز إقامته؛ وثانيتهما القاهرة، مركز دراسته وعمله. وقد عاش في المدينتين خطّين من الحياة: أحدهما حياة الشعب في مصر، يشاهد فيها طريقة عيشه ويحس بآماله وآلامه؛ والأخرى بين الفئة الحاكمة وأصحاب الدواوين والعساكر، يشاهد فيها حياة البذخ والرفاهية والاستعراضات والاحتفالات والمؤامرات التي تُحاك على جميع المستويات: في القصور، وفي دار الوزارة، وفي حارات العساكر المختلفة، وفي الدواوين، وفي الشوارع. وكانت حياة القاهرة مضطربة على الرغم من كل ما يحيط بها من مظاهر الأبهة والفخامة والغنى.

ولقد أثّرت حياة عبد الرحيم المزدوجة بين المدينتين في تحرّكاته وفي مسيرته فيما بعد، إذ حوّل انطباعاته وتجاربه في كل منهما إلى عمل، فساهم في تحسين وضع الشعب الذي عاش بينه في مصر بينما انقلب على الفئة الحاكمة في القاهرة، ووضع طابعه على تاريخ كل من المدينتين.

كانت مصر عندما دخلها عبد الرحيم مدينة كبيرة حسنة تعادل مساحتها ثلث بغداد، عامرة بالأسواق العديدة والمتاجر الأنيقة المظهر، والبساتين والمتنزّهات، ولكنها كانت

---

(٦) ابن ميسّر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٩٧؛ بدوي، مصدر سبق ذكره، ص ١١ ـ ١٢. وقد رثى القاضي الفاضل ابن قادوس بقصيدة طويلة أشار فيها إلى أفضاله عليه؛ «ديوان القاضي الفاضل»، تحقيق أحمد أحمد بدوي (القاهرة: دار المعرفة، ١٩٦١)، ج ١، ص ١٧٤ ـ ١٨٠.

مدينة مكتظة بعماراتها العالية وبكثافة سكانها.[٧]

وقد عرفت مصر في بداية أمرها بالفسطاط التي وضع أسسها عمرو بن العاص (ت ٤٣هـ/ ٦٦٣م)، ثم توسّعت في القطائع التي بناها ابن طولون (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) كمدينة مستقلة له ولجيشه من الأتراك، عازلا إياهم عن الشعب المصري. واندمجت المدينتان، بمرور الزمن، وكوّنتا ما عُرف بمصر أو مدينة مصر.[٨]

ظلّت في الفسطاط منذ الفتح الإسلامي أكثر من حارة أو خِطّة نُسبت إلى اللخميين ـ القبيلة التي انتمى إليها عبد الرحيم ـ منها: خطة لخم بن عَدِيّ ومن خالطها من قبيلة جذام، وهي خِطّة كبيرة فيها سوق اسمها سوق بربر؛ ومنها خِطّة ثانية داخل مصر عُرفت بخِطّة راشدة؛ شرقي القنيطرة، خارج مصر منسوبة إلى بني ريّة بن عمرو بن الحارث بن وائل بن راشدة.[٩]

وبالإضافة إلى هذه الخطط، فإن قبيلة لخم اختطّت في بداية الفتح الإسلامي بجبل يشكر، المنسوب إلى يشكر بن جديلة من لخم، بين القاهرة ومصر، الذي بُني عليه فيما بعد جامع ابن طولون ضمن القطائع الطولونية.[١٠]

وليس من المستبعد أن تكون خِطط اللخميين قد ظلّت تجذب الوافدين إلى مصر من بني لخم. ولربما كان عبد الرحيم بين هؤلاء الذين اجتذبتهم.

اختلفت حياة عبد الرحيم في مصر عنها في عسقلان؛ فمع أن المدينة كانت تضاهي عسقلان بمساحتها وسكّانها وأسواقها، إلا أن عسقلان كانت في نظره تبذّها باتساع شوارعها ونظافتها وبيوتها البيض المنخفضة الارتفاع وحدائقها الغنّاء، وحتى في مخيماتها الواقعة خارج خِطّة عسقلان الأصلية، لأن صورة المخيمات في ذاكرته كانت تربط ما بين ماضيه ومستقبله.

وكما أن طبيعة مصر الجغرافية اختلفت عن عسقلان، فإن أهالي مصر اختلفوا عن أهالي بلده بلهجتهم. وهذا الاختلاف مهم بالنسبة إلى شاب يافع في بلد غريب، لأنه

---

(٧) شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن يحيى، ابن فضل الله العمري، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، تحقيق دوروتيا كرافولسكي (بيروت: المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٦)، ص ١٤٥ ـ ١٤٧؛ المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٩، ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٨) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥؛ ابن فضل الله العمري، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٩) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٢٩٧.

(١٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٥. للمزيد من المعلومات أنظر: أبو العبّاس أحمد بن علي القلقشندي، «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية (القاهرة: المؤسّسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت)، ج ٣، ص ٣٤٠.

يميّزه من غيره من السكان. ولعلّ اختلاف اللهجة سبّب له بعض المشكلات مع الموظفين الصغار في ديوان الإنشاء فيما بعد، ولكنه تغلّب عليه إما بتطوير لهجته بعض الشيء وإما بتعويد المصريين الذين تعامل معهم عليها. وقد يكون لمس في أهالي مصر بعضا ممّا لمسه المؤرخ الأندلسي ابن سعيد المغربي،(١١) الذي زارها قبله. وقد علق على أهلها قائلا: «ولم أرَ في أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط حتى أنهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو الميلين. وجملة الحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام. وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة وكثرة الممازحة والألفة ما يطول ذكره.»(١٢)

وإذا كان عبد الرحيم قد لمس أشياء مماثلة لما لمسه ابن سعيد من أهل مصر، فإنه لم يُشر إليها في كتاباته، لأنه ربط مصيره منذ البداية بمصير أهل مصر الذين خدمهم في فترة نفوذه، كما ربط ما بين مصر وعسقلان في جهاده.

شاهد عبد الرحيم في كل من مصر والقاهرة حياة علمية دينية مزدهرة مختلفة، إلى حد ما، عن حياة عسقلان العلمية الدينية المحدودة والموجّهة إلى الجهاد. فقد رأى في مصر عددا كبيرا من الجوامع، كجامع عمرو بن العاص المعروف بالجامع العتيق، وسط الفسطاط، وجامع ابن طولون (تم بناؤه سنة/ ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م) خارج الفسطاط، في القطائع. وكلا الجامعين ظل حتى عصرنا هذا يشهد على تاريخ مصر الإسلامي، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المساجد الصغرى عُرفت بمساجد الخُمس. ويذكر في بناء هذه المساجد الصغرى أنه عندما دب الفناء بأهل مصر في عهد كافور، خفّت الزكاة كثيرا، فجُمع ما أمكن جمعه ليُسلّم إلى كافور فرفضها قائلا: «ابنوا بها المساجد، واتّخذوا لها الأوقاف، فكان سبب زيادة الكثرة فيها.»(١٣)

كانت هذه المساجد، مثل جامع عسقلان مراكز للعبادة والعلم إلا إن جامع عمرو بن العاص اشتهر فيها أكثر من غيره لارتباطه بالصحابة والفتوحات الإسلامية والقبائل العربية التي اختطّت حوله. وكان جامع عمرو بن العاص كبيرا، وصفه ابن سعيد المغربي عندما رآه بأنه «قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حُصرُه التي تدور مع

---

(١١) مؤلّف «المُغرب في حلى المغرب».

(١٢) المقريزي، «الخِطط»، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٤٢.

(١٣) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٤٢؛ المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٤١. يروي المقريزي عن ابن سعيد المغربي قوله أنه استحسن حلقات المتصدّرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدّة أماكن، وسأل عن موارد أرزاقهم فأُخبر أنّها من فروض الزكاة. المقريزي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤١.

بعض حيطانه وتُبسط فيه.» وقد أشار إليه في بعض انطباعاته قائلا: «وأبصرتُ العامّة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق. والبيّاعون يبيعون فيه أصناف المكسّرات والكعك وما جرى مجرى ذلك، والناس يأكلون فيه في أمكنة عديدة غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك، وعدّة صبيان بأواني ماء يطوفون على من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منهم رزقا. وفضلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع وفي زواياه، والعنكبوت قد عظم نسجه في السقوف والأركان والحيطان، والصبيان يلعبون في صحنه، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كُتُب فقراء العامة، إلا أنه مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحُسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع إشبيلية.»[١٤]

ومع ما يصفه ابن سعيد المغربي من إهمال السلطات المسؤولة لجامع عمرو بن العاص، إهمالا ربما كان مردّه إلى تركيز الفاطميين على الجامع الأزهر وجوامعهم العديدة ضمن القاهرة بدلا منه، فإنه ظلّ مركزا دينيا علميا شعبيا، كما ظلّت جذور السنّة قوية في رحابه ومنه أخذت القوى السنية تتجمّع للردّ على الفاطميين والفرنج معا فيما بعد.

ظلّ جامع عمرو بن العاص مركزا علميا سنّيا ذا شأن منذ بنائه، إلى أن أدخل صلاح الدين المدارس إلى مصر ونشرها الأيوبيون وكبار دولتهم، بمن فيهم عبد الرحيم أو القاضي الفاضل فيما بعد.

كان العلماء من السنّة يتحلّقون في هذا الجامع في عهد الفاطميين، يحيط بهم طلاب العلم لقراءة القرآن ودراسة الفقه والنحو. وكانت لهم أجور جارية، تُدفع لهم من فروض الزكاة. كما كان بعض العلماء الوافدين على مصر من الأندلس أو من الشرق يدرّس في هذا الجامع. ولعل من أشهر الفلسطينيين (المقادسة) الذين وفدوا على مصر قبل عبد الرحيم (القاضي الفاضل) ودرّسوا في هذا الجامع، الفقيه الشافعي أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي، الذي وصفه الحافظ السلفي (ت ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) بقوله أنه كان أفقه الفقهاء في مصر، وعليه قرأ أكثرهم.[١٥]

ومع أن جامع عمرو بن العاص ظلّ معهدا لدراسة العلوم الدينية واللغوية، فقد شهدت مصر خلال الفترة التي عاشها عبد الرحيم فيها، حركة دينية شعبية تدور حول أشخاص لهم أتباعهم أو مريدوهم من بين المصريين، ولهم حلقاتهم أو نشاطاتهم الخاصة إما في دورهم وإما في الجوامع. ومن هؤلاء الزاهد والشاعر أبو عبد الله محمد

---

(١٤) المقريزي، «الخطط»، ج ١، ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(١٥) محمد كامل حسين، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٧.

بن إبراهيم بن ثابت الكناني المعروف بابن الكيزاني (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م)، المشهور بشعر الزهد بصورة خاصة. وقد كانت لابن الكيزاني طريقة دينية وأتباع «ينسبون إليه ويعتقدون مقالته».[١٦] وزاره أسد الدين شيركوه عندما قصد مصر أول مرّة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣ ـ ١١٦٤م، ولربما تحدث معه عن مخططاته المستقبلية. ولم يكن ابن الكيزاني الزعيم الروحي الشعبي الوحيد في مصر آنذاك، فقد شاركه في هذه الزعامة الزاهد أبو عمرو بن مرزوق الذي كان للناس اعتقاد كبير به وبأقواله وبكراماته، وكان له موكب ديني سنوي يتجّمع فيه أهل مصر ليشاهدوه ويتبرّكوا به. فعندما يأتي نصف شعبان كان يركب حمارا، يحيط به جماعة إلى ذيل الجبل، فيصعد الجبل بمفرده ماشيا إلى مكان معيّن يختلي فيه، اتّباعا لسنّة الرسول، في تلك الليلة، ثم يغادر في الليلة التالية ويلتقي على سفحه مريديه وأتباعه المجتمعين للقائه، فيحتفلون بنزوله احتفالا كالعيد، ثم يركب حماره ثانية وينزل بعد صلاة المغرب إلى مسجد بقصد زيارته، فيجتمع أهالي مصر على السطوح والدكاكين والطرقات لمشاهدته، ثم يجلس ليعمل الختمات.[١٧]

وصادف في الفترة التي أمضاها القاضي الفاضل في مصر، وجود زاهد آخر فيها من دمشق، عُرف بزين الدين علي بن نجا الأنصاري، الفقيه الحنبلي المعروف بالواعظ. وقد انتقل ابن نجا إلى مصر في وزارة الملك الصالح طلائع بن رزّيك (ت ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م)، فرحّب به وأنعم عليه، ومنحه في غضون ثلاثة أعوام ما يزيد على العشرين ألف دينار، عدا بعض الدور، فاستقر فيها حتى وفاة ابن رزّيك.[١٨] ولعل كرم ابن رزيك ومعاملته الخاصة لابن نجا راجعان إلى رغبته في توطيد العلاقات بين مصر والشام في عهد نور الدين زنكي. وليس من المستبعد أن يكون قدوم ابن نجا إلى مصر واستقراره فيها، للسفارة بين نور الدين والملك الصالح، وللاطلاع في الوقت ذاته على أحوال مصر، وللمساهمة في الإحياء السنّي فيها، ولتهيئة الرأي الشعبي المصري لمخططات نور الدين المستقبلية في مصر. وقد أثبتت الأحداث التالية لإقامته في مصر دوره في هذه التهيئة. فقد اندمج زين الدين بن نجا الواعظ في زهّاد مصر ووُعّاظها. فكان يعظ في جامع القرافة، وعمل على الاتصال بالشيخ أبي عمرو بن مرزوق، ثم

(١٦) أنظر، في سيرة ابن الكيزاني: ابن خلّكان، مصدر سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٦١. يشير إرينكرويتز (Ehrenkreutz) إلى أنّ أسد الدين اتصل حال دخوله مدينة مصر بمجموعة من الفقهاء السنّة، بينهم الكيزاني، وابن مرزوق، وابن نجية (زين الدين علي بن نجا الواعظ).

Andrew Ehrenkreutz, *Saladin* (Albany: State University of New York press, 1972), p. 36.

(١٧) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٦٥.

(١٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٦٥؛ ابن خلكان، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٠.

ذهب للقائه بعد إحدى خلواته السنوية، وخلا به وعرّفه بنفسه فسأله ابن مرزوق: هل تعرف بالشام أحدا يقال له شيركوه. فقال ابن نجا: نعم أمير من أمراء نور الدين. فقال: هذا يأتي إلى هذه البلاد ويملكها، وكل ما تراه من هذه الدولة يزول حتى لا يبقى أثر عن قريب. وانصرف ابن نجا عن الشيخ ابن مرزوق وقد تعجّب من قوله.[19]

ويبدو أن ابن نجا عاد إلى دمشق بعد لقائه ابن مرزوق، واجتمع إلى نور الدين وأعلمه بتنبؤ ابن مرزوق، فقال له نور الدين بحسب رواية المقريزي: «لا تخبر أحدا بذلك.» ومضى الوقت حتى قصد شاور نور الدين في دمشق مستعينا به على محاربة خصمه ضرغام داخل مصر، فوافق نور الدين بعد تردد، ثم استدعى قائده أسد الدين شيركوه من حلب في رجب ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، وأمره بمصاحبة شاور إلى مصر فامتنع. وعندها استدعى نور الدين ابن نجا، وخاطبه قائلا: «حديث الرجل الزاهد الذي بمصر أأخبرت به أحدا؟ فقال: معاذ الله، والله ما سمعه مني سوى السلطان (نور الدين). فقال: امضِ إلى أسد الدين شيركوه واحكِ له الخبر. فمضى إلى شيركوه وقصّ عليه الحديث بنصه فطابت نفسه للسفر.»[20]

هكذا كانت مدينة مصر عندما دخلها القاضي الفاضل أول مرّة، ولعله تاه في بادىء أمره في متاهاتها وتخبط في شوارعها، ثم ما لبث أن عرف مداخلها ومخارجها بالتفصيل، كما عرف ناسها. وبمرور الوقت كوّن لنفسه مجموعة من المعارف والأصحاب، وتعرّف إلى أصحاب الطرق والزهاد والعلماء. وربما استقى من علماء الجامع العتيق، جامع عمرو بن العاص، في أوقات فراغه في الفسطاط فأضاف إلى تلقّنه في عسقلان علوما جديدة، ووسّع آفاقه.

ولكن حياة القاضي الفاضل لم تتوقّف على الفسطاط وحدها، فقد انضم منذ دخوله مصر إلى ديوان الإنشاء الذي كان، كغيره من الدواوين في القاهرة، داخل القصر الكبير. ولهذا اضطر إلى أن يتنقّل يوميا بين مصر والقاهرة، والمسافة بين المدينتين لا تزيد على الميلين ولكنّ المسافرين كانوا يقطعونها ركوبا على الحمير، فكانت تبدو أنها رحلة طويلة. وقد وصف ابن سعيد المغربي مشهدا من مشاهد التنقّل بين المدينتين بقوله: «لما استقررت بالقاهرة تشوّقت إلى معاينة الفسطاط (مصر) فسار معي أحد أصحاب العزمة، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدّة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد. فركب (مرافق ابن سعيد) حمارا وأشار إلي أن

---

(١٩) ابن خلّكان، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٠؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٦٥، وهامش ٣ من الصفحة ذاتها.

(٢٠) المقريزي، «اتعاظ»، ج ٣، ص ٢٦٦.

أركب حمارا آخر فأنفت من ذلك جريا على عادة ما ألفته في بلاد المغرب، فأعلمني أنه غير معيب على أعيان مصر. وعاينت الفقهاء وأصحاب البزّة الظاهرة يركبونها، فركبت، وعندما استويت راكبا أشار المكاري على الحمار فطار بي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعانيت ما كرهته. ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده، وقلة رفق المكاري وقفت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت:

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمير وكحل الغُبار
وخلفي مُكارٍ يفوق الرياح ولا يعرف الرفق بهميّ استطار
أناديه مهلًا فلا يرعوي إلى أن سجدتُ سجودَ العثار
وقد مدّ فوقي رواق الثرى وألحد فيه ضياء النهار

فدفعت للمكاري أجرته، وقلت له إحسانك إليّ أن تتركني أمشي على رجليّ. ومشيت إلى أن بلغتها (الفسطاط).»[٢١]

وقد لا تختلف تجربة المسافرين بين مصر والقاهرة كثيرا عن تجربة ابن سعيد، ولو أنه بالغ في وصفها، لأنه أنف من ركوب الحمير وعدّها إهانة لإنسان ذي قدر مثله، تعوّد على ركوب الأحصنة أو غيرها.

وأما عبد الرحيم البيساني فكان يسافر يوميا على الحمار من مصر إلى القاهرة، يقصدها صباحا ويغادرها مساء من دون أن يتذمر من معاناة الطريق. ولقد ظلّ الحمار وسيلة تنقّله المفضّلة، حتى بعد أن أصبح وزيرا ذا إمكانات تخوّله اختيار وسائل تنقّل أُخرى.[٢٢]

وعندما دخل عبد الرحيم القاهرة أول مرة، رأى فيها مدينة تختلف عن كل من عسقلان ومصر؛ فهي مدينة مخططة تخطيطا حسنا، واسعة الشوارع، حديثة المباني، عديدة الحدائق والبساتين والمتنزهات جوامعها كثيرة، وقصورها عديدة، وسكّانها يختلفون عن سكّان مصر بأشكالهم وألوانهم ولباسهم ولغاتهم وطبيعتهم. لقد رأى في القاهرة مدينة دولية بمفهوم عصره، ففيها حارة يسكنها الأرمن الذين لا يتكلمون العربية، وإنْ تكلّموها فبشيء من اللكنة واضح، لهم أسواقهم وكنائسهم وأماكن اجتماعاتهم وبيوتهم الخاصة، وكأنهم فئة مستقلّة لا علاقة لها بالشعب المصري. ورأى أيضا السودان أو النوبيين يمشون في شوارع القاهرة بأعداد هائلة، يحرسون مبانيها وقصورها، ولو أن بيوتهم كانت خارجها. وكانوا فِرَقا مختلفة لكل منها لباسها الخاص ولهجتها الخاصة، فقد

---

(٢١) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٤١.
(٢٢) ابن إياس، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٧٥.

يتفاهمون باللغة ذاتها أو لا يتفاهمون، ولبعضهم لكنات يصعب فهمها، ولكنهم كانوا عنصرا ذا شأن في القاهرة، ووجودهم ملموس، لهم رهبة وهيبة. وكانوا قد بدأوا يفقدون شيئا من نفوذهم الشديد الذي استمدّوه من أم الخليفة المستنصر السودانية الأصل مثلهم، وقد جلبتهم من إفريقيا والنوبة بأعداد هائلة، ومنحتهم سلطات شبه مطلقة.(٢٣) الأمر الذي ضايق غيرهم من سكان القاهرة، ومن ثَمّ فقد كثر شغبهم. ورأى في القاهرة أيضا خِططا أو حارات يسكنها المغاربة المنتمي بعضهم إلى قبائل عربية وبعضهم إلى البربر، منهم البرقية الذين اشتهر منهم الوزير ضرغام اللخمي، وزويلة، وغيرهم. وعاش إلى جانب هذه المجموعات المختلفة الأصول مجموعات أخرى من الأتراك والديلم والأكراد والعرب.(٢٤) ومع كل ما رآه القاضي الفاضل في القاهرة من أشكال وألوان زاهية ظاهريا، فإن الحياة فيها كانت رسمية، جافة، تفتقر إلى الروح الشعبية التي تميّزت بها مصر. فقد كانت الفئات المختلفة منعزلا بعضها عن بعض بأحيائها، ولكنّها تتصارع بشأن النفوذ، بحيث تعكّر صفو الحياة في القاهرة. ولكم وقعت خلافات مسلّحة بين الفرق العسكرية المختلفة فيها، وهذا ما أضعف الخلافة الفاطمية وأدى في النهاية إلى سقوطها.(٢٥)

كانت القاهرة عاصمة الفاطميين الذين عزلوا فيها أنفسهم عن الشعب المصري، إذ أحاطوها بسور وحرّموها على العامة، بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يدخلها من دون إذن خاص. وإنْ دخلها الرسل والأمراء وذوو النفوذ، فإنهم يدخلونها بين صفوف من الحرس والخدم المسلّحين حتى يصلوا إلى مجلس الخليفة الذي كان يعيش بعيدا عن مرأى الشعب.(٢٦)

---

(٢٣) لوصف مصر (الفسطاط) أنظر: ناصر خسرو، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠ ـ ١٠٦، ابن فضل الله العمري، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٥ ـ ١٤٧. للسودان: يذكر المقريزي أن أمّ الخليفة المستنصر التي كانت جارية سوداء أكثرت من شراء السودان، وأسكنتهم القاهرة، ويقال إن عددهم بلغ في أيّامها نحو ٥٠,٠٠٠. المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٣٥. وأمّا بالنسبة إلى الأرمن فيذكر المقريزي أيضا أن عددهم بلغ ٣٠,٠٠٠ سنة ٥٣١ هـ/١١٣٦ م. المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢٤) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٦١ ـ ٣٦٤؛ ناصر خسرو، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢٥) راجع رواية المقريزي لأحداث سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٣ م. المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٤٩، وهامش ٣ من الصفحة ذاتها.

(٢٦) «Cairo: A Life Story of 1000 years, 969-1969» (Cairo: Ministry of Culture, Egyptian Publishing Organization, 1969), pp. 17-18;

المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

لوصف القاهرة، وأسواقها وبيوتها، يُراجَع: ناصر خسرو، مصدر سبق ذكره، ص ٨٨ ـ ٩٣.

اتصلت القاهرة بمصر وغيرها بعدد من الأبواب منها: باب زويلة المفضي إلى مصر؛ وبابان من جهة القاهرة البحرية (النهر) هما باب النصر المفضي إلى عين الشمس وباب الفتوح؛ وبابان من الجهة الشرقية، عُرف أحدهما في عهد المقريزي بالباب المحروق والآخر بباب البرقية، يفضيان إلى جبل المقطّم؛ وبابان في الجهة الغربية من القاهرة المطلة على الخليج الكبير، أحدهما باب سعادة والآخر باب الفرج؛ وباب ثالث عُرف بباب الخوخة. وقد بنيت هذه الأبواب مع الأسوار لحماية القاهرة وسكانها من الفتن الداخلية والهجمات الخارجية، ولكم جرت حولها وقائع بين الفرق العسكرية في القاهرة وبين أهالي القاهرة والفرنج، وقائع اشترك فيها القاضي الفاضل بعد أن كبر وأدلى بدلوه في السياسة المصرية.

ثالثا: بين القصور والدواوين

كان عبد الرحيم يتّجه يوميا من مصر شمالا إلى القاهرة فيتوقّف عند باب زويلة، مركز المواصلات بين القاهرة والفسطاط، ويغيّر رَكُوبته لدخول القاهرة، فيمرّ بباب زويلة (جنوب القاهرة) متّجها إلى ديوان الإنشاء في القصر الشرقي الكبير. ولا بدّ من أن يكون وجود الديوان في القصر قد مهد الطريق لعبد الرحيم، هذا الإنسان البسيط، لأن يصبح من كبار رجال الدولة، ولأن يأخذ نصيبه كاملا من حياة القصر والديوان. فقد كان القصر الشرقي الكبير يضمّ بين جوانبه مساكن للخلفاء وعائلاتهم، وقاعات واسعة للاستقبال كان أكبرها قاعة الذهب التي يجلس فيها الخلفاء أيام الاثنين والخميس للاستقبال. وكان يُعمل فيها سماط في شهر رمضان والعيدين للأمراء وفيها سرير الملك، وهو السرير الذي شاهد فيه وفد الإفرنج الخليفة العاضد (سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦ ـ ١١٦٧م)، ووصفه المؤرخ اللاتيني وليم الصُّوريّ بشيء من الإعجاب. بقوله أنه عندما وصل الوفد الفرنجي إلى هذه القاعة، انزاحت الستائر المطرّزة باللؤلؤ والذهب، التي كانت تخفي العرش، وظهر الخليفة جالسا على عرش من الذهب، محاطا بمستشاريه والطواشية.[٢٧] ولكم دخل عبد الرحيم هذه القاعة فيما بعد.

وكما أن القاهرة كانت عاصمة الفاطميين، فإن القصر الشرقي كان مركز حكمهم، فيه جميع الدواوين المشرفة على مختلف نواحي الإدارة المركزية والإقليمية، بما فيها كل من ديوان الجيوش والرواتب وديوان الإنشاء، اللذين عمل فيهما عبد الرحيم قبل اتصاله بصلاح الدين. كما كانت في هذا القصر وحوله جميع خزائن الدولة، كخزانة الكتب

(٢٧) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٨٥؛
William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 320.

المشهورة في القصر، وقد خبرها عبد الرحيم، وتردّد إليها في أثناء عمله ودراسته في الديوان، ثم ورث معظمها بعد القضاء على الفاطميين؛[٢٨] وخزانة البنود الملاصقة للقصر، وقد اتّخذها الفاطميون ووزراؤهم سجنا ضمّ بين جدرانه بعض كبار رجالات الدولة وأدبائها، مثل ابن أبي الشخباء العسقلاني الكاتب (٤٨٢هـ/١٠٨٩م). وقد عرف عبد الرحيم من هؤلاء السجناء القاضي المهذّب ابن الزبير الذي سجنه الوزير شاور فيها. ولقد توسل ابن الزبير بالكامل ابن شاور، راعي عبد الرحيم، لإطلاقه من هذا السجن واصفا إيّاه بشعره:

أيا صَاحِبَي السجن خلّيا	نسيم الصبا يرسل إلى كبدي نفحا
وقولا لضوء الصبح هل أنت عائد	إلى نظري أن لا أرى بعدها صُبحا
ولا تيأسا من رحمة الله أن أرى	سريعاً بفضل الكامل العفو والصفحا

* * *

أيا صَاحِبَيْ سجن الخزانة خلّيا	من الصبح ما يبدو سناه لناظري
فوالله ما أدري أطرفي ساهر	على طول هذا الليل أم غير ساهر[٢٩]

ولا بدّ من أن يكون عبد الرحيم قد رأى في هذه الخزانة عِبرًا تذكّره بمصير موظّفي الدولة وكتّابها. وبالإضافة إلى خزانة البنود، كان هناك دار كبرى خارج القصر تُعرف بخزائن دار أفتكين، تحتوي على جميع متطلّبات القصور من مأكولات. وكان صاحبها أفتكين قد انشقّ مع نزار بن المستنصر فقتله الوزير الأفضل، وربما تمّ قتله في داره هذه. ولقد حصل عبد الرحيم على هذه الدار في عهد صلاح الدين، أي بعد دخوله القاهرة بنحو ربع قرن، وجدّدها وجعلها مدرسة عُرفت بمدرسة القاضي الفاضل، وبنى بقربها منزلا له.[٣٠]

وصف ناصر خسرو القصر الكبير هذا عندما زار القاهرة نحو سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، بقوله أنه عامر بالسلالة الفاطمية وموظّفيها. فأشار مثلا إلى أنه عاش في القصر هذا نحو ثلاثين ألف جارية. وكان يحرسه ألف حارس، منهم خمسمئة فارس وخمسمئة راجل. ووصفة المقريزي بأنه كان فيه عشرة آلاف من الأشراف، وثمانية آلاف من الخدم. وذكر ابن عبد الظاهر أنه لمّا استولى صلاح الدين على القصر في إثر سقوط الخلافة الفاطمية، وجد فيه اثني عشر ألفا، كلهم من الإناث عدا الخليفة وأولاده.

---

(٢٨) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٩٧ ـ ٤٠٣؛ ج ٢، ص ٣٦٦.
(٢٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢٤.
(٣٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢٣.

وعلى الرغم من بعض الاختلاف والمبالغة في الأعداد والأرقام الواردة عن سكان القصر الكبير، فإنه يمكن القول إن هذا القصر ضمّ قسما كبيرا من العائلة الفاطمية وحواشيها.[٣١] ولقد وصف ناصر خسرو مشهدا ممّا كان يجري حول القصر يوميا، قائلا أنه بعد الانتهاء من صلاة العشاء «تضرب الأبواق والطبول، وتُعزف الصنوج ثم يصطف الحراس في شكل دائرة يداومون عليها حتى مطلع الشمس.»[٣٢] كما يذكر المقريزي أن بعض الخلفاء كانوا يجلسون في منظرة في أعلى القصر، ويشاهدون الصوفيين من نافذة عُملت لذلك، وألويتهم بين أيديهم والشموع تضيء لهم. وكانت تقام لهم الموائد وعليها ما لذّ وطاب من أنواع الأطعمة.[٣٣]

جاور القصرَ الشرقيّ مبنى كبيرٌ عُرف بدار الوزارة، وهي الدار التي سكنها معظم الوزراء الفاطميين الذين عاصرهم عبد الرحيم (القاضي الفاضل) منذ سنة ٥٤٣ إلى ٥٦٧هـ/ ١١٤٨م إلى ١١٧١ ـ ١١٧٢م، وقد دخلها القاضي الفاضل أكثر من مرّة وجلس فيها أحيانا مع الكتاب والشعراء ممن أحاطوا بالوزراء، وأحيانا مع الوزراء أنفسهم، ولا سيّما في عهد شاور وابنه الكامل (ت ٥٦٤هـ / ١١٦٨ ـ ١١٦٩م)، ومن بعدهما مع صلاح الدين الذي سكنها في بداية حكمه، ثم أسكنها ابنه العزيز من بعده. ولقد عرف القاضي الفاضل دار الوزارة خلال عهدين ساهم فيهما مساهمة كبيرة. وهي الدار التي شاهد فيها بالذات الكثير من المؤامرات المَحُوكة، ومصرع أول وزير راعٍ له وصديق وهو رزّيك بن الصالح بن طلائع (ت ٥٥٨هـ/ ١١٦٢ م).[٣٤]

ضمّت القاهرة عددا من القصور بالإضافة إلى القصر الشرقي الكبير، بينها القصر الغربي، وهو قصر مشرف على البستان الكافوري، كان الخلفاء يقصدونه للنزهة على الخليج. وهذا القصر متصل بسراديب تحت الأرض بالقصر الشرقي، وفيه قاعة المارستان وبقربه بيت الحكمة (دار العلم)، وتقع بينه وبين القصر الشرقي ساحة واسعة عُرفت بساحة ما «بين القصرين»، وقد وصفت بأنها تتسع لعشرة آلاف من العسكر ما بين فارس وراجل، وهي التي قضى فيها صلاح الدين على ثورة السودان في بداية عهده.[٣٥]

---

(٣١) ناصر خسرو، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩؛ حسن إبراهيم حسن، «تاريخ الدولة الفاطمية: في المغرب ومصر وسورية، وبلاد العرب» (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨١)، ص ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٣٢) حسن إبراهيم حسن، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣١.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٥٣١؛ المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٨٤.

(٣٤) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٨٤؛ اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٣٥) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤.

هكذا كانت القاهرة عندما دخلها عبد الرحيم طالبا يافعا يرنو إلى الترقّع والتقدّم في دواوينها. ولم ينبهر بمظاهرها العمرانية التي لم يرَ لها مثيلا في مصر، فحسب، بل بهرته مظاهرها المعيشية أيضا. فهي مدينة تدور حول الخلافة وكل ما يتّصل بها من مظاهر يهدف بعضها إلى الدعاية، وبعض آخر إلى الحفاظ على الدعوة وما حولها، وبعض ثالث إلى التسلية وإلهاء سكان المدينة المختلفي الأجناس والأهواء، وربما إلى توحيدهم وكسب ولائهم. فقد كانت للخلفاء مواكب أيام السبت والثلاثاء وأيام الجُمع، وفي عيدي الفطر والأضحى، وفي مناسبات عديدة، كمناسبة رأس السنة ويوم مولد الرسول وأول رمضان والجُمع الثلاث الأخيرة منه، ومولد علي بن أبي طالب، ومولد كل من الحسن والحسين، ومولد فاطمة، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب ونصف رجب وأول شعبان ونصف شعبان ورمضان وجبر الخليج ويوم النوروز ويوم الغطاس ويوم الميلاد وغيرها.[٣٦]

كانت المواكب والأعياد والمناسبات هذه مجالا لإظهار هيبة الخلافة وتقريب الخلفاء من أتباعهم، فقد كانوا يمدّون الأسمطة الفخمة للناس، ويوزّعون بل يغدقون الهدايا على من يريدون في هذه المناسبات. وكان عبد الرحيم في بداية أمره يقف جانبا متفرجا على ما يجري، ولربما استهوته مظاهر القوة والغنى هذه في بادىء أمره، ثم ما لبث أن اشترك فيها مع غيره من أصحاب الدواوين ونهل منها، وأخيرا ثار عليها فيما بعد وهاجمها في أقواله وأفعاله، وساعد صلاح الدين في القضاء عليها.

رابعا: في ديوان الإنشاء

دخل عبد الرحيم ديوان الإنشاء طالبا في السابعة عشرة من عمره، وظلّ يتدرّج فيه وفي غيره من الدواوين إلى أن تولّى رئاسته بعد ثلاثة وعشرين عاما من دخوله القاهرة، وتولاه بعد أستاذه الشيخ موفق الدين بن الخلال مباشرة.

كان ديوان الإنشاء يشبه وزراة الخارجية في وقتنا هذا، فمنه تصدر المراسلات الرسمية الخارجية لحكام مصر إلى غيرهم من الحكام المسلمين وغير المسلمين، ويشرف رئيسه على المفاوضات المتعلّقة بأمور داخلية أو خارجية ثم يسجّلها، كما يسجّل المعاهدات والمهادنات بين حكام مصر وغيرهم. وديوان الإنشاء أيضا منسّق للإدارة الداخلية، لأن جميع المراسلات ترد عليه من مختلف نواحي الدولة، فيقرأها رئيسه أو مساعدوه ويوزّعون نسخا عنها إلى جميع الجهات المختصّة، بعد إيداع النسخ الأصلية

---

(٣٦) حسن إبراهيم حسن، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤٧ ـ ٦٤٨.

في أماكن حفظها الخاصة.

وبالإضافة إلى هذه المسؤوليات فإن ديوان الإنشاء يتولّى أهم ناحية إدارية في الدولة، وهي الإشراف على العيون والرسل. ويقع ضمن هذه المسؤوليات تدريب الرسل ومراقبتهم، وبث العيون داخل مصر وخارجها، والاطّلاع على جميع التقارير الواردة على الديوان، بالإضافة إلى مراقبة البريد وما يتعلّق به من تدريب للعاملين فيه، ومراقبة أبراج حمام الزاجل، والإشراف على العاملين في الأبراج.(٣٧)

وقد وصف القلقشندي أهمية هذا الديوان بقوله:

«إنه جزء عظيم من أسّ الملك وعماد ملكه، وعلى صاحب ديوان الإنشاء مداره، وإليه رجوع تدبيره، واختيار رجاله وتصريفهم. فيجب عليه الاحتياط في أمر الجواسيس أكثر مما يحتاط في أمر البريدية والرسل، لأن الرسول قد يتوجّه إلى العدو، والجاسوس لا يتوجّه إلا إلى العدو، وإذا وثق بجاسوسه فإنه إلى ما يأتي به صائر، وعليه معتمد، وبه فاعل.»(٣٨)

تدرب عبد الرحيم وهو في الديوان على هذه الناحية المهمة من عمله، التي أتقنها خير إتقان فيما بعد عندما أصبح رئيسا للديوان ووزيرا لصلاح الدين.

كان يساعد رئيس ديوان الإنشاء المعروف بصاحب الدست (وهو كما ذكرنا القاضي موفق الدين ابن الخلال في فترة دراسة عبد الرحيم) سبعة من الكتاب، يقوم كل منهم بكتابة نوع معيّن من المراسلات والوثائق. وأول هؤلاء، كاتب ينشيء ما يكتب من المكاتبات والولايات، وهو أعلى الكتّاب مكانة. وهذا الكاتب يسجّل العهود والتقاليد في الولايات، والكتب في الحوادث ذات الشأن والمناسبات العظيمة التي تُقرأ فيها الكتب على المنابر.

وأما الكاتب الثاني فهو كاتب المراسلات بين حاكم مصر وغيره من الحكّام، ولذلك يتطلب منه أن يكون على دين الحاكم، لما يحتاج إليه من مجادلة ودفاع عن الدين أمام غيره من الحكّام.

والكاتب الثالث مختص بالكتابات المتعلّقة بأمور الدولة الداخلية، إذ يكتب عن رجالات الدولة من ولاة وقضاة ومشارفين وغيرهم، كما ينشيء تقليدات الموظّفين الصغار والأمانات، وكتب الأيْمان. والكاتب الرابع يكتب المناشير، والكاتب الخامس عمله تبييض ما ينشئه المنشيء مما يحتاج إلى حسن الخط، كالعهود والبيعات. والكاتب السادس يتصفّح ما يُكتب في الديوان من إنشاءات وتقليدات ومكاتبات وغيرها. ووظيفة

(٣٧) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١١٨ ـ ١١٩، ١١٤.
(٣٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٣.

الكاتب السابع كتابة التذاكر والدفاتر المضمّنة لمتعلّقات الديوان، ومن جملة أعماله إعداد فهارس للكتب الصادرة والواردة على الديوان، بحسب السّنة والشهر واليوم، وإعداد فهارس للإنشاءات والتقاليد والأمانات والمناشير وغيرها بحسب شهور السنة، وإعداد فهرس لترجمة ما يُترجم من الرسائل الواردة على الديوان باللغات الأجنبية. وكان هناك، بالإضافة إلى هؤلاء الكتّاب، عدد من النسّاخ والنقّاشين والخزّان للمكاتبات.[٣٩]

درس عبد الرحيم في ديوان الإنشاء موضوعات أخرى، بالإضافة إلى البلاغة والنثر الفني وأسس الكتابة الصحيحة التي تلقّاها على يد ابن الخلال وابن قادوس، وبينها قواعد اللغة العربية من نحو وصرف، لأن هذه العلوم «رأس مال الكاتب، وأسّ كلامه وكنز إنفاقه.» وعلم الغريب من ألفاظ اللغة، لانتشار الغريب من الألفاظ في القرآن والحديث والشعر، كما درس الأمثال والخطب، وهذه جميعها من مصادر الكاتب.

ولا بدّ من أن يكون قد درس موضوعات أُخرى تتجلّى في كتاباته وكان العلم بها مطلوبا من الكتّاب، مثل التاريخ والعقيدة الإسماعيلية. فالعلم بالعقيدة الإسماعيلية كان فرضا على الكتّاب، لأنهم يستشهدون بالكثير من الشعارات الإسماعيلية في كتاباتهم. ولمّا كان ديوان الإنشاء يدرّب الطالب على فن الكتابة في الدواوين كافة، مثل ديوان الجيش وديوان المال، فلا بدّ من أن يتدرب الطالب على الإدارة المالية بصورة خاصة، وهي تتطلب المعرفة بجغرافية مصر ونوعية الأراضي وطرق الري والإقطاعات وغيرها.[٤٠]

وكان الطالب في ديوان الإنشاء يتعلّم هذه الأمور بالدراسة وبالتدريب في الديوان والاطلاع على الوثائق فيه. وتدلّ كتابات القاضي الفاضل على إلمام شامل بهذه الأمور.

كان عبد الرحيم بحكم تدريبه وعمله التدريبي في ديوان الإنشاء، يتصفّح ما يقع بين يديه من الوثائق، وربما حفظه جيدا كنموذج للكتابة الحسنة. ومن الكتّاب السابقين له الذين أُعجب بأسلوبهم ابن أبي الشخباء العسقلاني. وربما تمثّل بأسلوب ابن الشخباء في كتاباته إلى حدّ أن بعض الكتّاب المتأخرين اتهمه بتقليد أسلوبه هذا. وليس من المستبعد أن يكون عبد الرحيم قد تأثّر بابن الشخباء بالذات لأنه كان مثله من عسقلان،[٤١] ولأنه رأى في طريقته البلاغية ما يميّزها من غيرها من الطرق.

ولئن دلّت تهمة تقليد عبد الرحيم البيساني لأبن الشخباء العسقلاني على شيء، فعلى أنه عمل في بداية أمره بديوان الإنشاء كخازن للرسائل، وقد فسح له هذا المجالَ

(٣٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٠ - ١٣٥، ١٥٠.
(٤٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٠ - ١٤٢، ١٤٥ - ١٤٦.
(٤١) ابن خلكان، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٨٩ - ٩٠.

ليطلّع على كتابات سابقيه من الكتّاب.

وبعد أن أنهى عبد الرحيم فترة تدريبه في الديوان أخذ يصعد السلم فيه، فبدأ كخازن، ثم ارتقى إلى كاتب سابع أي مفهرس للكتب الصادرة عن الديوان والواردة إليه. ونلمس في المتجدّدات التي كتبها في أمور مصرية اجتماعية واقتصادية انعكاسا لتجربته كمفهرس، فهي مختصرة ومرتّبة بتسلسل الأيام والشهور والسنين. ويمكن القول أنه من خلال قراءته للإنشاء والتقاليد والمناشير التي كان يفهرسها، زاد في محصوله من أساليب كتابة الوثائق التي كتب أمثالها حتى عهد صلاح الدين، حين أصبح رئيسا لديوان الإنشاء.

كان ديوان الإنشاء بالإضافة إلى مسؤولياته المتفرعة، أحد معاهد العلم العديدة في القاهرة، ومهمّته تدريب الطلبة على الكتابة والإدارة ثم دفعُهم إلى العمل فيها في دواوين مصر المركزية أو الإقليمية العديدة. فهو معهد تدريبي أكثر مما هو علمي. ولكنّ القاهرة كانت تزخر أيضا بالمعاهد العلمية والحلقات الثقافية، بعكس مصر. فمن مراكز ثقافتها القصر الكبير الذي كان يضمّ، في جانب منه، مجالس للعلماء والدعاة، يدرّسون فيه علوم أهل البيت.[٤٢]

وفي جانب آخر منه خزائن الكتب أو المكتبات التي وصفها المسبّحي بأنها كانت أربعين خزانة، بعضها داخل القصر يصعب الوصول إليه، وبعضها في خزائن القصر الخارجية. وأشار المسبّحي إلى أن هذه الخزائن كانت تشتمل على مجلّدات في كل فن من فنون العلوم الإسلامية، كالفقه على المذاهب الأربعة، والنحو واللغة وكتب التاريخ والحديث والفلك (النجامة) والروحانيات والكيمياء، عدا المصاحف النادرة.[٤٣]

كانت مكتبات القصر من وسائل بثّ الدعوة بطرق غير مباشرة، إذ فيها قاعات يجتمع فيها الناس فئات أو مجموعات لسماع المحاضرات، ولمجالس الحكمة التأويلية. فمجموعة الخاصّة وشيوخ الدولة وخدم القصر لها مجلس، ولعوام الناس مجلس، وللطارئين مجلس، وللنساء مجلس.

ولا بدّ من أن يكون عبد الرحيم قد تردّد إلى هذه المجالس في أثناء تدريبه في القاهرة.

وبالإضافة إلى مكتبة القصر الشهيرة، فلقد فخرت القاهرة بدار العلم (دار الحكمة) التي أسّسها الخليفة الحاكم بأمر الله (ت ٤١١هـ/ ١٠٢٠م) سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م في قصره، وجعلها كالجامعة بمفهومنا الحديث، يدرّس فيها عدد كبير من الفقهاء والقرّاء

---

(٤٢) محمد كامل حسين، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٤٦ ـ ٤٩؛ حسن إبراهيم حسن، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٨.

والنحاة واللغويين والأطباء والمنجّمين، وتجري فيها مناظرات بين علمائها، وإلى جانبها مكتبة ضخمة حُملت إليها الكتب في جميع العلوم والآداب من خزائن القصر الكبير. وكانت مفتوحة للناس على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم، ويحضرها بعضهم للقراءة أو للنسخ والدراسة.

وفي دار العلم كان يجتمع داعي الدعاة الفاطمي إلى الدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة في قضايا الفقه الإسماعيلي مرّتين في الأسبوع. ومع أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أغلقها، فإن الخليفة الآمر (ت ٥٢٤هـ/ ١١٣٠ م) سعى لإعادة فتحها ونقل مكانها إلى خارج القصر، حيث ظلّت حتى انتهاء الخلافة الفاطمية.[٤٤]

ولم تكن القصور، بمكتباتها ودور العلم فيها ودواوينها، مراكز الثقافة الوحيدة في القاهرة؛ فقد تجلّت الحركة العلمية الثقافية أيضا بجوامع القاهرة أو جامعاتها. ومن أوائل هذه الجوامع الجامعات، الأزهر الذي فتح أبوابه للعلم في ٧ رمضان ٣٦١هـ / ٢٢ حزيران (يونيو) ٩٧٢م.[٤٥]

كان الأزهر منار القاهرة العلمي، سمع عنه عبد الرحيم قبل دخوله القاهرة، ولربما تطلّع في فترةٍ ما من حياته إلى الدراسة فيه، على الرغم من تركيز الأزهر على العلوم الإسماعيلية. فالأزهر كان مدار اهتمام الخلفاء، وكان الحكّام يغدقون عليه وعلى من فيه من أموالهم صلاتٍ سنوية دائمة أو أوقافا عديدة تفي بحاجات الطلاب المعيشية، فكانوا يُزوَّدون بالسكن وبمصاريف الدراسة والمعيشة. وكانت مساكن الطلبة تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع، وإلى جانبه بنى المسؤولون دارا للفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون كانوا يجتمعون بعد صلاة الجمعة ويقرئون القرآن لطالبي القراءة حتى صلاة العصر. وأمّا طلاب العلوم الأخرى، كالتوحيد والفقه واللغة والرياضة والمنطق والبيان والطب وغيرها من العلوم، فكانوا يتحلّقون حول العلماء أو المدرّسين المختصّين الذين كانت لهم أجور معيّنة للتدريس.[٤٦]

وجد عبد الرحيم القاهرة مركزا ثقافيا زاهرا، فاستفاد منه في تكوينه الثقافي العلمي. وأمّا حنكته السياسية التي تجلّت بأوضح مظاهرها بعد نحو عشرين عاما من دخوله القاهرة، فقد استمدّ أصولها من الأحداث السياسية التي شاهدها وعاشها. فقد

(٤٤) محمد كامل حسين، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠ ـ ٥٣؛ حسن إبراهيم حسن، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٥؛ المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٤٥) محمد كامل حسين، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣ ـ ٤٤؛ حسن إبراهيم حسن، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٤٦) حسن إبراهيم حسن، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦؛ المقريزي، «الخِطط»، ج ٢، ص ٢٧٣.

هبط القاهرة خلال فترة عصيبة من تاريخ الخلافة الفاطمية، كانت جميع مؤشّراتها تشير إلى تدهور سريع يدفعها إلى حافة النهاية، وكُتب له أن يدلي بدلوه في بعض تلك الأحداث التي أدّت إلى انهيار الخلافة النهائي في مصر.

كان من الأحداث الأولى التي شاهدها عبد الرحيم أول دخوله القاهرة، صراع دموي بين طائفتين عسكريتين هما الطائفة الجيوشية الأرمنية والطائفة الريحانية السودانية، وقد شلّت خلاله الحركة داخل القاهرة، وتوقفت بينها وبين مصر لمدة ثلاثة أسابيع انتهت بهزيمة الريحانية.(٤٧)

ولعل عبد الرحيم حفظ صورا لهذا الصراع الذي أثار في نفسه شيئا من الخوف على مصيره ومستقبله في القاهرة، فعبّر عنه لدى انضمامه إلى صلاح الدين وتخلّص أول ما تخلّص من هاتين الطائفتين.

وبعد دخوله القاهرة بفترة وجيزة توفي الخليفة الحافظ في جمادى الثانية ٥٤٤ هـ/ أيار (مايو) ١١٤٩ م. وكان الخليفة الحافظ من أكثر الخلفاء الفاطميين اهتماما بعسقلان وحرصا على تحصينها لارتباطه الجغرافي بها،(٤٨) فماتت بوفاته الآمال بالحفاظ على هذا الثغر المهم، إذ بويع بعده بالخلافة لابنه الأصغر إسماعيل أبي المنصور الذي لُقّب بالخليفة الظافر، وله من العمر سبعة عشر عاما وأربعة أشهر وعشرة أيام. وكان الظافر شابا أرعن منحرفا، تولّى مركز قوة يفوق قدراته الفكرية والجسدية فما أولاه حقّه من الاهتمام، وانصرف إلى ملذّاته وسلم القياد لبعض من حوله من الأمراء الذين قضوا في النهاية عليه وعلى عسقلان.(٤٩) وقد تحدّثنا عن الأوضاع المتعلّقة بحكم الظافر وبعسقلان في المقدّمة.

درس القاضي الفاضل وعمل في القاهرة خلال حكم الخليفة الظافر (٥٤٤ ـ ٥٤٩هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٥٤م)، أي خلال فترة حالكة من تاريخ مصر تميّزت بأحداث عظام داخل مصر وخارجها أدّت إلى سقوط عسقلان في يد الفرنج وانهيار الخلافة الفاطمية.

كان أول هذه الأحداث صراعا دمويا بشأن الوزارة بين بعض أمراء الدولة. فقد اختار الخليفة الظافر، أو عمّاته المشرفات في القصر على شؤونه بحسب وصية والده الخليفة الحافظ، الأميرَ نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال (ت ٥٤٤هـ/

---

(٤٧) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٨٩.

(٤٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٧. وُلد الخليفة الحافظ في عسقلان سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ م، وكان يسمّى الأمير عبد المجيد العسقلاني قبل خلافته. المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٧.

(٤٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٤ ـ ٢١٠. أشرنا إلى الأحداث المتعلّقة بهذه الناحية في الفصل الأوّل من الدراسة «المشهد».

١١٤٩م) وزيرا له. لكنْ سرعان ما ظهر لابن مصال منافس هو الأمير علي بن إسحاق بن السلار والي البحيرة والإسكندرية، الذي خطب الوزارة لنفسه وتوجّه مع ابن زوجته وربيبه ركن الإسلام عباس بن تميم بن المعزّ بن باديس والي الغربية إلى القاهرة ودخلها بعد المفاوضات مع الخليفة الظافر أو عمّاته. وخُلع عليه بالوزارة، ولُقّب بالسيد الأجلّ أمير الجيوش.(٥٠) وقد رافق ابن السلار في ثورته هذه طلائع بن رزّيك، أحد الأمراء المقدّمين الطامعين في الحكم. وقد كُتب له أن يلي الوزراة بعد مقتل ابن السلار (ت ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) وربيبه عبّاس. وكُتب لعبد الرحيم أن يبدأ مسيرته العملية منذ قيام تلك الوزارة.(٥١)

أسفرت حركة ابن السلار عن مقتل الوزير ابن مصال بعد عدة وقائع في القاهرة وخارجها. ولم يكن الصراع المسلّح بين الأمراء بشأن المناصب نادرا في مصر، ولكن هذا الصراع بالذات حدث على مرأى من عبد الرحيم، وكان بداية صراعات متعددة بين الوزراء والأمراء شاهدها جميعا وساهم في بعضها، وتعلّم منها دروسا.

لم تمضِ خمسة أعوام على وزارة ابن السلار حتى ثار عليه ربيبه (ابن زوجته) عبّاس، وتسبّب بقتله على يد ابنه (ابن عباس) نصر. وكان نصر هذا خليل الخليفة الظافر، وقد استغّل بساطته واستفاد منه مالا وجاها، ثم اغتاله، كما اغتال والدُه «عباس» بمساعدته، بعض أفراد الأسرة الفاطمية، منهم يوسف وجبريل أَخَوَا الخليفة الظافر وابن عمّهما أبو التقى صالح بن حسن عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، قبل أن يعينّ نفسَه وزيرا للدولة. ويعينُ خليفة طفلا عمره خمسة أعوام وعشرون يوما سمّاه الفائز.(٥٢)

لقد وصف المقريزي هذه الفتنة النادرة المثال في القصر الفاطمي بقوله: «وكان في القصر (وقت الفتنة) ألف سيف مجردة، فشوهد أمر قبيح لم يُر أشنع منه لما جرى فيه من البغي الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق.»(٥٣)

---

(٥٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٦ ـ ١٩٨.

(٥١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٧.

(٥٢) للتفصيلات: أسامة بن منقذ، مصدر سبق ذكره، ص ٧ ـ ٩، ١٨ ـ ٢٣، ٢٤ ـ ٢٧. يذكر أسامة أنّ عبّاسا كان قد رتّب مقتل ابن السلار مع الخليفة الظافر (المصدر نفسه، ص ١٨)، ولكنّه يذكر مشهدا ضمّه وعبّاسا ونصرا في اليوم التالي لمقتل إبن السلار، مشيرا إلى أنّ عبّاسا أنّب ابنه نصرا على علاقته بالخليفة الظافر بكلام شديد، ولكنّه (أي أسامة) تدخّل محاولا أن يخفّف من غضب عبّاس على ابنه نصر (المصدر نفسه، ص ١٩). وأمّا المقريزي فيتّهم أسامة بن منقذ بأنّه كان له ضلع في المؤامرة المشار إليها، ولو أنّ أسامة لا يشير إلى ذلك. المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢١٤.

(٥٣) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢١٤.

لم تطل وزارة عباس، لأن القصر الفاطمي سرعان ما جمّع قواه بقيادة نسائه (عمات الظافر) اللائي اتّصلن بطلائع بن رزّيك، والي الأشمونين والبهنسا حينئذٍ، يستنجدن به على عباس، وساعدهن في استنجادهن بطلائع بن رزّيك القاضي الجليس، أبو المعالي بن عبد العزيز بن الحسن بن الجبّاب الأغلبي السعدي إذ نظم شعرا لطلائع يحثّه على الإسراع في النجدة وإنقاذ الموقف في القاهرة. ولقد عبّر القاضي الجليس، أحد كبار موظفي ديوان الإنشاء، عن مخاوف مَنْ في الديوان من الفتنة،(٥٤) كما أن اتّصاله بالوزير يدلّ على تدخل الديوان في السياسة. وقد تبع عبد الرحيم خطاه سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨ - ١١٦٩م عندما راسَلَ نور الدين في دمشق مستنجدا على الفرنج وشاور.

دخل ابن رزّيك القاهرة يوم الأربعاء التاسع عشر من ربيع الأول من سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، ليلقى بدوره مصرعه بعد وزارته بستة أعوام. وكان بين الشعراء الذين قصدوه للتهنئة عبد الرحيم البيساني (القاضي الفاضل).(٥٥)

علّمت الأحداث الجارية ضمن القصر الفاطمي وداخل القاهرة عبد الرحيم دروسا في السياسة، طبّق بعضها في حياته. وإذا كانت هذه الأحداث التي شاهدها قد زادته علما وخبرة، فإن أحداثا أخرى ناجمة عنها أصابته في الصميم وولّدت في نفسه شيئا من المرارة ظهرت عاقبتها بعد أن أصبح ذا نفوذ في الدولة الفاطمية. فأول ما أصاب قلبه من سهام، في بداية خلافة الظافر، وفاة والده القاضي الأشرف مُهانا حزينا، مجرّدا من كل ما جناه في حياته من متاع دنيوي يفي بحاجة عائلته. فلقد كان، كما يبدو من أقواله وأقوال بعض المؤرّخين، ضحية المنافسات والمؤامرات التي تحاك باستمرار ضد ذوي النفوذ.

كان القاضي الأشرف أبو الحسن علي بن الحسن البيساني قاضي عسقلان آنذاك كما ذكرنا سابقا.

وتشير إحدى الروايات عن سبب وفاته إلى أنه استُدعي إلى القاهرة في أثناء خلافة الظافر بسبب خلاف وقع بينه وبين والي المدينة في شأن قطعة أرض امتلكتها عائلة البيساني. فأقاله الوالي من دون القبض عليه، فدُعي الوالي إلى مصر لمناقشة الخلاف وطولب بدفع مبلغ من المال. ولكنّه احتمى ببعض الأمراء واتّهم القاضي الأشرف بسوء الفعل، فصودرت أمواله حتى لم يبقَ له شيء. وتوفّي بعد هذا الحادث بقليل (١١ ربيع الأول ٥٤٦هـ / ٢٠ حزيران (يونيو) ١١٥١م) في القاهرة. وتشير رواية أخرى إلى أن

(٥٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٦. للمزيد من المعلومات عن المؤامرة ونتائجها: ابن خلكان، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٩١ - ٤٩٣.

(٥٥) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢١٩ -٢٢٠.

الخلاف بين القاضي الأشرف ووالي المدينة كان على كند (أمير أو كونت) من كنود الإفرنج، كان أسيرا في عسقلان وأفرج الوالي عنه، فاستدعي إلى مصر لتبرير عمله فتملّص من التهمة وألصقها بالقاضي الأشرف، فاستدعي القاضي الأشرف إلى مصر ليواجه المحاكمة، فالمصادرة.[٥٦]

ولقد أثّر هذا الحادث تأثيرا بالغا في القاضي الفاضل، فقدْ فقدَ والده فَفَقَدَ باقي أفراد عائلته مصدر رزقهم الأساسي واضطر هو إلى أن يعتمد اعتمادا كليا على ما يحصّل من رزق من ديوان الإنشاء، مهما يكن ضئيلا. وانتاب عبد الرحيم القلق أن يكون لهذا الحادث الذي وقع بين والده وبين أحد كبار الدولة في مصر أثر في تطلّعه إلى منصب إداري، لأن مثل هذا المنصب قد يمكّنه من مواجهة بعض من تآمروا على والده. ولربما كان لهذا الحادث دور في إثارة حفيظته على الفاطميين ودفعه إلى القيام بدور مهم في القضاء عليهم عندما تسنّى له الأمر.

ولم تكن وفاة والد القاضي الفاضل بالحادث الوحيد الذي ولّد في نفسه بعض المخاوف والآلام، فقد شاهد منذ دخوله ديوان الإنشاء مصير بعض الكتّاب الكبار فيه، بسبب منافسات ومؤامرات كالتي أودت بحياة والده. ومن هذه المنافسات ما جرى بين كاتبين بارزين عُرفا بابني الأنصاري وبين الشيخ موفق الدين بن الخلال أستاذه وراعيه. وكان ابنا الأنصاري من كبار كتّاب ديوان الجيش فتطاولا على بعض أعيان الدولة وكبار كتابها، مثل موفق الدين بن الخلال كاتب الدست الذي «كان موضع سرّ الخليفة ومحل مشورته في الأمور العظام من أحوال الممالك.»[٥٧] فجدّد أكبر الأخوين ديوانا سمّاه ديوان الترتيب، وجمع فيه من يخدم في ترتيب الأعمال. وقد فصل بعمله هذا جزءا من ديوان الإنشاء، وهو البريد. وجرّد ابن الخلال من بعض مسؤولياته المهمة، كقراءة الرسائل أو المراسلات للخليفة والإجابة عليها. فتصدّى ابن الخلال لابن الأنصاري وشكاه للخليفة الحافظ قرب نهاية حكمه، فطلب الخليفة منه أن يمضي إلى ابن الخلال ويخدمه. ثم ما لبث الحافظ أن جعل ابن الأنصاري شريكا للموفّق ابن الخلال في إدارة ديوان الإنشاء، وانفرد ابن الخلال بالكتابة بدل الإدارة، ولو على مضض. والظاهر أن الخلاف بين ابني الأنصاري وابن الخلال وغيره من الكتّاب، وبينهما وبين بعض الجنود، أدّى إلى الكثير من الحقد عليهما، إلى أن توفي الحافظ وخلفه الظافر، فكان أول ما عمله أن أمر بإعدامهما. ولئن لم يحضر عبد الرحيم الخلاف بين ابني الأنصاري

(٥٦) ابن خلكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ٢٢٠ - ٢٢١.
(٥٧) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٩٤ - ١٩٥.

وابن الخلال، فإنه حضر مقتلهما الذي قُصد منه أيضا ترهيب غيرهما من الكتاب والإداريين المدنيين. ولقد صوّر المقريزي مشهد مقتلهما بقوله: «وأول ما بدأ به الظافر أنه ركب بعد صلاة العشاء الآخرة بالشمع في القصر، ووقف بباب الملك بالإيوان المجاور للشباك؛ وأحضر ابني الأنصاري واستدعى متولي الستر، وهو صاحب العذاب، وأُحضرت آلة العقوبة، وضُرب الأكبر بحضوره بالسياط إلى أن قارب الهلاك، وثُنّي بأخيه كذلك، ثم أُخرجا وقُطعت أيديهما وسلّت ألسنتهما من أقفيتها، وصلبا على بابي زويلة الأول والثاني فأقاما زمانا ثم وضعا.»(٥٨)

تلت هذه الحادثة حادثة أُخرى كان ضحيّتها أحد كبار أصحاب الدواوين، وهو معروف بالموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنّيسي، متولي ديوان النظر. فقد قُتل أبو الكرم أيضا بسبب المؤامرات والمنافسات والأحقاد، وكان الجاني عليه هذه المرة الوزير ابن السلار انتقاما لثأر قديم بينه وبين هذا الإداري الكاتب. فأمر بإعدامه بطريقة دموية رهيبة، إذ أمر (ابنُ السلار) بإحضار التنيسي بحضرته، وأحضر مسمارا حديدا كبيرا «عظيم الحلقة»، وقال له: «والله هذا ما أعددته لك من ذلك الوقت (وقت الخلاف بينهما). وأمر به فجُرّ وضُرب المسمار في أذنه حتى نفذ من الأُخرى، وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودُقّ المسمار في خشبة وعُلّق عليها ميتا، ثم أُنزل بعد أيام.»(٥٩)

تصادف أن مقتل التنيسي وابني الأنصاري وموت والد عبد الرحيم جرت كلها في بداية خلافة الظافر، وفي أوضاع متشابهة قوامها خلافات وصراعات بين شخصيّات مختلفة الأهواء والأهداف. ولم يكن عقاب القاضي الأشرف بأقل حدّة، لأن إهانة الرجل الكبير القدر لا تقل عن اغتياله. وإن دلّت هذه الروايات التي أوردناها على شيء، فعلى قسوة الحكّام، وعلى انعدام القيم الإنسانية ومدى سهولة تعرّض الكتّاب وأصحاب الدواوين أو الإداريين في الدولة لسوء المصير. وغرست هذه الصورة القاسية التي شهدها عبد الرحيم خلال الأعوام الأولى من حياته في القاهرة، في نفسه شيئا من الخوف والحذر الشديد.

ويمكننا القول إن تجربة الأعوام الستة الأولى التي أمضاها عبد الرحيم في القاهرة، كانت خير مدرّب له على السياسة المصرية؛ فقد زوّدته بمبادىء تحرّكاته السياسية فيما بعد.

وبينما كانت الأحداث تتطوّر بسرعة داخل مصر وخارجها، كان عبد الرحيم يتنقّل

---

(٥٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٣ ـ ١٩٥.
(٥٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

بين أساتذته وبين الفروع المختلفة في ديوان الإنشاء يدرس ويتدرّب ويعمل، ويلاحظ ما يجري عن كثب. ولقد أثبت، في نهاية الأعوام الستة الأولى من مسيرته في الديوان، كفاءته وشاعريته؛ وهذا ما شجّع بعض كبار الكتاب والشعراء على اصطحابه لتهنئة الملك الصالح طلائع بن رزّيك بالوزارة. وكان بين هؤلاء القاضي الرشيد بن الزبير، الذي حبسه الوزير شاور في خزانة البنود، والقاضي الجليل الحسين بن الجبّاب، والقاضي أبو الحسن علي بن كاسيبويه، وغيرهم.[٦٠] وكان عبد الرحيم أصغرهم سنا ومكانة، ولكنّهم اصطحبوه علما منهم بأن ساحة الوزير مدخله إلى الشهرة والترقّي. ولقد أعدّ لهذه المناسبة قصيدة في مدح الوزير الجديد، الذي كان بدوره شاعرا، يحبّ أن يحيط نفسه بالشعراء. ولعل عبد الرحيم كان يأمل بأن تكون قصيدته مدخلا إلى قلب الوزير الجديد، فينضمّ بنتيجتها إلى مجموعته المختارة. فمدح الوزير بصفات عديدة كالشجاعة والبأس والكرم وغيرها من الصفات التي يطرب ذوو النفوذ لها، على الرغم ممّا فيها من المبالغات.[٦١]

وإنْ لم تكن القصيدة مثالا في البلاغة ولا من كبرى المدائح، فإنها كانت بالنسبة إلى القاضي الفاضل بداية للتردّد على بلاط الوزراء؛ فالقصيدة ذات طابع سياسي، تدل على أن ناظمها يتطلع إلى الانضمام إلى النخبة المختارة من الشعراء والأدباء الذين يستمدّون بعض نفوذهم ورزقهم من الوزراء الذين يرعونهم.

كانت مناسبة تهنئة الوزير مناسبة عظيمة له، لأنه أخذ بعدها يتقدّم في الإدارة، كما بدأت المصادر تسجّل تحرّكاته بشيء من الإسهاب، حتى أن بعض المؤرّخين المتأخّرين أخذ يذكر اسم عبد الرحيم (القاضي الفاضل) في بداية قائمة المهنئين، لأنه أصبح فيما بعد أكبرهم شأنا.

وإذا كان القاضي الفاضل يرنو إلى الانضمام إلى حلقة الملك الصالح الأدبية منذ هذه المناسبة بالذات، فإنه أخفق لعدة أسباب، منها صِغر سنّه قياسا بغيره من الأدباء، وهجرة عائلته من عسقلان إلى الإسكندرية، الأمر الذي اضطره إلى مغادرة القاهرة والابتعاد عن جوّها السياسي ونشاطاتها الأدبية. ولكنه أحرز نجاحا في هذه المناسبة

---

(٦٠) يبدو أنّ هؤلاء الأدباء والشعراء كانوا من ملازمي الوزير أو الوزراء، كما يبدو من كلام عمارة اليمني، الذي يذكر أنّه عندما قصد القاهرة سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م في وزارة الملك الصالح طلائع، وحضر للسلام عليه في قاعة الذهب من قصر الخليفة، وجد بحضرته من أعيان أهل الأدب، الشيخ الجليس أبا المعالي بن الجبّاب، والموفّق بن الخلّال، صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذّب أبا محمد الحسن بن الزبير. اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢، ٣٤ - ٣٥؛ المقريزي، «اتّعاظ»، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٦١) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ١، ص ٢٤٥.

ظهرت نتيجته بعدها بعدة أعوام. فقد كان بين الحاضرين لهذه المناسبة الملك الناصر رزّيك ابن الوزير، فأُعجب بالقاضي الفاضل الذي كان أقرب إليه سنّا، كما أعجب بشعره، حتى أنه عندما ولي الوزارة سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠ - ١١٦١م، استدعاه من الإسكندرية وجعله من كتّابه وشعرائه المقرّبين، وفتح له طريق الترقّي والتقدّم والعمل السياسي.[٦٢]

وإذا كان عبد الرحيم قد حاول أن يبدي رأيه في سياسة الدولة الفاطمية وفي الأحداث الجارية فيها آنذاك، فإنه كان قد أخذ يدلي بدلوه في المنافسات الديوانية قبلها ببعض الوقت، بل ربما منذ بداية انضمامه إلى الديوان. وليس من المستبعد أن يكون ابن الخلال قد شجّعه على ذلك ليدرّبه على الحياة والسياسة العملية في الدواوين من ناحية، وليستغلّ مواهب تلميذه الشعرية التي اكتشفها مبكّرا، للدفاع عنه أمام غيره من كبار الإداريين المناوئين له. وقد نجح في ذلك، إذ كان عبد الرحيم يتقن الفنّين معا، ومن ثم فقد أخذ ينجرف في ميدان المنافسات والمعارك القلمية بالتدريج. فمن جملة المعارك التي خاضها القاضي الفاضل بقلمه في الديوان، معركة المنافسة بين ابن الخلال وابْنَي الأنصاري وأبي المنصور بن أسامة، وقد أشرنا إلى بعضها سابقا.

وقد وصف المقريزي هذا الخلاف بقوله إن رئاسة ديوان الإنشاء كانت في عهد الخليفة الحافظ موزّعة بين ابن الخلال وأبي المكارم بن أسامة، ولكن ابن أسامة كان يغفل بعض مسؤولياته في الديوان لانشغاله بدنياه، فاستناب عنه ابنه أبا المنصور، الذي قصّر بدوره في مسؤولياته. فصار الخليفة يعتمد اعتمادا كلّيا على ابن الخلال. ولمّا توفي أبو المكارم بن أسامة، اعتقد مَنْ في الديوان أن أبا المنصور سيحلّ محلّه رسميا، ولكن ابن الأنصاري تدخّل وطلب من الحافظ أن يولّيه نصف ديوان المكاتبات شريكا مع ابن الخلال، فوافق الخليفة الحافظ ونعت ابن الأنصاري بالقاضي الأجل سناء الملك وأمره بخدمة ابن الخلال وأن يكتفي بالرتبة واللقب، فصعب هذا الأمر على ابن الخلال. وأمّا أبو المنصور بن أسامة فعُيّن في ديوان الترتيب مكان ابن الأنصاري.[٦٣]

كان عبد الرحيم في أثناء هذه التطوّرات برعاية ابن الخلال، فوقف إلى جانبه يسانده بشعره. وقد حفظ ديوانُهُ قصيدة طويلة في هجاء أبي المنصور بن أسامة، تدلّ على أنه عمل في الديوان بإشراف أبي المنصور في ديوان الترتيب، وهو ديوان البريد المشرف على العيون والرسائل. وهذه الأمور من جملة الأشياء التي يتدرّب الطالب عليها في الديوان. وتدلّ حدّة الهجاء في هذه القصيدة على أن عبد الرحيم قصد أن ينفّس من

(٦٢) اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣ - ٥٤.
(٦٣) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٩٥ - ١٩٦.

خلالها عن عدة أمور، منها إرضاء أستاذه بهجاء أحد منافسيه، ومنها الردّ على سخرية أبي المنصور من شكله، ومنها إثارة ضحك الموظّفين الصغار أمثاله من موظف كبير في الديوان كان شديد الوطأة على صغار الموظّفين فيه.

يقول في القصيدة مشبّها مَهْجُوّه في بدايتها بالدابّة:

برذوننا اليومَ ما به عُجب ... وكل ما في حديثه عَجبُ
ما ذقنه ذنب على فمه ... بل هو جُحر غطاؤه ذنبُ
جُحر به عند حَجره بَعَر ... عرفته تحت ذقنه كُببُ
يا حاسديه على بلاغته ... ما كل مرْمى يناله الطلبُ
للسبق في كفّه بها قصب ... غُرّز من تحت ظفرها القصبُ
قالوا: وأقلام كفه عَصب ... قلت. كذبتمُ، أقلامها عُصبُ
خليفة من بني أسامة، لم ... يعلوا علينا به، ولم يثبوا
النمط الأول القديم كما ... يؤثر عنهمُ، والسِّر، والأدبُ
أعيد برذونه براكبه ... غير البراذين داؤها الكلبُ
مَرّ علينا، فقال قائلنا: ... هل يقع الشيخ؟ قلت: بل يَثِبُ[64]

وإذا قلنا إن هذه القصيدة من نظم تلميذ مبتدىء في ديوان الإنشاء، فإنّ بعض ما ورد فيها يدلّ، على الرغم من قسوته، على شيء من الموهبة والنضوج الشعري، وهذا ما راق لرعاته من الأساتذة، وأخافَ غيرهم من الكتّاب الصغار بصورة خاصة، فزادوا في مناوأتهم له وتهكّمهم بشكله وزاد في هجائه لهم، مستعملا هجاءه سلاحا للدفاع عن نفسه، حتى أنهم عبّروا عن فرحهم عندما انتقل عبد الرحيم إلى الإسكندرية، وحاولوا أن يحولوا دون عودته إلى القاهرة عندما استُدعي ثانية سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠ - ١١٦١م.[65]

لم تكن حياة عبد الرحيم في بادىء أمره في الديوان سهلة، لأن الديوان بمشكلاته مثّل له صورة مُصغّرة للدولة؛ فموظفو الديوان وغيره من الدواوين المجاورة له في القصر عديدون، ، متعددو العقائد واللهجات والأصول العرقية، يتكتّل كل منهم حول مجموعته التي ينتمي إليها فتحميه وتعمل على ترقيته، ولكل مجموعة أو كتلة داخل الديوان أكثر من راعٍ خارجه يستغلها أو يستغل بعضها في مؤامراته ومكاتباته السرّية، سواء داخل مصر أوَ خارجها.

ولعل هذه التكتلات قد خلّفته بعيدا في بداية أمره في الديوان، فزاد ذلك في وحدته وثورته النفسية على الكتابة وعلى كل ما حوله في الديوان، فلم يجد منفذا للتعبير

(٦٤) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ٢، ص ٤١٤ - ٤١٥.

(٦٥) ابن خلكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ٢٢١.

عن تجاربه وآلامه سوى شعره. ففي إحدى قصائده يتوسّل إلى أحد ذوي النفوذ لمساعدته وحمايته من الكتّاب الذين كانوا يؤذونه بكلامهم، يقول فيها:

أيُّها البحر إن جودك طامِ ... للبرايا، وإن عبدك ظامِ
أنت مولاي، والذي أرتجيه ... منك أن يُصبح الزّمان غلامي
ليَ شكوى منه، وأنت عليه ... حاكمٌ، حكمه على الحكّامِ
لا تلمني، فإن سكتُّ فما ... يسكت عن أن يلومني لوّامي
راعني منهمُ كلامٌ غليظ ... رقّ عن لينه أشدُّ كلامي
فاحتملني كما احتملتُ أذاهم ... أنت أولى بالصفح والإنعامِ(٦٦)

وفي مقتطفات عديدة من شعره يُكْثِر من الشكوى من كل ما حوله في الديوان، بما في ذلك ضيق ذات يده؛ وهذا يدلّ على حياة مضطربة تعيسة، غير مستقرّة، يقول في بعضها:

الصمت أسلم، لكنْ إنْ أردت دمي ... ألا يفيض فسامحني أفض كلمي
بيني وبين وجودي الله يحكم لي ... عليه، يا ليتني لا شيء في العدم
ولا حديثي، ولا دهري وحادثه ... ولاهمومي، ولاوهمي ولاهِممي(٦٧)

ويقول في أُخرى:

الشر، في يقظتي، بالعين أبصره ... والخير بالقلب، قد ألقاه في الحُلُم
إذا الصباح بهم في الليل باكرني ... فالنور أقبح في عيني من الظُلَمِ(٦٨)

كما يقول شاكيا ومقارنا بين مدخوله ومدخول غيره من الكتّاب:

أرى الكتّاب كلّهم جميعاً ... بأرزاقٍ تعُمّهمُ سنينا
وما لي بينهم رزق، كأني ... خُلقت من الكرام الكاتبينا(٦٩)

وقال متذمّرا من مهنة الكتابة:

تعِس الكاتب الشقيّ، فما أشقاه بالأمر بين هذي الخليقةْ
خير أيامه ولا خير فيها ... يوم يلقى من بُكرة وجه ليقةْ
والدراريع فخرُه، وهو منها ... في ثياب من صورة مشقوقةْ(٧٠)

---

(٦٦) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ٢، ص ٣٨٤.
(٦٧) المصدر نفسه.
(٦٨) المصدر نفسه.
(٦٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٦.
(٧٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧١.

لم تطل شكوى عبد الرحيم كثيرا، إذ إنه بعد وروده على مجلس الوزير الملك الصالح طلائع بن رزّيك للتهنئة بقليل، وجد عملا في ديوان الإسكندرية فانتقل إليها.

خامسا: في الإسكندرية
(٥٤٩ ـ ٥٥٦هـ / ١١٥٤ ـ ١١٦٠م)

غادر عبد الرحيم البيساني العسقلاني القاهرة سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م إلى الإسكندرية، وهي المدينة التي لجأ أهل عسقلان إليها. ولعلّه ذهب إليها ليجتمع إلى أهله وعشيرته، بعد أن وُفّق في عمل في ديوان ناظرها ابن حديد. ويشير ابن خلكان إلى أن القاضي الفاضل توجّه إلى ثغر الإسكندرية، وحضر عند ابن حديد قاضيها وناظرها، فعرّفه إلى والده، فعرفه بالسمعة واستكتبه، وأخذ الفرنج عسقلان فحضر إخوته إليه.[(٧١)]

والأرجح أن القاضي الفاضل ذهب إلى الإسكندرية بعد لجوء أهله إليها، وبعد أن وجد لنفسه عملا فيها. فليس من المستبعد أن يكون قد اتّصل بديوان ابن حديد، عن طريق المكتب المختصّ بمراسلات الثغور ضمن ديوان الإنشاء (أي الكاتب الثالث). وكان دافعه الأساسي، طبعا، إلى هذا الانتقال أن أهله كانوا قد لجأوا إلى المدينة، من دون أموال ولا أملاك، فذهب لمساعدتهم. ومن ناحية أُخرى، فإنه لا شكّ في أن وجوده في الإسكندرية مع أهله وأهل بلده خفّف من وحدته، كما أن عمله ككاتب رئيسي في الديوان، أشبع رغبته القيادية وحسّن وضعه المالي.

كانت الإسكندرية مركزا للحركة السنّيّة الفكرية، أي مركزا للمعارضة الدينية، ومركزا للمعارضة السياسية للفاطميين في القاهرة، وثغرا ازدادت أهمّيته الدفاعية بعد سقوط عسقلان وتعرُّض الساحل المصري لهجمات الفرنج المتكرّرة، ومركزا جهاديا تعبّأت فيه كل القوى من عسكرية وسكّانية وفكرية للدفاع عنه والحفاظ عليه. فالحياة في الإسكندرية كانت تختلف عنها في القاهرة، ولعلها أقرب إلى الحياة في عسقلان.

عاشت في الإسكندرية جالية المغاربة المالكيين، هاجروا إليها من الأندلس أو من صقلّية ومن شمال إفريقيا، واستقرّوا فيها وبنوا المدارس التي بثّوا بواسطتها تعاليم السنّة وروح الجهاد. وكان من كبار علماء المغاربة في الإسكندرية الفقيه المالكي أبو بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م)، مؤسس أول مدرسة سنّيّة فيها نحو سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م، وقد حبسه الوزير الأفضل سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، ولربما كان ذلك خوفا من

---

(٧١) ابن خلّكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ٢٢١.

آرائه. فقد رُوي عنه قوله: «إن سألني الله عن المُقام في الإسكندرية، لِما كانت عليه في أيام الشيعة العبيدية من ترك إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم، أقول له: وجدت قوما ضُلالا فكنت سبب هدايتهم.»[(٧٢)]

ولم يتوقّف نشاط الطرطوشي على مدرسته فقط، فقد تقرّب من الوزير المأمون البطائحي، أحد خلفاء الأفضل في الوزارة، فبنى له مسجدا إلى جانب مدرسته عُرف باسمه أيضا.

خرّج الطرطوشي عددا من العلماء والفقهاء، تفقّه بعضهم على يديه وسمع منه بعض آخر فكان بينهم ابن عوف (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م) (أبو طاهر بن عوف الزهري)، الذي حظي برعاية الوزير السنّي رضوان بن ولخشي (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، فبنى له مدرسة عُرفت باسمه، أي المدرسة العوفية.[(٧٣)]

وقد قام ابن عوف هذا بدور مهم في بثّ روح الجهاد ضد الفرنج، وفي ثورة أهل الإسكندرية ضد شاور (٥٦٢هـ/ ١١٦٦ - ١١٦٧م)، وفي إمداد صلاح الدين بن أيوب بالأموال والرجال والعتاد والميرة في أثناء حربه مع شاور، حتى انفكّ الحصار عن الإسكندرية.[(٧٤)]

وكان من كبار علماء الشافعية أيضا في الإسكندرية المحدّث الحافظ السلفيّ (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) أبو طاهر عبد المنعم بن موهوب. وقد بنى له الوزير ابن السلار السنّي سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م مدرسة عرفت باسمينْ: العادلية نسبة إلى الملك العادل بن السلار، والسلفيّة نسبة إلى السلفيّ. وقد تخصّصت هذه المدرسة بالحديث والفقه الشافعي.[(٧٥)]

كان السلفيّ من كبار قادة الإحياء الجهادي، مقرّبا من أبناء الشعب، يختلط بهم في الدكاكين والأسواق والميادين والمساجد والجبهة الحربية، فيعظهم ويحرّضهم على الجهاد في سبيل الله، بالآيات القرآنية، والأحاديث والنوادر وقصص البطولات والمغازي.[(٧٦)]

وقد تخرّج بهؤلاء العلماء وتلاميذهم أعداد من أهالي الإسكندرية ممن تشربّوا

---

(٧٢) محمد محمود زيتون، «الحافظ السِّلفي: أشهر علماء الزمان ٤٧٠ - ٥٧٦» (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٢)، ص ١٢٦؛ أحمد النجّار، «الإنتاج الأدبي في مدينة الإسكندرية في العصرين الفاطمي والأيّوبي» (القاهرة: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦٤)، ص ٦٤.

(٧٣) زيتون، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٨ - ١٣٩؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٨٤.

(٧٤) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٧٩؛ النجّار، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

(٧٥) النجّار، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣؛ زيتون، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨.

(٧٦) زيتون، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٧.

روحها وعلّموا في معاهدها ودافعوا عنها. وممّا زاد روح الجهاد في الإسكندرية اشتعالا، وجود العساقلة اللاجئين الذين ساهموا في الدفاع عنها.

لقد تجلّت روح الإسكندرية الجهادية سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م، عندما حاصر شاور وزير مصر بمساعدة الملك أموري الفرنجي، صلاح الدين في الإسكندرية، فوقف أهاليها مع صلاح الدين، وقاوموا قوات القاهرة والفرنج حتى أشرفت هذه القوات على احتلال الإسكندرية، فسعى صلاح الدين وأصحابه للصلح.

ولمّا دخل شاور الإسكندرية ومعه أموري، جاءه كبار المدينة للسلام، فأغفلهم ولم يأذن لهم في الجلوس. فقال له أموري، وهو جالس بقربه: «أكرِم قُسُسك. فأذن لهم بالجلوس وعاتبهم على ما فعلوه من المقاومة. فسكتوا، ولكنّ أحد الفقهاء، وهو شمس الإسلام أبو القاسم مخلوف بن علي المالكي، المعروف بابن جاره، نهض وقال لشاور: نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب كائنا من كان. فقال له أموري: وحقّ ديني لقد صَدَقك هذا الشيخ. فسكت شاور وأكرمهم بعد هذا اليوم.»(٧٧)

وجد عبد الرحيم البيساني العسقلاني في الإسكندرية جوّا يختلف عن جوّ القاهرة، تسوده روح العلم والجهاد والتعبئة، ومعظم أهاليه من السنّة على مثل مذهبه وعقيدته، لا من الإسماعيلية أو الشيعة. ووجد نفسه فيه بين أهله وأقاربه وشعبه، متلهّفا على قصصهم عن ماضيهم، وعن عسقلان، وعن نضالهم ومآسيهم، وعن مأساتهم الأخيرة التي نجمت عن أحداث لمسها في القاهرة وعرف بعض المشتركين فيها وسمع عن كيفية تطوّرها ونتائجها.

تعرّف إلى التيارات السياسية المختلفة في الإسكندرية وتأثّر ببعضها، كما تعرّف إلى علمائها وانخرط في حلقاتهم وتعلّم منهم، حتى إذا ما أصبح ذا مركز وجاهٍ رعاهم ولفّهم حول صلاح الدين وآله، وعندما واتته الفرصة ليؤدي دورا فعّالا في الجهاد كأهل الإسكندرية، لم يفوّتها.

بدأت بوادر النعمة والوجاهة تبدو على القاضي الفاضل، ونوعية حياته، فقد أصبح له شلّة من الأصدقاء، فيها فقيه، ومغنٍّ مختصّ بغناء الموشّحات، وهما يمثّلان طَرَفَي النقيض. ولكن صحبة الفاضل للمغنّي كانت صحبة طرب ومصلحة، إذ كان يهمّه أن ينشر المغنّي شعره، ومنه موشّحاته التي نظم معظمها في هذه الفترة.(٧٨)

كما أن مواهبه في الكتابة والإدارة بدأت تتفتّح وتعلن نفسها، فقد مارس خلال

---

(٧٧) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٧٨) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ٢، ص ٤٢٢؛ ج ١، ص ٧٦ ـ ٧٨.

الأعوام السبعة التي أمضاها في ديوان الإسكندرية نواحي متعددة من الإدارة، ربما كان ضمنها إدارة الجيش، وأنشأ رسائل كانت تَرِد على ديوان الإنشاء في القاهرة، لفتت ببلاغتها نظر الموظّفين والكتّاب والإداريين، فرأى بعضهم ضرورة عودته إلى القاهرة، بينما حاول بعض آخر أن يضع عقبات في طريق عودته. وربما كان هؤلاء هم الكتّاب الذين تهاجَوْا معه ونافسوه. يذكر ابن خلكان أن مراسلات ابن حديد التي كانت تصل إلى القاهرة بخط القاضي الفاضل كانت في غاية البلاغة، فأثارت غيرة كتّاب ديوان الإنشاء الذين تآمروا عليه وعارضوا عودته إلى الديوان. ولكنّ القاضي ابن بيان، أحد الكتّاب المعروفين، دافع عنه وسعى لإعادته إلى القاهرة. ولقد ظل عبد الرحيم يرعى ابن بيان حتى مماته، حفظا لعلمه وجميله عليه.(٧٩)

وسواء أصحّت هذه الرواية أم لا، فإنها تدل على أنه كان هناك كتّاب بدأوا يشعرون بشيء من التهديد من هذا الكاتب الذي نافسهم وفضحهم بهجائه في السابق. كما أنها تدلّ على أن عبد الرحيم بدأ يحرز مكانة عالية واحتراما في الدواوين، وصفهما معاصره الشاعر عمارة اليمني، في سياق أهمية عودة عبد الرحيم إلى القاهرة بقوله:

«ومن محاسن أيّامه (أيّام الملك الناصر رزّيك بن الملك الصالح طلائع بن رزّيك الذي خلف والده في الوزارة) وما يؤرِّخ عنها بل هي الحسنة التي لا تُوازى، واليدُ البيضاء التي لا تجازى، خروج أمره إلى والي الإسكندرية بتسيير القاضي الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن علي البيساني إلى الباب، واستخدامه في حضرته وبين يديه في ديوان الإنشاء.»(٨٠)

سادسا: عودة عبد الرحيم
إلى القاهرة

في ظل الملك العادل رُزيك
ابن الملك الصالح طلائع بن رُزّيك
(٥٥٦ ـ ٥٥٨هـ / ١١٦٠ ـ ١١٦٢م)

عاد عبد الرحيم إلى القاهرة سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م بدعوة خاصة، هذه المرّة، من وزيرها الجديد الملك العادل رزّيك ابن الملك الصالح طلائع بن رزّيك، وهو رزّيك

(٧٩) ابن خلكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ٢٢١.
(٨٠) اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣ ـ ٥٤.

الذي قابل عبد الرحيم أوّل مرّة قبل استدعائه له بسبعة أعوام، في حضرة والده. ولعلّه لمس فيه شيئا أعجبه، حتى أنه حالما تولّى الوزارة استدعاه من الإسكندرية وولّاه كتابة الجيش، أو بالأحرى رئاسة ديوان الجيش - وهذا المنصب من أعلى المناصب الإدارية في الدولة الفاطمية - ولقّبه بالقاضي الأسعد.[81]

رجع عبد الرحيم إلى القاهرة خلال أوضاع سياسية صعبة دامية تشبه الأوضاع التي غادرها فيها إلى الإسكندرية سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م؛ فقد غادرها في أوّل ولاية الملك الصالح طلائع الوزارة، في إثر مقتل وزيرين والخليفة الظافر وبعض أقاربه، وعاد إليها في إثر مصرع الوزير الملك الصالح طلائع بن رزّيك، ضحية لمؤامرة كبرى اشترك فيها بعض أعضاء العائلة الفاطمية، وكان أبرزهم الأميرة ست القصور عمّة الخليفة العاضد الصغرى.

وإنْ دلّت مؤامرة اغتيال الملك الصالح على شيء، فعلى صراع قوي بين القصر الفاطمي ومسانديه من الجيش، ولا سيّما السودان من جهة، وبين الوزير ومن في صفّه، وخصوصا من الأرمن من جهة ثانية. وكانت من ناحية أخرى للسيطرة على السياسة المصرية التي كانت قد بدأت تفلت من أيدي الفاطميين بصورة نهائية.

ولم تتوقّف الأحداث الدموية التي أدّت إلى عودة عبد الرحيم إلى القاهرة عند اغتيال الملك الصالح طلائع، بل تعدّته إلى ابنه رزّيك الذي ضُرب في يده اليمنى قبل أن يتولى الوزارة، كما أنه بدأ وزارته بعملية دموية ثأرا لوالده ولنفسه. ويذكر المقريزي أن رزّيك جلس في مرتبة أبيه (الوزارة) في إثر مقتله وهو مجروح، ثم طلب عمّة العاضد ست القصور من القصر، وخنقها بمنديل ثم رُميت أمامه. ولمّا علمت أختها، عمة العاضد الكبرى، بما حدث خافت على نفسها وأعلمت رزّيك بأنها بريئة من مقتل الملك الصالح طلائع، وأن القائمين بالعملية هم أصحاب أختها المقتولة. ولقد تتبع رزّيك قتلة أبيه وتخلّص منهم.[82] ويذكر ابن الأثير أن الملك الصالح قتل ست القصور قبل وفاته، ذاكرا أن الصالح نقل إلى داره، بعد أن طعن، وفيه رمق من الحياة، فعاتب الخليفة العاضد على المؤامرة، ولكن العاضد أنكر اشتراكه فيها، فقال له الصالح: «إنْ كنت بريئا، فسلّم عمّتك إليّ حتى أنتقم منها، فأمر بأخذها فأرسل إليها، فأخذها قهرا وأُحضرت عنده، فقتلها ووصّى بالوزارة لابنه رزّيك، ولُقّب العادل.»[83]

بدأ رزّيك وزارته بتوسيع الصراع بين الخلافة والوزارة، هذا الصراع الذي دام

(٨١) المصدر نفسه.

(٨٢) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٤٦ - ٢٤٨ - ٢٥٣.

(٨٣) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ٩، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

أحدعشر عاما بعد عودة عبد الرحيم إلى القاهرة، انحلّت بعدها الخلافة. وكُتب لعبد الرحيم أن يؤدي دورا في الصراع وفي انحلال الخلافة.

حاول رزّيك في أثناء وزارته أن يستميل الناس والعسكر، فقام بأعمال خيرية عديدة أشار عمارة اليمني إليها بقوله: «أنه (رزّيك) سامح الناس بالبواقي والحسبانات القديمة، وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة، وقام عن الحاج بما يستأديه منهم أمير الحرمين، وسيّر على يد الأمير شمس الخلافة إمّا خمسة عشر ألفا أو دونها إلى أمير الحرمين عيسى بن أبي هاشم برسم إطلاق الحاج.»(٨٤) ولقد ربط عمارة اليمني ما بين أعمال رزّيك الخيرية هذه وإحضاره عبد الرحيم البيساني من القاهرة، لما اعتبره في إحضار عبد الرحيم من خير لمصر.

كان منصب كتابة الجيش، أو رئاسة ديوان الجيش، الذي تسلّمه عبد الرحيم من أعلى المناصب الإدارية في مصر، ويهيّىء متوليه لرئاسة ديوان الإنشاء. ولمّا كان ديوانا الجيش والإنشاء يشتركان في بعض المسؤوليات، فقد أصبح عبد الرحيم زميلا لأستاذه ابن الخلال الذي ساعده، بطريق مباشر وغير مباشر، في كل درجة من درجات ترقّيه.

ولقد أعجب أسلوب عبد الرحيم الكتابي وإدارته وشِعره الوزير رزّيك كما أشرنا. ولكنْ كانت لديه بلا شك خصال أخرى ميّزته من غيره من الكتّاب، ولفتت أنظار الحكام إليه. فمن هذه الخصال قدرته على المفاوضة والإقناع، وقد انعكست في أعماله وكتاباته في عهد صلاح الدين بصورة خاصة، حين أصبح المتكلّم الرئيسي والمفاوض الأكبر في شتى الحوادث ذات الشأن والمحوّل لكثير من الأمور. وقد تدرّب على هذه الأمور منذ بداية دراسته وعمله في القاهرة وساعده عليها شخصية مرنة وحنكة تعلّمها بمرور الأعوام.

وصف أحد الكتّاب التالين لعبد الرحيم في إدارة الجيش، الصفات المتطلبة من كاتب الجيش أو رئيسه. ولعلّه ركّز بعضها على ما عُرف عن عبد الرحيم بعد أن أصبح وزيرا، فقال: إن الناظر، (رئيس) ديوان «الجيوش» يحتاج «إلى صفات متى اختلّ منها وصف اختلّ بإزائه حال من أحوال ديوانه. فمن هذه الصفات، حسن التدبير، لأن مبنى ديوان الجيش على حسن التدبير بإرضاء الأجناد بما يُقطعون، بحيث يجمع بين رضائهم بكفاياتهم وتوفير ما يمكن توفيره على الديوان. المعرفة والأمانة، لأن الجهل والخيانة بابان يدخل منهما كل داء ويحملان على كل بلاء، وإلى معرفة أحوال البلاد وغيرها ومتحصّلها ومواضعها من الإقليم، وأن يسترفع كل سنة نسخة قوانين ريّ البلاد ليعلم ما

(٨٤) اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.

نقص وما زاد، وكذلك نسخ السجلات من البلاد ليعلم ما ترجّح من ارتفاعها وما هي عليه من أوضاعها، وما انتقل من فدن العين إلى الغلّة ومن الغلّة إلى العين ومن صنف إلى صنف، وما عُمِّر فيها من الخراب الذي لا يعلوه النيل من البساتين.»[٨٥]

وأضاف هذا الكاتب أن هناك شروطا لاختيار رئيس ديوان الجيش، منها أن يكون مسلما، عالي المكانة، وجيها وأمينا، لأن أمراء الدولة «مع جلالهم وأقدارهم يحتاجون إلى مخاطبته والتلطف به لأجل إقطاعاتهم وأجنادهم.»[٨٦]

وكان ديوان الجيش معقّدا بعض التعقيد إذا ما قيس بديوان ثغر الإسكندرية، الذي عمل فيه عبد الرحيم من قبل في مجال الإشراف على الإدارة المالية والعسكرية. فلقد كان ديوان الجيش أو ديوان الجيش والرواتب، كما عُرف في العهد الفاطمي، من أقدم الدواوين في الإسلام وأهمها. وضعه الخليفة عمر بن الخطاب أصلا لإدارة وتنظيم أموال الفيء أو الأموال الواردة على المدينة نتيجة الفتوح، وأموال الخراج، ثم لتنظيم وتوزيع رواتب المجندين والمستحقين وحفظ أسمائهم في سجلات خاصة. وكان هذا الديوان يُعرف في بداية أمره بديوان العطاء، ثم تطوّر اسمه إلى ديوان الجيش والرواتب في مصر الفاطمية، وأصبح يضمّ قسمين يشرفان على جميع الأمور المالية.[٨٧]

فأمّا القسم الأول فعُرف بديوان الجيش. وقد وصفه المقريزي بقوله: «فيه مستوفٍ أصيل، ولا يكون إلا مسلما وله مرتبة على غيره لجلوسه بين يدي الخليفة داخل عتبة باب المجلس، وله الطراحة والمسند وبين يديه الحاجب، وتَرِد عليه أمور الأجناد، وله العرض والحلى والشياب.» وفي الديوان خازنان، وبين يدي رئيسه «النقباء الأمراء يُنْهُون إليه متجدّدات الأجناد من حياة أو موت أو مرض.»[٨٨] وكان معاش المستوفي أربعين دينارا.[٨٩]

والقسم الثاني ديوان الرواتب الذي يحفظ أسماء كل مرتزق، وفيه كاتب أصيل بطرّاحة، وعشرة موظفين من مساعدين ومبيّضين. يتلقى معلوماته من جميع الأعمال، باستمرار من هو مستمر في الخدمة، وبالتعيينات الجديدة والوفيات. ومن هذا الديوان تصدر الرواتب، ابتداء من راتب الوزير، وهو خمسة آلاف دينار، ثم توابع الوزير من أبناء

---

(٨٥) عثمان بن إبراهيم النابلسي، «كتاب لُمَع القوانين المُضيّة في دواوين الديار المصرية»، تحقيق كلود كاهين في:
Bulletine d'Études Orientales, Vol. XVI (1958-1960): 1-78; 119-134; p. 23.

(٨٦) المصدر نفسه.

(٨٧) المقريزي، «الخطط»، ج ١، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

(٨٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠١.

(٨٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

أو إخوة. وكان أعلى راتب لابن وزير هو راتب الكامل شجاع بن شاور صديق القاضي الفاضل، ٥٠٠ دينار. فحواشي الوزير، وحواشي الخليفة وما يتلو ذلك من موظفي القصور على اختلاف طبقاتهم وأعمالهم، ومن موظفي الدواوين بما في ذلك دواوين الثغور.[٩٠] (يمكن مقابلة هذا القسم بوزارة المالية في عصرنا هذا).

تمكّن عبد الرحيم، من خلال مركزه، أن يطّلع على نظام الجيش المصري وأسراره وقدرته وإمكاناته وتنظيمه وإقطاعاته ومدخوله وولاءاته. وقد أعانته معلوماته هذه، فيما بعد، على الاشتراك في بعض عمليات شاور الحربية، ثم في القضاء على الخلافة الفاطمية، ومن بعدها في جهاد صلاح الدين.

وقد اصبح المشرف الإداري لجيوش الوزير رزّيك بن طلائع، وعددها آنذاك أربعون ألف فارس، وستة وثلاثون ألف راجل، وعشر شوانٍ بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل. وكانت هذه الجيوش بأعدادها ومعدّاتها أكثر من جيوش الفرنج مجتمعة لو أنها وُجّهت توجيها صحيحا للجهاد، كما حدث في فترة الملك الصالح طلائع بن رزّيك، ولكنها تفكّكت بسبب الخلافات العرقية والطائفية والولائية، والخلافات بشأن الزعامة، وبدأت بوادر ضعفها تظهر حتى قبل وفاة الوزير الملك الصالح المجاهد. وكانت بحاجة أيضا إلى وزير حازم يرضيها ويكسب ثقتها، ويوجّهها إلى الجهاد دفاعا عن مصر واستردادا لأراضٍ مقدسة كانت تحت حماية مصر. ولكنّ عملا كهذا أصبح شبه مستحيل عندما تولّى رزّيك الوزارة وعيّن عبد الرحيم كاتبا / رئيسا لديوان الجيش.

خدم عبد الرحيم في ديوان الجيش مدة وجيزة تقلّ عن العامين خلال وزارة رزّيك من رمضان ٥٥٦هـ - حتى محرم ٥٥٨هـ / ١١٦٠ - ١١٦٢م، كان خلالها من أقرب المقرّبين إلى رزّيك، بل شاعرَه الخاص، إذ مدحه في قصائد عديدة أشاد فيها بأفضال الوزير العديدة عليه. يقول في بعضها:

رعى لي رعاه الله، أكرمَ صحبةٍ ... وأحطأتُ؛ بدرُ التِمّ ليس له صَحْبُ
وبَدّلني من حاله ذبتُ رحمة ... بها حالةً قد هزّ معطفها العُجْبُ
وأحضرني من مجلس الأنس حضرةً ... لعيشي بها خفضٌ، وقدري بها نَصْبُ
لتنظر عيني ملك كسرى ودسته ... وتسمع أذني ثَمّ ما قالتِ العُرْبُ
فراقني الخُلُق الجميل، وزادني ... اختصاصاً، إلى أن راقني الخُلقُ العَذْبُ
وكان لي الدهرُ الغشومُ محارباً ... وقد وضعت أوزارَها عندكَ الحَرْبُ[٩١]

---

(٩٠) المصدر نفسه.

(٩١) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ١، ص ١٥٩.

ومع ما في المديح عادة من تملُّق وشيء من النفاق، فإن عبد الرحيم أورد صورة إنسانية محبّبة لرزّيك الوزير، تتّفق مع تصوير غيره من الشعراء والكتّاب، كعمارة اليمني والمقريزي. ولقد قدّم لصورته هذه بصفة متطلّبة من صفات الوزير وهي الكرم، والاهتمام بالرعية واللطف والحلم والشجاعة وغيرها من الصفات. ويدلّ شعره على أنه بدأ حقا يتذوّق العزّ والجاه في أثناء وزارة رزّيك، لأن رزّيك أصبح، على ما يبدو، يعتمد عليه في الإدارة، ومن ثَمّ راح يُجازيه على إدارته وإخلاصه وعلى شعره فيه، فعبد الرحيم أصبح الآن، وأول مرة، شاعر الوزير المقرَّب.

ولعل رزّيك خصّه لأنه أراد شاعرا جديدا، بل وجها جديدا في البلاط الوزاري، مختلفا عن غيره ممّن اختصّوا بكل وزير سابق له، يمدحونه في حياته، ويذمّونه في مماته، ثم ينضمّون إلى الوزير التالي له. ولا بد من أن يكون عبد الرحيم قد أصبح من نجوم الوزير اللامعة، حتى أن سابقيه من الشعراء في خدمة الوزير أخذوا يتقرّبون إليه، ومن هؤلاء الشاعر عمارة اليمني الذي اعتبر عودة عبد الرحيم إلى القاهرة من أهم أعمال الوزير رزّيك. وكان عمارة من شعراء آل رزّيك الكبار الذين يخطب ذوو النفوذ ودَّهم. ولقد تولّدت صداقة بين عبد الرحيم وعمارة على الرغم من فارق السنّ بينهما، ولكنها كانت صداقة مشوبة بشيء من المنافسة، اشتدت بمرور الزمن وتحوّلت إلى تبايُن في الولاء فيما بعد، عندما انقلب عبد الرحيم على الفاطميين وحافظ عمارة على ولائه لهم، ومن ثَمّ راح ضحية ولائه.[٩٢]

المهم أن عبد الرحيم دخل حلبات المنافسة والمؤامرات، كغيره من الشعراء وأصحاب الدواوين، منذ عاد إلى القاهرة. ولم تتوقّف شبكة اتصالاته على الوزير وجيوشه وموظفيه، بل امتدت إلى القصر الفاطمي، لأن رئيس ديوان الجيش كان يجلس بين يدي الخليفة في القصر كما كان يفعل مع الوزير.[٩٣] وهكذا فإن عمله مع الوزير رزّيك فتح له أبواب القصور التي أخذ يستكشفها ويتعرّف إلى ما فيها من ساكنيها، إلى أن جاء يوم تمكّن فيه من استعمال معلوماته المختزنة ضد أصحابها.

لم يكد عبد الرحيم يتذوّق الاستقرار والجاه في ظل رزّيك حتى بدأت الأوضاع السياسية القريبة تتغيّر وتتقلّب في غير مصلحته، ولكنها عادت تميل، ولمصلحته في

---

(٩٢) اشترك عمارة، كما يبدو من المصادر التاريخية، في مؤامرة لإطاحة حكم صلاح الدين، كما رثى الفاطميين بعد سقوطهم بشعره، ولاسيّما في لاميّته التي عبرّ فيها عن ولائه الخالص لهم، الأمر الذي أثار حفيظة بعض رجال دولة صلاح الدين، ومنهم القاضي الفاضل، عليه. القصيدة في: المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٩٣) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٠١.

المدى البعيد. ولا بدّ من أنه أدار دقّة الأحداث بحنكته وعزمه. فقد وقع هذه المرّة، وفي أثناء رئاسته لديوان الجيش، صراع بين الوزير رزّيك وشاور والي قوص وأحد كبار قوّاد الفاطميين مكانة وسنّا. وسبب هذا الصراع أن رزّيك قرّر أن يعزل شاور عن ولاية قوص، وهي من أكبر الولايات في مصر لأسباب شخصية، أو ربما خوفا من قوة شاور، ولكنّ شاور ثار على رزّيك عندما علم بقرار عزله، وتوجه إلى القاهرة لمواجهة رزّيك. ويبدو أنه استمال، وهو في طريقه إلى القاهرة، بعض قواد رزّيك المقربين مثل ضرغام وإخوته ملهم وحسام وهمام وغيرهم،[٩٤] فأضعف بذلك رزّيك.

عندما رأى رزّيك نفسه بلا عون، هرب من القاهرة قبل وصول شاور إليها، وقصد ولاية اطفيح (جنوبي الفسطاط) مستجيرا بأحد مقدّمي العرب، ولكن هذا خانه وسلّمه إلى شاور، فقتله طيّ بن شاور في شهر محرم ٥٥٨هـ/ كانون الثاني (يناير) ١١٦٢م.[٩٥]

لقد مثّل الصراع بين رزّيك وشاور صراعا بين عنصرين من عناصر الجيش المصري هما: الأرمني الذي تمثل برزّيك، والعربي الذي تمثل بشاور، المنتسب إلى بني سعد في المدينة. والصراع بين هاتين الفئتين جديد، إذ تعوّد الأرمن أن يشتبكوا قبل ذلك مع السودان.

كان مقتل رزّيك صدمة كبرى لعبد الرحيم، هزّ مجرى حياته ومستقبله. فقد رأى هذه المرّة بأم عينه مشهدا دمويا قبيحا كان ضحيته وزيرا محبّبا إلى قلبه، وهو وإنْ لم يصف مقتل رزّيك فقد رثاه وأهله بقوله:

بأي وجه يراني الناس بعدهمُ	حيّا ويا أسفا إن قلتُ: بعدهمُ
أبكي الذي زال عند التاج دَوْلتُه	إذا بكى الناس من زلّت به القدمُ
أعزِز عليَّ بأن ظلّت ديارهمُ	تُسدى الهمومُ بها، أو تُندب الهِمَمُ
وما لبست دموع العين عاطلة	إلا وفيض دمي في رُدنها علمُ
وإن ينهدمْ بكم للدهر بيت علا	فإن بيت رثائي ليس ينهدمُ
معنى من الكرم المهجور فُزت به	وفي الرثاء لمن لا يرتجى كرمُ
وكان حقّكمُ لو كان لي قِبَلٌ	أن ينصرَ السيف، لا أن يُنصَر القلمُ[٩٦]

وأمّا عمارة، فقد وصف منظر مقتل رزّيك المحزن بقوله: «ثم دخلت قاعة السرّ

(٩٤) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩؛ ابن خلّكان، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١.

(٩٥) ابن خلّكان، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤، ٤٣٩ ـ ٤٤٠؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٩٦) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ٢، ص ٤٠٦.

من دار الوزارة، وفيها طي بن شاور وضرغام وجماعة من الأمراء مثل عز الزمان ومرتفع الظهير، ورأس رزّيك بن الصالح بين أيديهم في طست، فما هو إلا أن لمحته عيني ورددت كمي على وجهي ورجعت على عقبيّ. وما ملأت عيني من صورة الرأس. وما من هؤلاء الجماعة الذين كان الرأس بين أيديهم إلّا من مات قتلا وقطعت رأسه عن جسده. فأمر طيّ من ردّني فقلت: والله ما أدخل حتى تغيب الرأس في عيني، فرُفع الطست وقال لي ضرغام: لم رجعتَ؟ قلت: بالأمس وهو سلطان الوقت الذي نتقلب في نعمته، قال: لو ظفر رزّيك بأمير الجيوش (شاور) أو بنا ما أبقى علينا، قلت: لا خير في شيء يؤول بصاحبه من الدست إلى الطست ثم خرجت وقلت:

أعزِز عليّ أبا شجاعٍ أن أرى ... ذاك الجبينَ مضرّجاً بدمائهِ
ما قلّبته سوى رجالٍ قلّبوا ... أيديهمُ من قبلُ في نعمائهِ»[97]

وعلّق عمارة اليمني على تقلّب الناس السريع ووقوفهم إلى جانب ذوي القوة بقوله أنه لما «جلس شاور في دار الذهب، قام الشعراء والخطباء ولفيف من الناس، إلا الأقل ينالون من بني رزّيك، وكان مع شاور ضرغام نائب الباب ويحيى بن الخيّاط اسفهسلار العساكر، وكانت بيني وبين شاور أنسة مستحكمة فأنشدته قصيدة في اليوم الثاني من جلوسه والجمع حافل أوّلها:

صحّت بدولتك الأيام من سَقَمِ ... وزال ما يشتكيه الدهر من ألمِ
زالت ليالي بني رزّيك وانصرمت ... والحمد والذمّ فيها غير منصرمِ
كأن صالحهم يوماً وعادلهم ... في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يَقُمِ»[98]

ربما حضر عبد الرحيم المشهد الذي حضره عمارة، ولكنه لم يكن في وضع يستطيع فيه التعليق عليه، إذ كان يفكر في مصيره وفي مصير غيره من ذوي الإدارة والمكانة في الدولة، ويخطّط لما فيه مصلحته، فهل يبقى في القاهرة مدينة العنف والمؤامرات أم يعود إلى الإسكندرية. غير أن طموحه إلى المجد تغلّب في النهاية، فقرّر أن يظلّ في القاهرة ويخدم في ديوان الجيش، إذا ما سمح الوزير الجديد له بذلك، ولكنْ ليتحركْ بحذر شديد، فإن أية حركة تؤخذ عليه قد تودي به.

زاول عبد الرحيم عمله في ديوان الجيش في القاهرة بعد مقتل رزّيك، وخدم كُلّاً من شاور وابنه الكامل، مع أنه اختص بالكامل منذ البداية. فقد كان الكامل أقرب سنّاً

(٩٧) اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٩٨) المصدر نفسه، ص ٦٨ ـ ٦٩.

منه، وكان نجما سياسيا جديدا لامعا مسيطرا، طموحا للحكم، بحاجة إلى شاعر جديد قليل التمرّغ في ساحات الوزراء العديدين، قدير وحكيم، فتوسّم في عبد الرحيم أو القاضي الأسعد خيرّ معين على مساعدته إداريا وإعلاء ذكره بشعره. وهكذا بدأ عبد الرحيم عمله مع الرجل الثاني في الإدارة الفاطمية من حيث المركز، ولو أنه كان المحرك الأساسي للإدارة ولبعض الأحداث التي انتابت مصر بين سنتي ٥٥٨ و ٥٦٤هـ/ ١١٦٨ ـ ١١٦٩م، وأدت إلى مقتله ومقتل والده ونهاية حكم آل شاور، ولكنها أدت في الوقت ذاته إلى بروز عبد الرحيم البيساني على الجبهة السياسية كأحد كبار محرّكي دفّتها.

ولفهم العلاقة بين عبد الرحيم والكامل، راعيه الثاني، لا بدّ من أن نصوّر شخصية الكامل ودوره في تاريخ مصر، وهو دور ذو شأن لكنه مجهول، وتأثيره في عبد الرحيم من جهة ثم تأثير عبد الرحيم فيه من جهة أُخرى، وخصوصا خلال الهجوم الفرنجي على مصر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، الذي كاد يلقي بها في أحضان الإفرنج.

سابعا: في ظلّ آل شاور
(٥٥٨ ـ ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م)

تزوّدنا المصادر التاريخية بصورتين للكامل، تصفه إحداهما في بداية عهد والده في ولاية قوص، ثم في وزارة والده الأولى، وفي أثناء حملة الفرنج وأسد الدين الثانية على مصر، وتصوّره ثانيتهما في أثناء الحملة الفرنجية الثالثة على مصر. ونرى من خلال هاتين الصورتين شخصيتين للكامل.

تدرّب الكامل في دراسته على يد الشاعر عمارة اليمني، أحد كبار فقهاء مصر وشعرائها في عصره، فالتقى الوزراء من آل رزّيك وشاور وضرغام وقرّبوه إليهم ومدحهم، وحاول أن ينبّههم في شعره إلى أخطائهم. ولقد توخّى شاور، في اختياره لعمارة أستاذا لابنه الكامل، كون عمارة عربيا أصيلا مثله. وقد قال له وهو في القاهرة قبل أن يتولّى قوص سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م: «إن العرب من العرب وقد أوصيت الكامل أن لا ينقطع عنك.»[٩٩]

تقرّب الكامل من عمارة، فكان يمضي عنده في القاهرة أياما ولياليَ يدرس ويسمع شعره، ويناقشه.[١٠٠] إلا أن الكامل انقطع عن عمارة حالما تولى أبوه الوزارة، وقد

---

(٩٩) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(١٠٠) المصدر نفسه.

رماه عمارة باللؤم والعُجب بسبب ابتعاده عنه، ولكن الواقع أنّ الكامل كان يعرف مدى ارتباط عمارة ببني رزّيك وخصوصا بالملك الصالح طلائع بن رزّيك. وإذ كانت ثورة والده شاور قد تسبّبت بمقتل بني رزّيك وسلب الوزارة من أيديهم، فقد فضّل الكامل أن يبدأ العمل ضمن عهد جديد ويفصل نفسه عن الماضي.

وفي هذه الأثناء، قابل عبد الرحيم البيساني في ديوان الجيش فضمّه إلى حاشيته الجديدة. وليس من المستبعد أن يكون تعلّق الكامل بعبد الرحيم البيساني قد سبّب شيئا من العداء المكبوت بين الشاعرين، ظهرت نتائجه فيما بعد، في ثورة عمارة على حكم صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، وفي إصرار عبد الرحيم على إعدام عمارة، وهذا ما سنبحث فيه في مكان ملائم.

كان الكامل في أثناء وزارة والده الأولى متسلطا، يحب مظاهر العظمة والظهور، حتى أنه عمل لنفسه مظلّة تحمل على رأسه. والمظلّة عادة من رسوم الخلافة لا الوزارة، فتذمّر الناس منه ونقموا عليه، ولعلهم خافوا من سلطته. وقد «تحكم على أبيه وترفّع على الأمراء وعسفهم.»[١٠١]

وعلى الرغم من صفات الغطرسة وحبّ العظمة التي عرف الكامل بها، فقد كانت لديه صفات حسنة ميّزته من أبيه وأخيه طيّ. ويشير المقريزي إلى أنه عندما تولّى شاور وزارته الأولى «انثالت عليه وعلى ولده طيّ أموال بني رزّيك وودائعهم»،[١٠٢] ولا يذكر اسم الكامل، لأنه على الرغم من حبه للسيطرة لم يكن فاسدا كأخيه طيّ. وقد اعترف له عمارة اليمني بهذه الخصلة بالذات عندما قال: «ولم تكن له إلا حسنة واحدة، ولست أظلم حقّه فيها، وهي أنه كان يردع إخوة شاور عن كثير من الظلم، فإنه لولا هيبته عليهم لأهلكوا الناس.»[١٠٣]

ولـمّا كان الكامل صاحب السلطة الفعلية في وزارة والده، فقد عمل مع عبد الرحيم عن كثب في ديوان الجيش، وسجّل لنفسه، أو سجّل الديوان له، معاشا مقداره خمسمئة دينار، وهو الوحيد من أبناء الوزراء المصريين الذي تقرّر له معاش عالٍ كهذا.[١٠٤]

---

(١٠١) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٦١. يشير عمارة إلى تغيُّر الكامل عليه بعد وزارة شاور الثانية. اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(١٠٢) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٥٩.

(١٠٣) اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٤.

(١٠٤) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٠١.

ثامنا: نهاية وزارة شاور الأولى
(٥٥٨هـ/ ١١٦٣م)
وسجن القاضي الفاضل

لكن الأيّام لم تطل بوزارة شاور (١٥ محرم - ١٧ رمضان ٥٥٨هـ / ١١٦٢ - ١١٦٣م) أي دامت تسعة أشهر، أمضاها شاور في خوف على حياته، وأمضاها أمراء البرقية في الإعداد للانقضاض عليه. وقد تمّ لهم ذلك إذ استولى قائدهم ضرغام على الوزارة (١٧ رمضان ٥٥٨هـ/١١٦٣م)، فاضطر شاور إلى أن يهرب إلى فاقوس لاجئا عند بعض العربان، من ثم تابع هربه إلى الشام.[١٠٥]

أما الكامل فالتجأ مع عمه صبح، في بادىء الأمر، إلى همام أخي ضرغام فأنقذهما من بطش أخيه ضرغام. ويذكر عمارة اليمني أنه أنشد هماما مدحا في حضرة الكامل صبح أشار فيه إلى آل شاور وإلى وفاء همام بقوله:

مآثر لو تركنا شرح جملتها غنيتُ فيها عن التفصيل بالجُمَلِ
منها الجميل الذي أبقيتَ سيرته في آل شاور حتى سار كالمَثَلِ
ما زلتَ تُوسِعهم بشراً وتكرمةً حتى كأن ليالي القرم لم تَزُلِ
ولستُ في هذه الدعوى بملتمسٍ شهادةً ولسانُ الحال يشهد لي

فقال الكامل بعد قيام همام: لا أماتني الله حتى أقدر على مكافأتك، فقلت في نفسي: «ولو رُدُّوا لعادوا لِما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون.» ولم تمضِ إلا أيام قليلة حتى عادت الوزارة إلى أبيه وإليه.[١٠٦]

ولم يسلم عبد الرحيم البيساني هذه المرّة، فلعلّ ضرغاما، مع ما عُرف عنه من حبه للشعر والشعراء والأدباء، حاول التخلّص منه، ربما لقربه من الكامل وشاور أو لسماعه بعض الوشايات عنه. فلقد عُرف عن ضرغام أنه «سريع الاستمالة مع من يستميله ولا يكذب خبرا عن عدوّ بل يعاقب سريعا.» ولكنّ ملهما، أخا ضرغام، تدخّل وأجاره أو، بحسب رأي بعضهم، اعتقله في بيته.[١٠٧] ولا شك في أن ملهما راعى في إجارته لعبد الرحيم قرابة النسب بينهما، فكلاهما من قبيلة لخم، كما راعى عبد

(١٠٥) للتفصيلات: المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٥٨ - ٢٦٣؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ٩، ص ٤٦٠.
(١٠٦) اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢.
(١٠٧) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٧١.

الرحيم وكفاءته الإدارية.

انضم عبد الرحيم إذاً إلى ملهم، بينما انضم الكامل إلى همام من إخوة ضرغام، ولكنّ الاثنين تقابلا في بيت ملهم، وربما انتقل الكامل في فترة ما إلى بيت ملهم حيث اجتمع إلى عبد الرحيم وتعرّف إليه، لا كمدير أو كاتب أو شاعر، بل كصديق وإنسان ذي صفات شخصية متميّزة قدّرها الكامل واعترف بها، كما تأثّر بها فيما بعد.

وظلّ كل من الكامل وعبد الرحيم في معتقلهما مدّة تسعة أشهر[١٠٨] - أي طوال وزارة ضرغام - جرت خلالها أحداث مهمة أدت إلى تحريرهما من مكان إجارتهما أو معتقلهما، وهيّأت الأوضاع لما تلاها من أحداث أهمّ كُتب لكل منهما أن يؤدي دورا فيها.

وأمّا الأحداث التي جرت في أثناء اعتقال الكامل وعبد الرحيم، فيمكن تلخيصها بما يلي:

هرب شاور، بعد استيلاء ضرغام على الوزارة، إلى دمشق مستنجدا بنور الدين محمود، وكان على علاقة حسنة به؛ فوصل في ذي القعدة ٥٥٨هـ / تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٦٣م، واتصل بنور الدين طالبا منه نجدة عسكرية شامية تساعده في العودة إلى منصبه في القاهرة، وعرض عليه عدّة عروض منها أن يدفع له (لنور الدين) ما يعادل ثلث دخل مصر بعد إقطاعات العساكر، وأن يسمح لمن أراد الاستقرار في مصر من الشاميين بأن يبقى فيها، وأن يكون هو أيضا في خدمة نور الدين ويأتمر بأوامره.[١٠٩]

كانت العروض مغرية وشبه استسلامية، فوجدت صدى في نفس نور الدين وفي نفوس الكثيرين من أهالي دمشق وعلمائها وجنودها، لأنّ جميع الأعين كانت تتطلع آنذاك إلى مصر، لما ابتُليت به من مشكلات داخلية، ولما هُدّدت به من غزوات فرنجية كانت تعجز أحيانا عن صدّها.

وافق نور الدين على عرض شاور ولو بعد تردد أو تدلّل، قال المؤرخون أن مبعثه الخوف من نقض شاور لوعده، ومن خطر الطريق بين مصر والشام، لأن طريق الساحل

---

(١٠٨) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٠؛ بدوي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.

(١٠٩) يبدو أن شاور بدأ وزارته الأولى بمحاولة للتقارب مع نور الدين، إمّا إعدادا لأوضاع كهذه، وإمّا اقتناعا منه بأنّه يحتاج إلى مساعدة قائد قوي مثل نور الدين إذا ما هاجمه الفرنج. ويذكر المقريزي أنّ شاور أرسل إلى نور الدين الخِلَع عندما تولّى وزارته الأولى، فلبسها نور الدين وقبض المال المسيَّر إليه من شاور. المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٦٠ - ٢٦٤؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٢؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ٩، ص ٤٦٥؛ لتفصيلات أخرى:
Ehrenkreutz, *op.cit.*, pp. 35-39.

كان في يد الفرنج ويستحيل السفر فيه، وأمّا طريق الصحراء - أي طريق العقبة عبر سيناء - فكان مهدّدا من قبل ثلاث قلاع فرنجية هي الكرك والشوبك وأيلة.

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا شاميا بقيادة أسد الدين شيركوه. وربما عارض شاور قيادة أسد الدين للجيش لما يعرفه من ميوله التوسعية وإمكان التنافس معه بشأن الحكم في مصر، ولكنه تقبّل قرار نور الدين على مضض، وصحب الجيش الشامي.

تاسعا: عودة شاور
مع أسد الدين إلى مصر
(٥٥٩هـ / ١١٦٣ - ١١٦٤م)

وصل شاور وأسد الدين إلى بلبيس في الخامس والعشرين من جمادى الأولى ٥٥٩هـ / أيار (مايو) ١١٦٤م، فخرج همام (ناصر الدين) أخو ضرغام مع جيشه بأبّهة عظيمة لمواجهتهم حتى أن أسد الدين استهاب منهم وقال لشاور: «يا هذا، لقد غررتنا وقلت أنه ليس بمصر عساكر حتى جئنا بهذه الشرذمة. فأجابه شاور: لا يهولنّك ما تشاهد من هذه الجموع فأكثرها حاكة وفلاحون يجمعهم الطبل وتفرّقهم العصا؛ فما ظنّك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب. أمّا الأمراء فإن كتبهم وعهودهم معي؛ وسترى إذا التقينا، لكنني أريد منك أن تأمر العساكر بالاستعداد.»[١١٠] والتحم الجيش الشامي والمصري في معركة هزم فيها المصريون في بلبيس، وتابع الجيش الشامي بعدها سيره إلى القاهرة.

لم تكن معركة القاهرة سريعة ولا سهلة كمعركة بلبيس؛ فقد هبَّ أهلُ الأعمال الذين استشارهم ضرغام لنجدته، خوفا من الترك، كما اشتركت فرقتان من الفرق العسكرية المصرية الكبيرة هما الريحانية (السودان) والجيوشية (الأرمن) مع ضرغام. وسانده القصر الفاطمي، بينما ساندت العربان وبعض أمراء ضرغام المنشقّين، شاور وأسد الدين.[١١١] ووقعت بين الفئات المتصارعة معارك أدّت إلى استسلام الريحانية، وتخلّي القصر الفاطمي عن ضرغام، ومقتل أخويه همام وملهم، ثم تولّي شاور الوزارة ثانية في رجب ٥٥٩هـ / آب (أغسطس) ١١٦٤م.[١١٢]

---

(١١٠) Malcolm Cameron Lyons and D.E.P. Jackson, *Saladin: The Politics of the Holy War* (Cambridge: Cambridge University Press, 1982), pp. 6-7;

للمزيد من التفصيلات: المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٦٧.

(١١١) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٦٨.

(١١٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٩ - ٢٧١.

دخل شاور القاهرة ثاني مرة وزيرا، وكتب سجلّ توليته بالوزارة ابن الخلال، رئيس ديوان الإنشاء آنذاك. وكان هذا آخر سجلّ كتبه ابن الخلال، إذ عجز عن الحركة بعد ذلك فقام عبد الرحيم البيساني بالنيابة عنه في الديوان. وقد ساعده الكامل بالحصول على مركز نيابة ديوان الإنشاء لأنه خبره جيدا خلال فترة اعتقالهما، وجازاه بذلك بعد أن دخل شاور القاهرة وتولى الوزارة. فقد وجد شاور ابنه الكامل وعبد الرحيم في بيت ملهم فأطلقهما. وحدّث الكامل والده عن زميله عبد الرحيم بشيء من التقدير والإعجاب، وطلب منه الإنعام عليه، ففعل ولقّبه بالقاضي الفاضل،[113] وهو اللقب الذي عُرف به فيما بعد. وكلمة الفاضل تدلّ على أن الكامل أعجب ببعض خصال عبد الرحيم وحسن نصحه ـ وهذا شيء عُرف القاضي الفاضل به ـ ودعاه ذلك إلى اختيار هذا اللقب. وقد يكون القاضي الفاضل من الألقاب الديوانية، كما يشير بعض الكتّاب، ولكن عبد الرحيم كان الكاتب الوحيد الذي تميّز بهذا اللقب.

تلقّى القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني درسا قاسيا من معتقله، وتعلّم منه ضرورة التحرّك بمنتهى الحذر والتصرّف بشيء من التقيّة حفاظا على الحياة. وقد تقيّد بقول الشاعر:

وأفضل من نيلِ الوزارة للفتى　　حياة تريه مصرع الوزراء

البيت الذي طالما ردّده حتى في أثناء وزارته.

كان القاضي الفاضل عندما أُفرج عنه في الثالثة والثلاثين من عمره، عاش بعدها سبعة وثلاثين عاما أُخرى أمضاها في عزّ وارتفاع وشهرة، باستثناء أربعة أعوام من عمره (٥٥٩ إلى ٥٦٤هـ / ١١٦٣ إلى ١١٦٨ ـ ١١٦٩م) أمضاها برفقة شاور والكامل، كانت مملوءة بالأحداث الجسيمة من مؤامرات ومنافسات ومفاوضات متواصلة، شهدها وساهم فيها وتعلّم منها دروسا هدته إلى الخطّ القيادي الجهادي الذي لزمه حتى وفاته سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م.

ارتبطت سيرة القاضي الفاضل بين سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م وسنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م بسيرة كل من شاور والكامل، إذ أصبح كاتبهما وشاعرهما لمدّة عامين، كما كان مسستشارا للكامل لمدّة عامين آخرين أو أقلّ.

ولقد شكلت الأحداث التي تلت عودة شاور إلى وزارته بمساعدة أسد الدين شيركوه، المفتاح لكل ما جرى بعدها. إذ لمّا دخل شاور القاهرة وتسلّم سجل توليته

---

(١١٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٢. وقد أُفرج عن الكامل والقاضي الفاضل في ٣ رجب ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ م.

بالوزارة وأخرج ابنه والقاضي الفاضل من معتقلهما، لم يرافقه أسد الدين، القائد الذي تسبّب بعودته إلى منصبه، إذ كان الخلاف قد أخذ يدبّ بينهما. وأما أسد الدين شيركوه فخيّم خارج القاهرة فترة من الزمن، في غمرة من الهدايا والأطعمة واللوازم وكل ما يحتاج وجيشه إليه. ولكن أسد الدين، مع تقديره لضيافة القصر، أخذ يطالب شاور بالوفاء بوعده، وشاور يماطله. واستغل أسد الدين فرصة وجوده في مصر وذهب إلى مدينة مصر (الفسطاط) حيث زار بعض فقهاء السنّة فيها، مثل الكيزاني والشيخ عمرو بن مرزوق، فأخبره الشيخ بأنه سيملك مصر ويزيل خلافتها. ولكنه لا يملكها إلا بعد أن يرجع إلى الشام ويأتيها ثانية، ثم يرجع ويعود مرّة ثالثة وحينئذ يملكها. وسأله أسد الدين عن بيت المقدس فقال: «لا يكون فتحه على يدك وإنما يكون فتحه على يد بعض من في خدمتك من أقاربك.»[١١٤] ومن خلال اتصالاته بهؤلاء الزعماء بدأ أسد الدين يهيّىء لنفسه قاعدة شعبية في مصر. وفي الوقت ذاته نبّه إلى ارتباط مصير مصر بفلسطين، ومصير فلسطين بمصر.

لما طال مُقام أسد الدين خارج القاهرة، أرسل مبعوثا إلى شاور: «قائلا طال مُقامنا في الخيم وضجر العساكر من الحر والغبار.» وعاد ينبهه إلى ضرورة الوفاء بوعده. ولكنّ شاور تراجع عن وعوده وأرسل إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله وحفظه. وذكّر أسدُ الدين شاورَ بعهده لنور الدين إذ وعده أن يكون له ثلث مُغَل البلاد، وثلثها لشاور والعسكر والثلث الآخر للخليفة، فأنكر شاور هذا قائلا: «إنما طلبت نجدة وإذا انقضى شغلي عادوا؛ وقد سيّرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا. وأنا أرضي نور الدين. فقال شيركوه: لا يمكنني مخالفة نور الدين ولا أنصرف إلا بإمضاء أمره.»[١١٥]

أعلن الصراع بين شاور وأسد الدين عن بداية صراع ثلاثي بشأن مصر، تنافست فيه ثلاث قوى، إحداها المصرية بقيادة شاور، وكانت تصرّ على إبقاء مصر بلدا مصريا مستقلا، ولو تطلّب هذا الاستقلال إرهاق مصر ماديا وتبديد أموالها ثمنا للتحالف مع أية من القوّتين الأخريين، ثم ضرب هاتين القوتين إحداهما بالأخرى. وربّما نفعت هذه السياسة موقتا، ولكنّها كانت قصيرة النظر، كما أبدت الحوادث الناتجة منها. وثانية هذه القوى، القوى الشامية بقيادة نور الدين زنكي في الشام، وكانت على علم بالوضع المصري السياسي، وبنيات الفرنج التوسّعية في مصر. فلو احتلّ الفرنج مصر لضعفت سيطرة المسلمين على الشام، ولضعف معها مركز نور الدين كقائد للجهاد، واستحالت

(١١٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٣.
(١١٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

استعادة فلسطين. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فقد وقع نور الدين تحت عدد من الضغوط من جهات عدّة، بينها: المؤسسة السنّية والعلماء والشعراء في دمشق، والخليفة العباسي واللاجئون المجتمعون في دمشق، والمؤسسة العسكرية، وعلى رأسها أسد الدين شيركوه، الطامحة إلى احتلال مصر. وعندما أرسل نور الدين قواته مع شاور، كان يأمل بأن يفي شاور بوعده، ومن ثَمّ يبقى أسد الدين وقواته في مصر. ولكنّ شاور اعتبر ذلك شبه احتلال قد يؤدي إلى احتلال كامل. ويعلّق أبو شامة على موافقة أسد الدين على إرسال قواته مع شاور بقوله: «ثم استخار (نور الدين) الله وأمر أسد الدين بالتجهّز للمسير معه قضاء لحقّ الوافد المستصرخ وجسّا للبلاد، وتطلّعا على أحوالها.»(١١٦)

كما يعلّق على موقف أسد الدين قائلا: «وكان هوى أسد الدين في ذلك، وكان عنده من الشجاعة وقوّة النفس ما لا يبالي معه بمخافة.»(١١٧) وأما عماد الدين الأصفهاني فيروي عن أسد الدين أنه كان يطمح إلى مصر حتى قبل قصد شاور للنجدة الشامية.(١١٨)

وأما ثالثة القوى المتصارعة بشأن مصر فكانت المملكة اللاتينية، أو الفرنج بوجه عام. فمنذ احتلّ الفرنج فلسطين أخذوا يتطلّعون إلى التوسّع في مصر، فقام بولدوين الأول بحملته الأولى على الفرما في مصر سنة ٥١١هـ/١١١٦م، ولكنه اضطر إلى الانسحاب من دون أن يحتلّها فأحرق جامعها وأبوابها ثم انسحب.(١١٩)

وبعد أن احتلّ الفرنج عسقلان، واتّخذها أموري ملكا له قبل أن يتولّى الملك وبعده، راح يتطلّع إلى احتلال مصر بعد أن أصبح الطريق أمامه إلى مصر مفتوحا. ولكنه أدرك أن الجبهة الفرنجية الشامية كانت في حالة من الضعف والتقلّص، ولا سيّما بعد ظهور عماد الدين زنكي وابنه نور الدين على ساحة الجهاد، فأخذ يتحيّنّ الفرص للانقضاض على مصر. وقد قام أموري بأول عملية عسكرية استكشافية تأديبية على مصر سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢ ـ ١١٦٣م في وزارة ضرغام، محتجّا بأنه جاء ليقبض ثمن هدنة

---

(١١٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٣؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣. يذكر المقريزي أنّ الخليفة العبّاسي المقتفي كتب عهدا لنور الدين بن زنكي سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م، بولاية مصر والساحل، وبعث إليه بمواكب زحف وأمره بالمسير إليها لمّا بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده. المقريزي، «اتعاظ»، ج ٣، ص ٢٢٣.

(١١٧) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٢.

(١١٨) قوام الدين الفتح بن علي البنداري، «سنا البرق الشامي»، تحقيق رمضان ششن (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧١)، ص ٥٧.

(١١٩) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٥٦.

كان قد عقدها الملك بولدوين الثالث مع مصر، عندما وصل بجيشه إلى بلبيس وسيطر على جزء من سورها، فقاومهم همام أخو ضرغام وبنو كنانة، من لاجئي عسقلان الذي أسكنوا في ثغر بلبيس للدفاع عنها وهزموهم، وكانت تلك أول معركة خاضها الفلسطينيون دفاعا عن مصر.[١٢٠]

لكن حدث أنه بعد هزيمة الفرنج هذه، علم ضرغام بزحف شاور على مصر مع الجيش الشامي، فأرسل مبعوثين إلى الملك أموري يستمد مساعدته على عدوه (شاور). وعرض على أموري أن يدفع له ثمنا لهذه المساعدة ضريبة الهدنة المتّفق عليها، بالإضافة إلى مبلغ آخر يحدده الملك له. وعرض ضرغام على أموري أن يسلّمه رهائن، رمزا لخضوعه الدائم له، وأن يعقد معاهدة طويلة الأمد. وبينما كان رسل ضرغام إلى الملك اللاتيني يتفاوضون في شروط الاتفاقية ويشرفون على التوصّل إلى اتّفاق نهائي، دخل شاور وشيركوه مصر، كما أشرنا، وهزما ضرغاما.[١٢١]

وقام، نتيجة سياسة هذين الوزيرين المصريين، سباقٌ في شأن حكم مصر بين المملكة اللاتينية والشام. وكان أموري يراقب عن كثب ما سيجري في مصر بعد وصول أسد الدين وشاور إليها، وقد واتته الفرصة الذهبية هذه المرة على يد شاور، لا على يد خصمه ضرغام، ونتيجة الصراع بين شاور وأسد الدين دخل مصر.

عاشرا: المواجهة الأولى
شاور وأموري ملك الفرنج
ضدّ أسد الدين

عندما اشتدّ الصراع بين شاور وأسد الدين في شأن تنفيذ شروط اتّفاقيته مع نور الدين، قرّر شاور أن يتخلّص من أسد الدين بالقوة، فأرسل مبعوثين إلى الملك أموري يستنجده على أسد الدين ويعرض عليه تبنّي شروط اتّفاقيته (أي اتفاقية أموري) مع ضرغام، مع تحسين بعضها. ووافق أموري من دون تردّد، وعلى رأي أبي شامة فقد

---

(١٢٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٢؛ للتفصيلات أيضا:
William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, pp. 302-305.
(١٢١) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, pp. 304, 302.
تمّت المعاهدة سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦١ م.

«جاءهم (للفرنج) فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته، والمبادرة إلى نصرته؛ وطمعوا في ملك ديار مصر.»(١٢٢)

سار أموري على رأس جيشه، يصحبه عدد كبير من الفرنج ممن قدموا لزيارة فلسطين، إلى بلبيس، حيث كان أسد الدين قد تحصّن (فيها)، والتقى بالجيش المصري وشاور خارج المدينة حيث حاصروا جميعا أسد الدين لمدة ثلاثة أشهر، (من رمضان إلى ذي الحجة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م) تمّ بعدها الاتّفاق على الصلح، على أن يدفع شاور لأسد الدين مبلغ ثلاثين ألف دينار، وأن يعود أسد الدين إلى الشام.(١٢٣)

لقد تشققت الجبهة المصرية في إثر هذه الحرب التي تصارعت فيها قوتان: إحداهما مسلمة غير مصرية، والأخرى مسيحية فرنجية على أرض مصر. كما توزعت ولاءات الفرق المحاربة والشعب بين مناصر للحلف المصري الفرنجي وبين معادٍ له. وأمّا بنو كنانة فقد انضموا إلى أسد الدين في صراعه مع شاور في القاهرة، حتى قبل أن يدخل الفرنج مصر، وساندوه في حربه ضد الفرنج؛ في بلبيس، كما تكبّدوا خسائر فادحة في حرب بلبيس. وأيّده كذلك بعض العسكر من المصريين.

وساند القصر شاور منذ بداية صراعه مع شيركوه، وشاركه في ذلك فرق من القوّات المصرية، بينها الصبيان (صبيان الحُجر). واشترك أبناء شاور مع والدهم في حربه ضد شيركوه، فأصيب ابنه الطاري بسهم في عينه اليمنى تسبب بقلعها. وأمّا الآخر، ولعله الكامل، فقد رُمي بحجر في أثناء القتال حول القاهرة، كاد يقضي عليه.(١٢٤)

---

(١٢٢) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 305.
للمزيد من المعلومات: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٥. ويشير المقريزي إلى أنّ شاور عرض على الملك أموري مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة يقطعها الفرنج بين عسقلان وبلبيس. فعندما وصل الملك إلى بلبيس، كان قد قطع سبعا وعشرين مرحلة، فدفع له شاور مقابلها مبلغ سبعة وعشرين ألف دينار. المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧. ويشير المقريزي في رواية أخرى إلى أن شاور عرض على الملك مبلغ ٥٠,٠٠٠ دينار. المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٧٥.

(١٢٣) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(١٢٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦. صبيان الحُجَر، أو صبيان الخاص، كانوا عادة من أبناء مَنْ مات من الأمراء والجنود وعبيد الدولة، وكانوا يوضعون في أماكن خاصّة مبنية بقرب دار الوزارة في القاهرة. وكانت الدولة الفاطمية تُعدّهم للخدمة العسكرية بتعليمهم أنواع الفروسية، وهم عادة يخدمون الخليفة إذا احتاج إليهم.
المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٩٩، وهامش (١) صفحة ١٩٩ من المصدر نفسه، والمقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٤٣.

وأمّا القاضي الفاضل فأعلن في شعره، مساندته لكل من شاور والكامل. فقد كان مدينا لهما بحرّيته من معتقل آل ضرغام، وبعمله الجديد كاتبا مختصا بهما، سواء في ديوان الجيش أو في ديوان الإنشاء، ولم يرَ بدًا من مدح أعمالهما. فمن مدائحه لشاور في هذه المناسبة، قوله:

لقد قمتَ في نصر النبي وآله ... مقاماً على الرحمن قد حقّ أجرُهُ
سرى ملك الإفرنج ينصرُ جمعهم ... فما ضرّهم في نصرة الحقّ كفرُهُ
وما هي إلا آيةٌ نبويّةٌ ... أقامت لهم بالنفع من خيف ضُرُّهُ
وعادتُهُمْ من قبلُ آيةُ جَدّهم ... فينصرهم مَن لا يُؤمِّل نصرُهُ(١٢٥)

شارك القاضي الفاضل شعراء آخرون وكتّاب في مدح سياسة شاور القائمة على ضرب «أعداء» مصر بعضهم ببعض، فأنشد عمارة اليمني لشاور قوله:

وأنقذتَ من مصرٍ عدوًا بمثلِهِ ... فللّه من ظُفْرٍ قَلَلْتَ وناب
صَدَمْتَ جموع الكفرِ والشامِ صدمةً ... أقمت بها للقوم سوق ضِرابِ(١٢٦)

حادي عشر: المواجهة الثانية
بين أسد الدين، وشاور وأموري
(ربيع الثاني ـ شوّال ٥٦٢هـ/
كانون الثاني / يناير ـ تموز/ يوليو ١١٦٧م)

كانت هذه الفترة حاسمة في تاريخ مصر، إذ اشتد الصراع بين المملكة الفرنجية والشام في شأن مصر وعلى أراضيها، وكشف كل من المتصارعين عن أهدافه التوسّعية أو عن وجهه الحقيقي. وأمّا القيادة المصرية برئاسة شاور فأخذت تتخبط في تحديد اتّجاهها وموقفها، وكادت تفقد دقّة قيادتها في مصر، كما كادت مصر تُسلِمُ نفسَها للفرنج، لولا وجود قوى خفية سياسية قامت بأدوار مهمة من وراء الستار، وحوّلت الدفة المصرية في اتجاه رأته أقوم لمصر وللإسلام. وكان أحد العاملين ضمن هذه القوى القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني. وسنبحث في دوره خلال تلك الأوضاع ضمن الإطار السياسي العسكري العام لهذه الفترة.

يشير عماد الدين الأصفهاني إلى هذه الأحداث بقوله: «وعاد أسد الدين إلى الشام

(١٢٥) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ١، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.
(١٢٦) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٧.

وجرى على عادته في خدمة نور الدين وفي قلبه من شرّ شاور الإحنَ، وكيف تمت بقدرته تلك المحن، إلى أن دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمئة.»(١٢٧)

لقد فتحت رحلة أسد الدين شيركوه الأولى إلى مصر أمامه آفاقا واسعة، وعرّفته إلى مواطن القوّة فيها، وإلى مداخلها ومخارجها وعلمائها وناسها، ومَن منهم يسانده ومَن منهم يعاديه. ومع أنهّ عاد إلى الشام عملا بشروط الاتفاقية مع شاور وأموري، فإنه أخذ يخطّط لمشروع أكبر هو احتلال مصر. ولم تخفَ آمال أسد الدين على معاصريه وتابعيهم؛ فأبو شامة يقول معلّقا على نيات أسد الدين وآماله: «وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدّث نفسه بقصدها ومعاودتها، حريصا على الدخول إليها، يتحدث به مع كل من يثق به. وكان ممّا يهيجه على العَوْد زيادة حقده على شاور وما عمل معه.»(١٢٨) وذكر ابن الأثير أن أسد الدين كان بعد عودته من القاهرة «لا يزال يتحدث بها، ويقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير.»(١٢٩)

ولم يكن أسد الدين الوحيد الذي عبرّ عن تصميمه على العودة إلى مصر. فقد كان ابن أخيه صلاح الدين، الذي شاركه في رحلته الأولى إليها يتحدث عنها أيضا، وقد يشير إليها ملحّا على العودة مع عمه. حتى أن بعض الشعراء أخذ يلوّح له باحتلال مصر وبحكمها. وكان بين هذا البعض العرقلة الكلبي الذي مدح صلاح الدين بأبيات قبل ذهابه إلى مصر سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م قائلا:

أقول والأتراك قد أزمعتْ مصرَ إلى حرب الأعاريبِ
ربّ، كما ملّكتَها يوسف الصدّيق من أولاد يعقوبِ
يُملّكها في عصرنا يوسفُ الصادقُ من أولاد أيّوبِ
مَنْ لم يَزَلْ ضرّاب هامِ العِدا حقّاً وضرّاب العراقيبِ(١٣٠)

توجه أسد الدين إلى مصر ثاني مرة في منتصف ربيع الأول ٥٦٢هـ/ كانون الثاني (يناير) ١١٦٧م ووصلها في السادس من ربيع الثاني من السنة ذاتها. أي أن الرحلة استغرقت منه ثلاثة أسابيع حتى وصل إلى اطفيح في مديرية الجيزة.

ولكن أموري الذي كان يراقب حركات أسد الدين، علم بسيره إلى مصر وخاف، طبعا، أن تفوته الفرصة إن تلكّأ هو في سيره، فعقد مجلسا في نابلس حضره كبار الدولة

---

(١٢٧) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.
(١٢٨) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٣.
(١٢٩) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٣.
(١٣٠) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٤.

من رجال الدين والسياسة، وبحثوا فيه في خطورة احتلال أسد الدين مصر على كيان المملكة اللاتينية، واتّفقوا جميعا على أن يفرضوا ضريبة عُشرٍ على الأموال المنقولة لإعانة المملكة. وسار أموري بعد هذا إلى الأردن في اتّجاه الطريق بين الشام ومصر ليمنع أسد الدين من الوصول إلى مصر، ولكنّه عندما لم يجد له أثرا عاد إلى المملكة وحشد جيوشه في عسقلان، ثم سار في اتّجاه مصر عن طريق عسقلان حتى وصل إلى بلبيس.(١٣١)

هذه رواية وليم الصُّوريّ، وممّا يلفت الانتباه فيها أن شاور لم يدعُ الفرنج آنذاك إلى مساعدته ضد شيركوه، لأنّه لم يكن يعلم أن شيركوه في طريقه إلى مصر. ورواية وليم الصوري تناقض رواية بعض المصادر العربية التي تشير إلى أن شاور استنجد بالفرنج.

يصف المؤرخ اللاتيني وليم الصُّوريّ، أحد مستشاري أموري في أثناء هذه الرحلة، ردة فعل شاور على مسير الفرنج إلى مصر بقوله: «لمّا علم شاور أن الملك وصل مصر، أصيب بشيء من الفزع، وبشيء من الاضطراب، فلقد شكّ في نياتهم وخاف أن تكون حملتهم العسكرية موجّهة ضدّه. وكان حاكما حكيما وقديرا وبعيد النظر، ولكنه أبدى هذه المرّة شيئا من الخوف والجهل. مع أنه علم بالهدف من مجيئنا، ولكنه لم يثق بقولنا. وأخيرا، وبعد شيء من التردد، أرسل عيونه إلى الصحراء ليراقبوا تحرّكات العدو (أسد الدين)، فعادوا وأخبروه أنه وصل إلى أطفيح (Attasi). وعندما تأكّد شاور من إخلاص المسيحيين (الفرنج) مدحهم وجازاهم على حرصهم (عليه) بأن وضع في تصرفهم أموال المملكة (مصر)، ومنذ ذلك اليوم أخذ شاور يبدي حماسة شديدة لتنفيذ أوامر الملك. وبالتالي فإن أموري استغلّ هذه المساعدة إلى أقصى حدّ.»(١٣٢)

ويمكن الاستنتاج من هذه الأقوال وغيرها أن الفرنج فرضوا مساعدتهم على شاور بالقوة وقبضوا ثمنها، ولم يتركوا له مجالا سوى قبولها ولو على مضض في بادىء الأمر. واستغلّ شاور مساعدتهم هذه فيما بعد آملا أن يضربهم وأسد الدين بعضهم ببعض

---

(١٣١) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢؛

William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 314.

ويذكر المقريزي أن الملك أموري هو الذي أعلم شاور بمسير شيركوه، فردّ عليه شاور ملتمسا نجدته. المقريزي، اتّعاظ، ج ٣، ص ٢٨٢. وأمّا أبو شامة وابن الأثير فيذكران أنّ الملك أموري قصد مصر بناء على دعوة من شاور. أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٤؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٣.

(١٣٢) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, pp. 314-315.

مرّة ثانية، ثم يتخلّص منهم ومنه، ولكنه لم يفلح تماما هذه المرّة.

فلقد انقسمت الجيوش المصرية ـ الفرنجية قسمين: انضمّ أحدهما تحت لواء أموري وشاور، وانضم الآخر تحت لواء الكامل بن شاور وميلون البلانسي وجيرار دي يوجي وغيرهما من الفرنج. ووقعت عدّة معارك بين قوات أسد الدين شيركوه والحلفاء (المصريين والإفرنج) سجّل فيها المؤرّخون العرب بطولات لأسد الدين وصلاح الدين، وسجّل فيها وليم الصُّوريّ بطولات للفرنج والكامل بن شاور.(١٣٣)

اصطحب شاور القاضي الفاضل معه في حربه هذه لأنه مسؤول، بوصفه كاتبه، عن الاتّصال بالجهات المختلفة والمفاوضة، ومسؤول بوصفه رئيس ديوان جيشه، عن عرض القوّات وعدّها وتسجيل المشتركين في الحرب ومن يموت منهم في المعركة. ويمكن القول إن عمل القاضي الفاضل في ساحة المعركة كان إداريا لا حربيا، ولكن هناك إشارة عابرة منقولة عن عماد الدين الأصفهاني، فحواها أن القاضي الفاضل وقع عن حصانه في معركة البابين وآذى ظهره.(١٣٤) ولعلّ هذه كانت أول مغامرة عسكرية اشترك فيها وآخر مغامرة. فقد عُرف عنه في عهد صلاح الدين أنه كان يصطحب العساكر إلى مصر أو الشام، ويصحب صلاح الدين في معاركه من دون أن يشارك فيها. وربما كانت هذه الحادثة نقطة التحوّل في موقف القاضي الفاضل من سياسة شاور الخارجية.

وقد حدث في أثناء الحرب بين القوات الشامية من جهة والحلف المصري الفرنجي من جهة أُخرى، حادثان مهمان كان لهما أثر بالغ في موقف القاضي الفاضل من الحرب. فأوّلهما أن أهالي الإسكندرية وواليها وعلماءها رموا بثقلهم وراء أسد الدين شيركوه ضد وزيرهم شاور، فخدم والي المدينة الرشيد بن الزبير، خال ابن الخلال وأحد كبار من اتصل القاضي الفاضل بهم في بداية عمله، أسدَ الدين، وأمدّه بالأموال والأسلحة، وأنزله في القصر في الإسكندرية فاتّخذه أسد الدين معتقلا لأسرى الفرنج الذين معه، ثم غادر الإسكندرية تاركا فيها ابن أخيه صلاح الدين للدفاع عنها، فساعده أهالي الإسكندرية مدّة ثلاثة أشهر حاصرهم خلالها شاور والفرنج حصارا شديدا ومنع عنهم الميرة فصمدوا: «وبذل أهلها في نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم، وقُتل منهم جماعة عظيمة.»(١٣٥) وظلّوا على صمودهم على الرغم من شدّة الحصار، إلى أن نصح أسد الدين لصلاح الدين تقرير الصلح مع الفرنج ففعل، وتمّت معاهدة الصلح بحيث تكفل فيها شاور بأن يدفع لأسد الدين جميع تكاليف سفره، ويدفع للفرنج مبلغ

---

(١٣٣) *Ibid.*, pp. 326-328.

(١٣٤) Lyons & Jackson, *op.cit.*, p. 15.

(١٣٥) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٨٤.

ثلاثين ألف دينار على أن يعود كل من الشاميين والفرنج إلى بلده. وطلب صلاح الدين من أموري أن يوفّر السفر بحرا بالمراكب الفرنجية للمرضى والضعفاء، فوافق.[(١٣٦)]

ولقد أثبت صلاح الدين في أثناء الحصار كفاءة عسكرية وحربية خوّلته أن يتولّى قيادة القوات الشامية في مصر بعد وفاة عمه شيركوه سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧ - ١١٦٨م. وقد وطّد صلاح الدين علاقته بأهالي الإسكندرية الذين وقفوا إلى صفّه طوال حكمه. ومع أنّ شاور قضى على والي الإسكندرية ابن الزبير، إلا أن نجم الدين بن مصال، ابن أحد الوزراء المصريين السابقين، وكان قد ساعد أسد الدين وصلاح الدين في الإسكندرية، حظي برعاية القاضي الفاضل بعد أن أصبح وزير صلاح الدين، وكان يكثر في مدحه ومن شجاعته ومروءته في خدمة صلاح الدين عند الحاجة.[(١٣٧)]

وأثبتت الحرب أيضا أن أهالي الإسكندرية انشقّوا عن القاهرة على أساسين: أحدهما عقائدي (ووطني)، وأغلب أهل الاسكندرية - كما ذكرنا سابقا - من السنّة، وفيهم عدد كبير من المغاربة والفلسطينيين اللاجئين من عسقلان، وقد عرفوا بشجاعتهم وساهموا في كل حملة ضد الفرنج في الإسكندرية وبلبيس، على أساس أولويّة حماية مصر من الفرنج لا من الشاميين المسلمين.

ويذكر النويري أن شاور طلب من أهالي الإسكندرية، في أثناء الحصار، تسليم صلاح الدين ووعدهم بأن يضع عنهم المكوس ويعطيهم الأخماس، فأجابوه: «معاذ الله أن نسلّم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيلية.»[(١٣٨)]

وأما الحادث الآخر فهو معاهدة التحالف بين مصر والمملكة اللاتينية، وقد كان القاضي الفاضل ممّن شهدوها وسكتوا عليها. ولكنّها تركت انطباعا في نفسه، نفّس عنه حالما غادر أموري مصر، فقد كادت هذه المعاهدة تلقي بمصر في أحضان الفرنج.

فلقد أصرّ أموري على عقد هذه المعاهدة قبل أن يتوغّل في مساعدته لشاور ضد القوات الشامية في مصر، وفرض نفسّه على شاور مبدئيا بحيث لم يترك له مجالا سوى الترحيب به والتحالف معه كما ذكرنا. ثم فرض عليه المعاهدة بشروطها التي تتّفق مع مصلحته ومصلحة المملكة اللاتينية، ولم يكد يترك للوزير مجالا سوى القبول الأعمى

---

(١٣٦) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٧؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٨٦. يذكر إرينكرويتز أنّ الملك أموري استضاف صلاح الدين لمدّة ثلاثة أيّام في المعسكر الفرنجي، حيث تسنى لصلاح الدين أن يتعرّف إلى الملك وفرسانه، وأن يطلب منه كفّ شاور عن الانتقام من أهل الإسكندرية.
Ehrenkreutz, *op.cit.*, p. 43.

(١٣٧) Ehrenkreutz, *op.cit.*, pp. 43-44.

(١٣٨) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٨٥، وهامش (١) من الصفحة ذاتها.

بشروط المعاهدة. ولمّا كان شاور قد شعر أو أشعر بأنة بحاجة ماسّة إلى مساعدة الفرنج له فقد أخذ على عاتقه إمضاءها وتهيئة الرأي المصري العام لها، ولم يكن الرأي العام بذي أهمية في نظره أو في نظر السلطات الحاكمة.

ثاني عشر: المعاهدة المصرية ـ الفرنجية

يذكر وليم الصُّوريّ أنه لمّا بدأت الاستعدادات لمواجهة أسد الدين شيركوه في مصر، قرّر شاور أن يعقد معاهدة سلام وتعارف رسمية مع أموري يضمن فيها مساعدته ضد خصمه أسد الدين. وقد كانت الطريقة الوحيدة لإقناع الملك بالبقاء في مصر زيادة الضريبة السنوية له وهي ثلاثة وثلاثون ألف دينار كان الملك الصالح طلائع قد خصّصها لهم. ووافق الفرنج على ذلك، وطلبوا علاوة على ذلك دفع مبلغ معيّن من خزينة الخليفة للملك ثمنا لمساعدته، فاتّفقت اللجنة المختصة بالمعاهدة مع شاور على أن يدفع للفرنج ٤٠٠,٠٠٠ قطعة من الذهب، يُدفع منها ٢٠٠,٠٠٠ حالا، ويسلم الباقي في وقت معيّن يُتّفق عليه.(١٣٩)

وكانت شروط المعاهدة كما يلي:

«إن الملك يضمن من دون أية نية سوء أو مداهنة، أنّة لن يغادر أرض مصر حتى يغادرها شيركوه وجميع قواته أو يفنوا عن آخرهم.»(١٤٠)

لم يشر وليم الصُّوريّ إلى أهم ما في المعاهدة، وهو اتّفاق الفرنج مع شاور على أن يكون لهم في القاهرة شحنة دائمة، «وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عسكره إليها.»(١٤١) وهذا بمثابة تسليم حراسة القاهرة للقوات الفرنجية.

وافق الطرفان على المعاهدة، وسلّم الملك على ممثل الخليفة بيده اليمنى تثبيتا للمعاهدة، وأرسل في الوقت ذاته هيو (القيساري) مع بعض رجالات الفرنج إلى الخليفة العاضد للحصول على موافقته الرسمية، لأن ضمان الوزير وحده لم يكن كافيا، في رأي وليم الصُّوريّ.(١٤٢)

صوّر وليم الصُّوريّ زيارة الوفد الفرنجي للقصر الفاطمي كما سمعها من أعضاء

---

(١٣٩) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, pp. 318-319.

(١٤٠) *Ibid.*

(١٤١) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٨٧؛ ابن الأثير، ج ١٠، ص ٥ و ١٢. ويذكر ابن الأثير أن الفرنج كانوا سيحصلون على مئة ألف دينار سنويا، بحسب الاتفاقية. ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٥.

(١٤٢) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, pp. 318-319.

الوفد أو كما رآها بنفسه، ولو أنّهُ لا يشير إلى ذلك. ولا بأس في اقتباس بعض الانطباعات عن القصر؛ فالقصر هو المكان الذي عمل فيه القاضي الفاضل، وكان يصل إليه سالكا الطريق الذي سار الوفد الفرنجي فيه، ويرى فيه بعض ما رآه هؤلاء في ممرّاته وسراديبه. ولم يبقَ لنا من هذا القصر سوى صور كهذه.

«دخل هيو القيساري مع جفري فولكر أحد فرسان الداويّة القاهرةَ بصحبة السلطان (شاور). وعندما وصلوا إلى القصر ساروا في دهاليز ضيّقة مظلمة يتقدّمهم عدد من الجنود المسلمين. وكان على كل مدخل فيها مجموعات من الجنود السودان المسلمين، الذين كانوا يسلّمون على السلطان بكل احترام.

«وبعد أن مرّوا بالحرس الأول والثاني قِيدوا إلى قاعة واسعة ومفتوحة، فيها أعمدة رخام ونقوش جميلة وسقوف مزيّنة وأرض مرصوفة بالحجارة الملوّنة وبرك للأسماك مملوءة بالماء النقي الرائق. وفيها عصافير من جميع الأنواع وممّا هو غير معروف لدينا، ألوانها غريبة وأصواتها مختلفة.

«مرّ الوفد الفرنجي خلال دهاليز عديدة إلى أن وصل أعضاؤه القصر فوجدوا فيه حرسا كثيرا مسلّحا عدا الخدم بأنواعهم. ودخلوا القصر، يتقدّمهم السلطان (شاور) وسجد أمام مجلس الخليفة مرّتين، ثم ركع مرّة واحدة، وألقى سيفه الذي كان معلّقا برقبته، وعندئذٍ كشف ستار مرصّع بالدرّ والذهب، وظهر من خلفه الخليفة جالسا على عرش من الذهب محاطا بمستشاريه وبالطواشية.

«اقترب السلطان من الخليفة وقبّل رجله، وشرح له الهدف من الزيارة وتفصيلات المعاهدة والأوضاع التي أدّت إلى ضرورة عقدها، فأبدى الخليفة استعداده للتقيُّد بشروطها فطلب الوفد الفرنجي من الخليفة تثبيت المعاهدة بالسلام باليد، فأدهش هذا الطلب الحاضرين جميعا، لكن الخليفة وافق بعد تردّد شديد وإلحاح من السلطان، ومدّ يده إلى هيو القيساري فقرأ هيو الذي كان يعرف العربية للخليفة بنود المعاهدة وأعاد الخليفة قراءتها بندا بندا تثبيتا لها.»[١٤٣] وهكذا ارتبطت مصر بمعاهدة حماية دائمة مع الفرنج كادت تودي بها.

ويذكر وليم الصُّوريّ أن مستشاري الخليفة كانوا في حضرته في أثناء إمضاء المعاهدة.[١٤٤] فمن هم هؤلاء؟ إن مستشار الخليفة الأول هو كاتب الدست أو رئيس ديوان الإنشاء، وهو آنذاك الشيخ موفق الدين بن الخلال. وربما كان بين الحاضرين رئيس ديوان الجيش والنظر وغيرهما من أصحاب الدواوين وموظفي الدولة الكبار، وربما

(١٤٣) *Ibid.*. ووليم الصُّوريّ هو المؤرخ الوحيد الذي زوّدنا بهذه التفصيلات.
(١٤٤) *Ibid.*, Vol. II, p. 321.

كان بينهم أيضا الكامل شجاع ابن الوزير شاور، الذي كان يشرف على الكثير من مسؤوليات والده، ومستشاره وكاتبه أو كاتب جيشه القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني. وربما شهد هؤلاء جميعا معاهدة تربط مصير مصر وحمايتها بالمملكة اللاتينية، بل تكاد تُسْلِم مصر إلى الدولة اللاتينية، ولكنّهم لم يتمكنوا من إبداء آرائهم، لأن القرار ـ قرار الوزير شاور ـ مفروض عليه من الملك أموري، وقد فرضه هو نفسه على الخليفة الصغير. ولولا إصرار أموري على تثبيت المعاهدة رسميا بيد الخليفة لما أعلمه شاور بها.

لقد شاهد هؤلاء جميعا، إذاً، ما كان يجري فتقبّله بعضهم على أنة حل ملائم، وتقبّله بعض آخر على مضض، ولكنهم أخذوا يعملون سرّا على تغيير مجرى تاريخ مصر ومن ثم فلسطين بتحويل دفته في اتجاه معاكس للاتجاه الذي اختاره شاور. وكان بين هؤلاء القاضي الفاضل وابن الخلال، وربما غيرهما من أصحاب الدواوين.

ثالث عشر: الهجوم الفرنجي على مصر
(٥٦٤هـ/١١٦٨ ـ ١١٦٩م)

«وتمكن الإفرنج في هذه السنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) من ديار مصر وحكموا حكما جائرا، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم، وقد تيقّنوا أنه لا حامي للبلاد، وتبينّ لهم ضعف الدولة وانكشفت لهم عورات الناس.»[١٤٥] ولقد خطّط أموري لاحتلال مصر نهائيا، مع أن الفرنج كانوا قد ركّزوا في القاهرة حامية من خيّالتهم بقيادة هيو الإبليني (ابن بارزان) لتحمي أسوارها وأبراجها، وحتى قصر الخليفة، من قوات أسد الدين. ووضعوا في تصرفها دارا كبيرة تُعرف بالدار البيسرية، موقعها في الساحة الواقعة بين القصرين. يقول المقريزي: «كانت (هذه الدار) لمّا قويت شوكة الفرنج في آخر الدولة الفاطمية، فقد أعدّت لمن يجلس فيها قصاد الفرنج عندما تقرّر الأمر معهم على أن يكون نصف ما يحصل من مال البلد للفرنج فصار يجلس في هذه الدار قاصد معتبر من الفرنج يقبض المال.»[١٤٦] «وانكشفت للفرنج هذه الأماكن المقدّسة التي كانت مخفية عن العالم.»[١٤٧] وقد ظلّت هذه الحامية في القاهرة بعد انسحاب الفرنج وأسد الدين من

---

(١٤٥) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٩١.

(١٤٦) الدار البيسرية، بين القصرين. المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٨٧؛ المقريزي، «الخِطط»، ج ٢، ص ٢٧ ـ ٢٨، ٦٩ ـ ٧٠.

(١٤٧) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 328.

مصر في السنة ذاتها، والأغلب أنّ بقاءها في القاهرة كان ضمن شروط المعاهدة بين الإفرنج وشاور.

وراحت هذه الحامية تُعدّ من أجل احتلال الفرنج لمصر من الداخل، فأخذت تدرس إمكانات مصر الزراعية والاقتصادية، وطبيعة الأراضي والإقطاعات، والمساحات والسكّان، ومدخولها ومصروفها وما إلى ذلك، وترسل تقاريرها إلى الملك.[١٤٨]

وأمّا الملك أموري نفسه فراح، منذ عودته من مصر إلى المملكة اللاتينية سنة ٥٦٢ ـ ٥٦٣هـ/ ١١٦٦ ـ ١١٦٧م، يبحث عن حلفاء يشاركونه في احتلالها، علما منه بإمكان استنجاد المصريين بالشام ضد قواته، وبحاجته إلى عساكر أكثر ومصادر أوسع. وكانت أوروبا بعيدة عنه، وإنْ تمكن من الحصول على مساعدة أوروبية فالرحلة إلى مصر طويلة، بينما وقته قصير. واتّصل أموري بإمبراطور بيزنطة، مانويل كومنينوس، وعرض عليه أن يساعده في احتلال مصر بالعساكر، وأن يمدّه بالأموال والأسطول، على أن يمنحه (أموري) حصة من مصر بالإضافة إلى أية غنيمة يحوزها جيشه.[١٤٩] ووجدت دعوة أموري هذه صدىً في نفس مانويل؛ فالبيزنطيون، مع مساعدتهم للفرنج منذ الحملة الصليبية الأولى، لم يحصلوا على شيء في المنطقة.

وأرسل أموري وفدا إلى بيزنطة ليبحث في معاهدة التعاون بينها وبين المملكة اللاتينية لاحتلال مصر، ورافق الوفد وليم الصُّوريّ، المؤرّخ الذي زوّدنا بتفصيلات الأوضاع المحيطة بالعلاقة الفرنجية ـ البيزنطية، وبحملة أموري الثالثة على مصر لاحتلالها.

كان الوفد الفرنجي لا يزال في بيزنطة يخطّ الخطوط النهائية للمعاهدة، عندما قرّر أموري فجأة أن يزحف على مصر بكل قوّاته من خيّالة وفرسان؛ مبرّرا تسرّعه في الزحف على مصر بأنه بسبب خيانة شاور؛ فأشاع أن شاور، سلطان مصر، أرسل عددا من الرسل إلى نور الدين يستنجد به ضد الفرنج (الموجودين في مصر)، ويعتذر له على عقده المعاهدة مع أموري، ويشير إلى أنه أُجبر على عقدها معه، وأنه يريد أن ينقضها إذا ساعده نور الدين في ذلك.[١٥٠]

لكن معارضي أموري، وبينهم بعض فرسان الداوية الذين شاركوا في عقد

---

(١٤٨) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٦، ٣٩٠.

(١٤٩) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 344.

كانت بين الإمبراطور البيزنطي والملك أموري قرابة نسَب، إذ إنّ ماريّا كومنينوس، زوجة الملك أموري، كانت ابنة أخي الإمبراطور. *Ibid.*

(١٥٠) *Ibid.*, Vol. II, p. 350.

المعاهدة، انتقدوا أموري وأشاعوا أن شاور لم ينقض شروط المعاهدة بتاتا، ولم يكن ليستحق ما فعله أموري به من نقض المعاهدة والهجوم على مصر.[(١٥١)]

وقبل أن نبحث في حملة أموري على مصر، لا بدّ من البحث في رأي بعض المؤرخين المسلمين في قضية استنجاد شاور بنور الدين بعد الحملة الثانية على مصر سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م. يذكر المقريزي أنه بعد هذه الحملة أرسل شاور سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م رسالة مع شهاب الدين محمود (الحارمي)، خال صلاح الدين يوسف، «تتضمّن أنه يحمل إليه مالا في كل سنة مصانعة ليصرف عنه أسد الدين شيركوه. فأجاب نور الدين إلى ذلك، وأعطى شيركوه مدينة حمص وأعمالها زيادة على ما كان بيده، وأمره بترك مصر فأرسل شاور إليه كتابا يشكره.»[(١٥٢)]

ويشير أبو شامة إلى أنه بعدما تقرّر الصلح بين شاور وأسد الدين، كتب الكامل، ابن شاور، إلى نور الدين «ينهي محبّته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، وبجمع كلمة الإسلام، وبذل مالٍ يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا.»[(١٥٣)]

وأمّا عماد الدين الأصفهاني فيضيف إلى ما ذكره المقريزي وأبو شامة، قوله أنه في إثر معركة الإسكندرية سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م، وقبل أن يرحل أسد الدين وصلاح الدين إلى الشام، اجتمع الكامل إلى شهاب الدين محمود (الحارمي). وقال له: «أوصل إلى نور الدين سلامي، وعرّفه شغفي بخدمته وغرامي، وأنا أتوسّط في جمع الكلمة وردّ هذه القلوب المتبدّدة إلى عقود القلوب المنتظمة، وأتكفّل بما أحمله من مالي على وجه الهديّة، أقصد بها سلامة البلاد والرعية. فلمّا وصل شهاب الدين محمود أعاد على نور الدين مقاله وذكر سؤله وسؤاله، وسأله مكاتبة الكامل والرضا بما التزمه به الالتزام الكافي.»[(١٥٤)]

ويبدو من هذه الإشارات أن شاور وابنه الكامل حاولا أن يتركا باب الاتّصال مفتوحا بين مصر والشام، على أساس أن العداء بين شاور وأسد الدين شخصي بين قائدين، لا بين البلدين أو بين شاور ونور الدين؛ ولربما حاول شاور، بصورة خاصة، أن يبذر بذور الخلاف بين نور الدين وأسد الدين، ولكنّه لم يفلح. وأخذ بعد هذه الاتّصالات والأحداث يتخبّط في موقفه تجاه الشام والفرنج، سائرا على غير هدى في

---

(١٥١) *Ibid.*.

(١٥٢) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٨٩.

(١٥٣) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٦؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٨٧.

(١٥٤) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ٧١.

سياسته الخارجية، حتى انشقّ ابنه الكامل عنه، وراح يقوم بدور مستقل عنه فحواه الابتعاد عن الفرنج والتقارب مع الشام. وقد سحب الكامل معه كاتبه القاضي الفاضل الذي كتب كل ما صدر إلى نور الدين من رسائل في إثر الحملة الثانية (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) وفي أثناء الحملة الفرنجية لاحتلال مصر (٥٦٤هـ/ ١١٦٧م). وقد برز القاضي الفاضل في هذه الفترة على الجبهة السياسية محرِّكا خفيا لبعض الأحداث التي أنقذت مصر من براثن الفرنج.

رابع عشر: مذبحة بلبيس

بعد أن تكاملت لدى أموري المعلومات عن مصر بدأ زحفه عليها في بداية سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، وكان قد وزّع مسبّقا أراضيها على أصحابه وقوّاده.

وما أن وصل أموري إلى الداروم حتى علم شاور بزحفه فارتاع من ذلك، فأرسل إليه رسوله شمس الخلافة محمد بن مختار يسأله عن سبب زحفه على مصر، على الرغم من المعاهدة بينه وبين مصر، فتبلبل أموري وحاول أن يعتذر بأوهى الأعذار. فقال لشمس الخلافة، رسول شاور، أنه سمع أن أخت الكامل (ابنة شاور) ستتزوج من صلاح الدين، وأن الكامل سيتزوج من أخت صلاح الدين، وفي هذا نقض للمعاهدة. فأعلمه الرسول بأن لا صحة لهذا النبأ، وليس فيه نقض للمعاهدة إنْ صحّ. ولكن أموري عاد فاختلق أعذارا أخرى، قائلا: «الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبوا على رأينا وخرجوا طامعين في بلادكم، فخفنا من ذلك، فخرجت لتوسُّط الأمر بينهم وبينكم، فقال له: فكم تريد أن يكون مبلغ القطيعة التي نقوم بها؟ قال: ألفي ألف دينار. فقال: حتى أعود إلى شاور بهذا الخبر وأرجع إليكم بالجواب، فلا تبرحوا من مكانكم. فقال مُري (أموري): بل ننزل على بلبيس حتى تعود.»[١٥٥] ولكنه واصل زحفه على بلبيس وهاجمها في ١ صفر ٥٦٤هـ / تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٦٩م، وارتكب وجنوده مذبحة كبرى فيها.

ويشير وليم الصُّوريّ إلى أن أحد الدوافع وراء مخطط أموري لاحتلال بلبيس وللإسراع في الزحف على مصر، هو ضغط رئيس الإسبتارية جيربرت السليط (Gerbert d'Assaily) المتمركز في عسقلان، عليه باحتلال مصر. وقد كان أموري وعده بالإنعام عليه بمدينة بلبيس والمنطقة المحيطة بها (المنطقة الشرقية)، إذا ما احتلّ مصر.[١٥٦]

---

(١٥٥) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٠.

(١٥٦) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 350.

ولقد فطن المؤرّخون المسلمون إلى دور بعض الفئات الفرنجية في الضغط على أموري باحتلال مصر، ولكنهم اتّفقوا على أن المخطِّط الرئيسي لهذا الاحتلال هو أموري نفسه، كما يدل قول وليم الصّوري المتعلّق بإقطاع بلبيس للإسبتارية.

ويعلّق أبو شامة على التيارات المختلفة الضاغطة على الملك أموري لاحتلال مصر بقوله: «اجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدّم وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي ألّا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا، نتقوّى بها على نور الدين.»[157] ولكن هؤلاء ضغطوا في النهاية على أموري قائلين: «إن مصر لا مانع لها ولا حافظ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهّز العساكر ويسيّرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذٍ يتمنى نور الدين منّا السلامة فلا يقدر عليها.»[158]

شارك الفرنجَ في جمع معلوماتهم عن مصر وإعدادهم لحملتهم هذه مجموعةٌ من القوّاد المصريين، مثل ابن الخياط وابن قرجلة. وأمّا أموري فواصل زحفه إلى بلبيس ووصل إليها بعد مسيرة عشرة أيام من عسقلان. وحاصرها لمدة ثلاثة أيام، من ١ إلى ٣ صفر ٥٦٤هـ / ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٦٨م، ثم احتلها عنوة ونكّل هو وجنوده بأهلها فقتلوا من قتلوا وأسروا الألوف منهم. ويقول وليم الصُّوريّ إن الفرنج عندما دخلوا بلبيس قتلوا كل من وجدوه في طريقهم من دون أن يراعوا سنا ولا جنسا: قتلوا الطفل والمسنّ سواء، وسلبوا أموالا وأملاكا لا تحصى في المدينة.[159] وأما بالنسبة إلى الأسرى فيذكر المقريزي أن أموري أمر بإخراج الأسرى من أهل بلبيس إلى ظاهر بلبيس، وركب واعتقل رمحه وحمل على الأسرى حتى فرّقهم فرقتين، فجعل لنفسه الفرقة التي وقعت على يمينه، وأنعم بالفرقة اليسرى على أهل عسكره، وقال لمن صار إليه من الأسرى: قد أطلقتكم شكرا لله على ما أولاني من فتح مصر فإني ملكتها بلا شك... وأخذ عسكره أسراهم فاقتسموهم، فبقوا في أيدي الفرنج نحو الأربعين عاما،[160] وتوفي كثيرون منهم وأفلت كثيرون، وكأن الأقدار أبت إلا أن تضرب الفلسطينيين ضربة أخرى، فقد كان قسم كبير من أهالي بلبيس من لاجئي فلسطين بوجه عام وعسقلان بوجه خاص، كما كانت حاميتها الرئيسية من بني الكنانة والعساقلة من الفلسطينيين الموظفين ضمن ديوان الجيش المصري في القاهرة.

(١٥٧) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٠؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٢.
(١٥٨) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٠.
(١٥٩) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 352.
(١٦٠) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٩٥.

زادت هذه المذبحة في جروح الفلسطينيين جروحا، وذكّرتهم والمصريين بمذابح الفرنج في بادىء أمرهم في الشام: مذبحة المعرّة، ومذبحة القدس، وقيسارية، وعكّا. وكأن الفرنج لم يتعلّموا من الدروس السابقة الناتجة من أخطائهم ومذابحهم التي أدّت إلى ظهور حركة مقاومة قويت بمرور الأعوام وكلّفتهم غاليا، إذ خسروا في النهاية الرُّها على يد عماد الدين زنكي، ثم انهزموا في الحملة الصليبية على دمشق، كما حُصروا بالتدريج في شريط ضيّق بين أنطاكية وعسقلان على يد نور الدين بن زنكي.

لقد ظنّوا أنهم بفعلتهم في بلبيس يخيفون أهالي مصر فيستسلمون لهم، وبالتالي يحتلّون البلد كما كانوا يأملون، بأمواله وبيوته وأراضيه وكل ما فيه. ولكن مجرى الحوادث سار ضدهم، وثار المصريون والفلسطينيون اللاجئون في مصر، وكل من في مصر ضدهم، إلى أن انهزموا قبل أن ينفّذوا باقي مخطّطهم الهادف إلى احتلال العاصمة.

كان الرد المصري على احتلال الفرنج بلبيس سريعا، ظهرت خلاله عدّة قوى تعمل على عدد من الجبهات، ومن هذه القوى شاور والكامل ابنه وأصحاب الدواوين بمن فيهم القاضي الفاضل، والخلافة. وكان شاور، كما ذكرنا سابقا، يتخبّط في سياسته فلا يعرف لها اتّجاها. وقد مُني في بلبيس باثنين من أبناء عائلته، أحدهما ابنه الطاري والآخر حفيده قيس بن طي اللذان أسرهما الفرنج، فكان همّه الأول فكّ أسرهما،[١٦١] ثم إيجاد طريقة يتخلّص فيها من أموري من دون أن يستحضر أسد الدين إلى مصر، فراح يعرض على أموري الأموال ليشتري بها انسحابه، لعلمه بحب أموري للمال. ولربما حاول بعد أن يئس من صدّ الفرنج أن يتّصل بنور الدين عن طريق المكاتبة مستنجدا، كما يشير المقريزي،[١٦٢] خوفا على مصير المصريين ومصر. ولكنّه كان قد بدأ يفقد سيطرته على الوزارة والإدارة والخليفة الصغير.

وأمّا الكامل بن شاور فكان قد اتّخذ خطّ سير في هذه الأحداث معاكسا لخط سير والده، بدأ به منذ انتهاء الحملة الشامية الفرنجية الثانية على مصر (٥٦٢هـ/١١٦٦م) التي اشترك فيها إلى جانب الفرنج. ولفهم تحوُّل سياسة الكامل، لا بدّ من أن نبحث في بعض المؤثّرات فيه.

ذكرنا سابقا أنّ الكامل اشترك في أثناء الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر مع الفرنج، إذ قاد بعض القوات المصرية إلى جانب القوات الفرنجية في القاهرة وفي الإسكندرية وغيرهما، حتى أن وليم الصُّوريّ أشاد بشجاعته وإقدامه. ولعل الكامل أغفل

---

(١٦١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩٣.

(١٦٢) يلمّح وليم الصُّوري إلى هذه الناحية،
William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 352.

أو تغافل عن إمكان خطر الفرنج، ولا سيما خطر حامية القاهرة التي ركّزها بنفسه لهم على الأسوار والأبراج والأبواب. ولعلّه اندفع، ولو موقتا، وراء سياسة أبيه الرامية إلى ضرب الفرنج والشاميين بعضهم ببعض، لتبقى مصر مستقلّة، وهي سياسة سانده فيها الكثيرون من المصريين، أو أنه أُجبر كوالده على أن يفعل ما يطلبه الفرنج. ولكنْ بعد أن انسحب أموري من مصر في إثر حملته الثانية، وأخذت الشحنة أو الحامية التي تركها في القاهرة تجمع المعلومات عن مصر وترسلها إلى المملكة اللاتينية، هبَّ بعض أصحاب الدواوين لتنبيه الكامل إلى حقيقة ما يجري وإلى الخطر المُحْدِق بمصر، لأنهم كانوا يخافون سطوة شاور. وهنا ظهرت معهم قوّة أخرى عاملة على تحويل دفّة الصراع الفرنجي ـ الشامي في مصر إلى مصلحة الشام، وكان على رأس هذه القوة القاضي الفاضل.

خامس عشر: دور القاضي الفاضل القيادي في أثناء اجتياح الفرنج لمصر

كان القاضي الفاضل قد بدأ، ولا سيّما بعد معركة الإسكندرية، يختلف وسياسة شاور، ولو أنهّ لم يتمكّن من التعبير عن خلافه جهرا، لِما عُرف عن شاور من بطش بعلماء الإسكندرية وأهلها. وازدادَ خِلافه معه لِما شهده وأحسّه من أعمال الحامية في القاهرة، فاحتمى بالكامل الذي كان ـ كما ذكرنا ـ ذا سطوة ونفوذ. وكتب عن الكامل رسائل التودُّد إلى نور الدين، وراح يلفت نظر الكامل إلى الأخطار المُحْدِقة بمصر بسبب سياسة والده المتخبّطة، ويستثيره للعمل على اتّقاء الخطر قبل حدوثه. وإنْ لم تُشر المصادر إلى دور له في توجيه سياسة الكامل، فإن شعره يدلّ على هذا الدور. وأهم ما في شعره قصيدة طويلة ملآنة بالإشارات إلى التنبيه إلى خطر الفرنج وضرورة صدّه.

ويمكن القول إن القاضي الفاضل وجد في الشعر وسيلة أفضل من النصيحة المباشرة للتعبير عن مخاوفه. يقول في قصيدته للكامل:

أنوْماً، وألحاظُ الخُطُوبِ سَوَاهِرٌ	وَسَعْياً، وأفْرَاسُ الْحَوَادِثِ تَركضُ
أيا بنَ فُلاَنٍ، والنَّصِيحَةُ آيَةٌ	فمَا لَكَ مِنْها حِينَ تُعْرَضُ تُعْرِضُ
إذَا أنْتَ لَمْ تَقْبِضْ يَداً مَدَّهَا الْعِدَا	فمَا هِيَ إلاّ، لا مَحَالَةَ، تَقْبِضُ
أمُعْتَقِدٌ أنَّ القُلُوبَ صَحِيحَةٌ	فَسَلْ نَظَرَ الأقْوَامِ: ما لَكَ تَمْرَضُ
سَتُعْجَلُ عَنْ فَهْمِ إذَا صَرَّحَ الأسى	فَدُونَكَ مَا دَامَ الزَّمَانُ يُعرِّض
أيَقْطَعُ حَدُّ السَّيْفِ، والسَّيْفُ مُغْمَدٌ	وَيَفْرُسُ نَابُ اللَّيْثِ، واللَّيث يَرْبِضُ

* * *

أغَرَّكَ نَهْضُ البِشْرِ في صَفَحَاتِهِمْ ... أليْسَ الردَّى في رَونَقِ السَّيْفِ يَنهضُ
فَدِنْهُمْ بِيَوْمِ الشَّرِّ مَا دُمتَ قَادِراً ... وَلَوْ لَمْ تَدِنْهُمْ كَانَ حُبُّكَ يُقْرَضُ
وَكَمْ شِيمَ يَوْمٌ في يَدِ الصَّبْرِ أسْوَدٌ ... وَأغْمِدَ لَيْلٌ مِنْ يَدِ النَّصْرِ أبْيَضُ
فمَا بَيْنَ عَيْنَيْهِمْ، ولا في ضُلُوعِهم ... قُلُوبٌ تُرَضَّى، بَلْ وُجُوهٌ تُرَضَّضُ
ولا يَدٌ بَاعِ الرُّمْحِ عَنْهُم قَصِيرَةٌ ... وَلا عَيْنُ جَفْنِ السَّيْفِ عَنْهُمْ تُغَمِّضُ
ألوَمَضَ ثَغْرٌ لِلتَّبَسُّمِ كَاشِرٌ ... وَسَلَّ لِسَاناً لِلْعَلِيلِ يُنَضْنِضُ
وقَدْ تَنقِضُ الأخْلاَمُ صِبْغَةَ لَونِهَا ... كما يلبَسُ اللّيْلُ النهارَ، فَيُنْفَضُ
ولَمْ أرَ مِثْلَ السَّيْفِ لِلعزِّ عاقِداً ... به عُقَدُ الأضْغَانِ تُرخَى وَتُنْقَضُ
ولا مِثْلَ أخبارِ الضَّغِينةِ تَختَبي ... ولا مِثْلَ آثار النَّصيحةِ تُرْفَضُ
وما الحِزُّ إلا أنْ تُقبِّل كَفَّهُ ... وَمَا الحلْمُ إلّا الذُّلُّ يَوْمَ تُعضَّضُ
ولا أنتَ بِالقَوْلِ الَّذي قُلْتُ جَاهِلٌ ... وَلكِنْ مَقَادِيرُ الإلهِ تُقَيِّضُ
وَمَا هُوَ إلا الحَزْمُ يُسْرِعُ، والحِجَا ... يُحَجُّ، وَأطْنَابُ المَقالِ تُقَرَّضُ
أيَظْهرُ في الأجْفَانِ عَقْدٌ مُصَحَّحٌ ... وَيَكْمُنُ في الأجفانِ سَيْفٌ مُمَرَّضُ
اعِذْ نَظَرَاتٍ في ثَوِيَّةِ مُقْلَةٍ ... تَجِدْ فِيهِ أشْخَاصَ المَنُون تُحَرِّضُ
وَمَا الوُدُّ إلّا في لِسَانِكَ ظَاهِرٌ ... وَلكِنَّ وَرَاءَ الغَيْبِ قَلْبُكَ مُبْغِضُ
إذَا لَمْ يَكُنْ لِلمُلكِ حَدُّ مَهابَةٍ ... فَكَيْفَ يُرَاضُ المُعْتَدِي، وَيُرَوَّضُ
وَيَرْوَى دماً مِنْهُمْ، وَيَحظى بِكَفِّهِ ... فَيُصقَلُ حَدٌّ، أوْ يُعَطَّرُ مَقْبضُ
وَكيْما تَصِحُّ الكِيمِيَاءُ بِضَرْبِهِ ... فَتُذْهِبُ مِنْه الصَّفحَ، وَهُوَ مُفَضَّضُ
وَلَا نَوْمَ حَتَّى يَنْظُرَ السَّيْفُ رُؤسَهُمْ ... تُبَدِّلُ جِسماً مِنْ قَناً، وَتُعوَّضُ
صَحَائِفُ تَرمِيها الصَّفَائِحُ، هَذِهِ ... تُحَمَّرُ مِنْ سُخْطٍ، وَهذِي تُبَيَّضُ[163]

لم يكن القاضي الفاضل آنذاك شاعر الكامل أو كاتبه فحسب، بل كان صديقه المقرّب أيضا. وقد تمكّن بمساعدته من الحصول على منصب نائب رئيس ديوان الإنشاء، لأن ابن الخلال كان قد أسنّ وفقد بصره وقدرته على الكتابة واعتكف في منزله، كما ذكرنا، فحلّ محلّه القاضي الفاضل في الديوان وصار يكتب نيابة عنه. وكان من قبل قد تقلّد سلطات رئيس الديوان للخليفة العاضد، فأصبح مستشارا لكل من الكامل وشاور، ومسؤولا عن جميع المراسلات الواردة على مصر والصادرة عنها، وعن بثّ العيون واختيار الرسُل، وما إلى ذلك من مسؤوليات صاحب ديوان الإنشاء. وبالإضافة إلى جميع مسؤولياته، كنائب أو كرئيس لديوان الإنشاء، فقد كان حذرا حريصا، بعيد النظر، تهمّه مصلحة مصر موطنه، ومصلحة الإسلام، وتخيفه فكرة احتلال الفرنج لمصر، ولا سيّما أن غازي مصر ملك الفرنج أموري، كان أوّل حاكم فرنجي لمدينة

(١٦٣) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ٢، ص ٣٦٥ - ٣٦٧.

عسقلان، مسقط رأسه، وهو الذي شرّد أهاليها، ولاحقهم بعد ذلك إلى بلبيس حيث قتل أعدادا منهم، وهو الآن في القاهرة يحاول أن يعيد الكرّة وقد يسبّب موجة جديدة من اللجوء والمعاناة. فلا بدّ إذاً من العمل السريع. وهذا ما قام القاضي الفاضل به، فهو أكثر الناس اطّلاعا على خطورة الوضع في مصر، وأكثرهم قدرة على العمل.

ولا بدّ من أن نشير، عند هذه النقطة، إلى القوّة الثالثة العاملة في مصر على تلافي احتلالها وعلى التخلص من شاور، وهي الخلافة الفاطمية.

عُرف عن الخليفة العاضد أنّه كان صغيرا مغلوبا على أمره، حجبه شاور عن السياسة وألزمه قصره، ولكنّ العاضد ظهر على مسرح أحداث مصر بعد مذبحة بلبيس، رجلا في الثامنة عشرة من عمره يحاول أن يثبت قدمه في الحكم على الرغم من قوّة وزيره، شاور، بمساندة القوى الفاطمية، وأصحاب الدواوين. وتحمل المصادر إشارات متكرّرة إلى اتّصال العاضد بنور الدين يستنجد به على الفرنج بعد مذبحة بلبيس. وقد جرى أحد هذه الاتّصالات حالما احتلّ الفرنج بلبيس. ويذكر المقريزي أنّ شمس الخلافة اجتمع بالكامل (ابن شاور) في إثر احتلال الفرنج لبلبيس وقال له: «عندي أمر لا يمكنني أن أفضي به إليك إلّا بعد أن تحلف لي أنّكَ لا تطلع أباك عليه. فلمّا حلف له قال: إنّ أباك قد وطّن نفسه على المصابرة، وآخر أمره يسلّم البلد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين؛ وهذا عين الفساد؛ فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين فليس لهذا الأمر غيره. فصعد الكامل إلى الخليفة العاضد وكتبا الكتاب وأرسلاه إلى نور الدين فقيل للعاضد لِمَ لا أطلعت وزيرك على ذلك؛ فقال أعرف أنّه لا يوافقني عليه لكراهته في الغُز وأنا أعلم من أي باب أدخل عليه. وأرسل إلى شاور يقول: أين استدعائي الغُز من المسلمين لنصرة الإسلام من استدعائك الفرنج للإعانة على المسلمين. فقال للرسول: قل لمولانا عنّي أنت مغرور بالغُز والله لئن يثبت لهم رجل بديار مصر لا كانت عاقبته وخيمة إلّا عليك. فلمّا بلغه ذلك قال: رضيتُ أن تكون إسلامية وأكون فداء المسلمين.»[١٦٤]

ويعلّق المقريزي على هذه الاتصالات قائلا: فوافت كتب العاضد وكتب جماعة من

---

(١٦٤) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ٧١؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٦٤. ويذكر أبو شامة أنّ العاضد أرسل، عقب حريق مصر (الفسطاط)، إلى نور الدين يستغيث به ويصف ضعف المسلمين عن صدّ الفرنج. وقد ضمّن الرسائل شعور النساء. ولمّا صالح شاور الفرنج على أن يدفع له مبلغا من المال، جدّد العاضد مراسلة نور الدين معلما إيّاه بمخاوف المسلمين من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده مع عسكره. أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩١.

الأعيان إلى نور الدين بحلب، فانزعج لذلك وجمع الأمراء للمشورة فأشاروا بإرسال أسد الدين شيركوه.[١٦٥]

ظلت المؤسسة الفاطمية تنسّق عملها مع الكامل بالنسبة إلى السياسة المصرية تجاه العدوان الفرنجي على مصر، فيقصد كل منهما القاضي الفاضل للكتابة إلى نور الدين، فيكتب مُسهِبا أو مختصرا شارحا لكل ما يجري في مصر مصوّرا خطورة الموقف فيها كما يشاء، منبّها إلى ضرورة الإسراع بتلبية الدعوة.

وبينما كانت الرسائل ترد على حلب ودمشق، يتلو بعضها بعضا، كان أموري يزحف على القاهرة سائرا بشيء من البطء، ربّما ليضمن دخولها سلما، أو ليقبض بعض المال من شاور ثمنا لتباطئه، وهو يفاوضه في الوقت ذاته، ولكنّه عندما اقترب من القاهرة خاف شاور وقام في هذه الأثناء بحرق مصر (الفسطاط)، الأمر الذي تسبّب بخروج جميع أهلها لاجئين إلى القاهرة.[١٦٦]

سادس عشر: حريق مصر (الفسطاط وضواحيها) ونهاية شاور

لما أدرك شاور عجزه عن صد أموري عن مصر بالأموال والوعود، قرّر أن يحرق مدينة مصر (الفسطاط) بعد إخلائها من سكّانها ليعوق احتلال أموري لها، أو ليحرق خيراتها التي كان أموري يتطلّع إليها، كما فعل سابقوه من الفرنج في الشام وفلسطين.

وقد أمر شاور أهل مدينة مصر بمغادرتها ففعلوا، وهاجروا منها في حالة يرثى لها، تاركين وراءهم أموالهم وكل ما يملكون، هاربين بسرعة حرصا على حياة وكرامة أولادهم ونسائهم، لأنهم سمعوا بمذبحة بلبيس وبأسر من لم يُقتل من أهلها. وهام هؤلاء السكّان على وجوههم، فبعضهم سار إلى القاهرة مسافة ميل أو أكثر بقليل مشيا على الأقدام، وبعضهم من ذوي اليسار اكتروا دوابّ تُقِلّهم إلى المدينة الملكية، ولكنّهم صدموا عندما وجدوا أصحاب الدوابّ يستغلونهم في أزمتهم هذه، ويتقاضون منهم بضعة عشر من الدنانير أجرا للحمار أو البغل وثلاثين من الدنانير للجمل.[١٦٧]

وصل اللاجئون إلى القاهرة جماعات ووحدانا، ونزلوا في مساجدها وحمّاماتها وشوارعها وأزقّتها. وارتمت عائلات بأكملها في الشوارع من دون مأوى. ولقد أغلقت

---

(١٦٥) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩١؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٦٤.
(١٦٦) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧، وهامش (٣)، ص ٢٩٧.
(١٦٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

القصور والبيوت في وجوههم خوفا على سلامة من فيها، وراحوا يتوقّعون قدوم الفرنج في أي يوم، وينتظرون مصيرا كمصير أهل بلبيس، ويتساءلون في الوقت ذاته عما حدث لبيوتهم وأموالهم، هل احترقت؟؟ نعم! احترق بعضها، ولكن بعض النهّابة المحترفين هرع إلى المدينة وأخذ يبحث عن خباياها، وهي غير قليلة، يحملها إلى حيث يخبئها.(١٦٨)

وبينما كان شاور يتخبّط في سياسته ولا يدري كيف يصد الفرنج عن القاهرة نفسها، وصل أموري إلى قرب القاهرة في ١٠ صفر ٥٦٤هـ، قريبا من باب البرقية حيث اجتمع إلى حاميته، وبدأ مناوشاته ضد المدينة، وراح يرميها بالسهام والحجارة والنفط المشتعل، فتنزل جميعها داخل المدينة، وتزيد في رعب أهلها.(١٦٩) ولكنّ أهل القاهرة ولاجئيها وقفوا صفا واحدا في وجه العدو إلى أن بدأ مجرى الأحداث يتغيّر. وأيقن أموري أن حصاره للقاهرة قد يطول، ولا سيّما أنّها كانت أكثر حصانة من بلبيس، وأن المقاومة فيها أقوى لتمركز القوّات المصرية بكاملها فيها، ولتنظيم المقاومة الشعبية. وربما خاف إذا طال مُقامه في القاهرة أن يثور عليه بعض قوّاده ممّن أرادوا احتلالا سريعا للبلد، وربما خشي قدوم الإمبراطور البيزنطي إلى مصر بحسب الاتّفاقية المعقودة بينهما فيحتلّ مصر بدلا منه، وربما حسب الحساب لإمكان استنجاد شاور بنور الدين، ففتح باب المفاوضة الذي كان شاور يحاول طرقه قبل ذلك بقوّة علّه يثْنيه بأية طريقة عن احتلال العاصمة وأموري يوصده.

عرض شاور على أموري هذه المرّة دفع مبلغ أربعمئة ألف دينار معجّلة ثمنا لوقف هجومه، ويقال نحو المليون دينار، فوافق أموري على العرض. وقد ذُكر أيضا أن شاور خوّف أموري من نور الدين. ولئن وافق أموري على عرض المال الذي تقدّم شاور به فإن المبلغ المعروض لم يكن متوفّرا، بحسب رأي بعض المؤرّخين.(١٧٠)

وبعد أخذ وردّ طلب خلاله أموري أن تكون المفاوضات بينه وبين الخليفة لأنه لا يثق بكلام شاور، تمّ الاتفاق على دفع مبلغ مئة ألف دينار من دون تأخير، ودفع باقي المبلغ، مع القطيعة المقررة سنويا (مبلغ ٣٣,٠٠٠) وزيادة عشرة آلاف دينار وعشرة آلاف إردبّ غلّة يقترح الفرنج أصنافها، فوافق أموري. ويشير المقريزي، معلّقا على هذه

---

(١٦٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩٧.

(١٦٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨. للمزيد من التفصيلات:
Lyons and Jackson, *op.cit.*, pp. 22-24.

(١٧٠) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٩٨. للمزيد من المعلومات: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، «مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب»، تحقيق جمال الدين الشيّال (القاهرة: مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، ١٩٥٧)، ج ١، ص ١٥٨؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٣.

المفاوضات وتلك الاتّفاقية، إلى أن العاضد أرسل القاضي الفاضل عبد الرحيم إلى الشيخ الموفق بن الخلال كاتب الدست، وكان مريضا والفاضل ينوب عنه، بتعيين الكامل بن شاور (بدل والده بالوزارة) وقال له: «استشره في هذا الأمر. فمضى الفاضل إليه، وعرض ما تقرّر عليه، وبلّغه عن العاضد ما أشار به من أخذ رأيه في ذلك. فقال: قبّل الأرض عنّي لمولانا وقل له عن مملوكه: إنْ وَعَد المشتري وصبر البائع فليست بغالية، وبين قيل وقال ينصرم الوقت.»(١٧١)

لم يجد شاور ولا غيره في خزينة الدولة أكثر من مئتي ألف دينار، كما يشير المقريزي، ولم يتمكّن من جمع أكثر من خمسة آلاف دينار من الناس لفقرهم؛ «فقد احترقت دورهم، وسُلب ونُهب ما فيها، وهم لا يقدرون على الأقوات، فضلا عن الأقساط.»(١٧٢) وتسلّم أموري مئة ألف دينار أخذها على مضض، ولكنّه ظلّ ينتظر باقي المبلغ إلى أن علم بقدوم أسد الدين إلى مصر فانسحب عن القاهرة في ٣ ربيع الأول ٥٦٤هـ / كانون الأول (ديسمبر) ١١٦٨م.(١٧٣)

ولا بد قبل أن نبحث في عاقبة انسحاب أموري من أن نناقش دور القاضي الفاضل في هذه الأحداث. وإذا كُنّا قد استنتجنا سابقا أنّ القاضي الفاضل قام بدور خفي في تحويل سياسة الكامل في الاتجاه الشامي بدل الفرنجي، بناء على شعر القاضي الفاضل، فإن المصادر التاريخية أصبحت تشير إلى دور عملي واضح في هذه الأزمة الكبرى. فما هو هذا الدور؟

اعتبر القاضي الفاضل نفسَه فردا من الشعب المصري، وأصبح يُعرَف بالمصري، بالإضافة إلى البيساني والعسقلاني؛ فلقد عاش في مدينة مصر ـ لا القاهرة ـ مع أنة كان يعمل ويقيم موقتا في القاهرة إذا تطلّب عمله ذلك. وكان يتعاطف مع الشعب المصري تعاطفا شديدا صاحبه حتى وفاته وظهر في أقواله وأعماله الخيرية التي تركها لهذا الشعب.

شارك القاضي الفاضل شعب مدينة مصر في هجرتهم ومحنتهم، وخَسِرَ كل ما كان قد بناه كغيره من أبناء مصر. وبالتالي فقد نقم مثلهم على شاور وسياسة شاور. ولئن لم يستطع أن يعارض شاور في السابق فقد أصبح الآن في مركز يتيح له المعارضة، أو حتى إبداء الرأي والنصيحة، لشاور مباشرة، وإلا فللكامل.

وقد يكون هو الذي عرض فكرة تولّي الكامل نيابة الوزارة، لا الوزارة عن والده،

(١٧١) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٩٨.
(١٧٢) المصدر نفسه.
(١٧٣) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٣؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ١٩٨.

حتى يستطيع الكامل أن يحكم بصورة رسمية، وأن يفاوض نيابة عن أبيه، بعد أن رفض أموري المفاوضة معه، وفَقَد الخليفة ثقته به، وثار الشعب عليه، لأن تولّي الكامل الوزارة بالنيابة عن أبيه قد يهدّىء من المشاعر الثائرة، ويعيد بعض الثقة بالحكام. ولمّا كان القاضي الفاضل أقرب المقرّبين إلى الكامل ففي إمكانه أن يؤثّر في مجرى الأحداث. وهكذا جرى فاقتنع العاضد بضرورة تعيين الكامل رسميا لنيابة الوزارة، ولا بدّ من أن يكون القاضي الفاضل قد استشار ابن الخلال أستاذه، لأنه لا بدّ من عبور الأمر بابن الخلال باعتباره الرئيس الرسمي لديوان الإنشاء. وليس من المستبعد أيضا أن يكون قد اتّفق مع ابن الخلال، أو اتّفقا كلاهما، مع الكامل على إحلاله نيابة عن أبيه في السلطة لتسهل مهمة القاضي الفاضل بالاستنجاد بقوّات نور الدين، ولإضفاء شيء من الشرعية على قيادة الكامل.

كتب القاضي سجلا بتعيين الكامل نائبا عن والده، وكان هذا أوّل سجلّ رسمي صدر بشأن منصب كهذا،[١٧٤] إذ لم يحدث أن ناب ابن عن أبيه في الوزارة الفاطمية، مع أن كثيرين من أبناء الوزراء خلفوا آباءهم في الوزارة قبل ذلك. وكتب بعد ذلك سجلّ تعيين كل من أسد الدين وصلاح الدين في الوزارة.

وتواترت الرسائل من ديوان الإنشاء بكتابة القاضي الفاضل إلى الشام في هذه الفترة العصيبة، وتعدّدت الرُسل، فتوجّه بعضهم إلى حلب حيث كان نور الدين، وإلى حمص حيث كان أسد الدين، وإلى دمشق حيث آل صلاح الدين، يستصرخون هؤلاء القادة. وأرسل ضمن هذه الرسائل ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة، دلالة على خطورة الموقف، وضرورة حماية نساء الفاطميين، وسُوِّد بعضها دلالة على مصير أهل مصر إنْ لم تصل النجدة.[١٧٥]

ولقد كتب القاضي الفاضل بنفسه جميع رسائل الاستنجاد، عن الخليفة العاضد، وعن شاور والكامل، وحتى عن نفسه، يدعو نور الدين ويستحثّه على احتلال مصر. ومن جملة شعره إلى نور الدين:

وما بعدَ مصرٍ للغنى متطلَّبٌ ... وما بعدَ هذا المالِ مالٌ فيُكْتَسَبُ
وَلَو أنه في البأسِ يمضي أو الندى ... لهانَ، ولَكنْ في المغاني وَفي الطَّرَبْ[١٧٦]

---

(١٧٤) السجلّ لدى: جمال الدين الشيّال، «مجموعة الوثائق الفاطمية» (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦)، ص ١٦٨ - ١٦٩؛ القلقشندي، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٣١٨ - ٣٢٥. يذكر القلقشندي أن ابن الخلال كتب السجلّ.

(١٧٥) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩١، ٤٣٢؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٣.

(١٧٦) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ٢، ص ٤١٧.

وقد أثارت هذه المراسلات المتواترة شيئا من الفزع في الشام، لا على مصير مصر فقط بل أيضا على مصير الشام إذا احتل الفرنج مصر. فهبَّ نور الدين وأسد الدين هبّة واحدة للإعداد لحملة النجدة، فما كاد نور الدين يرسل مبعوثه صلاح الدين ليستدعي أسد الدين من حمص حتى وجد أسد الدين على أبواب حلب، لأنه كان بدوره قد تسلّم رسائل الاستنجاد من مصر، فاستغرب نور الدين سرعة أسد الدين، ولكنه جهّزه وأرسل معه ألفي فارس من العسكر ونحو ستة آلاف فارس من التركمان. وليس من المستبعد أن تكون هذه القوات قد كانت جاهزة لمثل هذه المناسبة، لأن الأخبار كانت تصل إلى نور الدين باستمرار عن الأحوال في مصر، وعن مخطّطات الفرنج.

اصطحب أسد الدين معه صلاح الدين وسار إلى مصر فوصل إليها مع قواته في ٤ ربيع الثاني ٥٦٤هـ / كانون الثاني (يناير) ١١٦٨م، ونجم عن وصول القوات الشامية إلى مصر أن انسحب الفرنج من دون أن يشتبكوا مع القوات الشامية، وتمركز أسد الدين وقوّاته خارج القاهرة إلى أن تم التخطيط بينه وبين القصر على إطاحة شاور. وهنا يبدأ فصل جديد في تاريخ مصر ومسيرة القاضي الفاضل.

سابع عشر: أسد الدين شيركوه في القاهرة

لمّا وصل أسد الدين إلى قرب القاهرة خيّم في منطقة المقس تجاه اللوق. وفي ٧ ربيع الثاني ٥٦٤هـ / ١١٦٨ ـ ١١٦٩م، بدأ مفاوضاته مع القصر؛ فخرج من القاهرة وفد من قادتها وكتّابها وكبارها لاستقباله، حاملين معهم هدايا عديدة وخلعا إليه. ويُذكر أن الخليفة العاضد ذهب بنفسه متنكّرا إلى شيركوه وحدّثه بالتخلص من شاور.[١٧٧]

وأمّا شاور فقد حاول أن يداهن أسد الدين مرّة أُخرى ففشل، لأنه وقف هذه المرّة وحيدا في معارضته لأسد الدين، أو حتى في تحسُّبه منه. وكان القصر والإداريون والشعب، وحتى الكامل، قد قرّروا التخلّص من شاور، فعزلوه بالتالي عن السياسة وأخذوا يراقبون تحرّكاته من داخل القاهرة ومن خارجها.

أحسّ شاور بالمؤامرة وقرّر أن يتخلّص بنفسه من أسد الدين، ولكنّه سقط ضحية خطّته. فقد عزم على أن يدعو أسد الدين وقادته إلى وليمة بحيث يُعِدّ العُدة لاغتياله، ولكنّه فشل، بحسب معظم المصادر، لأن ابنه الكامل عارضه في خطّته هذه ونهاه عنها

(١٧٧) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

قائلا: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن شيركوه. فقال شاور: يا بنيّ، والله لئن لم نفعل ذلك لنُقْتَلَنّ جميعا. قال الكامل: صدقت، ولأن نُقتل ونحن مسلمون خير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عَوْد الفرنج إلّا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ، لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا. فترك شاور ما عزم عليه.»[178]

ولقد واصل شاور تخطيطه للتخلّص من أسد الدين في الوقت الذي كان أسد الدين نفسه يُعِدّ للتخلّص منه، فاتّفق أسد الدين يوما مع بعض قادته: عز الدين جرديك وصلاح الدين، على اغتيال شاور في يوم محدَّد ذهب فيه للتمويه لزيارة قبر الإمام الشافعي فقصده شاور كعادته للسلام عليه، ولكنْ قبض عليه صلاح الدين وعز الدين جرديك واعتقلاه إلى أن عاد أسد الدين. وما كاد أسد الدين يصل إلى مكان اعتقال شاور حتى وصل إليه سيف وتوقيع من القصر مع أحد الأستاذين يقول: «هذا غلامنا ولا خير فيه لك ولا لنا، فأمضِ حكم الله فيه.»[179]

قُتِلَ شاور يوم السبت (السابع عشر من ربيع الثاني ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م)، وأُرسل رأسه إلى القصر.[180]

انتهت بموت شاور فترة صاخبة خطرة في تاريخ مصر، ظهرت في أثرها قوّات أُخرى وجّهتها إلى الجهاد. وأما الكامل فإنه عندما سمع بمقتل والده هرب إلى القصر مستجيرا بالخليفة، على أساس أنهّ وقف مع القصر، ولكنّ الخليفة لم يُجِرْه. ويشير المقريزي إلى أن شيركوه طلب من العاضد مقابلة الكامل وأخيه الطاري، فأرسل إليه رأسيْهما ورؤوس من بقي من آل شاور في ٤ جمادى الثانية ٥٦٤هـ / آذار (مارس) ١١٦٩م، في طبق فضّي مغطّى. فلمّا كشف أسد الدين الغطاء ووجد رأس الكامل ورؤوس أولاد أخيه من آل شاور، تأسّف على مقتله، لِما كان يسمعه عن ردعه لوالده عن قتل أسد الدين وجنوده.[181]

ولقد وصف المقريزي أعمال شاور في أثناء وزارته بقوله: «وكانت وزارة شاور هذه كثيرة الوقائع والنوازل، فإنهّ أطمع الغُزّ والفرنج بالبلاد وجرَّهم إليها، فأحرق مصر

---

(١٧٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٠؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٤ ـ ١٥.

(١٧٩) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٠٠؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٧.

(١٨٠) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٠١.

(١٨١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠١. يذكر ابن الأثير أن الكامل بن شاور وإخوته دخلوا القصر معتصمين في إثر مقتل شاور، لكنهم قُتِلوا، وكان شيركوه يتأسّف على الكامل ويقول: وددت لو أنهّ بقي، لأحسن إليه جزاء لصنيعه. ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٥.

وأزال نعم أهلها وأذهب أموالهم، وكان السبب في إزالة الدولة الفاطمية من ديار مصر وتملُّك الغُزّ لها.»[١٨٢]

وأمّا القاضي الفاضل الذي كان في القصر خلال هذه التطوّرات فقد نجا وازداد قوّة، وربما كتب بخط يده توقيع مقتل شاور نيابة عن الخليفة، لأن كتابة التواقيع من ضمن مسؤوليات رئيس ديوان الانشاء. وبدأ خدمته لأسد الدين حال مقتل شاور. ومع أنه خلّف في ديوان شعره الكثير من مدائح الكامل، إلا إنه لم يترك له مرثية واحدة. ولا ندري إنْ كان قد قال فيه رثاء لم يصل إلينا، أو أراد أن يتنصّل من شاور ونسله تنصّلا تاما ويبدأ صفحة جديدة من حياته. وفي أية حال فإنه فتح فعلا صفحة جديدة مشرقة، ربطت تاريخ مصر بتاريخ فلسطين، وتحرير فلسطين بتحرير مصر، كما ربطت بيسان وعسقلان بمصر.

(أ) القاضي الفاضل وأسد الدين شيركوه:

فوضى في القاهرة

دخل أسد الدين القاهرة منتصرا هذه المرّة تصحبه قوّاته وحاشيته، ولكنّه فوجيء بمرأى الناس وما حلّ بهم؛ رآهم متجمّعين في كل زاوية وشارع وبناية، بعضهم يدعوه إلى المساعدة، وبعضهم ينظر إليه بشيء من الفضول واللامبالاة، وبعض آخر يصفّق له، وقد بانت على وجوههم جميعا علائم الخوف والتعب والجوع. فتحسّر على حالهم وإنْ خاف على نفسه من تجمّعهم، فهو لم يطمئن تماما إلى المصريين الذي حاربوه مرّتين. وعندما أخذت الجموع والجماهير بالتجمّع حوله وهو في طريقه إلى القصر، أراد أن يبعدهم بالمناداة عليهم: «بأن أمير المؤمنين يأمركم بنهب دار شاور»؛ فتقدّموا متسارعين إلى دار شاور، ونهبوا كل ما فيها، حتى أن أسد الدين لمّا تسلّم سجل الوزارة لم يجد ما يجلس عليه فيها.[١٨٣]

حاول أسد الدين حال توليه الوزارة أن يتقرّب من رجال الدولة الفاطمية، ففتح بابه لهم. وكان أوّلَ من قصده للزيارة اثنان من كبار موظفيها هما: الأمير الخطير ابن مماتي، رئيس ديوان الجيش؛ والقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، نائب رئيس ديوان الإنشاء. فشرحا له أوضاع مصر وأحوالها المالية والاقتصادية والسياسية، وأخبراه بما دهى مدينة مصر من حرق وما دهى أهلها من خسائر، فأعجب بمعلوماتهما وحرصهما على مصر وعليه، وطلب منهما إحضار أعيان مدينة مصر الذين كانوا قد جَلَوْا عنها،

---

(١٨٢) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٠١.

(١٨٣) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٧.

فقصدوه جميعا، وبينهم بعض الفقهاء الذين كان قد اتّصل بهم مسبّقا. واصطحب أسد الدين هؤلاء الأعيان في رحلة استكشافية إلى مدينة مصر، فرأى فيها غير التي رآها قبل ذلك بعامين. رأى مدينة شوّهها الحرق والتلويث، وتهدّم معظم مساكنها، وتشعّث جامعها، أي جامع عمرو بن العاص، أول مسجد إسلامي بني فيها. وتملّك أسد الدين الحزن لِما حلّ بالقاهرة، ثم التفت إلى أعيانها المرافقين له قائلا: عودوا إلى بلدكم وعمّروه! فشكا هؤلاء إليه «ما حلّ بهم من الفقر وذهاب الأحوال وخراب المنازل، قائلين: إلى أي موضع نرجع وفي أي مكان نأوي؟» فرد عليهم قائلا: «لا تقولوا هذا، وعليّ بإذن الله حراستكم وإعادتها إليكم بما كانت عليه أحسن، فاستدعوا مني كل ما لكم فيه راحة، فهي بلدي وربما أسكن فيها بينكم.» شكر هؤلاء الأعيان لأسد الدين رعايته وتفرّقوا عنه وهم يدعون له. وأخذ أهالي مدينة مصر يعودون بالتدريج إليها، ويبنون حياتهم من جديد فيها.(١٨٤)

وانضم القاضي الفاضل إلى أسد الدين، وأصبح من مستشاريه المقرّبين بحكم مركزه في ديوان الإنشاء في القاهرة أولا، وبحكم العلاقة المتينة التي أسسها لنفسه مع الشاميين عن طريق المراسلات مع بلاط نور الدين ومع أسد الدين نفسه وصلاح الدين، ولكونه أيضا من رجالات مصر السنّة، المتضلّعين بمداخل السياسة المصرية وخفاياها بحيث أصبح ضروريا للحكام أيّا كانوا.

ويذكر كل من المقريزي وأبي شامة أنهّ لمّا تولّى أسد الدين الوزارة احتاج إلى كاتب فأحضر القاضي الفاضل فأعجبه إتقانه وسمته ونصحه فاستكتبه.(١٨٥)

والأرجح أن أسد الدين اكتشف إمكانات القاضي الفاضل الإدارية، ومعلوماته السياسية والاقتصادية، ومواهبه الأدبية، قبل أن يتولّى الوزارة في مصر. وعندما تولّى أسد الدين الوزارة وضع القاضي الفاضل في سجلّ تولية أسد الدين الكثير من المعلومات والإشارات ذات الأهمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

(ب) القاضي الفاضل وسجلّ تولية أسد الدين الوزارة المصرية

جلس جميع أعيان الدولة الفاطمية في القصر إلى جانب أعيان الشام وجنودها، يتوسّطهم أسد الدين وإلى جانبه صلاح الدين، وإلى جانب صلاح الدين بعض الأمراء فالمديرين فالكتّاب. وجلس بين هؤلاء القاضي الفاضل، كاتب سجلّ تولية أسد الدين،

---

(١٨٤) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٠٣.

(١٨٥) المقريزي، «الخِطط»، ج ٢، ص ٣٦٦.

بعد أن كان قد أمضى أياما يخطّه وينمّقه ويراجعه، علما منه بأنه رايته إلى الشهرة في كل من مصر والشام وأنه واسطته للترقّي والظهور. وأنه سجلّ تاريخي[١٨٦] لفترة من أقسى الفترات في تاريخ مصر، ثمّ وقّعه باسمه لتطّلع عليه أجيال لاحقة وتستقي منه.

لم يكن من عادة رئيس ديوان الإنشاء، أو نائبه، أن يقرأ سجلات التولية التي يخطّها، طبقا لمراسيم الدولة الفاطمية، فقرأ السجلّ قاضي القضاة الجليس ابن عبد القوي، بصوت عالٍ، على رؤوس الأشهاد، فطرب له كل من سمعه لِما يحويه من إشارات، ولِما لصيغته من نغمة رنّانة فيها الكثير من التشابيه والاستعارات وغيرها من المحسّنات اللغوية التي كانت تجد صدى كالشعر في نفوس الناس. وكان أكثر الناس طربا وفرحا، أسد الدين شيركوه، لأن محتوى السجلّ موجّه إليه، ولأنه وثيقته لتولّي أعلى مركز في الحكومة المصرية، هذا المركز الذي حقّق فيه آماله، وتكبّد بسببه متاعب كثيرة.

أعجب أسد الدين بمحتوى السجلّ، حتى أن قراءته «أُعيدت عليه عدّة دفعات استحسانا لمعانيه، واستظرافا لِما أُودع من بدائع الكلام فيه.»[١٨٧]

وليس من المستبعد أن تكون إعادة القراءة قد طُلبت لتفهُّم ما في السجلّ، فمعظم الموجودين من أعيان الدولة الشامية، وبصورة خاصة من الأتراك والأكراد، أهل سيوف لا أهل أقلام. وبالتالي، فإن كتابة القاضي الفاضل كانت على بلاغتها صعبة الوقوع على أسماعهم.

والسجلّ طويل يتّبع نموذجا معينًا من نماذج السجلات الفاطمية من أدعية للخلفاء وتسليم على أجدادهم. ولكنّه مبنيّ منذ البداية على المقارنة بين الأضداد، إذ يمثل صراعا بين قوّتين تمثّلان الخير والشر؛ فالخير متمثّل في أسد الدين، والشر متمثّل في شاور.

ويجري هذا الصراع على مستويين: أحدهما كونيّ تديره وتراقبه قوى إلهية حتى نهايته بانتصار الحقّ على الباطل، كما فعلت هذه القوى بنصر الإسلام ضد قوى الشِّرك والإلحاد على يد الرسول الكريم؛ والآخر محلّي هو الصراع بين الفرنج الذين يشبّههم القاضي الفاضل بالملحدين (لا أهل الكتاب) وحلفائهم ممن خانوا الإسلام وبين المسلمين. وقد تمثّلت وحدة الإسلام (الإسماعيلية والسنّة) في هذا الصراع، حتى نصر الله الإسلام والمسلمين وحمى مصر من مصير رهيب.

«يحمده (يحمد الله) أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذي ظهر فبهر، وانتشر

---

(١٨٦) السجلّ في: القلقشندي، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٨٠ ـ ٩٠.
(١٨٧) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

فعمّ نفعه البشر، والإظهار الذي اشترك فيه جنود السماء والأرض، والإظفار الذي عقد الله منه عقدا لا تدخل عليه أحكام النقض، والانتصار الذي أبان الله به معنى قوله: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض.»

ويقول مخاطبا أسد الدين: «وأنقذتَ الإسلام وهو على شفا جُرُفٍ هارٍ، ونَفَذْتَ حين لا تَنْفُذ السهام عن الأوتار، وأبصرتَ حقّ الله ببصيرتك وكم من أناس لا يرونه بأبصار، وأقدمتَ على الصليب وجمراتهُ متوقّدة، وقاتلتَ أولياء الشيطان وغمراتهُ متمرّدة.»

لقد صوّر القاضي الفاضل الصراع في شأن مصر بأنه صراع ديني أكثر ممّا هو سياسي، ولو أن العامل السياسي مهمّ؛ فقد قصد بتركيزه على الناحية الدينية من الصراع أن ينبّه إلى مدى خطر الفرنج الجاثم على مصر وغيرها من البلاد الإسلامية، وإلى ضرورة معالجة هذا الخطر بطريقة جماعية تحت راية الدين، لا المطامع الشخصية. وقد ظل القاضي الفاضل يركّز على هذه الناحية من الصراع، وينبّه صلاح الدين وأقاربه وقوّاده إليها، ويوجّه الشعراء والكتّاب إلى التركيز عليها، ويتبنّاها في أقواله وأعماله حتى وفاته سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م.

ويتضمّن السجلّ بعض التوصيات للوزير الجديد، من أهمها توصيتان: إحداهما توصية بالرعايا؛ والأخرى توصية بالجهاد. فأما بالنسبة إلى الرعايا، أو الشعب، فيشير القاضي الفاضل إلى ما دهاهم على مرّ الزمن من ضرائب مجحفة وجرائم، ولعله كان يتمثّل والده وما قاساه في محنته وهو يقول: «والرعايا، فقد علمت ما نالهم من إجحاف الجبايات، وإسراف الجنايات، وتوالى عليهم من ضروب النكايات، فاعمُر أوطانهم التي أخربها الجَوْر والأذى، وانفِ عن مواردهم الكدر والقذى، وأحسن حفظ وديعة الله تعالى منهم، وخفّف الوطأة ما استطعت عنهم وبدّلهم من بعد خوفهم أمنا، وكفّ من يعترضهم في عَرَض هذا الأدنى.»

لم تكن هذه التعابير مجرّد وصية ضمن سجلّ تولية رسمي، ولكنّها تعكس ناحية بارزة من شخصية القاضي الفاضل، وهي الناحية الإنسانية، ولعلها نمت معه منذ حياته في عسقلان عندما كان يرى اللاجئين ووضعهم، وهو واحد منهم، ثم في مدينة مصر حيث شاهد الفقر، وفي القاهرة حيث شاهد الغنى والظلم، وخلال حريق (الفسطاط) مصر ومحنة أهلها في القاهرة خلال الحملة الثالثة. فلقد نمّت مشاهداته هذه في نفسه رغبة في مساعدة الناس تجلّت في أعماله الخيرية العديدة وفي توجيهه للحكام، وسنبحث في هذه الناحية في فصل منفصل.

وأمّا بالنسبة إلى الجهاد فإنه أمر آمن القاضي الفاضل به وتبنّاه أيضا في جميع أقواله خلال وزاراته؛ فهو في نظره أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق الإنسان.

الفصل الرابع
تحوّل في تاريخ مصر ودور القاضي الفاضل

أولا: وفاة أسد الدين شيركوه

لم يكد القاضي الفاضل يذوق طعم الاستقرار في ظلّ وزير جديد ثاني مرة، حتى صُدم بوفاة هذا الوزير؛ فقد لقي أسد الدين حتفه في الثالث والعشرين من جمادى الثانية ٥٦٤هـ / الثالث والعشرين من آذار (مارس) ١١٦٩م، في إثر خانوق اعتراه فجأة فقضى عليه بحسب معظم الروايات، مع أن هناك رواية تشير إلى أنّ أسد الدين ربما مات اغتيالا بسمّ وُضع له في حنك الوزارة عندما خلع عليه.[1]

وإنْ دلت رواية اغتيال أسد الدين على شيء، فعلى تعدّد المؤامرات والمنافسات بين الأمراء والقادة الشاميين والمصريين، وعلى رغبة مكبوتة لدى المصريين في التخلّص من القوات الشامية وقيادتها، ولا سيّما أن المصريين بدأوا يلمسون مدى قوة أسد الدين واتساع طموحاته، على الرغم من محاولته أن يجاملهم وينفي مخاوفهم في بداية أمره. وليس أدلّ على مدى مخاوف المصريين من قوة أسد الدين، من قول المقريزي إن أسد الدين استبد «بأمور المملكة، وغلب على الدولة، واستعمل أصحابه وثقاته على الأعمال، وأقطع البلاد لعساكره.» وقوله، تعليقا على وفاة أسد الدين، أنه لما احتضر قال: «مَنْ ههنا؟ فقال الطواشي بهاء الدين قراقوش: عبدك قراقوش. فقال: بارك الله فيك، الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما أردنا: ومتنا وأهلها راضون عنا. أوصيكم ألا تفارقوا سور القاهرة حتى تطير رؤوسكم، واحذروا من التفريط في الأسطول.»[2]

ولو تمعنّا في قول المقريزي هذا لوجدنا فيه صدى لأقوال غيره من الكتّاب السابقين عليه، سواء قالوها تعليقا جدّيا أو تهكّما على آل أيوب. فقد ظل قراقوش فيما بعد محورا للتهكم المصري. كما أن آل أيوب، وبينهم أسد الدين ونجم الدين أخوه،

(١) ابن خلكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ١٥١.
(٢) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٠٤، ٣٠٧.

وصلاح الدين أصبحوا هدفا لتهكّم بعض الكتّاب والشعراء ممّن عاصروهم في مصر والشام، مثل الشاعر عمارة اليمني والكاتب ركن الدين الوهراني والشاعر ابن عُنَيْن، الذين اعتبروهم مغتصبين للحكم في مصر والشام.

وأمّا تعليق المقريزي على توصية أسد الدين بالاهتمام بسور القاهرة وبالأسطول، فيدلّ على حرص أسد الدين على حماية مصر من الفرنج. ولقد ظلّت مسؤولية الإشراف على السور كبرى مسؤوليات بهاء الدين قراقرش، كما كانت مسؤولية مراقبة البناء وتمويله وتزويد صلاح الدين بالمعلومات عنه من ضمن أعمال القاضي الفاضل.

وتدلّ أقوال المقريزي أيضا على وعي المصريين لأهداف أسد الدين البعيدة المدى، وهذا شيء حقّقه، بل أثبته، غيره من المؤرّخين، كما أثبته التاريخ. ولا بدّ من أن يكون هذا قد أثار مخاوف القصر الفاطمي والمؤسسة العسكرية الفاطمية التي راحت تعمل سرا، إنْ لم يكن للتخلّص من أسد الدين فَلِيُوَقّفِ التوسّع الأيوبي. ومن هنا انتشر بعض الشائعات عن إمكان اغتيال أسد الدين.

ولسنا هنا في مجال تحقيق وفاة أسد الدين، وإنما يهمّنا في هذا البحث موقف المؤسسة المصرية الفاطمية من وفاته، ومن أمر خلافته في الوزارة، وموقف القادة الشاميين حيال خليفه أسد الدين في الوزارة المصرية، ودور القاضي الفاضل في الأحداث التي تلت وفاة أسد الدين وأدّت إلى تولية صلاح الدين للوزارة في القاهرة.

ثانيا: الصراع بشأن الوزارة
بعد أسد الدين شيركوه
ودور القاضي الفاضل في اختيار خلفه

جرت العادة في الفترة الزمنية التي نحن في صددها، عند وفاة الوزير، أن يستولي على الوزارة أحد القادة العسكريين المتنفّذين. ونظرا إلى نفوذه وقوّته، واستنادا إلى سياسة الاعتراف بالأمر الواقع، كان الخليفة يبارك تلك الوزارة. وعليه، ففي إثر وفاة أسد الدين، تنافست شخصيات عديدة مختلفة الاتجاهات للاستئثار بكرسي الوزارة، ونشطت القاهرة بالاتصالات العلنية والسرّية وبالمناورات التي استمرّت ثلاثة أيام، وانتهت باختيار صلاح الدين من دون غيره لمنصب الوزارة.

وكما أشرنا فقد كانت الشخصيات العسكرية هي التي تحدّد اختيار الوزير، إلا إن هذه القاعدة اختلفت بالنسبة إلى صلاح الدين، لأن الشخصية التي حدّدت انتخابه من دون غيره كانت شخصية مدنية أدت دورا بارزا فعّالا في المناورات التي تلت وفاة أسد الدين، واستطاعت بحنكتها ومكانتها المميّزة في القصر، وبعلاقتها المماثلة في الوقت

ذاته بمجموعة أسد الدين ممثّلة بصلاح الدين، أن تحظى بموافقة القصر الفاطمي ورضاه عن تعيين صلاح الدين لمنصب الوزارة؛ وكانت تلك الشخصية هي القاضي الفاضل.

وقبل أن نبحث في دور القاضي الفاضل في تولية صلاح الدين التي غيّرت مجرى تاريخ مصر والشام، لا بدّ من أن نعرض الأوضاع التي أدّت إلى هذه التولية.

يذكر المقريزي في أحداث سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨ ـ ١١٦٩م، أنه لمّا توفي أسد الدين انقسم أهل القصر (الفاطمي) وحواشي الخليفة من الأستاذين وغيرهم فرقتين: فأمّا الأولى فالتفّت حول مؤتمن الخلافة صنيعة الملك جوهر، أحد الأستاذين المحنّكين في القصر الفاطمي، ومتولّي زمام القصر والمشرف عليه، وطالبت هذه الفرقة بالتخلّص من نفوذ القوات الشامية بإبعادها عن القاهرة وعن الحكم فيها. وقالت: «لقد مات أسد الدين المُهدَّد به في الشرق والغرب ولم يحدث إلّا خير، ومن الرأي أن نمسك مخلّفته ونضيف إليها من جياد فرسان الغزّ ما تكون جملته ثلاثة آلاف فارس، ونُقدّم عليهم بهاء الدين قراقوش، وننزلهم بالشرقية، ونجعلها بأجمعها أقطاعا لهم يسكنون فيها، فيصيرون بيننا وبين الفرنج الذي طمعوا في البلاد يقاتلون عن حرمهم وإقطاعاتهم، ويرتّب مولانا من أجناد الديار المصرية من ينتفع به، ولا يقيم وزيرا تثقل وطأته ويشارك الخليفة في أمره، بل يجعل صاحب الباب واسطة بين الناس والخليفة.»[٣]

وأمّا الفرقة الأُخرى، والأرجح أنها ضمّت أتباع أسد الدين بقيادة بهاء الدين قراقوش، فأصرّت على اختيار صلاح الدين للوزارة لقرابته من أسد الدين.

ولم ينحصر الانقسام بشأن الوزارة واختلاف الأطماع فيها، في القصر أو في المؤسسة المصرية فحسب، بل تعدّاها إلى الصفوف الشامية. فقد انقسم الشاميون من قواد أسد الدين وأشياعه واختلفوا أيضا في شأن من يتولّى هذا المنصب. فطالب عددٌ من هؤلاء بالوزارة لأنفسهم، وجمعوا أصحابهم للصراع بشأنها. وكان بين هؤلاء: شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، والأمير عين الدولة ياروق الياروقي، وأخوه بهاء الدولة، والأمير قطب الدين خسرو بن ينال المنبجي، والأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب. ومع أن هؤلاء رشّحوا أنفسهم كأفراد مستقلّين، إلا إن مماليك أسد الدين تحدّوهم ووقفوا صفا واحدا خلف صلاح الدين قائلين: إن أسد الدين أوصى إليه بالوزارة. وبعد مضيّ ثلاثة أيّام عصيبة هزّت القاهرة، تدخّل العاضد واختار صلاح الدين للوزارة. ويذكر المقريزي أن العاضد بحث وسأل عمّن يصلح للوزارة فسار إليه شهاب الدين محمود الحارمي وأرشده إلى تولية صلاح الدين. «وكان

---

(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

العاضد قد مال إليه وقال لأصحابه من الأستاذين وغيرهم لمّا اختلفوا: والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين وما بلغت غرضا في حقه لقرب عهد مقام عمّه. فأرسل إليه وخَلع عليه خِلع الوزارة بالعقد والجوهر، وحنّكه، ونعته بالملك الناصر. وذلك في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة [٥٦٤هـ / آذار (مارس) ١١٦٩م].»[٤]

ويضيف ابن الأثير إلى رواية المقريزي عن الخلاف بين القوات المصرية في شأن تولية صلاح الدين قوله: «إن السبب الذي حمل العاضد على اختيار صلاح الدين للوزارة أنّ أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف، والرأي أن يُولّى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود، مَنْ نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه، فلمّا خُلِع عليه لُقّب الملك الناصر.»[٥]

ويشير ابن الأثير أيضا إلى الصراع الشامي بشأن ولاية صلاح الدين للوزارة بقوله: إن الفقيه عيسى الهكاري كان مع صلاح الدين، فسعى مع المشطوب، حتى أماله إليه، وقال له: «إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما، ثم قصد الحارمي، وقال: هذا صلاح الدين، هو ابن أختك وعزّه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، ولا يصل إليك، فمال إليه أيضا ثم فعل مثل هذا بالباقين، وكلهم أطاع، غير عين الدولة ياروق الياروقي، فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام، ومعه غيره من الأمراء وثبت قدم صلاح الدين.»[٦]

وتدلّ الروايات التي أوردناها على أن الأحلاف التي تألّفت في مصر خلال الخطر الفرنجي المُحْدِق بها في أثناء الحملة الفرنجية الثالثة عليها، قد بدأت تتداعى حول منصب الوزير، وأن المؤسسة الفاطمية العسكرية قد عادت إلى ممارساتها السابقة، بالتآمر على كل وزير تعتبره ذا قوة. وأما أكثر القوى بروزا خلال هذه الأحداث فكانت القوى السودانية بقيادة مؤتمن الخلافة، وهي أكبر القوات الفاطمية عددا وأشدّها خطرا.

ولقد ناوأ مؤتمن الخلافة صلاح الدين بعد ما لمسه من اتّساع سلطة أسد الدين العسكرية في مصر، ومحاولته إقامة قاعدة سياسية واقتصادية له فيها بإقطاعه بعض الأراضي لأصحابه. وليس من المستبعد أن يكون مؤتمن الخلافة قد عبّر في معارضته لصلاح الدين عن أماني بعض أفراد العائلة الفاطمية التي تحسَّبت من أهداف أسد الدين وأعماله، ورغبت في إبعاده عن مصر.

---

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٨.

(٥) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٧ ـ ١٨.

(٦) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٧؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٠٨.

وعلى صعيد القوى الشامية فإن الروايات تدلّ على خلافات عديدة بينها، منها الخلاف بين الأتراك والأكراد. فقد كان الأتراك، وعلى رأسهم عين الدولة ياروق الياروقي، يعتبرون أنفسهم أحق بالوزارة من الأكراد. وكان الياروقي من قادة نور الدين الأتراك المرموقين، وكان من الطبيعي أن يتطلّع إلى الوزارة لأنه أقرب إلى نور الدين عرقيا. ولعلّ نور الدين نفسه أراد الوزارة للأتراك أو للياروقي من دون أسد الدين أو صلاح الدين، خوفا من طموحاتهما وطموحات آل أيوب معهما إلى تأسيس ملك للعائلة في مصر. ولم يُخفِ نور الدين امتعاضه من تولّي أسد الدين، ومن بعده صلاح الدين، الوزارة. وقد عبّر عن هذا الامتعاض ببعض أقواله وأفعاله.[7] ولقد كاد الحلف الشامي إذاً أن يتداعى داخليا، كما بدأ يختلف في تطلعاته عن الحلف المصري.

وبينما كان الخلاف بشأن الوزارة مستعرا على الصعيد العسكري، كان هناك جبهة واحدة ثابتة لا تتطلّع إلى الحكم المباشر، ولكنْ يهمّها من يتولى الحكم، لتسيّر الأمور من خلاله. ولقد تمثّلت هذه الجبهة في أصحاب الدواوين أو أصحاب الإدارة الفعلية في مصر، وعلى رأسهم القاضي الفاضل الذي أصبح المستشار لكل من الوزير والخليفة. وليس من المستبعد أن يكون القاضي الفاضل قد درّب صلاح الدين على نواحٍ من الإدارة المصرية في أثناء وزارة عمّه. فمن المعروف عن صلاح الدين أنه تحمّل بعض المسؤوليات الإدارية في وزارة أسد الدين، كما يشير المقريزي وغيره بقولهم: «وتولّى عنه (عن أسد الدين) التدبير ابن أخيه صلاح الدين وقام بمباشرتها (إدارة مصر)، فصار إليه الأمر والنهي حتى مات أسد الدين.»[8] ولمّا كان صلاح الدين حديث العهد بمصر وإدارتها، ومؤسساتها وسكانها، فإنه كان بحاجة إلى إداري قدير من داخل النظام المصري يدرّبه على الإدارة ويزوّده بما يحتاج إليه من معلومات عن مصر وعساكرها ورجالاتها ومؤسساتها، وإمكاناتها الاقتصادية. ولقد وجد هذا الإداري في القاضي الفاضل أكثر الإداريين في مصر خبرة وتجربة وحنكة. ولم يضنّ القاضي الفاضل، كما يبدو،

(٧) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١٠. يذكر المقريزي أنّ نور الدين لمّا علم باستيلاء صلاح الدين على الوزارة، أقام ثلاثة أيّام لا يقدر أحد أن يراه من شدّة ما عَظُم عليه ذلك وأغضبه. المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١٠. وأمّا ابن الأثير فيُصرّ على أن صلاح الدين كان نائبا عن نور الدين، أو تابعا له: «وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الأسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب، بل يكتب: «الأمير الاسفهسلار صلاح الدين وكافّة الأمراء بالديار المصرية.» ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٦ ـ ١٧.

(٨) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٠٤؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٦٥. يرى ابن واصل أنّة «لمّا انتظمت الأمور لأسد الدين بالديار المصرية أقْطع البلاد للعساكر التي قدمت معه»، وصلاح الدين كان مباشرا للأمور، مقرّرا لها وفي يده زمام الأمر.

على صلاح الدين بما يحتاج إليه من معلومات قبل تولّيه الوزارة للخليفة الفاطمي كما فعل بعد تولّيه إيّاها، الأمر الذي يدل على ثقة متبادلة وعلاقة وطيدة بين الرجلين.

ويمكن القول، استنتاجا، إن القاضي رمى بثقله على رأس أصحاب الدواوين خلف صلاح الدين، أو بالأحرى لفّ أصحاب الدواوين حوله ومن ثم حول صلاح الدين. فقد كان يتوسّم فيه خيرا لمصر وحمايتها من الإفرنج، وهذا همّه الشاغل طوال حياته، ويُعِدّ لمستقبله هو. كما كان يُعِدّ له مع بعض أصحاب الدواوين إعادة تنظيم الإدارة المصرية، وبالتالي فليس من المستبعد أن يكون قد قام بدور خفيّ في المفاوضات الجارية لتوحيد القوى الشامية، أو في معظمها للوقوف وراء صلاح الدين. وكان القاضي الفاضل يعرف بعض هؤلاء القادة الشاميين من خلال مفاوضاته مع نور الدين في أثناء الحملة الفرنجية الثالثة على مصر، ومن خلال عمله مع أسد الدين خلال وزارته. ولربما مثّل القاضي الفاضل صلاح الدين، بل ناب عنه، في المفاوضات والمحادثات مع الشاميين، الأمر الذي جعلهم يتّفقون في النهاية على صلاح الدين.

وأمّا من ناحية نفوذ القاضي الفاضل في القصر الفاطمي فقد كان القاضي من أقرب المقرّبين إلى الخليفة بحكم عمله في ديوان الإنشاء، وبحكم طبيعة عمله مستشارا للخليفة. ومع أن الخليفة العاضد كان آنذاك معدوم النفوذ، وليس لاختياره الوزير وزن كبير، كما يظنّ البعض، فإنه كان لقراره أهمية كبرى في إضفاء الشرعية على وزارة صلاح الدين؛ هذه الشرعية التي لا تثبت إلا بسجلّ رسمي عن الخليفة نفسه، وعهد موثّق بإمضائه منه للوزير بالمنصب. ومن هنا فإنه ليس من المستبعد أن يكون العاضد قد استشار القاضي الفاضل في أمر الوزارة، أو أن يكون القاضي الفاضل قد أشار عليه بمساندة صلاح الدين وبالوقوف علنا إلى جانبه.

ولعلّ هذا يوضح موقف الخليفة المعاكس لموقف مؤتمن الخلافة وغيره من المصريين، وقد تمثّل في قوله: «والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين وما بلغت غرضا في حقّه لقرب عهد مقام عمّه.»[9]

كانت كلمة العاضد هي الفاصلة بأمر الوزارة.[10] ولقد كتب القاضي الفاضل سجل تولية صلاح الدين بالوزارة وكان هذا آخر سجل بولاية وزير للخلافة الفاطمية.

(٩) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٠٨.

(١٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٨؛ وهامش (٤)، ص ٣٠٨.

ثالثا: سجلّ تولية
صلاح الدين الوزارة ومحتواه

صادف يوم تولية صلاح الدين الوزارة يوم الاثنين في ٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/ آذار (مارس) ١١٦٩م، فاجتمع خلاله أعيان الدولة المصرية والأمراء والشاميون، باستثناء عين الدولة ياروق الياروقي وبعض معاضديه ممن احتجّوا على وزارة صلاح الدين وعادوا إلى الشام. وقد اجتمعوا في دار الوزارة، وجلس صلاح الدين في صدر المجلس، حيث انهالت عليه الخلع والهدايا الثمينة. ثم جيء بمنشور الوزارة ملفوفا في ثوب أطلس أبيض، مكتوبا بخط القاضي الفاضل ومن إنشائه. وفُتح المنشور وقرأه الجليس ابن عبد القوي. والمنشور، بحسب رأي المقريزي، كبير جدا وعلى رأسه بخط العاضد: «هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وصحبته عند الله سبحانه عليك، فأوفِ بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضا بيمينك، ولمن مضى بجدّنا رسول الله أحسن أسوة، ولمن بقي بقربنا أعظم سلوة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين).»[11] وكلمات العهد من إنشاء القاضي الفاضل أيضا.

لقد أبدع القاضي الفاضل في كتابة سجلّ تولية صلاح الدين الوزارة، فهذه التولية لم تكن نصرا لصلاح الدين فحسب، بل له هو أيضا. ومع أن القاضي الفاضل اتّبع في كتاب السجلّ نموذجا معيّنا لكتابة هذا النوع من السجلات، إلا إنه عبّر فيه عن بعض آماله وتطلّعاته، ووصف فيه بعض مشاهداته، وأشار إلى بعض خبراته بالسياسة المصرية حتى ذلك الحين. ويمكن بالتالي القول إن سجلّ تعيين صلاح الدين بالوزارة اختلف، إلى حدّ ما، عن غيره من السجلات في أنه عالج وضعا سياسيا اجتماعيا اقتصاديا حقيقيا بأسلوب بليغ.

افتتح القاضي الفاضل هذا السجلّ بمقدمة طويلة تشير إلى صلاح الدين وأحقّيته في الوزارة، فمن جملة أقواله: «أمّا بعد، فالحمد لله مصرّف الأقدار، ومشرّف الأقدار، ومحصي الأعمال والأعمار، ومبتلي الأخيار والأبرار، وعالم سرّ الليل وجهر النهار، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكا تتعاقب فيه أحوال الأقمار، بين انقضاء سرارٍ واستقبال أبدار، وروضا إذا هوت فيه الدوحات أينعت الفروع سابقة النور، باسقة الثمار، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها،

---

(١١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٩؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٩.

والقائم بنصرة دولته فلا تزال حتى يرث الله الأرض ومن عليها قائمة على أصولها.»[١٢]

وبعد هذه المقدمة التي يلمّح الكاتب فيها إلى وفاة أسد الدين وحلول صلاح الدين مكانه تمديدا لحكم عمّه، ينتقل ليؤكد أن اختيار صلاح الدين كان قرارا من الخليفة العاضد، إثباتا لأحقّية صلاح الدين فيها، ويصفه بأنه إلهام من الله تعالى للخليفة على هذا الاختيار لمعاضدة الإسلام. ويشير أيضا إلى أحقّية وراثة صلاح الدين الوزارة عن عمه. وفي هذا ردّ على من عارضوا وراثته للوزارة. «وجعل مملكته عرينا لاعتزازها بالأسد وشبله، ونعمته ميراثا أولى بها ذوي الأرحام من بني الولاء وأهله، وأظهر في هذه القضية ما أظهره في كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله، فأولياؤه كالآيات التي تتّسق دراري أفقها المنير وتنسق درر عقدها النظيم النضير: ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير.»[١٣]

ولعل هذه الكلمات كانت ضرورية لإضفاء شرعية طويلة المدى على وراثة ابن الأخ (صلاح الدين) لمنصب عمّه لا أبيه، مع أن العمّ ـ أي أسد الدين ـ كان له ابن هو ناصر الدين شيركوه، يرنو إلى وراثة المنصب. وقد ندّد ناصر الدين بصلاح الدين فيما بعد، وقال إنه أولى منه بخلفة أبيه (أسد الدين) في هذا المنصب وفي وراثة سلطة آل أيوب.[١٤] ويشير القاضي الفاضل في السجلّ أيضا إلى أن الخليفة العاضد تردّد قبل أن يلهمه الله اختيار صلاح الدين للوزارة التي كثر المتنافسون في شأنها بقوله: «ولما رأى الله تقلّب وجه أمير المؤمنين في سمائه ولّاه من اختيارك قبلة، وقامت حجّته عند الله باستكفائك وزيرا له ووزرا للملة.»[١٥] وقد يرمز بهذه العبارات إلى إعادة السنّة في مصر. ومع أننا لسنا في سياق البحث المفصّل في السجلّ، فإن هناك بعض النقاط التي تستوجب الوقوف لأن القاضي الفاضل لخّص فيها بعض مسؤوليات صلاح الدين الإدارية والخُلقية التي التزمها هو نفسه فيما بعد عندما أصبح وزيرا لصلاح الدين؛ ولفت نظره فيها إلى ضرورة القيام بإصلاحات مستعجلة تأمينا للبلاد من الداخل والخارج. وقد قام القاضي الفاضل بدور في القضاء على الخلافة الفاطمية. ومن جملة القضايا التي لفت

(١٢) عهد تعيين الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب بالوزارة عن العاضد، كتبه القاضي الفاضل: الشيّال، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٥ ـ ٤١٥. وتوقيع الخليفة العاضد على التعيين. الشيّال، المصدر نفسه، ص ٤١٩. العهد والتوقيع في القلقشندي: مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٨٠ - ٩٠؛ وج ٩، ص ٤٠٧.

(١٣) عهد تعيين صلاح الدين: الشيّال، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٦.

(١٤) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٣٥؛ ابن خلكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(١٥) عهد تعيين صلاح الدين: الشيّال، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٠.

نظر صلاح الدين إليها في السجلّ: قضية وضع مصر الاقتصادي المضعضع بسبب الأحداث والنكبات التي ألمّت بها منذ عهد شاور وقبله، وكادت تؤدّي إلى إفلاس الدولة؛ وضرورة تأمين حياة السكان بتعويضهم بعض ما فقدوه بسبب حريق مصر وفقدان أملاكهم وأموالهم، وتخفيف الضرائب عنهم؛ واستثمار مصادر مصر الطبيعية. فمن جملة ما خاطبه به: «والأموال: فهي زبدة حلب اللطف لا العنف، وجمّة يمتريها الرفق لا العسف، وما برحتَ أجدّ ذخائر الدولة للصفوف، وأحدّ أسلحتها التي تمضي وقد تنبو السيوف، فقدِّمْ للبلاد الاستعمار، تُقدِّمْ لك الاستثمار.»[١٦]

ولعل أبلغ ما خاطب القاضي الفاضل به صلاح الدين في سجله، نصيحته في الجهاد بقوله: والجهاد: فأنت راضع دَرِّه، وناشئة حجره. وظهور الخيل مواطنك، وظلال الجبل مساكنك، وفي ظلمات مشاكله تُجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تُتلى ميامنك، فشمِّر له عن ساق من القنا، وخُضْ فيه بحراً من الظُبا؛ واحلُل فيه عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبى؛ وأسِلِ الوهاد بدماء العدا، وارفع بروؤسهم الرُّبا، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخورا لأيامك، ومشهودا به يوم مقامك بين يديه من لسان إمامك.»[١٧]

لقد عدّ المستشرق جب هذه الكلمات بخصوص الجهاد، بأنها كلمات تنبّؤية. ولكن لا شكّ في أنها كانت توجيهية أكثر منها تنبؤية، فهي تمثل رؤية القاضي الفاضل للجهاد التي حقّقها في أثناء عمله مع صلاح الدين.

رابعا: القاضي الفاضل
في ظل صلاح الدين:
رئيس ديوان الإنشاء
(٥٦٤ ـ ٥٦٧هـ / ١١٦٨ ـ ١١٧١م)

«عندما كان صلاح الدين وزيرا للدولة الفاطمية في مصر كان يُعتبر بمنزلة السلطان ويُلقّبُ بلقبه، بينما كان القاضي الفاضل رئيسا لديوان الإنشاء ويُعتبر بمثابة وزيره.»[١٨]

ظلّ القاضي الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء رئيسا له مع أنه حافظ على لقب نائب

(١٦) المصدر نفسه، ص ٤١٤.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

(١٨) Hamilton Gibb, «The Rise of Saladin, 1169-1189,» *A History of the Crusades*, ed. Kenneth M. Setton (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1955), Vol. I, p. 564.

رئيس ديوان الإنشاء احتراما لأستاذه وراعيه ورئيسه الشيخ الموفق أبي الحجّاج يوسف بن الخلال. ولم يُشعِر ابن الخلال يوما بأنه حلّ محلّه، مع أن ابن الخلال ربما رغب في ذلك لتقديره للقاضي الفاضل وتعلّقه به، وتطلّعه إلى الاستمرارية في الأسلوب والآراء. ولم يخب ظنه في تلميذه الذي عامله في أواخر سني حياته معاملة الابن البارّ للوالد، فكان «يوصل إليه كل ما كان له، وقام به مدة حياته، يُكْرِم عهده ويكفله.»[19] وقد وصف عماد الدين بن الخلال في أعوامه الأخيرة بقوله: «عاش كثيرا وعطل في آخر عمره وأضرر ولزم بيته، إلى أن تعوّض منه القبر.»[20]

توفي ابن الخلال في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ٥٦٦/آذار (مارس) ١١٧١، فعينٌ القاضي الفاضل رسميا رئيس ديوان الإنشاء.[21] وحالما تولّى رئاسة الديوان بدأ يعمل على إعادة تنظيمه، وبمساعدة صلاح الدين بدأ يعمل على إعادة تنظيم غيره من الدواوين، والنظر في أمر الكتّاب، ومدى ولائهم لصلاح الدين.

كانت رئاسة ديوان الإنشاء أقصى ما تمنّاه القاضي الفاضل من مناصب. فبعد صراع دام واحدا وعشرين عاما في مصر تعرّض خلالها لشتّى أنواع المعاناة، توصّل إلى المنصب الذي كان بعض الكتّاب المصريين يحاول الحيلولة دونه. ولقد أصبح الآن يلقب بالسيد الأجلّ وبالشيخ الأجلّ، كاتب الدَّست الشريف، وصاحب ديوان الإنشاء.[22] وغلب عليه لقب القاضي الفاضل، الذي أصبح يعرف به أكثر من اسمه الأصلي عبد الرحيم البيساني العسقلاني، الذي يشير إلى موطنه ومسقط رأسه، ولا سيّما في الكتابات عنه، وهو وإنْ تقبّل اللقب شكليا ورسميا، فقد تبنّى الصراع المستمَدّ من موطنه ومسقط رأسه.

تولى القاضي الفاضل ديوان الإنشاء في مصر، وعلى الرغم من وجود كتّاب أكبر منه سنّا قابلهم عند أول دخوله الديوان تلميذا، وتدرّب على يد بعضهم، مثل القاضي الأثير بن بيان، وعاصرهم، ثم عمل معهم وهو يقفز في ترقّعه وهم ثابتون في أماكنهم، وهو ما أثار حفيظة بعضهم. وواضح أن شخصية القاضي الفاضل الجيّاشة، وقدرته على التكيّف، وذكاءه الحادّ، وحدسه الشديد في معرفة مواطن القوة والضعف في القادة، من العوامل التي أدّت إلى ارتقائه السريع. ولكنّ أسلوبه الفني فسح أمامه مجالات وآفاقا، وهذا يدلّ على أهمية الأدب في السياسة، وعلى تقدير رجالات الدولة في ذلك العصر للأدب والأدباء، ورعايتهم لذوي المواهب منهم.

---

(١٩) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٧.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٤٨٧.

(٢١) بدوي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١؛ القلقشندي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٩٢.

(٢٢) ألقاب صاحب ديوان الإنشاء في: المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٠٢.

وحالما تولّى القاضي الفاضل رئاسة ديوان الإنشاء، راح يعمل مع صلاح الدين على الإعداد المتدرّج للقضاء على الخلافة الفاطمية. وكانت أولى الخطوات في هذا الاتجاه إعداد جيش أيّوبي ينفّذ به مخطّط الانقلاب.

خامسا: القاضي الفاضل والإعداد للقضاء على الخلافة الفاطمية في مصر

(أ) القاضي الفاضل وجيش صلاح الدين

أخذ صلاح الدين يعمل حال تولّيه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد يدافع به عن حكمهم، وعن مصر من الغزو الإفرنجي. ولم يَخْفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة ٥٥٩ وسنة ٥٦٤هـ/١١٦٣ ـ ١١٦٤ و١١٦٨ ـ ١١٦٩م، وعرفه معرفة جيدة، من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية، ومن حيث تنظيمه وفِرَقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان والأرمن والمصريين، والديلم والأتراك والعربان. وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فِرقة من هذه الفِرَق.[٢٣]

كان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزّيك بن الصالح، وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر، كما أشرنا سابقا. وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة، الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها. وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل، فألمّ بهذه القوات، وعرف دخائلها واطّلع على كل فِرقة منها، وعلى نيات كل قائد من قوّادها. ولم يضنّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجّهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظلّ طوال مدة عمله مع صلاح

(٢٣) جمال الدين الشيّال، «تاريخ مصر الإسلامية» (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧)، ج ١، ص ٢٤٨. وسنشير إلى هذا الكتاب بـ «تاريخ مصر» تمييزا له من مجموعة الوثائق الفاطمية التي أشرنا إليها في هذه الدراسة. تُراجَع أيضا رسالة القاضي الفاضل إلى الخليفة المستضيء، في: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١٨ ـ ٦١٩.

الدين يشرف على عساكره، يراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية، ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين، ومن الشام إلى مصر لتستعدّ وتتجهّز لحملات مقبلة ضد الفرنج.

(ب) الجيش الأيوبي
في عهد صلاح الدين

أنشأ صلاح الدين، في بداية عهده في خدمة الفاطميين جيشا كبيرا، ازداد عددا وعدّة بمرور الوقت واتّساع عملياته الحربية ضد الفرنج.

وكان قوام هذا الجيش في مصر: الحرس الخاص؛ والجيش النظامي في مصر؛ ثم الجيوش الشعبية التي تكوّنت من أمراء الإقطاع وجنودهم؛ ولا سيما في الشام والجزيرة بعد سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م؛ والبدو.

فأمّا الحرس الخاص فتكوّن من المماليك الأسدية وعددهم خمسمائة مملوك. وكان هؤلاء أصلا حرس أسد الدين شيركوه الخاصّ في الشام، ونواة الجيش الذي واجه به القوات الفرنجية والمصرية، على أرض مصر؛ وقد انضموا إلى صلاح الدين منذ وفاة عمّه، وظلّوا مخلصين له حتى وفاته، وكان من أكبر هؤلاء بهاء الدين قراقوش. ولقد أضاف صلاح الدين إلى الأسدية مجموعة من حرسه الخاص عُرفت بالصلاحية. وكانت هذه القوات خاصّة به، وولاؤها الأوحد له، وارتباطها الأوحد به، وظيفتها الأساسية حمايته وعهده، وسلامته. وقد أنقذ بعض هؤلاء حياته مرتين: عندما هاجمه الحشيشية في شمالي الشام، أكثر من مرّة، وفي معركة الرملة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٦م، عندما أحاطوا به كالدرع، مضحّين بأنفسهم في سبيل سلامته، إلى أن أوصلوه سالما إلى حيث أدلّاء القاضي الفاضل الذين أوصلوه بدورهم إليه في العريش.[٢٤] وكانت قوّات الحرس الخاص هذه وسيلة لضبط الأمراء والأجناد، وتأديب من يخرج منهم، وإقامة توازن بينهم لمصلحته.

وأمّا الجيش النظامي فقد تكوّن من جيوش الفاطميين، غير الإسماعيليين في بداية الأمر، ثم زيد عليه بمرور الوقت عدد من المصريين. وقد اشترك مع المصريين في هذا الجيش فرقة من الغُزّ عددها نحو ثلاثة آلاف من الخيّالة.[٢٥]

---

(٢٤) Ehrenkreutz, *op.cit.*, p. 74; Gibb, «The Armies of Saladin,» *Saladin: Studies in History*, ed. Yusuf Ibish (Beirut: The Arab Institute for Research and Publishing, 1974), p. 139. (pp. 138-157).

(٢٥) Ehrenkreutz, *op.cit.*, p. 74.

وبالإضافة إلى هاتين المجموعتين فقد ضمّت جيوش صلاح الدين فرقا من البدو الذين كانوا يتمركزون عادة في الثغور البحرية، كالكنانية والعساقلة في بلبيس ودمياط، وعلى الحدود الصحراوية بين مصر والمملكة اللاتينية، ولا سيما في الأردن.[٢٦] وكانوا يعملون أدلّاء، والدلالة أمر خبره البدو منذ قديم الأزمان، وعيونا على العدو. كما كان بعضهم يعمل عيونا لكل من صلاح الدين والفرنج في آن واحد، الأمر الذي اضطر صلاح الدين إلى أن يغيّر مساكنهم سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م. ومن الممكن أن يكون بين فرق البدو أعداد ممن بقوا على النصرانية التي كانوا عليها منذ أيام البيزنطيين.

كانت تعددية الجيش صفة ملازمة لأي حكم إقطاعي لم تكتمل فيه وحدة قومية في إطار الوحدة القومية.

وقد نمت قوّات صلاح الدين بالتدريج إلى أن وصلت إلى أربعة عشر ألفا،[٢٧] وأُعدّت إعدادا جيدا للمحافظة على مصر، ومواجهة أعدائها، ومن ثم للجهاد.

وقد شاهد القاضي الفاضل أول عرض عسكري لصلاح الدين في القاهرة في الثامن من محرّم سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، أي قبل وفاة الخليفة العاضد بيومين، ووصفه بقوله: «خرجت الأوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها وجديدها، بعد أن أُنذر حاضرها وغائبها، وتوافى وصولها، وتكامل سلاحها وخيولها. فحضر في ذلك اليوم جموع شهد كل من علا سنّه، وقرطس ظنه، أن ملكا من ملوك الإسلام لم يحز مثلها. وشاهدت رسل الروم والفرنج ما أرغم أنوف الكفرة. ولم يتكامل اجتياز العساكر موكبا بعد موكب وطلبا بعد طلب، والطلب بلغة الغُز هو الأمير المقدَّم الذي له علم معقود، وبوق مضروب، وعدّة من مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسا؛ إلى أن انقضى النهار ودخل الليل وعاد ولم يكمل عرضهم. . وكانت العدّة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلبا، والغائب منها عشرون طلبا وتقدير العدّة يناهز أربعة عشر ألف فارس أكثرهم طواشية. والطواشي مَنْ رِزْقُه من سبعمائة إلى ألف إلى مائة وعشرين وما بين ذلك. وله برك من عشرة رؤوس إلى ما دونها، ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل، وله غلام يحمل سلاحه وقراغلامية. وفي هذا العرض عرضُ العربان الجذاميين فكانت عدّتهم

---

(٢٦) للمزيد من المعلومات: *Ibid.*, p. 74.
يُراجَع المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٨٧.

(٢٧) نظير حسّان السعداوي، «جيش مصر في أيّام صلاح الدين» (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦)، ص ٩؛ متجدّدات القاضي الفاضل في: المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٨٦.

سبعة آلاف فارس، واستقرّت عدتهم على ألف وثلثمائة فارس لا غير. وأخذ بهذا الحكم عشر الواجب، وكان أصله ألف دينار على حكم الاعتداد الذي يتأصّل ولا يتحصّل، وكلّف الثعالبة ذلك، فامتعضوا ولوّحوا بالتحيّز للفرنج.»[٢٨] وتدل ملاحظات القاضي الفاضل على أنّ بعض الوحدات من الجيش الفاطمي انضم إلى جيش صلاح الدين.

كما أشار القاضي الفاضل في متجدّدات شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية، أي بعد هذا العرض بعشرة أعوام، إلى زيادة جيش صلاح الدين عددا وعُدّة، وكان آنذاك مع صلاح الدين في مصر يُعدّ الجيش لحروبه. قال: «استمر انتصاب السلطان صلاح الدين في هذه السنة للنظر في أمور الإقطاعات، ومعرفة عبرها والنقص منها والزيادة فيها، وإثبات المحروم، وزيادة المشكور، إلى أن استقرت العدّة على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين فارسا. أمراء: مائة وأحد عشر أميرا، طواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعون؛ قراغلامية ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسون. والمستقِرّ لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف وسبعون ألفا وخمسمائة دينار، وذاك خارج عن المحلولين من الأجناد الموسومين بالحوالة على العشر وعن عُدّة العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة، وعن الكنانيين والمصريين والفقهاء والقضاة والصوفية، وعمّا يجري بالديوان ما لا يقصر عن ألف ألف (مليون) دينار.»[٢٩]

وعدا الجيش فإنّ صلاح الدين جدّد الأسطول المصري، وأعاده إلى سابق قوّته، بحيث استعاد به في بداية أمره جزيرة على فوهة البحر الأحمر. كما لاحق به قوات رينولد، حاكم الكرك، عندما حاول مهاجمة الساحل الحجازي، واستعمله في فلسطين، ولا سيّما خلال الحملة الصليبية الثالثة.[٣٠]

ومع أن القاضي الفاضل كان رئيسا لديوان الإنشاء ووزيرا لدولة صلاح الدين، إلا إنه كان يلمّ بكل صغيرة وكبيرة في الجيش، بحكم علاقة ديوان الإنشاء بديوان الجيش. وكان يساهم في إعداد الخُطط الحربية، ويُشرف على تمويل الجيش والأسطول وتزويدهما، وتجهيزهما للجهاد. وقد واظب على هذه المسؤوليات طوال مدّة عمله مع صلاح الدين.

---

(٢٨) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢٩) المصدر نفسه.

(٣٠) Ehrenkreutz, «The Place of Saladin in the Naval History of the Mediterranean Sea in the Middle Ages,» *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 75 (1955), p. 105. (pp. 100-116).

(ج) القاضي الفاضل
والقضاء على المعارضة الفاطمية

«ونحن نقاتل العدويْن الباطن والظاهر، ونصابر الضررين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيّدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج.»(٣١)

استمدّ القاضي الفاضل أسس تحرّكاته السياسية في بداية وزارة صلاح الدين، من خبرته في القصور الفاطمية، وضمن الجيوش، ومع الوزراء والمديرين. وأدرك أن هذه المؤسسات وما تضمّه من شخصيّات وَكْرٌ للمؤامرات التي لا تنتهي، ومَعينٌ للدسائس التي لا تنضب، وقد تعامل معها جميعا وشاهدها من قبل. وأيقن أيضا أنها لن تتوانى عن الاستنجاد بالفرنج على الرغم من كل ما مرّ بها وبالشعب المصري من مصائب ومِحَن، في سبيل الحفاظ على نفوذها، ولا سيّما إذا رأت في سلطة صلاح الدين، أو في سلطة الأيوبيين عامّة، خطرا عليها. ومن ثَمَّ فإنه أخذ، حالما خوّله صلاح الدين ما خوّله من مسؤوليات مطلقة في الإدارة، يبثّ عيونه ضمن هذه المؤسسات والمجموعات والأفراد الذين عرفهم وخاف شرّهم.

وأمّا المؤسسات والمجموعات هذه فقد أخذت تخطّط بدورها للقضاء على حكم صلاح الدين. وقد تزعّم مؤتمن الخلافة تلك المجموعات وبدأ تحرّكاته مُذ تولّى صلاح الدين الوزارة، جاهدا لإطاحته والقضاء على قوّاته، متّبعا الطريقة نفسها التي اتّبعها غيره ممّن سبقوه من وزراء وأفراد طامحين إلى الحكم في مصر، فاتّصل بالفرنج، آملا أن يساعدوه في تحقيق أطماعه وأطماع غيره من القادة المصريين والفاطميين. ولكنّه لم يعلم أن الأوضاع قد تغيّرت، وأن النظام قد بدأ يتغلّب على الفوضى، وأن العيون مبثوثة في كل ناحية ومنطقة وزاوية: في القصور وبين العساكر وعلى الحدود، وعلى كل محطّة من محطّات البريد، أو محطّات الاتّصال بين مصر والفرنج. وقد كانت هذه العيون على اتّصال مباشر بالقاضي الفاضل تزوّده بتقاريرها بواسطة الرسل وعلى أجنحة حمام الزاجل. وكان الطريق مسدودا في وجه مؤتمن الخلافة والمتآمرين معه، ولكنّهم جازفوا مع هذا واتّصلوا بالملك أموري في عسقلان، واستنجدوا به على صلاح الدين واعدين إيّاه بشتى الوعود المالية والإقطاعيّة.(٣٢)

ولقد وصف عماد الدين الأصفهاني هذه المؤامرة والاتصالات بقوله:

«وكان بالقصر خَصِيٌّ يُدعى مؤتمن الخلافة، متحكّم في القصر، فأجمع هو ومن

---

(٣١) من رسالة القاضي الفاضل إلى الخليفة المستضيء: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١٩.
(٣٢) من رسالة للقاضي الفاضل في: أبو شامة، المصدر نفسه، ص ٥٦٣ ـ ٥٦٥؛ المصدر نفسه، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢.

معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية والصلاحية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه، فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة، ويَتْبَع مَنْ وراءهم فتكون عليهم الدائرة، وكاتبوا الفرنج. واتّفق أن رجلا من التركمان عَبرَ البئر البيضاء (قرب بلبيس) فرأى مع إنسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي. فأنكرهما فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين، ففتقهما، فوجد مكاتبة للفرنج من أهل القصر، يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال دلّوني على كاتب هذا الخط؛ فدلّوه على يهودي من الرهط (من جماعة مؤتمن الخلافة). فلمّا أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطّه ويقابلوه، نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في ذمة إسلامه؛ ثم اعترف بما جناه، وشيّده من الأمر وبناه، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة، وأنه بريء من هذه الآفة. فحسُن لدى السلطان إسلامه، وثبت اعتصامُه، وعُرف استسلامُه، وَرُئي إخفاءُ هذا السرّ واكتتامُه.»[٣٣]

وأما مؤتمن الخلافة فعندما علم باكتشاف المؤامرة راح يتجنب صلاح الدين مدّة من الزمن غادر بعدها القاهرة إلى ملك له في قرية الخرقانية (قرب قليوب)، فأرسل إليه صلاح الدين من اغتاله (يوم الأربعاء ٢٥ ذو القعدة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م).[٣٤] ولقد كان اغتياله إنذارا للمؤسسة الفاطمية، وبداية لإطاحتها.

وقبل أن نتابع الأحداث الناجمة عن هذا الحدث المهم لا بدّ من أن نعلّق ببعض الكلمات على هذه المؤامرة، ودور القاضي الفاضل في اكتشافها.

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء، وبالذات القاضي الفاضل، الذي ظلّ يراقب كتّاب ديوان الإنشاء، والمسرّحين منهم بصورة خاصة. وما الكاتب اليهودي الذي يُشير عماد الدين إليه إلّا أحدهم: ولا يُستبعد أن يكون حامل النعلين مدسوسا بينهم، لمعرفة نياتهم وفضح أمرهم.

وعلى الرغم من اكتشاف المؤامرة فإن الفرنج الذين لم يكونوا قد تنازلوا عن مطامعهم بمصر، راحوا يُعدّون العدّة للزحف عليها. فلم يكد يمضي شهران على مقتل مؤتمن الخلافة حتى نزل الفرنج على دمياط (صفر ٥٦٥هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٦٩م)، وكانوا قبل نزولهم عليها، قد التمسوا المساعدة من الفرنج في الأندلس وصقلّية، واتّفقوا معهم على مهاجمة مصر. وفعلا، وصل الفرنج إلى دمياط وحاصروها، فأرسل صلاح الدين إليها النجدة العسكرية عبر النيل، وأعلم نور الدين بالخطر المُحْدق به طالبا النجدة ومُبديا مخاوفه من الفاطميين: «فإن سار إليها خلفه المصريون في مخلّفيه

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١.

(٣٤) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١٢.

وتخلّفي عسكره بالسوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه، والفرنج أمامه.»[٣٥] فأرسل نور الدين له النجدات وأغار على بعض مناطق الفرنج في الشام، فلمّا رأى الفرنج ما حدث لهم عادوا من حيث أتوا، وبحسب رأي أبي شامة فقد حقّ عليهم المثل القائل: «ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أُذنين.»[٣٦]

والظاهر أن الهجوم الفرنجي على دمياط المتّفق عليه مع مؤتمن الخلافة وأشياعه تَمّ قبل أن يعرف الفرنج بمصير حلفائهم، أو أنهم علموا بذلك وقرّروا الهجوم في أية حال، أملا بإثارة باقي حلفاء مؤتمن الخلافة لإتمام الخطّة.

وقد علّق القاضي الفاضل بنفسه على هذه المؤامرة في كتاب سطره عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، يذكر فيه أن هؤلاء المصريين «استنجدوا علينا بالفرنج دفعة إلى بلبيس، ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة وصلوا بالعدد المجهر، والحشد الأوفر، وخصوصا في نوبة دمياط، فإنهم نزلوها بحرا في ألف مركب، مقاتل وحامل، وبرّا في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، يماسونها ويصابحونها القتال الذي يصلبه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من كل مكان قريب... ونحن نقاتل العدويْن الباطن والظاهر، ونصابر الضررَيْن المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيّدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج.»[٣٧]

وآذن مقتل مؤتمن الخلافة بصراع عنيف بين القوّات الفاطمية وصلاح الدين قام السودان في إثره بثورة كادت تقضي على صلاح الدين وحكمه. فقد تجمّع السودان في السادس عشر من ذي القعدة ٥٦٤هـ/ أيار (مايو) ١١٦٩م، وبينهم «عدد كبير من الأمراء المصريين وعوامّ البلد قدّره البعض بأنه يزيد على الخمسين ألفا.»[٣٨] وساروا إلى دار الوزارة، مركز حكم صلاح الدين. وانضمّ الأرمن إليهم في الساحة الواقعة بين القصرين، فهبّ صلاح الدين وعسكره وكانوا أقلّية قياسا بهم، فوقعت بينهم أكثر من معركة تغلّب فيها السودان وحلفاؤهم في البداية على قوات صلاح الدين مستمدّين قوتهم من مؤازرة القصر لهم. ويذكر المقريزي أن العاضد كان في المنظرة يشرف على الوقعة بنفسه فلمّا رأى غلبة السودان في بداية الأمر شجّعهم، كما شجّعهم بعض مَنْ في

(٣٥) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٧. للتفصيلات انظر: المصدر نفسه، ص ٤٥٦ ـ ٤٦٠.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٤٥٧.

(٣٧) من رسالة القاضي الفاضل للخليفة المستضيء: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١٩. (الرسالة، ص ٦١٦ ـ ٦٢٠).

(٣٨) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١٢. للتفصيلات انظر: المصدر نفسه، ص ٣١١ ـ ٣١٤.

القصر، إذ رموا قوّات صلاح الدين بالنشاب والحجارة ليلهوهم عن محاربة السودان. ولكنّ أخا صلاح الدين شمس الدولة تورانشاه فطن إلى تواطؤ القصر مع السودان، فأمر النفّاطين بإحراق المنظرة الجالس فيها العاضد «فطيّب قارورة وصوب بها إلى المنظرة، ففتح حينئذ باب الطاق وظهر منه أحد الأستاذين الخواصّ وقال: أمير المؤمنين يسلّم على شمس الدولة ويقول: دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم.» وعندما سمع السودان ما قاله الأستاذ، وكانوا قد فقدوا أحد مقدَّميهم، وعلموا في الوقت ذاته أن صلاح الدين أرسل إلى حارتهم المعروفة بالمنصورة، خارج باب زويلة، من أحرقها، تراجعوا وأخذوا يهربون من الموقعة. ولكنّ قوات صلاح الدين تبعتهم تحرق كل مكان ينزلون فيه حتى وصلوا إلى الجيزة.

ولم يتوقّف نصر صلاح الدين بالقضاء على شوكة السودان بل أتبعه بفلّ شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعددا، فأحرق دارا للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة. وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشّاب فلقوا جزاءهم، وأما مَن تبقّى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد.[٣٩]

أضعف صلاح الدين بقضائه على شوكة السودان والأرمن الخلافة الفاطمية إلى حدّ بعيد، بحيث أصبح من الواضح ان القضاء على الخلافة الفاطمية نفسها لم يعد بعيدا. ويقول المقريزي في تعليقه على نتيجة هذه الأحداث: «وقوي صلاح الدين، وتلاشى العاضد وانحلّ أمره، ولم يبقَ له سوى إقامة ذكره في الخطبة. ووالى صلاح الدين الطلب من العاضد في كل يوم ليضعفه، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك، حتى أن العاضد كان في بعض الأيام بالبستان الكافوري، وإذا بقاصد صلاح الدين قد وافاه يطلب منه فرسا وهو راكب. فقال ما عندي إلّا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشقّ خُفّيه ورمى بهما وسلّم إلى القاصد الفرس وعاد إلى قصره ماشيا، فلزم مجلسه ولم يَعُد بعدها يركب حتى مات.»[٤٠]

ويضيف المقريزي قائلا: «إن صلاح الدين أخذ في القبض على دور السودان والأرمن والأمراء وأسكن فيها أصحابه معه بالقاهرة.»[٤١]

---

(٣٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١٣؛ من رسالة القاضي الفاضل للخليفة المستضيء: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١٨ ـ ٦١٩.

(٤٠) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١٤.

(٤١) المصدر نفسه.

ولقد تمّ إضعاف شوكة الفاطميين، بل كسرها، خلال الأشهر الخمسة الأولى من وزارة صلاح الدين، ثم تلاها عامان تمّ خلالهما تغيير النظام الإداري المصري وتحويله إلى نظام أيّوبي جديد سنّي. ولقد ساهم القاضي الفاضل في هذا التغيير الذي مهّد الطريق لحكم صلاح الدين المطلق في مصر، وتوليته هو (القاضي الفاضل) وزارة صلاح الدين، والقضاء على الخلافة الفاطمية.

(د) إعادة التنظيم الإداري في مصر:

الإدارة الأيوبية

شرع القاضي الفاضل في تنفيذ مخطّط قلب نظام الحكم الفاطمي بالتخلّص من أصحاب الدواوين والكتّاب الموالين للفاطميين. وكان بحكم عمله في الدواوين على علم برجالات الدولة وأصحاب دواوينها وكتّابها، وبولاءاتهم السياسية وميولهم المذهبية، ولقد صاحب بعضا منهم وعادى أو نافس بعضا آخر. وقد واتته الفرصة للتخلص ممّن يستطيع التخلّص منه ففعل. وتخلّص من عدد كبير من الكتّاب الإسماعيليين والمسيحيين واليهود وغيرهم خوفا من أن يتآمروا مع الفلول الفاطمية، أو أن يتّصلوا بالفرنج باسم الدواوين التي يعملون فيها. ولقد أشار إلى خطر هؤلاء الكتّاب في أكثر من رسالة رسمية إلى الخليفة العباسي وإلى نور الدين. ففي إحدى رسائله عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء (٥٧٠هـ/ ١١٧٤ ـ ١١٧٥م) يصف أحوال مصر في ظل الفاطميين بقوله، «ولهم (للفاطميين) حواشٍ لقصورهم من بين داعٍ تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتّاب تفعَل أقلامهم أفعال الأسل.»[٤٢] ولقد ثبت صدق ظنّه فيما بعد عندما راح هؤلاء يدبّرون مؤامرة لإحباط حكم صلاح الدين. وكما أنه سرّح الكتّاب والإداريين الذين شكّ في ولائهم، فإنه أبقى الإداريين الذين ضمن ولاءهم، والذين كان بحاجة إلى إدارتهم ومعلوماتهم ومساعدتهم في تطبيق مخطّط الانقلاب. وكان في مقدم هؤلاء الخطير بن مماتي، رئيس ديوان الجيش وأحد أصدقاء القاضي الفاضل. فقد خدم ابن مماتي في ديوان الجيش في عهد شاور، وأسلم على المذهب السنّي على يد أسد الدين شيركوه، وظلّ قريبا من القاضي الفاضل محبّبا إليه حتى وفاته سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م،[٤٣] وعيّن بعده ابنه الأسعد بن مماتي في الديوان. ولقد أخلص الأسعد كوالده للقاضي الفاضل الذي كان

(٤٢) من رسالة القاضي الفاضل للخليفة المستضيء: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١٨ ـ ٦١٩.

(٤٣) محمد حسنين ربيع، «النُّظُم المالية في مصر: زمن الأيّوبيين» (القاهرة: جامعة القاهرة، ١٩٦٤)، ص ٨٠ ـ ٩٣.

يعتمد على إدارته وولائه في أثناء غيابه عن مصر. ورعى القاضي الفاضل أيضا الأثير بن بيان، صاحب ديوان النظر، وأبقاه في منصبه وهو سنّي أيضا. وابن بيان هذا أكبر من القاضي الفاضل سنّا، وكان يعمل في ديوان الإنشاء عندما دخله القاضي الفاضل طلبا للعلم فيه، ودافع عنه عندما عاد من الإسكندرية إلى القاهرة. وظلّ القاضي الفاضل يعمل مع ابن بيان ويعتمد عليه حين تقدّم ابن بيان في السنّ وعجز عن العمل، فقرّر له القاضي الفاضل معاشا يستعين به.[٤٤]

وأبقى أبا الحسن المخزومي، وهو سنّي، ناظرا لديوان المجلس، بينما أمسك هو برئاسة ديوان الإنشاء، بالإضافة إلى الإدارة العامة كوزير. وكان رؤساء كبار الدواوين أصلا من السنّة، وعملوا جميعا بإشراف القاضي الفاضل الذي شرع في توجيه هذه الدواوين بمساعدتهم إلى خدمة أهداف صلاح الدين ودولته. ولقد وصف الدكتور محمد كامل حسين، من المؤرخين المعاصرين، هؤلاء المديرين والقاضي الفاضل بأنهم «هم الذين يأكلون على كل الموائد ولا يعملون إلا لأنفسهم ويحاولون الإفادة من كل تغيير، فهم أتباع كل جديد لا لشيء سوى الإفادة من النظم الجديدة.»

ومع ما قد يكون في قول الدكتور حسين من الصحة فإننا نعتقد أن هؤلاء رأوا بعيونهم مصر تتدهور وتكاد تقع في أحضان الفرنج بسبب الأوضاع السياسية والعسكرية الشائعة فيها، ومن ثَمّ فضّلوا إدارة قويّة تمثّلت لهم في شخص صلاح الدين، بالإضافة إلى رغبتهم في تحويل مصر إلى السنّة.

(هـ) القاضي الفاضل
والإحياء السُنّي في مصر

أشرنا سابقا إلى أن الإسكندرية كانت مركزا للإحياء السني في مصر، وقد تمّ ذلك على يد علماء قصدوها من المغرب مثل أبي بكر الطرطوشي، ومن الشرق مثل السلفي، وأسسوا فيها مدارس كان لها أثر كبير في الإحياء السنّي وفي حركة الجهاد ضد الفرنج. وهذا يفسّر مساندة أهالي الإسكندرية لأسد الدين. وأمّا القاهرة فلم تحظَ كالإسكندرية بمدارس وفقهاء للسنّة. ولكن الوضع تغيّر مع ظهور صلاح الدين على المسرح السياسي. فمع أن نور الدين وأسد الدين كانا قد استغلا بعض العناصر السنّية قبل وزارة صلاح الدين للحصول على مؤازرة شعبية لحركتهما داخل مصر، فإن هذه العناصر

(٤٤) بشأن ابن بيان: عماد الدين الأصفهاني، «البرق الشامي»، تحقيق مصطفى الحياري (عمّان: مؤسّسة عبد الحميد شومان، ١٩٨٦)، ج ٣، ص ٩٦ ـ ٩٧. رسالة القاضي الفاضل بشأن ابن بيان: المصدر نفسه، ص ٩٦.

وحدها لم تكن كافية. وكان هناك حاجة إلى ثورة ثقافية في مصر يتمّ من خلالها تحويل الشعب المصري إلى المذهب السنّي بالتدريج. وهكذا بدأ صلاح الدين إصلاحاته في مصر، وحتى قبل القضاء النهائي على الفاطميين، بتأسيس عدد من المدارس على المذاهب الأربعة، بنى أولها للمذهب الشافعي على أنقاض حبس المعونة، السجن الذي ضمّ بين جدرانه الكثيرين من قادة مصر، سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٧١م.(٤٥) ولعلها أصبحت أول مدرسة من نوعها في مصر.

كما أنشأ سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م مدرسة للمالكية في جوار جامع عمرو بن العاص، عُرفت بالقمحية. وأسس تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ابن أخي صلاح الدين، مدرسة للشافعية أوقف عليها عدة أماكن(٤٦)

كانت هذه المدارس بداية حركة بنائية سنّية ساهم فيها كثيرون من الأيوبيين وأمرائهم خلال حكم صلاح الدين في مصر فيما بعد، كما ساهم فيها القاضي الفاضل بمدرسة من أغنى هذه المدارس، إذ رصد فيها قسما كبيرا من خزانة كتب الفاطميين. وإنْ تكن فكرة إنشاء المدارس السنية مستوردة من الشام على غرار ما فعله نور الدين فيها من إنشاء مدارس شبيهة بمناهجها وموضوعات تدريسها في المدرسة النظامية في بغداد، فإن تمويل هذه المدارس واختيار المدرّسين فيها كان ضمن مسؤوليات القاضي الفاضل. فمن ضمن إصلاحاته الإدارية في فترة وزارة صلاح الدين فصلُ ديوان الأحباس الفاطمي الذي كان يشرف على إدارة المؤسسات الدينية وتمويلها وتزويدها، عن ديوان الأموال، وجعلَه ديوانا مستقلا تحت إدارة الوزير مباشرة، أي صلاح الدين، قبل القضاء على الفاطميين، وتحت إدارته هو بعد القضاء عليهم. ومن ثَمَّ فقد كان المسؤول الأكبر عن إدارة هذه المؤسسات المهمة، وعن اختيار المدرّسين فيها وقرّاء القرآن والحديث والوعّاظ والأئمة.(٤٧) وكان هؤلاء جميعا من وسائط التغيير.

ومن المعروف أن صلاح الدين كان يعتمد على خبرة القاضي الفاضل في اختيار هؤلاء وهو في مصر، وظلّ على ذلك عندما انتقل إلى الشام، إذ كان يستشيره في

---

(٤٥) المقريزي، «الخِطط»، ج ٢، ص ٣٦٣؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١٩.

(٤٦) المقريزي، «الخِطط»، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٤٧) Claude Cahen, «Ayyubids,» *Encyclopedia of Islam*, Vol. I (1960), p. 801 (pp. 769-807); A.A. Duri, H.L. Gottschalk, Lambton, «Diwan,» *Encyclopedia of Islam*, Vol. II (1960), p. 329.

يذكر النابلسي في كتاب اللُّمع أنّ هذه الأمور من ضمن مسؤوليات ناظر الأحباس، ومن الممكن أن يكون القاضي الفاضل قد أشرف عليها في المراحل الأولى من تأسيس الإدارة الأيّوبية. أنظر: النابلسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥ ـ ٢٦.

الناحيتين التربوية والدينية.

بعد أن هيّأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلّم أظفار المؤسسة الفاطمية، كما ذكرنا، بدأ بالإعداد للقضاء نهائيا على شعائر الخلافة. ففي سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م أبطل الأذان «بحيّ على خير العمل محمد وعلي خير البشر.» ويعلق المقريزي بأن هذه «أول وصمة دخلت على الدولة.»[٤٨] ثم أمر بعد ذلك، في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩ ـ ١١٧٠م، بأن يُذكَر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي.[٤٩]

وأمر بعد ذلك بأن يُذكَر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: «اللهم أصلح العاضد لدينك.»[٥٠] وولّى القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري، وهو كردي من أقرب المقرّبين إلى صلاح الدين، ولعله فعل هذا كبداية لتحويل الولاء المذهبي في القاهرة التي كان أغلب أهلها من الإسماعيلية. كما عزل قضاة مصر من الشيعة، واستولى بعدها على ممتلكات العاضد وعلى القصور وسلّمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، فتحكّم في القصر وصار يراقب كل صغيرة وكبيرة فيه، حتى أصبح الخليفة العاضد كالمعتقل في قصره.[٥١]

وفي بداية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١ ـ ١١٧٢م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين، وكان قطعها بالتدريج أيضا، ففي الجمعة الأولى من محرم ٥٦٧هـ/ ١١٧١ ـ ١١٧٢م حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الجمعة الثانية خُطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله، «وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة الفاطمية.»[٥٢] وقد توفي العاضد في العاشر من محرم ٥٦٧هـ/ ١١٧١ ـ ١١٧٢م.

سادسا: نهاية الخلافة الفاطمية في مصر

كان اليوم يوم الاثنين، ولكنّه لم يكن كغيره من الأيام في القاهرة لأنه وقع مصادفة في العاشر من محرم المعروف بعاشوراء، وهو اليوم الذي كان يلتقي فيه المصريون حكّاما وشعبا ويجدّدون أو يثبتون خلاله ولاءهم لأهل البيت، وللإمام الحسين الشهيد

---

(٤٨) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١٧.
(٤٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١٧ ـ ٣١٨.
(٥٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١٨.
(٥١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
(٥٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٥.

بوجه خاصّ. وقد كان يوم عاشوراء عادة يوم حزن وتعازٍ وبكاء، يتحلّق الناس فيه في الجوامع فيستمعون إلى خطب مدمية للقلوب، وينصتون إلى مراثٍ مؤثّرة في آل عليّ، تثير في نفوسهم الكثير من الذكريات الحزينة التي مرّت بهم فيبكون على مأساة آل البيت، وربما على مآسيهم، ويكرّرون ولاءهم لهم ولنسلهم من الخلفاء الفاطميين، ويسبّون من أجحف بحقوقهم من خلفاء راشدين وأمويين، ثم ينصرفون إلى بيوتهم ليأكلوا القمح المسلوق والعدس وغيرهما من المأكوت التي توارثتها أجيال بعدهم، وعرفت بعاشوراء حتى وقتنا الحاضر، ثم يصبحون في اليوم التالي ليبدأوا عاما جديدا من حياتهم، وأنظارهم موجهة إلى الأحياء من آل البيت وهم خلفاؤهم.

كان الخليفة يحتجب في قصره يوم عاشوراء، وعند الضحى يركب قاضي القضاة والشهود في لباس خاص ويذهبون إلى مشهد الحسين، فيجلسون ومعهم قرّاء القصر والخطباء، فيدخل الوزير ويجلس في صدر المجلس وعلى جانبيه القاضي والداعي، ويشرع القرّاء في تلاوة القرآن نوبة نوبة والجميع خشوع، وما أنْ ينتهون من قراءتهم حتى يقوم الشعراء، وهم عادة من غير شعراء القصر، فينشدون أشعارا أعدّوها لهذه المناسبة المهمة، آملين بأن توصلهم إلى قصور الخلفاء وتجعلهم من مدّاحيهم وموظّفيهم. وكانت أشعارهم أشعار رثاء في آل البيت، «فإنْ كان الوزير رافضيا تغالوا، وإن كان سنّيا اقتصدوا»، ويظلّون على هذه الحال مدة ثلاث ساعات. وبعد الانتهاء من القراءة والإنشاد، كانت تأتيهم رسل الخليفة تستدعيهم، فيغادر أول من يغادر الوزير، وهو بمنديل صغير إلى بيته.

وأما قاضي القضاة والداعي ومن رافقهما فيذهبون إلى باب الذهب في القصر، حيث يرون منظرا يختلف عمّا تعوّدوا عليه، فالسجاجيد الثمينة قد طويت لتحلّ محلّها حصر بسيطة، وصاحب الباب جالس في القاعة ينتظرهم. فيجلسون، والناس من وجهاء البلد والعلماء والفقهاء والعسكر حولهم أو بجانبهم، فيقرأ قرّاء القرآن ثانية، كما ينشد المنشدون فيُبكون الحاضرين ثانية، ثم يفرش سماط الحزن وفيه نحو ألف زبدية من العدس والملوحات والمخلّلات والأجبان والألبان وأعسال النحل والفطير والخبز المغيّر لونه بالقصد. ووقت الظهر يقف صاحب الباب وصاحب المائدة فيُدخِلان الناس للأكل، فيكون أول الداخلين القاضي والداعي، ويجلس بقربهما صاحب الباب نيابة عن الوزير، ثم يدخل من يريد أن يأكل من الناس. وبعد الانتهاء من الأكل يغادر الجميع القاعة ويطوف النائحون في القاهرة، ويغلق التجّار حوانيتهم حتى العصر ثم يفتحونها،[٥٣] وتعود الحياة إلى طبيعتها بعد هذه التجربة الروحية التاريخية المأساوية.

(٥٣) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٣١ - ٤٣٢، ٤٩٠.

ولكم اشترك القاضي الفاضل في هذه الاحتفالات بحكم عمله وقربه من المؤسسة الفاطمية، كما اشترك فيها صلاح الدين منذ وزارة عمه أسد الدين (٥٦٤هـ/١١٦٣ - ١١٦٤م)، لكنّ هذه العاشوراء اختلفت عما تعود المصريون عليه، فليس هناك قاضي قضاة ولا داعي دعاة لأنهما عُزلا، وليس هناك منشدون ولا نائحون يطوفون في شوارع القاهرة، لأن اليوم كان معدًا لنوع آخر من الاحتفال، وهو الاحتفال بالقضاء على هذه الطقوس والمراسيم التي مارسها المصريون أكثر من مائتي عام، والقضاء على واضعي هذه الطقوس والمراسيم بشتى رموزها ومفاهيمها.

لم يذهب صلاح الدين إذاً إلى المشهد الحسيني كعادة الوزير، بل ذهب إلى جامع عمرو بن العاص للصلاة فصلّى ومعه جمع كبير من أهالي الشام ومصر، وجلس بعد الصلاة جانبا وبقربه القاضي الفاضل يتباحثان فيما أنجزاه منذ الجمعة السابقة التي تمّ فيها إلغاء الخلافة الفاطمية، وأثبتت فيها الدعوة للخليفة العباسي. فدخل أحد الجنود مسرعا وتوجّه إليهما وقال لهما شيئا وخرج، فنظر كل من صلاح الدين والقاضي الفاضل أحدهما إلى الآخر فغمز القاضي الفاضل إليه وابتسما ابتسامة ارتياح وحبور، ثم سرعان ما غيّر صلاح الدين تعبير وجهه، وقال: «لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة. فضحك القاضي الفاضل وردّ عليه قائلا: يا مولاي! لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت.»[٥٤] فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية - بين الوزير صلاح الدين وكاتبه أو مستشاره - التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الخلافة الفاطمية. فقد توفي العاضد آخر الخلفاء في هذا اليوم، يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، أي يوم ذكرى مقتل الحسين بن عليّ. ولعل هذا من كبريات المصادفات التاريخية!

(أ) بعض الآراء في طبيعة وفاة الخليفة العاضد

اختلفت الأقوال في وفاة العاضد، فأشار بعض المؤرخين إلى أن العاضد لمّا علم بقطع اسمه من خطبة الجمعة (ثاني جمعة من محرّم ٥٦٧هـ/ أيلول (سبتمبر) ١٧٧١م) فكّر واستولى الهمّ عليه ومات.[٥٥] وقال بعضهم إن العاضد لمّا سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل داره فتعثر وسقط، فأقام متعلّلا خمسة أيام ومات. وقال بعض آخر أنه

---

(٥٤) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٩.

(٥٥) المصدر نفسه؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٢٧.

امتص فصّ خاتمه، وكان تحته سمّ فمات.[56] وبالتالي فالحوار بين صلاح الدين والقاضي الفاضل قد يشير إلى انتحار الخليفة العاضد. وأمّا بعض المصادر العربية فيتّهم صلاح الدين باغتيال الخليفة العاضد. فقد وصف المقريزي وفاة الخليفة ضمن حوادث سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م بقوله: «في رابعه (محرّم) جلس العاضد بعد الإرجاف بأنه أثخن في مرضه، فشوهد على ما حَقّق الإرجاف من ضعف القوى وتخاذل الأعضاء وظهور الحمى، وقيل إنها تفشّت بأعضائه. وأمسك طبيبه المعروف بابن السديد عن الحضور إليه، وامتنع من مداواته، وخذله غلبة للزمان، وميلا مع الايام.»[57] وأضاف المقريزي قائلا: «وفي يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من المحرم، عشية يوم عاشوراء، نفذ حكم الله المقدور، وقضاؤه الذي يستوي فيه الآمر والمأمور، في العاضد لدين الله، في الثلث الأول من ليلة الاثنين يوم عاشوراء، وقامت عليه الواعبة، وعظمت ضوضاء الأصوات النادبة، حتى كأن القيامة قد قامت. وكان بين وضع اسمه من أعواد المنابر ورفع جسمه على أعواد النعش ثلاثة أيام. فاعتنى به صلاح الدين على أن يُبتذل أو يُهان بعد الموت، وكان مَن معه من الأمراء يريدون ذلك، وأمر بكفّ الأيدي واعتقال الألسنة عن التعرّض إليه بسوء، وركب معزّيا لأهل القصر، وأمر بتجهيزه وقد أظهر الكآبة والحزن وأجرى دمعه، ووعد أهله بحسن الخلافة على أيتام العاضد وهم ثلاثة عشر ولدا. وكان الذي قطع خطبة العاضد، آخر خلائفهم، رجل عباسي. ومثله في الغرابة أن الفاطميين لم يتمكّنوا من الديار المصرية حتى قصدوها بعساكرهم مرّتين مع القائم بن المهدي ولم تُفتح لهم، ثم فتحوها في الثالثة على يد جوهر. وكذا حصل في زوالهم من مصر أن شيركوه قصد مصر مرتين ورجع، ثم قصدها المرة الثالثة واستقرّ بها حتى أزالت عساكره الدولة.»[58]

ويذكر ابن الأثير أنه لمّا اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه، فظن ذلك خديعة، فلم يمضِ إليه، فلمّا توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.[59]

ومهما يكن سبب وفاة العاضد فإن توقيتها في إثر قطع الخطبة للفاطميين وله، وفي يوم عاشوراء بالذات، يثير شيئا من التساؤلات التي لا نهدف إلى خوضها في هذا البحث. ولكنّ ما يهمّنا منها هو دور القاضي الفاضل في إنهاء الخلافة الفاطمية الذي تكلل بوفاة الخليفة العاضد، وما تلاه من اعتقال باقي أفراد الأسرة الفاطمية.

---

(٥٦) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٩.

(٥٧) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٢٧.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٣٤.

(ب) القاضي الفاضل
والقضاء على الخلافة الفاطمية

إن المؤرّخ المصري المقريزي هو الوحيد (بين المؤرّخين) الذي أشار إلى دور للقاضي الفاضل في الانقلاب على الفاطميين بقوله: «واستعان (صلاح الدين) به (أي بالقاضي الفاضل) على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية حتى تمّ مراده فجعله وزيره ومستشاره.»[٦٠] وإن كلمة «استعان» تشير إلى دور للقاضي الفاضل في تنفيذ مخطّط صلاح الدين في القضاء على الخلافة الفاطمية، كما أن اختيار صلاح الدين القاضي الفاضل وزيرا له ما هو إلا تعبير عن تقدير صلاح الدين لدور القاضي الفاضل في هذا المخطّط الخطِر، وفي تأسيس قواعد الدولة الأيوبية التي سبقت هذا المخطّط. وهذا الاختيار يشير أيضا إلى اعتراف واضح من صلاح الدين بدور القاضي الفاضل في إطاحة الفاطميين، وبأهمية القاضي الفاضل لخطط صلاح الدين المستقبلية. ولقد ظلّ صلاح الدين يجني ثمرة اختياره القاضي الفاضل وزيرا له حتى وفاته. وإنْ ضنّت علينا المصادر (باستثناء المقريزي) بمعلومات مباشرة عن دور للقاضي الفاضل في كلا الحادثين «إطاحة الفاطميين ونهاية العاضد»، فإن أعماله في الإدارة المصرية منذ عهد أسد الدين، وأقواله في كتاباته في عهد صلاح الدين، تشير إلى دور له لمّحنا إلى بعضه في الصفحات السابقة، وقد سعى من خلاله ضمن مخطط سنّي واسع للقضاء على عوامل الانقسام الديني في العالم الإسلامي وحماية مصر من الاجتياح الفرنجي واستعادة فلسطين. وإذ كانت الفرصة لتحقيق هذه الأهداف قد واتته مع صلاح الدين، فقد سارع إلى تحقيقها من دون تساهل أو رحمة؛ فالحكمة السياسية استدعت الحزم ولو كان مشوبا بالعنف. ولقد انعكس موقفه هذا في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى الأمير مجد الدين المبارك بن منقذ، والي قوص، في إثر وفاة العاضد ويقول فيها: «كتابنا هذا وارد على الأمير مجد الدين، عندما كان من نفوذ قضاء الله وقدره محتوما فيمن كان منصوبا وموسوما. وذلك لمرض امتدت فيه أيامه، واستولت عليه آلامه، إلى أن انفصمت به عُراه، وانحلّت منه قواه، وأتاه من أمر الله ما أتاه، وحضرنا إلى إيوانه، ونقلنا بانتقاله إسرار الأمر إلى إعلانه، ليعلم أن الله استأثر بوفاته، وآثرنا لحسن العهد بموافاته، وبلغنا الغاية في إجمال أمره، والتوديع له إلى قبره. . . والأمور لدينا مطّرده، والأحوال قبلنا متمهّدة، والدهماء ساكنة، والدنيا بنظرنا آمنة. وسبيل الأمر أن يوعز إلى الخاطب في يوم الجمعة بالدعاء لمن الكلمة عليه مجموعة، والدعوة له في الأقطار مسموعة - وهو الإمام

(٦٠) المقريزي، «الخِطط»، ج ٢، ص ٣٦٦.

المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين ـ وليلزم الناس عافية، فإنها أسبغ عطاء، وأسبل غطاء، في تنقّل الأيام عبرة، لمن كان له قلب أو ألقى السمّع وهو شهيد.»(٦١)

إن مطالبة القاضي الفاضل للأمير ابن منقذ، والي قوص، بالحزم والشدة تبيّن أهميّة قوص في نجاح الانقلاب. فقد كانت هذه ولاية شاور من قبل وأهلها من العرب الموالين له ولآله، هذا بالإضافة إلى كونها كبرى مقاطعات الصعيد، وقد نزح إليها بعض أشياع الفاطميين خوفا من صلاح الدين. وتشير رسالة القاضي الفاضل إلى أنه لن يتساهل مع أية محاولة للتدخّل في أهداف ثورة صلاح الدين وإنجازاتها. وقد كتب القاضي الفاضل رسائل أخرى مماثلة فيها تعليمات بوجوب الولاء للعهد الجديد، وحرص على ألا يستعمل فيها تعابير تشير إلى شرعية الفاطميين، فتعبير «فيمن كان منصوبا وموسوما» ينفي أحقّية الفاطميين، ويعزّز الشرعية العباسية.

(ج) مصير العائلة الفاطمية بعد الانقلاب

وكّل صلاح الدين الطواشي قراقوش بحراسة العائلة الفاطمية وتهيئة مصيرها المستقبلي، ولم يكن هذا بالأمر الصعب على قراقوش. وقد وجد عددا كبيرا من الفاطميين موزّعين بالقصور المختلفة، بينهم مائة وثلاثون من الأشراف وخمسة وسبعون من الأطفال، فأسكنهم في مكان خارج القصر. وجمع قراقوش عمومة العاضد وعشيرته في إيوان القصر وفرّقهم ما بين نساء ورجال كيلا يتناسلوا، وكي يسهل انقراضهم. ثم تسلّم صلاح الدين القصر بكل ما فيه «من خزائن ودواوين وغيرها من الأموال والنفائس، كانت عظيمة الوصف. واستعرض من فيه من الجواري والعبيد فأطلق من كان حرّا ووهب واستخدم باقيهم، وأطلق البيع في كل جديد وعتيق، فاستمرّ البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين. وأخلى صلاح الدين القصور من سكانها، وأغلق أبوابها ثم ملّكها أمراءه. وضرب الألواح على ما كان للخلفاء وأتباعهم من الدور والرباع وأقطع خواصّه منه وباع بعضها ثم قسم القصور فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين أيوب بن شادي في قصر اللؤلؤة على الخليج، وأخذ أصحابهُ دُورَ من كان ينسب إلى الدولة الفاطمية، فكان الرجل إذا استحسن دارا أخرج منها سكّانها ونزل بها.»(٦٢)

وفي رواية عن الأمير عضد الدين مرهف بن مجد الدين سيف الدولة بن منقذ «أن

---

(٦١) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤.

(٦٢) المقريزي، «الخطط»، ج ١، ص ٤٩٦؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٧.

القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة، عشرة آلاف شريف وشريفة وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة مولّدة ومربية. وذكر ابن عبد الظاهر أنه عندما أخذ صلاح الدين القصر وأخرج من فيه، كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم الخليفة وأهله وأولاده، ولمّا أخرجوا منه أسكنوا في دار الأفضل، وقبض صلاح الدين أيضا على الأمير داود بن العاضد، وكان وليّ العهد، وينعت بالحامد لله، واعتقل معه جميع إخوته. وقد ظلوا في الاعتقال في دار الأفضل من حارة برجوان إلى أن انتقل الملك الكامل بن العادل إلى القلعة، فنقل معه ولد العاضد وإخوته وأولاد عمّه واعتقلهم في القلعة. وظلّ بعضهم حتى العهد المملوكي، فطلب منهم بيبرس كتابا رسميا بالتخلّي عن جميع ما لهم من قصور وأملاك.[٦٣]

وعلّق القاضي الفاضل في متجدّداته على ما وجد في القصور عقب الانقلاب بقوله: «في ثالث عشرين ربيع الآخر عام ٥٦٧هـ/١١٧١م كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر، فقيل إن الموجود فيه مائة صندوق كسوة فاخرة، من موشّح ومرصّع، وعقود ثمينة وذخائر فخمة، وجواهر نفيسة، وغير ذلك من ذخائر جمّة الخطر. وكان الكاشف بها بهاء الدين قراقوش. وأخليت أمكنة من القصر الغربي، وسكن بها الأمير موسك والأمير أبو الهيجا السمين وغيره من الغُزّ، وملئت المناظر المصونة عن الناظر والمنتزهات التي لم يخطر ابتذالها في الخاطر، فسبحان مُظْهِرِ العجائب ومحْدِثِها ووارثِ الأرض ومُورِثِها.»[٦٤] وقدّر القاضي الفاضل ما جُمع من القصر «ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفي به مُلْك الأكاسرة، ولا تتصوّره الخواطر الحاضرة، ولا تشتمل على مثله الممالك العامرة، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة.»[٦٥]

كما علّق ابن الأثير على القضاء على الخلافة الفاطمية، وعلى ما وجد في القصور بقوله: «ولما توفي (العاضد) جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة، وعلى جميع ما فيه، فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتّبه قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما، أو سبعة عشر مثقالا. أنا لا أشك فإنني رأيته، ووزنته، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع

(٦٣) المقريزي، «الخطط»، ج ١، ص ٤٩٧.
(٦٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٩٦.
(٦٥) المصدر نفسه.

أصابع في عرض عقد كبير، ووجد فيه طبل، كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ، فلمّا رأوه ظنوه عُمل لأجل اللعب فيه، فسخروا من العاضد، فأخذ إنسان فضرب به، فضرط، فتضاحكوا منه، ثم آخر كذلك، وكان كل من ضرب به، ضرط، فألقاه أحدهم، فكسره، فإذا الطبل لأجل قولنج، فندموا على كسره لمّا قيل لهم ذلك، وكان فيه من الكتب النفيسة، المعدومة المثل، ما لا يُعَدّ، فباع جميع ما فيه، ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكّل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد، فباع البعض، وأعتق البعض، ووهب البعض، وخلا القصر من سكّانه، كأن لم يغن بالأمس فسبحان الحي الدائم، الذي لا يزول ملكه، ولا تغيره الدهور.»(٦٦)

وقد علّق القاضي الفاضل في متجدّدات سجّلها سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م على وضع مَنْ تبقّى من الفاطميين بقوله: «في يوم الاثنين سادس شهر رجب ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، ظهر تسحّب رجلين من المعتقلين في القصر، أحدهما من أقارب المستنصر، والآخر من أقارب الحافظ، وأكبرهما سنا كان معتقلا بالإيوان حدث به مرض وأثخن فيه ففُكّ حديده ونُقل إلى القصر الغربي في أوائل سنة ثلاث وثمانين، واستمرّ لِما به ولم يستقل من المرض وطُلب ففُقد، واسمه موسى بن عبد الرحمن أبي حمزة بن حيدرة بن أبي الحسن أخي الحافظ، واسم الآخر موسى بن عبد الرحمن بن أبي محمد بن أبي اليسر بن محسن بن المستنصر، وكان طفلا وقت الكائنه بأهله، وأقام بالقصر الغربي مع من أسر به إلى أن كبر وشب.»(٦٧)

وقال القاضي الفاضل أيضا: «وذُكر أن القصر الغربي قد استولى عليه الخراب، وعلا على جدرانه التشعّث والهدم، وأنه يجاور اصطبلات فيها جماعة من المفسدين ربما تسلّق إليه للتطرق للنساء المعتقلات. والمتسلّق منهم إذا قويت نفسه على التسحّب لم تكن عقلته في القصر من القصر المذكور مانعة من التسحّب... وعدد من بقي من هذه الذُّرية بدار المظفّر والقصر الغربي والإيوان مائتان واثنان وخمسون شخصا، ذكور ثمانية وتسعون، وإناث مائة وأربع وخمسون. وتفصيله المقيمون بدار قطز أحد وثلاثون. أحد عشر منهم ذكور كلهم من أولاد العاضد لصلبه، وعشرون إناث. بنات العاضد خمس، إخوته أربعة... ثلاث من بنات الحافظ... المعتقلون بالإيوان خمسة وخمسون رجلا منهم الأمير أبو الظاهر بن جبريل بن الحافظ. المقيمون بالقصر الغربي مائة وستة وستون شخصا. ذكور اثنان وثلاثون أكبرهم عمره عشرون سنة وأصغرهم عمره سبع

---

(٦٦) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٣٤. للمزيد من المعلومات، يراجع: المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٩٦.

(٦٧) المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٩٧.

عشرة سنة. إناث مائة وأربع وثلاثون: بنات أربع وستون، أخوات وعمّات وزوجات سبعون.»[٦٨]

كما أشار القاضي الفاضل، في متجدّدات سجّلها سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، إلى «أنه كان عدة من في دار المظفّر بحارة برجوان والقصر الغربي والإيوان من أولاد العاضد وأقاربه ومن معهم مضافا إليهم ثلثمائة واثنتان وسبعون نفسا. دار المظفّر أحرار ومماليك مائة وست وستون نفسا. القصر الغربي: أحرار مائة وأربعون نفسا؛ الإيوان تسعة وسبعون رجلا بالغرف.»[٦٩]

وتظهر متجدّدات القاضي الفاضل مدى متابعته الاطّلاع على وضع الفاطميين بعد القضاء على الخلافة، ولا بدّ من أن ذلك كان من باب التحسّب والحيطة.

(د) القاضي الفاضل والتخلّص من العناصر الموالية للفاطميين

ذكرنا في فصل سابق أن القاضي الفاضل اكتشف أول مؤامرة مصرية لإطاحة حكم صلاح الدين، قبل إنهاء الخلافة الفاطمية، ولقد تمكّن عن طريق ديوان الإنشاء من أن يكتشف مؤامرة كبرى ثانية كادت تودي بصلاح الدين وبه وبمصر. فإن بعض القوات الموالية للفاطميين من جنود وأمراء وكتّاب وموظفي دواوين، ومن عائلات الوزراء السابقين، مثل بني رزّيك وبني شاور، راحوا يخططون للقضاء على حكم صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية. وقد وصفهم عماد الدين الأصفهاني بقوله: «واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصّبة، المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفية، واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيّة، وعينّوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير، وبيّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل.»[٧٠]

ويبدو أن مؤامرتهم كانت في غاية التنظيم، إذ عينوا خليفة ووزيرا ثم كاتبوا الفرنج أكثر من مرة يدعونهم في إحداها إلى الهجوم على مصر، في وقت كان صلاح الدين غائبا في الكرك. والتفّ هؤلاء حول عمارة اليمني، الفقيه والأديب السنّي المذهب الفاطمي الولاء، الذي تولّى مهمة المراسلة مع الفرنج. وظنّ المتآمرون أن سرّيتهم التامة ستقودهم إلى النجاح، ولكنّهم لم يعلموا أن ديوان الإنشاء يراقبهم ثاني مرة مراقبة تامة،

---

(٦٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

(٦٩) المصدر نفسه.

(٧٠) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٠ ـ ٥٧١؛ رسالة القاضي الفاضل إلى نور الدين بشأن المؤامرة: المصدر نفسه، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٦.

حتى تحين الفرصة المواتية لكشف سرّهم. وتذكر المصادر في كشف مؤامراتهم قصتين تختلفان بعض الاختلاف في التفصيلات: أولاهما أن أحد الكتّاب في الديوان، وهو عبد الصمد الكاتب، كان يلقى الفاضل بخضوع زائد، يخدمه ويتقرّب إليه ويبالغ في التواضع إليه، فلقيه يوما، فلم يلتفت إليه، فقال القاضي الفاضل: «ما هذا إلا لسبب.» وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين. فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال، وطلب منه كشف الأمر، فلم يجد من جانب صلاح الدين شيئا، فقصد الجانب الآخر، فكشف الحال إليه، فأرسله القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وقال له: «تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه»، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع، وذكر الحال. عندئذٍ استدعاهم صلاح الدين وقرّرهم، فأقروا بمؤامرتهم، فاعتقلهم ثم أمر بصلبهم. وتشير الرواية الثانية إلى أن المتآمرين أدخلوا الواعظ زين الدين بن نجا بينهم، فتظاهر بمساندته لهم في البداية ثم أعلم صلاح الدين بأمرهم، وطلب منه أن يعطيه ما لابن كامل من أملاك، فوافق، وأمره بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بما يجدّ من أمرهم، ثم وصل رسول من الفرنج إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ظاهرية وبرسالة باطنية للمتآمرين، فوصل خبره إلى صلاح الدين.[٧١]

ويشير أبو شامة، نقلًا عن ابن أبي طيّ، إلى أن ابن مصال هو الذي دخل بين المتآمرين، لا زين الدين بن نجا، ففشا سرهم إلى صلاح الدين.[٧٢]

وأمّا القاضي الفاضل فيشير بنفسه إلى تفصيلات هذه المؤامرة في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق؛ وتنمّ عن اطّلاعه الدقيق على المؤامرة، بل اشتراكه في إحباطها، فلعلّه هو الذي دسّ من أعلمه بتفصيلات المؤامرة، كما يشير في رسالته إلى عيون لديوان الإنشاء المصري من الفرنج، وآخرين بينهم على اتّصال بالديوان. ويذكر في الرسالة: «قصر هذه الخدمة على متجدّد سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدّمات عظيمة، إلا إنها أسفرت عن النُجح، وأوائل كالليلة البهيمة، إلا إنها انفرجت عن الصبح، فالإسلام ببركاته البادية، وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا، وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان كالكفر يُتم عليه تخيّلا عجيبا، إلا إن الله سبحانه أطلع على أمرها من

---

(٧١) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥. للتفصيلات انظر: ص ٢٤٣ ـ ٢٥١؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٥٤ ـ ٥٥؛ للمزيد من التفصيلات انظر: بدر الدين ابن قاضي شهبة، «الكواكب الدرّية في السيرة النورية»، تحقيق محمود زايد (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧١)، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٧٢) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦١.

أوله، وأظهر على سرّها من مستقبله، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويُعرِض عن ذكر الأثر:

«لم يزل يتوسّم من جند مصر، ومن أهل القصر، بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض عن عرى دولتهم، وخفض مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء وإنْ تعدّت بهم الأيام، وأضداد وإنْ وقعت عليهم كلمة الإسلام. وكان لا يحتقر منهم حقيرا، ولا يستبعد منهم شرّا كبيرا، وعيونه لمقاصدهم موكلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة. لا تخلو سنة تمرّ، ولا شهر يكرّ، من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممونها. وكان أكثر ما يتعلّلون به، ويستريحون إليه، المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله، التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتد المخصوم. ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا إنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عاداتهم. وكان ملك الفرنج كلما سوّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضتهم، سير 'جُرج' - كاتبه - رسولا إلينا ظاهرا، وإليهم باطنا، عارضا علينا الجميل الذي ما قبلته قطّ أنفسنا، وعاقدا معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردّد، وكتب إلى الفرنج تتجدّد.

«ثم قال: والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه أن لا يُبسطوا عقابا مؤلما، ولا يُعذّبوا عذابا محكما. وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجح السؤال، أطلق سراحهم، وخلّى سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة. وعند وصول 'جُرج' في هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه، وَرَدَ إلينا كتابٌ ممّن لا يرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مخاتلة، لا رسول مجاملة، وحامل بليّة لا حامل هديّة، فأوهمناه الإغفال عن التيقّظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصّل مرة بالخروج ليلا، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهارا، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدّامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتّابهم. فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم، ولمّا تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا الجنس متمرّدة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المنافقة. فكُلًا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقرّ طائعا عند إحضاره، ومنهم من أقرّ بعد ضربه، فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونُوَبٌ غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد، متفقة في الفساد.

«ثم ذكر تفصيل المؤامرة قائلا: إنهم عيّنوا خليفة ووزيرا مختلفين في ذلك، فمنهم

من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإنْ كان صغيرا، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له. وأما بنو رزّيك وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم، من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

«... وكانوا فيما تقدم، والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم، وقالوا لهم أنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى أيلة ثارت حاشية القصر، وكافة الجند وطائفة السودان، وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

«... ولمّا وصل (جُرج) كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب موسم غلاّتهم، وأنه لم يبقَ في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثتَ أسطولا إلى بعض الثغور أنهض فلانا مَنْ عنده، وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة.

«... وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سنانا - صاحب الحشيشية - بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة، ولا يجب به قعود على نصرة، واستدعوا منه من يتمّم على الملوك غيلة، أو يبيّت له مكيدة وحيلة، والله من ورائهم محيط، وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج. ولمّا صح الخبر، وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل الثورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة والغلاة، الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلّوا من الفُجّار، وشُنقوا على أبواب قصورهم، وصُلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبّع لأتباعهم، وشُرّدت طائفة الإسماعيلية ونُفوا، ونودي بأن يرحل كافة الأجناد، وحاشية القصر، وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد.

«فأمّا مَنْ في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأي يمضي بينهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه المستخار، وهو المستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوا فيه، بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها، فإنه حبالة للضلال منصوبة، وبيعة للبدع محجوبة.»(٧٣)

---

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٥٦٥. رسالة القاضي الفاضل كاملة في: ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٧٦ - ٤٨٩.

(هـ) القاضي الفاضل
وعُمارة اليمني

كان من جملة المصلوبين عُمارة اليمني الذي كان في عهد الوزير رزّيك بن الملك الصالح طلائع (ت ٥٥٦هـ/ ١١٦٠ ـ ١١٦١م) من أصحاب القاضي الفاضل، إلا إنهما اختلفا، على ما نرجح، في وزارة شاور الثانية، وربما لاستئثار الكامل بالقاضي الفاضل، بدل عُمارة، كما تدل كتابات عُمارة. ويذكر ابن واصل أن العداء بين عُمارة والقاضي الفاضل وجد في أيام العاضد وقبلها، والظاهر أيضا أن القاضي الفاضل أبعد عُمارة اليمني، منذ بداية عهد صلاح الدين عن المؤسسة الحاكمة الجديدة، الأمر الذي دفعه إلى الالتجاء إلى المؤسسة الفاطمية. ويشير عُمارة إلى هذا بشعره:

قَسَتْ رأفةُ الدنيا، فلا الدهر عاطفٌ ... عليّ ولا عبد الرحيم رحيمُ
عفا الله عن آرائه كل فترة ... كلامُ العدا فيها عليّ كُلومُ
وسامحه في قطع رزقي بفضله ... وصلْتُ إليه، والزمانُ ذميمُ
ألا هل لهُ عطفٌ عليّ، فإنني ... فقير إلى ما اعتدتُ منه عديمُ[٧٤]

وتشير بعض الروايات إلى أنه لمّا أُخذ عُمارة ليصلب طلب الاجتماع إلى القاضي الفاضل، فرفض، عندها أنشد عُمارة:

عبدُ الرحيم قدِ احتَجَبْ ... إنّ الخلاص هو العَجَبْ[٧٥]

وكان من جملة أسباب غضب القاضي الفاضل على عُمارة، بالإضافة إلى الخلافات الشخصية، مرثية نظمها عُمارة اليمني في الخلافة الفاطمية، وأشار فيها إلى مآثر الفاطميين، وندد فيها بما فعله صلاح الدين، كما قارن فيها بين ما كان في عهد الفاطميين من أبهّة وفخامة وكرم واحتفالات، وما هي عليه بعد ذهابهم. وختم قصيدته بالكشف عن أمنيته في عودة الفاطميين:

وربّما عادتِ الدنيا لمعقِلها ... منكمْ وأضحت بكمْ محلولَة العُقَدِ[٧٦]

كان بين المصلوبين أيضا القاضي العوريس، قاضي قضاة الفاطميين، وقد روى القضاة المتأخرين، ابن بنت الأعز، أن العوريس كان قد رأى في منامه كأنّ المسيح

(٧٤) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٩.
(٧٥) المصدر نفسه؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٥٥.
(٧٦) القصيدة في: المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ أخرج رأسه له من السماء، فقال له العوريس: الصلب حقّ؟ فقال المسيح: نعم الصلب حقّ؛ فقصّ العوريس رؤياه على معبرٍ، فقال المعبرُ: الذي رأى هذه الرؤيا يُصلب، لأن المسيح معصوم، فلا يقول إلا حقّا، ولا يمكن كون ذلك راجعا إلى المسيح عليه السلام، لأن القرآن العظيم قد نصّ بأنه لم يُصلب ولم يُقتل، فبقي أن يكون ذلك راجعا إلى الرائي، فهو الذي يُصلب، فكان الأمر كما قال المعبرّ. ويبدو أن قضية الصلب كانت قضية حساسة، ومن هنا حاول المتأخّرون تبريرها بالنسبة إلى المتآمرين، ولكنْ يبدو أيضا أن صلاح الدين حصل على فتوى أو فتاوى في شرعية صلب هؤلاء المتآمرين، ويشير القاضي الفاضل إلى هذا بقوله: «ولما صحّ الخبر (خبر المؤامرة) وكان حكم الله أولى ما أُخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة، الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلّوه من الفُجّار؛ وشُنقوا على باب قصورهم وصُلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم.»[٧٧]

كان من نتيجة هذه المؤامرة أن فرنج الشام بعدما أعدّوا العدة لمساعدة المتآمرين توقّفوا عن الهجوم على مصر، عندما علموا باكتشاف المؤامرة وبمصير المتآمرين. وأمّا حاكم صقلّية فلم يعلم بما جرى، وتابع تجهيز أسطوله وأرسله إلى الإسكندرية بحسب الاتفاق مع المتآمرين. وقد كان الأسطول كبيرا وخطرا وعدّته مائتي سفينة لحمل الرجالة، وستا وثلاثين طريدة لحمل الخيل وستة مراكب كبارا تحمل آلة الحرب، وأربعين مركبا تحمل الأزواد، وفيها من الراجل خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبولي، كان المقدَّم عليهم ابن صاحب صقلّية. وقد وصل الأسطول الإسكندرية في ذي الحجة ٥٦٩هـ/١١٧٣م على غفله من أهلها، وتقدّمت القوّات الصقلّية إلى جانب السور، وكادوا يحتلون المدينة، ولكن صلاح الدين أمر أصحاب الأقطاع القريبين من الإسكندرية بنجدتها، وبعد مضي بضعة أيام تمكن أهالي الإسكندرية من صدّ الهجوم الصقلي، فغافلوا الصقليين في الظلام وهاجموهم وأحرقوا بعض شوانيهم كما قتلوا أعدادا كبيرة منهم، الأمر الذي اضطر الباقين إلى الهروب. «وكفى الله المسلمين شرهم.»[٧٨]

كانت هذه ثاني مرة يصد فيها الإسكندرانيون هجوما فرنجيا ساحقا. وإنْ كان

(٧٧) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٥.
(٧٨) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٦٤.

شاور قد أطمع قبل هؤلاء المتآمرين، فرنج الشام في مصر، فقد وسّع المتآمرون الحلقة إذ مدّدوها إلى فرنج صقلية أو فرنج الغرب. ولو تمت مؤامرتهم لتغيّر مجرى تاريخ المنطقة. ولكن هجمات الملك أموري السابقة على مصر، وهجوم الأسطول الصقلي، علّمت المصريين أن حماية مصر من الفرنج هي أولى الأولويّات، وأن سلامة مصر هي الطريق إلى القدس.

وقد اعتبر القاضي الفاضل الانقلاب على الفاطميين والقضاء على أتباعهم انقلابا دينيا هدفه توحيد السنّة والقضاء على عناصر الانقسام في العالم الإسلامي، والتخلّص مما اعتبره هو نوعا من الإلحاد. فمن كتاب له عن صلاح الدين إلى ديوان الخلافة في بغداد في تعداد ما له من الأيادي، قال: «والذي أجراه الله على يد الملوك والمماليك التي دوّخها، وسنن الضلال التي نسخها، وعقود الإلحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رحضها، وحجج الزندقة التي دحضها؛ فلله عليه المنّة فيه إذ أهّله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويد الله كانت عون يده؛ وإلا فقد مضت الليالي والأيام على تلك الأمور وما تحركت للفُلك في قلعها نابضة، وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضة. فشُكْرُ يدِ الله تعالى فيما أجراه على يده منها، أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفّار، وقد عاد الإسلام إلى وطنِهِ، وصوّحت من الكفر خضراء دِمَنِه.»(٧٩)

ومن كتاب آخر له يشير إلى إعادة صلاح الدين الخطبة في مصر إلى الدولة العباسية، بقوله: «حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط من لله في سخطه رضى، وجعل وجه لابسي السواد مبيضّا، فأدرك لهم بأثر نامت عنه الهمم، ودوخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغَرور، واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور.»(٨٠)

وعلّق في شعره قائلا:

صاحبُ هذا القصرِ كم قُبِّلَتْ ساحتُه أمس، وكم عُظِّما
وقدرةُ القادرِ في هدمِهِ أعظُم منها في بناءِ السما(٨١)

كما كرّر فكرة ضرورة القضاء على الخلافة الفاطمية وشرعيتها في عدد من الرسائل التي كتبها إلى الخليفة عن صلاح الدين، وهي تشدّد على ضرورة وحدة الإسلام ووحدة الأمة، ويقول في إحداها:

«كتب الخادم في هذه الخدمة من مستقرّه ودينُ الولاء مشروع، وعَلَمُ الجهاد

(٧٩) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢٣؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٩٤.
(٨٠) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٩٤.
(٨١) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ٢، ص ٤٠٦.

مرفوع، وسؤددُ السواد متبوع، وحكمُ السداد بين الأمة موضوع، وسببُ الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غربا ويَمَنا وشاما، وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر، حَرَما حراما، فأضحى الدين واحدا بعد ما كان أديانا، والخلافة إذا ذُكِّر بها أهل الخلاف لم يخرّوا عليها إلا صُمّا وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلّة في شيع الضلال شائعة، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطّعوا أمرهم بينهم شيعا، وفرّقوا أمر الأمة وكان مجتمعا، وكذّبوا بالنار فعجّلت لهم نار الحُتوف، ونثرتْ أقلام الظُّبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومُزِّقوا كل مُمَزَّق، وأخذ منهم كل مُخنَق، وقُطع دابِرُهم، ووعظ آيبَهم غابرُهم، ورغِمت أنوفهم ومنابرُهم، وحقّت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا، وتمّت كلمات ربك صدقا وعدلا، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم.»[(٨٢)]

وصوّر وضع الفاطميين في آخر عهدهم في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء، يُشيد فيها بفتوحات صلاح الدين وأعماله في خدمة الإسلام، شارحا ضمن ما يذكره، بعض الأسباب التي دعت صلاح الدين إلى القضاء على الخلافة الفاطمية. يقول:

«وكانت أخبار مصر تتّصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دولتها عليه من غلبة الصغير على الكبير، وأن النظام بها قد فسد، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل من قام وقعد. والفرنج قد احتاج من يدبّرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة، لها مقادير خطيرة؛ وأن كلمة السنّة بها وإنْ كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشريعة وإنْ كانت مسمّاة فإنها متحاماة. وتلك البدع بها على ما يُعْلَم، وتلك الضلالات فيها على ما يُفتى فيه بفراق الإسلام ويُحكَم؛ وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة من دون الله تُعَظَّم وتُفَخَّم؛ فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غرّه تقلّب الذين كفروا في البلاد. فسمت همّتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته منها. فسرنا إليها في عساكر ضخمة، وجموع جّمة، وبأموال انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا؛ فعرضت عوارض منعت، وتوجّهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قُطِعت، ولكل

(٨٢) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٧٠؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧.

أجل كتاب، ولكل أمل باب. وكان في تقدير الله تعالى أنا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها، وعلم أن استئصال كلمة الإسلام محطها. فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون في الشام في هذا الأوان، بأنا إنْ لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد، وإنْ لم ندفع غريم اليوم لم نُمْهَل إلى الغد. فسرنا بالعساكر المجموعة، والأمراء الأهل المعروفة، إلى بلاد قد تَمَهّد لنا بها أمران، وتقرّر لنا في القلوب ودّان: الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحق الأقدم؛ والآخر ما يرجونه من فكّ إسارهم، وإقالة عِثارهم. ففعل الله ما هو أهله، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله، وضاقت به سبله، وأُفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها، وبلادها وأقاليمها، قد نَفَذَت فيها أوامره، وخَفَقَتْ عليها صلبانه، ونُصِبت بها أوثانه، وأيس من أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلا، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم هم داخلا، ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر؛ وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغنام أعجام، إنْ هم إلا كالأنعام، لا يعرفون ربا إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجّهون إليه من ركنه، وامتثال أمره؛ وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية، موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشِكّة، وحُمة وحمِيّة؛ ولهم حواشٍ لقصورهم من بين داعٍ تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتّاب تفعل أقلامهم أفعال الأَسَل، وخدّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النِّحَل؛ ودولة قد كبر نملها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع من خطرات الضمير، فكيف بخطوات التدبير. هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة، وتحريف للشريعة بالتأويل وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر سُمّي بغير اسمه، وشرع يُتَسَتَّرُ به ويُحكَم بغير حكمه. فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيّفهم تحيّف الليل والنهار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصُّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم، لولا إعانة المقادير. وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعة إلى بلبيس ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة منها وصلوا بالعدد المجهر، والحشد الأوفر، وخصوصا بعد نوبة دمياط، فإنهم نزلوها بحرا في ألف مركب مقاتل وحامل، وبرّا في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها القتالَ الذي يصلبه الصليب، والقراعَ الذي ينادي به الموت من كل مكان قريب. ونحن نقاتل العدوّيْن الباطن والظاهر، ونصابر الضررَيْن المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج،

وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، تارة بالأوامر المرهقة لهم، وتارة بالأمور الفاضحة منهم، وطورا بالسيوف المجردة، وبالنار المحرقة، حتى بقي القصر ومَن به من خدم ومن ذُرّية قد تفرّقت شيعه، وتمزّقت بدعه، وخفتت دعوته، وخفيت ضلالته؛ فهنالك تمّ لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء الأسود المعظّم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه (وفنائه)، وبرّأنا من عهده يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إيقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته.»(٨٣)

كان القاضي الفاضل أكثر المستفيدين من نهاية الخلافة الفاطمية في مصر، فبالإضافة إلى توصّله إلى أعلى مركز إداري مدني في دولة صلاح الدين، فقد حصل على مكتبة الفاطميين، واختار منها كل ما كان يتمنّاه من كتب، وضع بعضها فيما بعد في مدرسته «الفاضلية».

«قال ابن أبي طيّ ومن جملة ما باعوا: خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا لأنها لم يكن في جميع بلاد الشام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر. ومن عجائبها: أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال أنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها؛ وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك، فلمّا فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصّل ما حصّل من الكتب.»(٨٤)

(و) ردة الفعل الشامية على نهاية العهد الفاطمي في مصر

وكما أن القاضي الفاضل أعلن نهاية الخلافة الفاطمية، نيابة عن صلاح الدين، فإن عماد الدين الأصفهاني أعلنها نيابة عن نور الدين في الشام. فمن نسخة بشارة بانتهاء الدولة الفاطمية في مصر، والخطبة للخليفة العباسي، حملها عن نور الدين، شهاب الدين أبو المعالي المطهر بن أبي عصرون لتُقرأ في كل مدينة يمرّ بها في طريقه إلى بغداد، يقول:

«أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا

---

(٨٣) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١٧ (الرسالة كاملة، ص ٦١٦ ـ ٦٢١).
(٨٤) المصدر نفسه، ص ٥٠٧.

رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية، والإسكندرية ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية، والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب والبعيد وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله، نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله، وما برحت همنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية، والأقدار في الأزل بقضاء آرائنا وبتنجيز مواعدنا قاضية، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها، وطالما مرت عليها الحقب الخوالي وآبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مائتين وثمانين سنة بدعوة المبطلين، مملوءة بحزب الشياطين، سابغة ظلالها للضلال، مقفرة المحلّ إلا من المحال، مفتقرة إلى نصرة من الله بملكها، ونظرة ستدركها، رافعة يدها في إشكائها، متظلّمة إليه ليكفل بأعدائها على أعدائها حتى أذن الله لغمّتها بالانفراج، ولعلّتها بالعلاج، وسبّب قصد الفرنج لها وتوجّههم إليها، طمعا في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان: الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الروعة، فملّكنا الله تلك البلاد، ومكّن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنّا نؤمّله في إزالة الإلحاد والرفض من إقامة الفرض، وتقدمنا إلى من استنباه أن يستفتح باب السعادة، ويستنجح باب مالنا من الإرادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك، ويورد الأدعياء ودعاة الألحاد بها المهالك.»[٨٥]

سابعا: تقويم لدور القاضي الفاضل
في القضاء على الخلافة الفاطمية

لا بدّ لمن يتابع مسيرة القاضي الفاضل في ظلّ الخلافة الفاطمية في مصر، من أن يتساءل كيف انقلب هذا الإداري على دولة أكرمته وعزّزته، وتوصّل فيها إلى أعلى منصب إداري مدني، خوّله دخول القصور الفاطمية ومعرفة مخابئها وأسرارها، وإلى مجلس الخليفة الذي قلّما كان يصل إليه غير الأقلية من الإداريين، ونصح للخليفة أمورا كان ينصح صلاح الدين عكسها. كيف تمكّن من التحرك بهذه السرية التامة بين قصر الخلافة ودار الوزارة، وبين القاهرة ومصر (الفسطاط)، بين الموالين للفاطميين

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٥٠٢؛ يذكر ابن قاضي شهبة أن ابن أبي عصرون قرأ البشارة في كل مدينة مرّ بها حتى وصل إلى بغداد، فخرج الموكب في تلقّيه، وجميع أهل بغداد مكرسين لخطر وروده، ونُثرت عليه دنانير الإنعام، وأرسِلَت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين. أنظر: ابن قاضي شهبة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

والموالين لصلاح الدين؟ كيف تمكّن أن يحمي نفسه في أوضاع كهذه، كثرت فيها الخيانات والمؤامرات والاغتيالات؟

نبدأ بالإجابة عن هذه الأسئلة ونحن نعرض مسيرة القاضي الفاضل منذ دخوله القاهرة شابا يافعا في ديوان الإنشاء، فيتمثّل لنا في هذا الدور من حياته في صورة شابّ طموح يريد أن يبلغ المجد بموهبته الكتابية. وقد أعلنت موهبتُه نفسّها لذوي الشأن يومئذٍ، وأحرزت له بينهم منصبا في ديواني الجيش والإنشاء، وكسبت له بين الشعراء والكتّاب منزلة يُمْدَح من أجلها ويُقصد. وهو في العشرين عاما الأولى من خدمته في مصر موظف مخلص للدولة التي يعيش في ظلّها، مخلص لمبادئها، يمدح خلفاءها وحكّامها وعقيدتهم التي هاجمها فيما بعد واعتبرها بدعة، ويهجو العباسيين الذين اعتزّ بولائه لهم فيما بعد، قائلا في الفاطميين:

لكم في زَبور الله يا مُبْلِغي الذِكْرِ ... وراثةِ هذي الأرضِ والخلقِ والأمرِ
فلا تحسبوا مِصْراً تُخَصُّ بمُلْكِكُمْ ... فلا مِصْرَ إلا سوف يلجا إلى مِصْرِ[٨٦]

وهو إزاء مدحهم يندّد بالعباسيين وبشعارهم «أي السواد». فقد قال:

نَفَيْنا سوادَ الليل عن دولةِ الهُدى ... فلا رايةٌ سَوْدا ولا أُمَّةٌ سَوْدا
وبين مجازاةٍ ضَرَبْنا وجزيةٍ ... فمِنْ طائعٍ أدّى ومن خالعٍ أوْدى[٨٧]

ومن تصدّى لرؤية القاضي الفاضل في هذا الدور من حياته لم يكن ينفي عنه الوصولية. فقد كان في بداية أمره صغيرا وغريبا، مع أن مصر فتحت أبوابها للفلسطينيين وغيرهم ممن كانوا يقصدونها، مثل الوزير اليازوري[٨٨] (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، ومنحتهم مناصب مرموقة فيها. وكان يستمدّ قوّته واستقراره من الحاكم الذي يرعاه، بغضّ النظر عن اتّجاه هذا الحاكم السياسي أو عقيدته، ويهمّه أوّلا أن يؤمّن وظيفته ويحرص على استبقائها، وليس ثمة قلق داخلي يعكّر عليه هذا الاندفاع في خدمة الفاطميين، ورجالاتهم. وقد آثر الاستنصار بالفرنج في بداية خدمته لشاور على ما يمثله نور الدين من مبدأ، إلى أن تكشّفت حقيقة الفرنج وشاور أمام عينيه، فابتدأ يتحوّل في اتّجاه معاكس، وبدأ يؤثر بنصحه في إدارة الدفّة على يد الكامل بن شاور في الاتّجاه الهادف إلى إنقاذ مصر من براثن الفرنج، ونجح إلى أن دخل الأيوبيون مصر نهائيا بموافقة الخليفة

---

(٨٦) القاضي الفاضل، «ديوان»، ج ١، ص ٢٢٠.

(٨٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٦.

(٨٨) ولي اليازوري الوزارة للخليفة المستنصر سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م.

والمصريين، فانحاز إليهم. وقد بحثنا في هذا.

ولعلّ الناظر إلى القاضي الفاضل في المرحلة الثانية من حياته، في ظل صلاح الدين، يتساءل: هل انحاز إلى صلاح الدين لأنه وجد فيه كسبا أكبر، أو أن الحقيقة بزغت أمام عينيه، فإذا به يندفع معه بإخلاص حقيقي. ويخيّل إليّ وأنا أعرض الأحداث التي أشرت إليها أن صلاح الدين وافق هوى في نفس القاضي الفاضل منذ البداية، مع أنه ربما كتم ذلك، وأنه رأى في بطولة صلاح الدين وإخلاصه مثالا للقائد القادر على أن ينقذ مصر من الخطر الفرنجي من ناحية، وأن يرفع من شأنه هو من ناحية أُخرى، بحيث يمكنه أن يمنح صلاح الدين مصادره الوافرة من معلومات وتجربة وإدارة وأدب وشعر، ويؤسس بمساعدته والتعاون معه شيئا من الاستقرار الداخلي لمصر، بعد كل ما دهاها ودهى شعبها من محن ومصائب. وأدرك صلاح الدين أيضا أن القاضي الفاضل إنسان عظيم عقلا وعلما ومكانة، وفي إمكانه أن يوصله إلى أهدافه في مصر من خلال مصادره الوافرة. وهكذا تضافر الرجلان على تحقيق غاية كبرى أحسّا بها. ثم تبيّناها رأي العين، وعملا بإخلاص منقطع النظير، كل في ميدانه، على تحقيقها. ومن هنا عبّرا عن فرحهما بنهاية الخلافة الفاطمية التي تمثّلت في وفاة العاضد. وفي الإمكان إضافة استنتاجات أُخرى إلى ما ذكرناه عن تحوّل القاضي الفاضل بولائه من الفاطميين إلى الأيوبيين، أو بالأحرى إلى الخلافة العباسية التي مثّلها الأيوبيون، بالقول إن هناك تغييرا أصيلا حدث في نفسية القاضي الفاضل. ويستطيع المتتبّع لخطّ حياته بعد اتّصاله بصلاح الدين أن يلاحظ كيف اندفع مع هذا الإخلاص الجديد إلى النهاية، ولم يكن موقفه إمعانا في الوصولية التي نالت كسبا وفيرا في العهد الصلاحي.

فالقاضي الفاضل وإنْ وصل أسبابه بالفاطميين لم يأخذ بالعقيدة الفاطمية، وكان انضواؤه إليهم مصدر صراع داخلي في نفسه. فلمّا وجد الفرصة سانحة تغلّب لديه الميل السنّي فسانده حتى النهاية. وقد لا تكون الشواهد على هذا بيّنة واضحة، ولكنّنا نرى في إخلاص القاضي الفاضل اللاحق ثورة نفسية على تردّده السابق، وتكفيرا عن خضوعه لأحوال البيئة التي عاش فيها.

ثم إنّ شخصية صلاح الدين أثرت فيه، ودفعت إلى نقطة التحوّل في حياته، فلقد أُعجب القاضي الفاضل بصلاح الدين وصدقه، وعلّق الآمال الكبار عليه، واعتبره الرجل القويّ المخلص القادر على تغيير مجرى الأحداث، واندفع وراءه بإخلاص، ليكون عونا له على تحقيق حلم كبير طالما راوده وراوغه. وقد وصف هذا الحلم بوضوح ينمّ عن صدق الرؤية ومعرفة الطريق والهدف.

أنفق القاضي الفاضل المرحلة الأولى من حياته في جوّ عابق بالاضطراب السياسي الداخلي والخارجي، وشاهد وزراء الفاطميين يتقاتلون على المناصب ويستعينون

بالفرنج للمحافظة عليها، كما شاهد الفرنج يدخلون مصر ويستغلّون أموالها. ولم ينس والده وهو يتعذّب في محنته الناجمة عن ظلم الحكّام فعجّلت بوفاته. وأدرك مع الوقت أن الفاطميين عاجزون عن إصلاح أمر كان قد أفلت من أيديهم، وتوسّم في صلاح الدين رغبةَ الإصلاحِ والقدرةَ عليه، ولذا فقد وقف إلى جانب صلاح الدين منذ البداية يشجّعه على ما كان يقوم به من أعمال إصلاحية في مصر، بل ينبّهه ويقوم بالنيابة عنه بإصلاح الأمور، حتى آن الأوان للقضاء على الدولة الفاطمية، فوقف إلى جانبه وساعده في عمله هذا، وشعر بشيء من الارتياح لأن أمنية كبرى من أمانيه تحققت.

وعند ذاك انفتح أمام القاضي الفاضل المجال الأوسع لتحقيق أمنيته الثانية، وهي كبرى أمانيه؛ فقد عانى القاضي الفاضل ضياع بلده عسقلان ومن قبلها بيسان موطن أبيه وجدّه، واغتصاب أرضه وتشريد عائلته على يد الفرنج، وإذلال شعبه، كما قاسى في طفولته عدم الاستقرار، والتشرّد، وشاهد معاملة الفرنج للمصريين فنقم عليهم منذ الحملة الثالثة على مصر، ونذر نفسه لمحاربتهم ومقاومتهم واستخلاص البلاد منهم. ولم يترك فرصة صغيرة أو كبيرة تسنح له منذ البداية من دون أن ينادي فيها للجهاد، ولمحاربة الفرنج ومقاومتهم، ويحذّر من استفحال أمرهم. ولم يترك فرصة تفوته من دون التذكير بالجهاد، كما فعل في سجلّيْ تولية أسد الدين شيركوه وصلاح الدين للوزارة. ومع أن أسد الدين توفّي مبكّرا، إلا إن صلاح الدين حقّق للقاضي الفاضل أمانيه الكبرى فاستعاد عسقلان وبيسان والقدس وغيرها من المدن الفلسطينية. ولم يكن من قبيل المصادفة أن الحملة على منطقة غزة وعسقلان كانت من حملات صلاح الدين الحربية الأولى، وقد رافقه القاضي الفاضل فيها، وقرّت عينه بتحرير وطنه وبلدته.

وفي النهاية فإنّ القاضي الفاضل كان سياسيا، أو «حيوانا سياسيا» بلغة هذه الأيام، ورجل دولة عظيما، جمع بين واقعه السياسي ومرونته ودهائه وبين هدف كبير نذر نفسه له وصبر مع الأيام لتحقيقه. واستنشق رياح التاريخ حين هبّت فشرع لها القلوع والقلوب، والأموال والسيوف. ووجد نفسه عند مفترق تاريخي، ما ساوره فيه شكّ وأدرك في لحظة واحدة، وفي وعي شمولي، كل القضايا التي تبدّت عند ذلك المفترق. ولم يتردّد لحظة واحدة. فلقد أصبح اختياره لمعسكر الإسلام ضد الصليبيين اختيارا أوحدَ لا تشوبه مباريات ولا توازنات ولا مؤامرات. فالنصر لا يمكن أن يكون إلا هنا أو هناك، ولا وسط بين الجانبين. واعتقد أن طريقَ الإسلام هو طريقُ أهل السنّة، وكل طريق غيره لا يوصل إلا إلى الخلاف وتبديد الإيمان والقوى. وما غابت أرض فلسطين يوما عن باله، وعندما لاحت فرصة استعادتها، وأيقن بصدق صلاح الدين في الجهاد من أجلها، اشتدّت عزيمته وشدّت رحاله. ولئن أوصله اختياره إلى سدّة عالية، فأصبح في دولة صلاح الدين وزير الدولة والرجل الثاني فيها، فإنه حقّق بذلك كل ما يطمح رجل

السياسة إليه من نجاح أهدافه وقضيته، بمساهمته في التخطيط والعمل، كما حقّق نجاحه هو وعلوّ أمره. وتلك مطابقة تشهد له بالمواهب العريضة والدهاء الفائق.

الفصل الخامس
القاضي الفاضل والخلاف بين آل زنكي وآل أيوب

أولا: الخلاف

في أعقاب تولّي صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد، وقع بعض الأحداث التي تسبّبت بإيجاد شيء من التوتر والنفور بينه وبين نور الدين؛ وربما كان مردّ ذلك إلى عدم إلمام نور الدين بأوضاع مصر الحقيقية الناجمة عن سياسة شاور المتهوّرة من ناحية، والهجمات الفرنجية المتتالية التي كادت تطيح مصر في أيدي مملكة القدس اللاتينية من ناحية أخرى، إلى جانب ضعف موقف صلاح الدين في بداية أمره بمصر.

ولقد اشتطّ بعض المؤرخين قديما وحديثا في تصوير ذلك التوتّر مُلقين اللوم على عاتق صلاح الدين، الذي صوّروه بالجاحد لفضل وليّ نعمته وراعيه نور الدين. وقد يكون في بعض ذلك شيء من الصحّة، لأن استيلاء صلاح الدين على أملاك آل زنكي بعد وفاة نور الدين في الشام أكّد لهم صحّة افتراضاتهم. ولكنْ لو تمعّنا في أوضاع مصر في تلك الحقبة التاريخية لوجدنا الأمور أكثر تعقيدا مما ظنّه هؤلاء؛ إذ كان وراء الأحداث أكثر من شخص واحد أو مؤسسة واحدة. ومن ثم فصلاح الدين لم يحكم بمفرده في مصر، بل كان يدعمه في الحكم نظام إداري مُحْكَم، استقطب مجموعات من الإداريين والكتّاب والباحثين كانوا يقدّمون التقارير والأبحاث المستندة إلى الأوضاع السائدة للاستفادة منها، ويخطّطون لسياسة مصر في ضوئها؛ ومن هؤلاء القاضي الفاضل، وزير صلاح الدين والمشرف على هذا النظام الإداري، والمنظّم لسياسة مصر الداخلية والخارجية. كما أن نور الدين لم يتفرّد في الإدارة بدمشق، بل وُجدت في كل من البلدين مجموعات بشرية من أصول عقائدية مختلفة كالسنّة والشيعة بفِرَقِها؛ وأصول عرقية متعدّدة من أكراد وأتراك وعرب وغيرهم، ومن أمراء أو جنود إقطاعيين وعلماء طامعين. وكانت كل من تلك الفئات تتطلّع إلى استخلاص ما تستطيع كسبه لنفسها، ومن أجل ذلك كانت تتصارع بعضها مع بعض لاستخلاصه، فكوّنت مجموعات ضاغطة على الحكام، حاولت من خلالها أن تؤثر في سياستهم.

ولقد وجدت الفتنة بين نور الدين وصلاح الدين جذورها في عدد من العوامل

المباشرة وغير المباشرة، وبينها: شيء من التنافس الخفي بين آل زنكي وآل أيّوب؛ وتخوُّف نور الدين من استقلال الأكراد في مصر خاصّة بعد هجرة آل صلاح الدين وكثيرين من الأكراد إليها؛ والخلاف في شأن تولية صلاح الدين للوزارة في مصر؛ وتوقيت قطع الخطبة للفاطميين، ومخلّفات الفاطميين؛ ثم الصراع بشأن السلطة والجهاد ضد الفرنج، ولا سيّما في الأردن. وسنبحث، في هذا الفصل، في بعض هذه العوامل.

(أ) هجرة الأكراد من أهالي صلاح الدين وأقاربه إلى مصر

يذكر ابن شدّاد أنّ صلاح الدين أرسل، سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م، في طلب والده نجم الدين أيوب من الشام ليسلّمه القيادة في مصر، فقصده لكنه أبى أن يتسلم القيادة.[١]

ويشير أبو شامة أن نور الدين قرّر أن يرسل نجم الدين أيّوب إلى مصر للضغط على صلاح الدين من أجل الإسراع في قطع الخُطبة للفاطميين، لأن الخليفة العبّاسي المستنجد بالله شدّد عليه بقطع الخُطبة، وعاتبه في أمر تأخيرها. فأحضر نور الدين نجم الدين أيوب، وألزمه بالخروج إلى مصر حيث صلاح الدين، وحمّله رسالة يقول فيها:

«هذا أمر تَجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة، قبل هجوم الموت، وحضور الفوت، ولا سيما وإمام الوقت متطلّع إلى ذلك بكلّيته، وهو عنده من أهمّ أُمنيته.»[٢]

كما يشير المقريزي إلى أن الخليفة العبّاسي كتب إلى نور الدين معاتبا على تأخيره إقامة الخطبة العباسية في مصر، فوالى نور الدين كتابة الملطّفات إلى صلاح الدين يأمره بذلك، وهو (صلاح الدين) يعتذر عن ترك الخطبة بما يخافه من المصريين، فوردت رسل الخليفة المستنجد إلى دمشق بالاستحثاث على إقامة الخطبة في مصر. فرأى نور الدين أن مثل هذه المهمّة لا يقوم بها إلا نجم الدين أيّوب، وكان يتولّى قلعة بعلبك، فأرسل إليه وقدّر معه الأمر وسيّره.[٣] ووصل نجم الدين أيوب إلى مصر في أواخر رجب أو في جمادى الثانية سنة ٥٦٥هـ/ شباط (فبراير) ١١٧٠م؛ وكان إخوة صلاح الدين وعائلاتهم قد سبقوا والدهم إلى مصر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨ ـ ١١٦٩م.

فصلاح الدين كان يريد عائلته إلى جانبه في مصر لمساندته، ولدعم مركزه في مقابل القوى المناوئة له هناك، في حين كان نور الدين يريد منه أن يحوّل مصر إلى

---

(١) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤.

(٢) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

(٣) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١٦ ـ ٣١٧. كان نجم الدين آنذاك في دمشق لا بعلبك، كما يشير المقريزي.

المذهب السنّي ويسرع في إنهاء أمر الدولة الفاطمية هناك. فأرسل عائلة صلاح الدين لتستحثه على ذلك. وأدّى هذا التباين بين أهداف الطرفين إلى شحن العلاقة بينهما بعدم الثقة والتوتّر.

تبع صلاح الدين إلى مصر كثيرون من أقاربه ومن الأكراد بصورة جماعية، فأخذوا يستقرّون فيها منذ ولاية صلاح الدين الوزارة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م وبعدها. ومن أجل تسهيل تلك الهجرة، حرّر قلعة أيلة على البحر الأحمر سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، مؤمّنا بذلك الطريق بين الشام ومصر.[٤]

إذاً كان صلاح الدين بحاجة إلى معسكر معاضد له، فلا غرابة في أن يستقدم أهله وبني جنسه إلى مصر، عدا غيرهم من مناصريه، إلى جانب الاعتماد على مناصريه في مصر من أمثال وزيره القاضي الفاضل وابن ممّاتي وابن بيان وغيرهم من أصحاب الدواوين، والاحتفاظ بالمماليك الأسدية الذين احتضنهم بعد وفاة عمّه أسد الدين شيركوه وجعلهم نواة لجيشه.

ومن هنا كانت الهجرة الكردية إلى مصر ضرورية في نظر صلاح الدين، ولو أنها أثارت بعض المخاوف في مصر والشام؛ فقد رأى فيها المصريون المعاضدون للفاطميين خطرا على الخلافة وعلى مصر، واعتبروها احتلالا لبلدهم.

وفي هذا الصدد أشار المؤرخ المصري المقريزي إلى أحداث سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠ - ١١٧١م بقوله:

«وفيها كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه، وانكفّ أمراء المصريين عن التصرف ومُنعوا من كل شيء، فبسطوا ألسنتهم بالقول ضد ما عليه صلاح الدين وأصحابه من الفعل في محو آثار الدولة الفاطمية وإزالة رسومها، وخلع العاضد وقتله، والدعاء للخليفة العبّاسي. فلما رأى أمره قد قوي وأوتادَ دولته قد تمكّنت من البلاد، عزم على إظهار ما يخفيه؛ فواعد أمراء النشابين على أن يمضوا إلى بيوت الأمراء المصريين في الليل، ويقف كل أمير منهم بجنده على باب أمير من أمراء مصر، فإذا خرج للخدمة قبض عليه واحتاط على داره وما فيها وأخذها لنفسه. فأصبحوا واقفين على منازل الأمراء المصريين بأجنادهم، فما هو إلّا أن يخرج الأمير من منزله ليصير إلى الخدمة كعادته، فإذا بالأمير الشامي الذي قد عيّن له، وقد قبض عليه وأوثقه، وهجم بمن معه على داره فملكها بجميع ما تحتوي عليه، وما يتعلّق بصاحبها وينسب إليه من أهل ومال وخيول وعبيد وجَوار، وما له من إقطاع. فلم ينتشر الضوء حتى عَلَت

---

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٠.

الأصوات، وارتفعت الضجّات، وثار الصياح من كل جانب، وصار الأمراء الشاميون في سائر نِعَم أمراء مصر، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعاديهم. فآل أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بوّابا على الدار التي كان يسكنها، وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها، وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعا له، ونحو ذلك من أنواع الهوان.»[٥] وقد يكون في قول المقريزي شيء من المبالغة، ولكنّه كان ترديدَ أصداء لِما وصله من الأقوال التي سرت في مصر بمرور الأعوام، والتي عكست مشاعر بعض المصريين تجاه صلاح الدين وأقاربه وعساكره. وعلى الرغم من مبالغة التعبير، فإنه يتضمّن بعض الصحّة، لأن الأكراد وعسكر صلاح الدين أباحوا لأنفسهم ما استولوا عليه من أموال المؤسسة الفاطمية الحاكمة من خلفاء وقوّاد وإقطاعيين وغيرهم، معتبرينه حقا لهم. وكم تكرّرت مثل هذه الظواهر، حتى لقد شهدنا ما يشابهها في أيّامنا هذه عندما سقط النظام الملكي في مصر أواسط هذا القرن.

ويمكن القول أنه على الرغم ممّا قيل عن سيطرة صلاح الدين أو أهله وأقاربه على أموال المصريين، فإن صلاح الدين لم ينل الكثير منها، كما أنه لم ينسَ الشعب المصري مُذ أوصاه به القاضي الفاضل في سجلّ توليته بالوزارة. وإن كان صلاح الدين وأهله وأقاربه، ولا سيّما من الأكراد، قد كوّنوا النخبة الجديدة الغريبة عن المصريين، فإن الإداريين ـ من الوزير القاضي الفاضل فمن دونه ـ كانوا من المصريين أو المتمصّرين، ومنهم تألفت الطبقة المتوسطة أو الواسطة بين النخبة الحاكمة والشعب المصري. وقد حاول هؤلاء من خلال معلوماتهم عن الأوضاع عامة، ونفوذهم المستمد من معلوماتهم وخبرتهم وعلاقتهم بصلاح الدين، أن يحدّوا من طغيان النخبة الحاكمة إنْ طغت، ويوجّهوا صلاح الدين بصورة خاصة في الاتجاه الذي يقرّبه من الشعب المصري. ولقد كان إلغاء المكوس في مصر بتأثير هؤلاء في صلاح الدين،[٦] ولو لم يكن صلاح الدين ينصت إليهم لما نجح في سياسته بالتقرّب من الشعب المصري. وقد تكون هذه الناحية قد فاتت المقريزي وغيرَه من المؤرّخين الذين ركّزوا على تسلط صلاح الدين وآله على المؤسسة الفاطمية وخيانته لها.

أمّا هجرة الأكراد، ولا سيّما القادة والعسكريين، من وجهة النظر الشامية ـ وضمنها وجهة نظر نور الدين ـ فقد أثارت الكثير من المخاوف، لأنها تسبّبت بخسارة أعداد من

---

(٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢١.

(٦) كتب القاضي السجلّ الأوّل بإلغاء المكوس في بداية عهد صلاح الدين. السجل في: المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧؛ ربيع، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠، ١١٩ ـ ١٢١. المكوس الملغاة في: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٣.

الجنود المدرّبين والمحاربين والإقطاعيين الذين يعتمد نور الدين عليهم في الدفاع عن الشام، وفي الجهاد واسترداد الأراضي الشامية من الفرنج، وكذلك في الإعداد لتحرير فلسطين. ومن ناحية أخرى، فإن نور الدين والمجموعة الشامية كانوا يرون في هجرة هذه الفئة بالذات ازديادا لنفوذ صلاح الدين في مصر لاعتقادهم أنها ستلتفّ حوله وتساعده في حروب توسّعية في المستقبل. وهذا ما حدث فعلا بعد وفاة نور الدين.

(ب) الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين في شأن تولية صلاح الدين الوزارة

ثم إنّ بعض أمراء نور الدين من الأتراك اعتبروا أنفسهم أحقّ بمصر من صلاح الدين، معبّرين بذلك عن رغبة نور الدين في إحلال الأتراك بدلا من الأكراد في الوزارة. وكان أكثرهم عداء لصلاح الدين القائد عين الدولة ياروق الياروقي الذي اشترك مع أسد الدين وصلاح الدين في إلحاق الهزيمة بالفرنج في مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٧م، وقد رفض الاعتراف بوزارة صلاح الدين قائلا: «أنا لا أخدم يوسف أبدا.»[٧] وغادر القاهرة مع بعض العساكر متوجّها إلى نور الدين في الشام، وظلّ حتى وفاته يناوىء صلاح الدين.

وهناك غيره من القادة العائدين الذين اعتبروا صلاح الدين أصغر منهم سنا وأدنى مكانة وأقل خبرة ليتحمّل منصبا ذا شأن كالوزارة، فأوْغروا صدر نور الدين عليه.

ويشير بعض الروايات أيضا إلى أن نور الدين نفسه استاء من ولاية صلاح الدين للوزارة المصرية، وأنه عبّر عن استيائه في بعض أقواله وأفعاله. فعندما علم بوفاة أسد الدين شيركوه تتبّع أصحابه وأصحاب صلاح الدين، مستوليا على إقطاعاتهم وإقطاعات أسد الدين وصلاح الدين، كما منع نوّاب أسد الدين من التصرّف في حمص، «وأبعد أهاليهم واستثقلهم وطردهم عنه. وكتب إلى الأمراء في مصر بمفارقته وتركِه في مصر وحيدا ليوهن أمره. وشرع يذمّه، ويذكره بالسوء، ويعنته في الطلب بحمل الأموال إليه. وصار كثيرا ما يقول: «ملك ابن أيّوب ويستعظم ذلك احتقارا له.»[٨]

---

(٧) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١٠. يذكر أبو شامة، نقلا عن ابن أبي طيّ، أنهّ لمّا تولّى صلاح الدين الوزارة حسده بعض مَنْ كان معه في الديار المصرية من الأمراء الشامية، كابن ياروق جرديك وجماعة من غلمان نور الدين، ثم فارقوه عائدين إلى الشام. أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٠.

(٨) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١١. وأمّا أبو شامة فذكر أنّ نور الدين استنكر تولّي صلاح الدين الوزارة بغير أمره، وكتب له في الأمر عدّة كتب. أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١. كما أنهّ يحاول أن يبرّر بعض الإجراءات التي اتّخذها نور الدين ضد آل صلاح الدين في الشام، ومراسلات =

(ج) الخلاف في شأن
توقيت قطع الخطبة للفاطميين

وقع خلاف بين صلاح الدين ونور الدين في شأن توقيت قطع الخطبة للفاطميين؛ فكان نور الدين يحثّ صلاح الدين على إنهائها، منذ تولّيه الوزارة وصلاح الدين يماطل بحسب ما أورد ابن الأثير في قوله «وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم، ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين، فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية، ويأخذها منه، فكان يريد أن يكون العاضد معه، حتى إنْ قصده نور الدين، امتنع به، وبأهل مصر عليه، فلمّا اعتذر إلى نور الدين بذلك، لم يقبل عذره، وألح عليه بقطع الخطبة، وألزمه إلزاما، لا فسحة له في مخالفته.»[٩]

ومع ما في قول ابن الأثير من التحيُّز ضد صلاح الدين، فإننا نميل إلى الاعتقاد أن تأخير قطع الخطبة لم يكن في يد صلاح الدين أو نور الدين وحدهما، بل كان في يد الإداريين الذين كانوا يُنظّمون إدارة مصر ويجهّزون جيشها لحمايتها من اعتداء داخلي أو خارجي، ويعدّون شعبها بالتدريج للانقلاب المقبل، تلافيا لأية نكسة قد تقلب مخطّط صلاح الدين رأسا على عقب. وحالما أضاء الإداريون لصلاح الدين الضوء الأخضر، مُعْلِمين بأن الوقت قد حان للقيام بمثل هذا العمل، قام به. وأمّا العاضد فلم يكن له أية قوة لأن جيشه كان قد انحلّ، وأصبح مجرّدا من جميع صلاحياته ومحجورا عليه.

ويعلّق المؤرخ ابن أبي طيّ الحلبي على إلحاح نور الدين بشأن إقامة الخطبة في مصر للعباسيين، بأنه أنفذ إلى صلاح الدين نجم الدين أيوب والده ليجبره على ذلك عندما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك، وأنه لمّا ولي ابنه المستضيء كتب أيضا إلى نور الدين في الأمر، فألحّ نور الدين على صلاح الدين بقطع الخطبة، متّهما إيّاه بتأخير ذلك لأسباب سياسية، ومشنّعا عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك.[١٠] وذكر أنه لمّا وصل نجم الدين إلى مصر طلب من ابنه تحقيق ذلك الأمر، «فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقرّ بعد، وأن أموره مضطربة، وأعداءَه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم، وأنّ هذا الأمر إنْ لم يؤخذ على التدريج وإلا فسدت أحواله. فلمّا أوقع السلطان الملك الناصر بالسودان والأرمن ونكث أمر المصريين وقطع

= نور الدين مع صلاح الدين بقوله إنّ «الذي أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته»؛ ويتّهم أبو شامة المؤرخ ابن أبي طي الذي نقل بعض روايات الخلاف بين القائدين، بأنة متحيز ضد نور الدين لأنّ نور الدين كان «قد أذلّ الشيعة بحلب وأبطل شعارهم وقوّى أهل السنّة.» أبو شامة، المصدر نفسه، ص ٤٤١.

(٩) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٣٣.

(١٠) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

أخبارهم، وترك أجناده في دورهم، ثم قطع العاضد وقبض جميع ما كان بيده من البلاد، واستولى على القصور ووكل بها وبمن فيها (بهاء الدين) قراقوش، خلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ؛ ثم شرع وأبطل من الأذان 'حيّ على خير العمل'، وأنكر على من يتّسم بمذهبهم الانتساب إليهم. فلما رأى أموره مواتية، وأعداءه قليلين، شرع حينئذ في الخطبة لبني العباس. ولمّا عوّل على ذلك أمره والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعة من أصحابه وأمراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمره أن يحضر الخطيب إليه ويأمره بما يختاره. وإنما فعل الملك الناصر ذلك ووكل الأمر وغيره استظهارا وخوفا من فادحة ربما طرأت، أو عدوّ ربما ثار، فيكون هو معتذرا من ذلك.»[11]

ويضيف ابن أبي طيّ إلى تعليقه هذا، ذاكرا أنه «لمّا وصل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب وقال (له): إن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك. فقال فلمن أخطب؟ قال: للمستضيء العباسي. فلمّا صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحدا، لكنه دعا للأئمة المهديين وللسلطان الملك الناصر، ونزل، فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرّر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.»[12]

وتدلّ رواية ابن أبي طيّ على أنّ الخطبة لم تُقطع للفاطميين إلّا بعد كثير من الإجراءات والتغييرات العسكرية والمدنية في مصر لضمان نجاح الانقلاب الأيّوبي السنّي فيها؛ وأنه على الرغم من هذا كله فقد سرى شيء من الخوف في مصر من عاقبة قطع الخطبة للخلافة التي ارتبطت بتاريخ مصر ما يقارب المائتي عام. وتشير الأحداث التالية لقطع الخطبة إلى أن المخاوف من مغبّتها كانت في مكانها.

(د) الخلاف في شأن الجهاد في الأردن

ومهما تكن طبيعة الخلاف بين القائدين فإن بذور الشقاق بينهما بدأت منذ تولّي صلاح الدين الوزارة، ونمت مع محاولاته الانفراد بالسلطة وباتخاذ القرارات من دون الرجوع إلى نور الدين، الأمر الذي أثار حفيظته. ولقد بدأ نور الدين يعبّر عن مخاوفه من سلطة صلاح الدين عندما طلب منه تنسيق الجهاد على الجبهة الأردنية، بدءا باحتلال حصني الكرك والشوبك المشرفَينْ على الطريق بين مصر والشام، لتأمين الطريق إلى مصر. ولعلّ نور الدين كان يريد أن تكون له اليد الطولى في اتخاذ القرارات، إلا إن صلاح الدين

(١١) المصدر نفسه، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٤٩٩.

كان يريد أن يتملّص من قبضة نور الدين. ويؤكد ما أورده ابن الأثير في أحداث سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١ ـ ١١٧٢م، أنه «وجدت في هذه السنة أمور أوجبت أن تأثّر نور الدين من صلاح الدين.. ذلك أن صلاح الدين غادر مصر في أواخر محرّم أو أوائل صفر إلى بلاد الفرنج، ونازل حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم، فحاصره وقاتل الفرنج فيه حتى طلبوا الأمان، واستمهلوه عشرة أيام، فوافق. ولمّا سمع نور الدين بذلك، غادر دمشق قاصدا الفرنج من جهة ثانية. فقيل لصلاح الدين: إنْ دخل نور الدين بلاد الفرنج، وهم على هذه الحال، أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق، وأخذ ملكُهم، لم يبقَ بديار مصر مقام مع نور الدين، وإنْ جاء نور الدين إليك وأنت ههنا، فلا بد من الاجتماع به، وحينئذٍ يكون هو المتحكّم فيك، بما شاء، إنْ شاء! فقد لا تقدر على الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر، فعاد إلى مصر، ولم يأخذه (الشوبك) من الفرنج، وكتب لنور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية، لأمور بلغته عن بعض الشيعة العلويين، وأنهم عازمون على الوثوب به، فإنه يخاف عليها من البعد عنها، أن يقوم أهلها على من تخلّف بها، فيخرجوهم وتعود ممتنعة، وأطال الاعتذار، فلم يقبلها نور الدين منه، وتغيّر عليه، وعزم على قصد مصر، وإخراجه عنها.»[١٣]

ويذكر ابن الأثير أنّ نور الدين استنكر عدم امتثال صلاح الدين لأمره، وأعلن نيّته غزو مصر. وعندما علم صلاح الدين بمخطّط نور الدين جمع أهله، وفيهم والده نجم الدين أيّوب، وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه؛ واستشارهم، فلم يشيروا عليه، ولكنّ ابن أخيه تقي الدين عمر قال: «إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله. فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر، وكيد وعقل، وقال لتقي الدين: أقعد، وسبّه؛ وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، أتظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا. فقال: والله لو رأيت أنا وهذا خالك، نور الدين، لم يمكنّا إلا أن نترجّل إليه ونقبّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا؛ فإذا كنّا هكذا كيف يكون غيرنا، وكل من تراه من الأمراء والعساكر، لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه؛ وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأي حاجة به إلى المجيء؟ يأمرك بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ويولّي بلاده من يريد. وقال (نجم الدين) للجماعة كلهم: قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد،

---

(١٣) المصدر نفسه، ص ٥١٨ ـ ٥١٩؛ للمزيد من المعلومات: ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٢١ ـ ٢٢٣؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٣٦.

فتفرّقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.» وعندما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين بعد هذه الجلسة قال له: «أنت جاهل قليل المعرفة؛ تجمع هذا الجمع الكبير وتُطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم ترَ معك من هذا العسكر أحدا، وكانوا أسلموك إليه؛ وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتُبون إليه ويعرّفونه قولي، وتكتب أنتَ إليه وترسل في هذا المعنى تقول: أي حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجّاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي؛ فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده.»[14]

ولقد عزّز بهاء الدين بن شداد قسما من رواية ابن الأثير المشيرة إلى عزم نور الدين على قصد مصر وتخوّف صلاح الدين بقول نقله عن صلاح الدين: «كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يُكاشَف ويخالَف ويُشَق عصاه، ويلقى عساكره بمصافّ يرده إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم، وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته.»[15]

ووقع خلاف آخر بين صلاح الدين ونور الدين سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م في شأن الجهاد المشترك ضد الفرنج في الأردن أيضا، بحسب رواية لابن الأثير فحواها أن صلاح الدين ونور الدين اتّفقا على الاجتماع على الكرك والشوبك ليتشاورا فيما يعود بالصلاح المشترك؛ فرحل صلاح الدين من مصر بعساكره إلى بلاد الفرنج لحصار الكرك، والاجتماع إلى نور الدين عليه، والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين، كل منهما من جهة بعسكره، أي أن يأتي صلاح الدين من مصر ونور الدين من دمشق واتّفقا على وقت محدّد ومكان محدد للمقابلة، فوصل صلاح الدين قبل نور الدين وحاصر الكرك قبل أن يصل نور الدين إليها. وأما نور الدين فغادر دمشق إلى الكرك. وعندما قارب الكرك علم صلاح الدين بقربه فخاف، واتفق مَعَ مَنْ معه على العودة إلى مصر وترك الاجتماع إلى نور الدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلا. ولمّا عاد صلاح الدين أرسل خاله الفقيه عيسى الهكاري إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه ترك والده مريضا في مصر، وخاف أنهّ في حال وفاة والده «تخرج البلاد عن أيديهم.» فلم يغضب نور الدين وردّ قائلا إن «حفظ مصر أهم عندنا من غيرها.»[16] ولمّا عاد صلاح الدين إلى مصر

---

(١٤) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥١٩؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(١٥) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.

(١٦) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٥٠؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٢٤. تختلف رواية ابن واصل عن رواية ابن الأثير إذ لا يشير إلى اتفاق بين نور الدين وصلاح على المقابلة في الأردن، ويذكر أن صلاح الدين خرج في النصف من شوّال قاصدا الغزاة، ومعه ما هو برسم الهدية إلى نور الدين، فوصل إلى منطقة الكرك والشوبك، فنازلهما ونازل غيرهما من الحصون، فأخرب عماراتها وشنّ الغارات على أعمالها. ابن واصل، المصدر نفسه.

وجد أباه قد توفي حقا.(١٧)

أمّا عماد الدين الأصفهاني، كاتِب نور الدين آنذاك، فأورد رواية تختلف عن رواية ابن الأثير، ذكر فيها أن صلاح الدين قصد الكرك والشوبك وحده من دون ترتيب سابق مع نور الدين، «نزل الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون فبرّح بها، وفرق عنها عربها، وخرّب عمارتها وشنّت على أعمالها سراياه بغاراته.»(١٨)

ولا تشير رواية عماد الدين إلى اتّفاق بين صلاح الدين ونور الدين على مهاجمة القلعتين. وقد وصف القاضي الفاضل هذه الحملة، التي اشترك فيها، كما تدلّ كتابته إلى نور الدين، من دون محاولة التغطية لتخلّف من صلاح الدين أو إخلاف لمواعيده أو حتى اعتذار، وهذا يدلّ على أن هذه الحملة كانت في الأغلب من جهة صلاح الدين وحده على منطقة الكرك، لترحيل البدو المتواطئين مع الفرنج عنها، وإعادة إسكانهم في مناطق إسلامية ينقطعون فيها عن الفرنج. وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين شارحا الأوضاع المحيطة بهذه القضية: «سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أعز الله سلطانه ومدّ أبدا إحسانه، ومكّن بالنصر إمكانه، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفّار بما يقصّ أجنحتهم ويفلّل أسلحتهم، ويقطع موادهم ويخرب بلادهم؛ وأكبر الأسباب المعينة على ما يرون من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذلّ الكفر إلى عزّ الإيمان. ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد، وعدّه من أعظم أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلا، ولا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلا.»(١٩) والمعروف عن البدو أنهم كانوا خير أدلاء ينضمّون إلى من يغويهم بالمال. وقد كان القاضي الفاضل نفسه يستعين بهم في تحرّكاته مع صلاح الدين.

وأضاف ابن شداد إلى هذه التفصيلات أن صلاح الدين خرج بالعساكر (٥٦٨هـ / ١١٧٢ ـ ١١٧٣م) يريد بلاد الكرك، «وإنما بدأ بها لأنها أقرب إليه، وكانت بالطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتّصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة، فخرج قاصدا لها في أثناء سنة ثمان وستين وخمسمائة وحاصرها وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد منها ولم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة وحصل له ثواب القصد.»(٢٠)

---

(١٧) توفّي نجم الدين في ٢٧ ذي الحجّة ٥٦٨ هـ/١١٧٣ م. أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣٢.

(١٨) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٦.

(١٩) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٢٥؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٢٠) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥؛ لتفصيلات تحليلية عن هذه القضية أنظر:
Ehrenkreutz, *op.cit.*, pp. 97-108.

يمكن الاستنتاج من أقوال المؤرخين المسلمين أن عدّة قوى وعوامل تدخّلت في الخلاف بين صلاح الدين ونور الدين بشأن تنسيق الجهاد في الأردن، منها ضغط أقارب صلاح الدين عليه للاستقلال بمصر، ثم الابتعاد المتدرّج عن سياسة نور الدين الشامية وخطّ سياسة خارجية أيّوبية، مصرية مستقلة. ومنها أيضا تحديد صلاح الدين لحدوده الجغرافية مع المملكة اللاتينية، وخلق منطقة واسعة محايدة، خالية من البدو الذين عُرفوا بتعاملهم مع الفرنج بنقل الأخبار والأزواد إليهم، وكلمات القاضي الفاضل خير دليل على ذلك؛ ثم إتْباع ذلك بجهاد يؤمّن الحدود المصرية أوّلا، ويحمي مصر من أية هجمات مستقبلية من جهتهم، قبل الإقدام على جهاد شامل مشترك بين مصر والشام. وقد تكون حملات صلاح الدين في أراضي الشوبك والكرك ذات أهداف استطلاعية استكشافية لأيّ تخطيط مستقبلي. فالمنطقة، كما أسلفنا، مهمة بالنسبة إلى مصر لأنّها على الطريق بينها وبين الشام، وتهدّد المارّة والتجّار والعسكر.

ولم تكن حملة صلاح الدين في هذه المنطقة الأولى ضد الفرنج، فقد قام قبلها بعام في جنوب فلسطين بحملة مشابهة لها، كما استعاد قلعة أيلة من الفرنج. ولقد فطن وليم الصُّوريّ إلى أهداف صلاح الدين العسكرية في أراضي المملكة اللاتينية المجاورة لمصر، ووضع غزوتي الكرك والشوبك ضمن إطار مخطط صلاح الدين الجهادي ضد المملكة اللاتينية، الذي بدأه بقلعة أيلة وبغزوة غزّة والداروم، ومدّه إلى الكرك والشوبك. ويذكر أن صلاح الدين هاجم المملكة اللاتينية بقوة عسكرية كبيرة، وأن الملك أموري كان ينتظر حركة صلاح الدين العسكرية هذه، فاستدعى عساكره واستصحب البطريرك الذي حمل الصليب. وتوجّه صلاح الدين إلى ما يقرب من ستة عشر ميلا من مخيّم الملك وخيّم عند عين ماء. ولكنّ الملك عندما علم بذلك قرّر أن يتجنّب مواجهة قوات صلاح الدين، وتوجّه مع قواته إلى عسقلان؛ فجاس صلاح الدين الأردن وحاصر قلعة مونتريال (الشوبك)، ولكنّ القلعة كانت حصينة الموقع والبناء. وأمّا القرية المجاورة للقلعة فكانت آهلة بالمسيحيين ومن ثم «كانت الخيانة مستبعدة منهم.» وقد حاصر صلاح الدين القلعة عدّة أيام، ثم انسحب عنها وعاد إلى مصر عن طريق الصحراء مع قواته.

ويذكر وليم الصُّوريّ أيضا أنه في السنة التالية لغزوة الشوبك، في ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، جمّع صلاح الدين عساكره من مصر وغيرها ليعوّض من فشله في احتلال الكرك والشوبك في السنة السابقة. وسار عن طريق الصحراء في شهر تموز (يوليو) حتى وصل إلى المكان الذي خيّم فيه في السنة السابقة. وكان الملك أموري يعلم مقدّما بهذه الحركة، فتوجّه مع نخبة من قوات المملكة العسكرية ليقابله، كما فعل في السنة السابقة. ولكنْ عندما علم صلاح الدين بتوجّه الملك أموري تحوّل إلى الأردن، فلم

يتبعه الملك. وتوصّل صلاح الدين إلى منطقة الكرك، حيث أتلف وأحرق الأشجار، وأمر بقطع الأعناب، وخرّب القُرى. وبعد أن سبّب ما سبّبه من دمار عاد إلى مصر.(٢١)

وكما أنّ ابن شدّاد لا يشير إلى اتفاق سابق بين نور الدين وصلاح الدين لغزو الأردن، فإن وليم الصُّوريّ لا يشير إلى وجود نور الدين في الأردن؛ ولا بدّ أن نقول أيضا إنّ بعض المؤرّخين مثل ابن الأثير، حاولوا أن يعبّروا عن ولاءاتهم الزنكية بتشويه أهداف صلاح الدين في كتاباتهم، فإذا كان صلاح الدين قد تخلّف حقّا عن الجهاد مع نور الدين، أو اضطر إلى العودة إلى مصر من دون انتظاره، فلأنه كانت تصل إليه تقارير متواصلة من مصر عن مؤامرات تحاك وثورات تُعَدّ وحملات إفرنجية في طريقها إلى مصر، مثل مؤامرة عمارة اليمني وثورة السودان وإعداد الفرنج لحصار الإسكندرية، وبالتالي فلم يكن أمامه سوى خيارين: إمّا أن يبعُد عن مصر ويبدأ الجهاد الفعلي في بلاد الفرنج تاركا ثغرة في مصر معرضة للغزو الفرنجي، وعاصمته بلا حامية، وإمّا أن يظل في القاهرة حتى يتغلّب على جميع الأخطار المحيقة به ثم يبدأ عملية الجهاد. ولا شك في أنه اختار الخيار الثاني، وكان وراءه القاضي الفاضل الذي كان يزوّده بالمعلومات عمّا يجري داخل مصر وخارجها ويساعده في التخطيط.

(هـ) الخلاف في شأن مخلّفات الفاطميين

وكانت آخر ظاهرة من ظواهر التوتّر بين صلاح الدين ونور الدين، في سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣ ـ ١١٧٤م، عندما أرسل نور الدين الموفّق بن القيسراني إلى مصر ليطالب صلاح الدين بحساب جميع ما حصّله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد. فقد أغضب هذا التصرّف صلاح الدين في بداية الأمر، ولكنه عاد وزوّد نور الدين بما طلب وأرسل له هدايا ثمينة مع ابن القيسراني،(٢٢) ولكن نور الدين توفّي قبل أن يتسلّمها، أو حتى قبل أن يصل ابن القيسراني إلى دمشق.

ويروي عماد الدين الأصفهاني أن نور الدين كان يريد الحصول على المعونة العسكرية من صلاح الدين، لا المعونة المالية، ويذكر أنه عندما وصل إليه بعض الهدايا من مصر علّق قائلا: «ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدّ به خلّة الإقلال، فهو يعلم أننا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في ما

(٢١) William of Tyre, *op.cit.*, pp. 388-389.

(٢٢) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠ ـ ١٣٧، ١٤٧؛ للمزيد من التفصيلات: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦، ٥٥٨ ـ ٥٥٩؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

مقابله ما جدنا به قدر. وتمثل بقول أبي تمام:

لم ينفقِ الذهبَ المُربي بكثرتِهِ على الحصا وبه فقرٌ إلى الذهبِ

لكنه (صلاح الدين) يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عمّ بالفرنج بلاء البلاد؛ فيجب أن يقع التعاقد على الإمداد بالمعونة، والمعونة بالأمداد. فاستنزره وما استنفره، واستقل المحمول في جنب ما حرّره، وتروّى فيما يدبّره، وأفكر فيما يقدّمه من هذا المهم ويؤخّره.»[٢٣]

وقد يسأل متسائل: أين كان القاضي الفاضل في أثناء هذه الأوضاع التي استغرقت عامين؟

ذكرنا في أكثر من موضع أن القاضي الفاضل بدأ يعيد تنظيم أجهزة صلاح الدين الإدارية منذ وُلّي صلاح الدين الوزارة، ومن ثَمَّ فإنه كان ولا شكّ من الناصحين بتأخير قطع الخطبة للفاطميين حتى يتمّ تنظيم الدواوين وتنظيم القوات العسكرية نهائيا، لتكون الحكومة فعّالة والجيش مستعدا للدفاع عن مصر داخليا وخارجيا. فإن شغله الشاغل كان منذ البداية حماية مصر من الفرنج، وقد رأى في صلاح الدين خير من يقوم بهذه الحماية، ولذلك ساعده في خطواته الإدارية الإعدادية للقضاء على الخلافة الفاطمية في وقتها الملائم، وفي الوقت الملائم لمصر أكثر مما هو للشام. ومن هنا يمكن القول إن تأخير إعلان الخطبة للخليفة العبّاسي لم يكن تلكّؤا مفتعلا من صلاح الدين، بل كان ضرورة حتمية تطلّبتها الأوضاع والأحداث. ولو لم يكن لصلاح الدين عسكر حارب به السودان لقضى السودان على وجوده ومَنْ معه، ولو لم يكن له جيش يحارب به الفرنج المحاصرين لدمياط وللإسكندرية، لقُضي على مصر؛ ولقد وقف القاضي الفاضل إلى جانب صلاح الدين في هذه الأعوام القليلة العسيرة، يحرس حكمه بأجهزته وينوب عنه برسائله التي استعمل فيها كل ما لديه من حنكة للتخفيف من حدّة غضب نور الدين وشكوكه. فقد كان هو الذي يراسل، في الشام، عماد الدين الأصفهاني الذي كان ينوب بدوره بالكتابة عن نور الدين، وكان يدري بتفصيلات ما يجري فيها، ومع هذا فلم يُبدِ في كتاباته أو أقواله ما يثير شكوك أية جهة حوله. فرسائله إلى نور الدين خلال هذه الفترة مكتوبة بأسلوب بسيط، تصف ما يجري في مصر كما يشاهده ويلمّ به ويعرفه، ولو أثار هو أو صلاح الدين أيّ شك في نيات استقلالية لصلاح الدين بمصر فربّما كان نور الدين قد تردّد في مساعدة صلاح الدين عندما هاجم الفرنج دمياط سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٢م، بتخفيف الضغط عنه بمشاغلة الفرنج على الجبهة الشامية.

---

(٢٣) البنداري، المصدر نفسه، ص ١٢٣ ـ ١٢٤؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

وأمّا من ناحية الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين بشأن محاصرة الفرنج في الكرك والشوبك، فربّما أدّى فيها بعض أقارب صلاح الدين دورا بأن أبدوا تخوّفاتهم من نور الدين. ولكن الأحداث التاريخية تشير إلى أنه عندما تواعد نور الدين وصلاح الدين على الاجتماع على الكرك والشوبك أول مرة توجّه صلاح الدين إلى المنطقة، ولكن البدو هاجموه قبل أن يصل إليها، فقاسى وعسكره الكثير، «وعُدِم خيلا وظهرا وعدّة»،[٢٤] وعاد إلى القاهرة (في نصف ربيع الأول) ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، من دون أن يكمل رحلته.

قام صلاح الدين بهذه الرحلة في الثاني والعشرين من محرّم ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، أي بعد القضاء على الخلافة الفاطمية بأسبوعين. وقد حشد لها الكثير من قواته الجديدة، ولكنّه لم يكن مع هذا يضمن الوصول إلى الكرك أو الشوبك سالما، بعد ما تجشّمه من خسائر على يد البدو. ثم إن الفرنج كانوا رابضين بالقرب من الطريق ومستعدين، بقيادة أموري، للقائه في أية لحظة للقضاء عليه أو على حكمه. كما أنه كان يخاف حقا من هجوم فرنجي على مصر، ومن المؤامرات الداخلية.

وأمّا الحملة الثانية المتّجهة إلى الكرك والشوبك (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، وقد اشترك فيها القاضي الفاضل أيضا، فلم تكن أصلا لجهاد الفرنج، ولم تأتِ بناء على اتفاق سابق بين صلاح الدين ونور الدين، بل وُجّهت للثأر من البدو الذين تعرّضوا لصلاح الدين في المرة الأولى ونكّلوا بقواته.[٢٥]

وأخيرا فإن بعض المؤرخين أشار إلى أن صلاح الدين قصّر في إرسال الأموال والأزواد إلى نور الدين. وإذا كان هناك إداري مصري يعلم بإمكانات مصر المادية فهو القاضي الفاضل، لأنه كان مطّلعا على الإدارة المالية منذ عمله بديوان الجيش. ثم إن الإدارة المالية، أو جميع الدواوين المختصة بالإدارة المالية، أصبحت بإشرافه مُذ تولّى الوزارة لصلاح الدين. ومن ثَمَّ فهو أعلم بما يمكن إرساله إلى نور الدين. ومع أن القاضي الفاضل كان لا يزال ينظّم الإدارة المالية، باحثا عن موارد شرعية لميزانية الدولة بدل الموارد غير الشرعية التي عمل على إلغائها، فإن أموال الدولة الفاطمية عامّة كانت محدودة، وقد بدّدها شاور خلال حربه مع قوات نور الدين التي جاءت إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين. وقد وصف المقريزي الوضع المالي في مصر في آخر عصر شاور مشيرا إلى أنّ شاور كان قد عرض على أموري سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م مبلغ أربعمائة ألف دينار معجّلة إذا انسحب عن القاهرة، فوافق، ولكن عندما راح شاور

---

(٢٤) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥١٨ - ٥١٩.

(٢٥) Ehrenkreutz, *op.cit.*, pp. 105-108.

يبحث عن هذا المبلغ لم يجد في خبايا القصر سوى «مائتي ألف دينار مدفونة في أحد كمّي المجلس من ذخائر الخليفة الحافظ، أطلعهم عليها أحد أستاذي القصر»؛ فأُخرجت وحُمل إلى الفرنج منها مائة ألف دينار أخذها الفرنج بعد شيء من التردّد. وعندما راح شاور يبحث عن الأموال لدى أهل القاهرة، لم يتمكّن من الحصول على أكثر من خمسة آلاف دينار «لفقر أهل مصر ولسوء حالتهم، وذهاب أموالهم في الحرق والنهب بحيث لا يجدون القوت عجزا عنه.»[٢٦]

لكنْ من الممكن أن يكون قد وقع خلاف بشأن كنوز القصور الفاطمية التي استولى صلاح الدين عليها بعد القضاء على الفاطميين. ولقد اشتدّ ذلك الصراع بحيث أصبح من غير المستبعد من أي منهما أن يغمض عينا عن مأزق يحلّ بالآخر على يد الفرنج أملا بأن يضعف المأزق من شوكته ويلطّف خطره، وقد يتوازن هذا الأمر في أحيان أُخرى مع التشبُّث بالهدف الأكبر، وهو إلحاق الهزيمة بالفرنج.

ولعلّ وفاة نور الدين المبكّرة كانت حكمة سياسية لتفادي تصادمهما. وإن اختلف آل أيوب وآل زنكي في مصر والشام فإن القاضي الفاضل عمل جهرا أحيانا، وأحيانا خفاء، على حلّ خلافاتهما سلميا، لحقن دماء المسلمين والتركيز على جهاد الفرنج.

ثانيا: الشام في عهد نور الدين

(أ) التقسيمات الإدارية

لمّا كانت مسيرة القاضي الفاضل قد أصبحت منذ سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٣م مرتبطة بكل من مصر والشام، فلا بدّ لنا من بضع كلمات عن وضع الشام، عندما أصبح القاضي الفاضل هو المسؤول عن إدارتها إلى جانب مصر.

كانت الشام من بصرى إلى الموصل تحت سلطة آل زنكي ومعظمها تحت نفوذ نور الدين الذي وحّد المنطقة من الشمال إلى الجنوب لحمايتها من الفرنج وتقويتها أمام توسّعهم. ولمّا كانت المساحات شاسعة، فقد قسّم نور الدين المنطقة عدّة مقاطعات جغرافية وسياسية تحتوي كل منها على عدد من المدن المهمة. فالمنطقة الشمالية التي عُرِّفت بالجزيرة كانت تضم ديار ربيعة، ومنها نصيبين وماردين والخابور ورأس العين، وعاصمتها الموصل؛ وديار مُضر، ومن مدنها الرقّة، وعاصمتها الرُّها؛ ثم ديار بكر وعاصمتها آمد.

وتلا الجزيرة جنوبا مقاطعة حلب، وهي المنطقة المحاطة بنهر الفرات شرقا ونهر

(٢٦) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

العاصي غربا، وعاصمتها حلب، وضمنها بعض المدن الشمالية المهمة مثل منبج وتل باشر وعين طاب وقلعة جعبر وحارم ومعرّة النعمان وجبل السمّاق وبعرين ورفانية وشيزر وسلمية. وكانت هذه المقاطعة أكثر المناطق تعرُّضا للهجمات الإفرنجية.

وإلى الجنوب من مقاطعة حلب، كانت مقاطعة حمص، وعاصمتها حمص، ومن المدن التابعة لها حماة وتدمر والرحبة وكفرطاب. ومع أن نور الدين منح مقاطعة حمص إقطاعا لأسد الدين شيركوه سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، إلا إنه جعلها تابعة لدمشق، ربّما للحد من قوّة أسد الدين وتطلّعه إلى التوسُّع.

وإلى الجنوب من حمص كانت مقاطعة دمشق وعاصمتها دمشق، وهي بدورها مقسّمة إلى عدة مناطق جغرافية، منها منطقة الغوطة ولبنان الشرقي أي البقاع وبعلبك؛ ومنطقة الحولة وبانياس؛ وكانت مدينة بانياس من المدن المعرّضة لهجمات الفرنج والمسلمين. وقد احتلّها الفرنج في بداية أمرهم ثم استردّها نور الدين، وحاول الفرنج أن يستعيدوها بعد وفاته حالا، الأمر الذي دفع بصلاح الدين إلى أن يُسرع في التوجّه إلى الشام لحمايتها.

ومن المناطق التابعة لدمشق أيضا منطقة بردى والزبداني، ومنطقة قطنة وراشيا ثم منطقة حوران وفيها بصرى وصرخد.[(٢٧)]

ظلّت حلب عاصمة حكم نور الدين إلى أنْ استولى على دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، فنقل مركز حكمه إليها، ولكنّه عيّنَ شمس الدين علي بن الداية واليا على حلب ونائبا له فيها يساعده إخوته، وترك قسما كبيرا من عساكره فيها لأهمّية مركزها الجغرافي القريب من الفرنج في شمال الشام؛ ولوجود أكثرية سكّانية من الشيعة الذين كان نور الدين يخاف من قوّتهم؛ ولقربهم أيضا من الحشيشية الإسماعيلية الذين كان نور الدين يتوجّس شرّهم.

لقد فضّل نور الدين نقل عاصمته إلى دمشق، فهي أبعد عن مناطق نفوذ الشيعة والحشيشية، وأقرب إلى المملكة اللاتينية التي كانت تهدّدها. وقد ارتأى لنفسه دورا شبيها بدور الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وحاول من ثَمَّ أن يعيد إلى دمشق مجدها الثقافي الديني الذي تميّزت به في عهد ذلك الخليفة الصالح.

ومع ما قام نور الدين به من تقسيمات إدارية على أساس إقطاعي، فإنه لم ينظر في عاقبة بعض التقسيمات الخطرة في حال وفاته. فقد فصل بين إقطاعات المدن وقلاعها، موزّعا إيّاها بين مُقطَعين مختلفين وأحيانا متنافسين. ولعله قام بذلك لضبط المُقطَعين عن

---

(٢٧) Nikita Eliséef, *Nur Ad-Din: un Grand Prince Musulman* (Damas: Institute Français de Damas, 1967), Vol. III, pp. 781-783.

طريق مراقبتهم بعضهم بعضا. ولكنّ هذه السياسة أخفقت حالَ وفاته، إذ حاول كل مُقْطَع أن يستقلّ بما بين يديه، بل راح بعضهم يتآمر مع الفرنج ضد الآخرين.[٢٨]

ويمكن القول، بناء على هذا العرض السريع، إنّ دولة نور الدين كانت موحّدة في الظاهر، ولكنْ مقسّمة في الحقيقة بين أمراء وأفراد يدينون بالولاء للحاكم الذي يُبقي إنعامه عليهم، ويتطلّعون في الوقت ذاته إلى زيادة هذه النِعَم بأية وسيلة، بما فيها الوسائل الحربية والعسكرية.

ولم يمنع هؤلاء الأمراء من التمرُّد على نور الدين في حياته سوى كرمه وقوّته وحسن سياسته، ولكنهم راحوا، حالما تُوفّي، يتطلعون إلى التوسُّع والاستقلال، الأمر الذي شكّل خطرا على الشام.

ولم يكن ضعف الدولة النورية البنائي الأساسي راجعا إلى تقسُّم الولايات والولاءات والأهواء فحسب، بل إلى تقسّم الجيش أيضا، لأنه مع توزيع المناطق والمدن إقطاعات على الأمراء، فإن نور الدين اعتمد على هؤلاء المقطَعين في تزويده بالعساكر لدى تحرّكه العسكريّ ضد الفرنج أو غيرهم. وقد أشرنا سابقا إلى قوات أسد الدين شيركوه الخاصّة التي اصطحبها معه إلى مصر، بالإضافة إلى بعض القوّات النورية التي استقرّت معه في مصر وساندت صلاح الدين بعده فيها. وهذه دلالة على أنه كان للعساكر الإقطاعية أكثر من ولاء واحد، أحدهما للمقطَع الذي كان يجنّدهم ويضمّهم إليه بشتى الطرق، بما في ذلك شراؤهم، كما فعل أسد الدين وصلاح الدين، مع المماليك الذين ضمّوهم إلى صفّهم. وثاني هذه الولاءات للحاكم، مثل نور الدين، ومن بعده صلاح الدين. ولم يكن هذا الولاء ثابتا دائما. وقد علّق عماد الدين الأصفهاني على مسؤولية المقطَعين العسكرية تجاه نور الدين بقوله:

«وكان من عادة نور الدين أنه إذا أقطع أميرا وعينّ بعبرته ضياعا قرّر عليه رجالا ذوي عدد، لا ينقصون في خيل وسلاح وعُدَد. فإذا نقص مُغِلّ الإقطاع عن المبلغ أتمّ له نقدا من خزانته.»[٢٩]

---

(٢٨) مثال ذلك: بينما كان ابن عم نور الدين، سيف الدين بن قطب الدين بن زنكي، حاكما على الموصل، وضع نور الدين سعد الدين كمشتكين دزدارا للقلعة فيها. أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩١؛ كما ولّى قلعة حلب لِشاذبخت الخادم النوري، بينما ولّى المدينة وأمورها لوضيعه مجد الدين بن الداية. أبو شامة، المصدر نفسه، ص ٥٩٣، ٥٩٥.

(٢٩) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢؛ للتفصيلات: عز الدين ابن الأثير، «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات (القاهرة: دار الكتب الحديثة بالقاهرة؛ بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٣)، ص ١٦٩. سنشير إلى هذا المؤلف من الآن فصاعدا، بـ «الباهر»، تمييزا له من «الكامل».

ولمّا لم يكن النظام الإقطاعي المطبّق في الشام يتيح ولاء عاليا من قِبَل المُقْطَع المرؤوس إلى مُقْطِعه الرأس، فإنّ الولاءات لم تكن قاطعة وحادّة، وكانت تُبذل الجهود لملء الفراغات ووصل الحلقات الضعيفة حتى لا يحدث تزعزُع مفاجىء في السلطنة. ولذلك كان نور الدين، مثلا، يجمع العسكر في حالة تجمُّع دائم وتدريب دائم، لربط الأمراء ربطا مُحْكَما.

وقد وصف عماد الدين الأصفهاني عرضا لعسكر نور الدين بقوله:

«وأمر (نور الدين) أن يركب كلّ يوم أمير بعُدّته، وهيأة بأسه في الحرب وشدّته. ونحن (عماد الدين وغيره من المسؤولين) نبكّر لعرضه، والأمير الحاجب ضياء الدين بَكْر يَسان متولي هذا الأمر، وهو يجمعنا كل يوم من الفجر.»[٣٠]

(ب) الإدارة في دمشق

كانت إدارة نور الدين المركزية في دمشق متمركزة في قلعتها، ولكنها لم تكن إدارة منظّمة كالإدارة الفاطمية التي ورثها صلاح الدين، لأنها كانت تتمحور حول الأشخاص بدل المؤسسات الإدارية أو الدواوين التي هيأت لمصر استمرارية في الإدارة على الرغم من تغيُّر الحكّام.

كان نور الدين الحاكم الفعلي للشام يطّلع على كل كبيرة وصغيرة، ويعرف ما يجري في دولته وخارجها. وقد أشار ابن الأثير وغيره من المؤرّخين إلى كثير من صفاته التي تشير إلى اشتراكه في مشارفة أمور دولته، وعلى عدله وأعماله الخيرية، بقوله: «وأمّا هيبته (نور الدين) ووقاره فإليه النهاية فيهما. ولقد كان كما قيل: شديد في غير عنف، رقيق في غير ضعف. واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس المُلك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها.»[٣١]

كما وصفه عماد الدين الأصفهاني بقوله أنه «كان مَلِكَ الشام ومالكها، والذي بيده ممالكها، أعفّ الملوك وأتقاهم وأثقبهم رأيا وأنقاهم... وكان عصره فاضلا، ونصره واصلا، وحكمه عادلا، وفضله شاملا؛ وزمانه طيّبا، وإحسانه صَيّبا؛ والقلوب بمهابته ومحبّته ممتلية... وأوامره ممتثلة، وجِدّه منزّه عن الهَزْل، ونوّابه في أمن من العَزْل؛ ودولته مأمولة مأمونة، وروضته مصوّبة مصونة، والرياسة كاملة، والسياسة شاملة.»[٣٢]

كان نور الدين يتعاون في حكمه مع قادته العسكريين وموظّفيه المدنيين. ففي

(٣٠) البنداري، المصدر نفسه.

(٣١) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، قسم ١، ص ٢٣.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٥؛ ابن الأثير، «الباهر»، ص ١٧٤.

دمشق مثلا كان يعتمد على كبير أمراء دولته شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدَّم، وعلى متولّي القلعة والشحنة جمال الدين ريحان.

وأمّا في الإدارة المدنية فكان يعتمد على عدد من الأشخاص الذين كان أكبرهم قدرا ومكانة القاضي الشيخ كمال الدين الشهرزوري، قاضي دولة نور الدين في دمشق، والمشرف العام على الإدارة المدنية في الشام. وقد وصفه ابن واصل بأنه مدبّر دولة نور الدين إليه قضاء القضاء والتحكّم في الدولة،(٣٣) ووصفه ابن الأثير بأنه كان «قاضي بلاد نور الدين مع الوقوف والديوان.»(٣٤)

ووصف عماد الدين الأصفهاني سلطة الشهرزوري في آخر سنة من حياة نور الدين، ٥٦٩هـ / ١١٧٣ ـ ١١٧٤م بقوله: إن نور الدين صرف في هذه السنة الشِحَن (الشرطة) «وقال للحاكم (الشهرزوري) انظر أنت في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميّز بين المحاسن والمساوي، واحمل الأمور فيها على الشريعة.»(٣٥)

كان الشيخ كمال الدين الشهرزوري بمثابة وزير لنور الدين يعادل في سلطته سلطة القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين.

وكان يساعد القاضي كمال الدين الشهرزوري خازنُ بيت المال واسمه ولي الدين إسماعيل، والموفّق خالد بن القيسراني، مستوفي الدولة، وهو الذي أرسله نور الدين إلى مصر لينظر في أمر مخلّفات الفاطميين ويحصيها. وقد عمل هذا مع القاضي الفاضل في مصر في الإشراف على عملية الإحصاء. وموظف ثالث اسمه أبو صالح بن العجمي، ناظر ديوان نور الدين وكان، على رأي عماد الدين الأصفهاني، قليلا ما يفهم العربية ويتكلمها بلكنة ظاهرة، وجمال الدين ريحان والي القلعة.(٣٦)

ولعل أهمّ موظف مدني في دولة نور الدين، بعد القاضي الشهرزوري، هو عماد الدين الأصفهاني الكاتب الذي تولّى كتابة الإنشاء في دولة نور الدين منذ بداية سنة ٥٦٢هـ/١١٦٣م، وهي السنة التي قصد فيها أسد الدين شيركوه مصر ثاني مرة. ويذكر عماد الدين في تعيينه بالإدارة والكتابة في دمشق أنّ القاضي كمال الدين الشهرزوري عرّفه بنور الدين ورسّخه للعمل في الكتابة وقرّر له راتبا وقال له: «لا بأس بأن تكتب إليه (إلى نور الدين) أبياتا، ونحن نرجو لك في دولته ثباتا، وفي روضته نباتا»، ففعل ذلك، وأضاف عماد الدين قائلا: «فرتّبني في ديوانه منشئا.» وأصبح عماد الدين منذ تعيينه كاتبا

(٣٣) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٩.
(٣٤) ابن الأثير، «الكامل»، ج ١٠، ص ٨٤.
(٣٥) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٣١، ١٥٤، ١٥٦.

لنور الدين من أقرب المقرّبين إليه، يسافر معه ويكتب عنه، وقد تعرّف في أثناء إحدى رحلات نور الدين إلى حماة إلى أسد الدين شيركوه فأكرمه وأنزله بخيمة قريبة من خيمته.
وقد واجه عماد الدين في بداية عمله مع نور الدين شيئا من المنافسة والرفض، من قِبَل بعض الكتّاب الدمشقيين، ربّما لقربه من نور الدين من ناحية، ولكونه عجميا من ناحية أخرى، ولكنه برهن للجميع ـ على حدّ قوله ـ أنه كفء للمهمة التي وكله بها نور الدين.(٣٧)

ويشير إلى كتّاب نور الدين وموظّفيه ذاكرا أنّه:

«كتب إلى الأعاجم بما سحرهم وبهرهم، وإلى ملوك الشام ومصر بما أعجزهم وأعجبهم، وصار نواب ديوانه (أي ديوان نور الدين) يستغربون ويستهزئون ويهمزون ويلمزون، وبألفاظهم وألحاظهم يغمزون ويرمزون. لأني خرقت عادتهم وأعلمتهم بجهالتهم، وأرشدتهم من ضلالتهم... حتى جرى بسكوني وسكوتي قلمي، وعلا بمنار عِلمي عَلمي، ورجعوا إليّ، واجتمعوا عليّ، وأنا على مرّ الجديدين أتجدّد في بناء النباهة، وأجلو بأسراري أسارير وجه الوجاهة. وزاد نور الدين دنوّي نورا وملأت صبح دولته ووجه مملكته بما أمليته إسفارا وسفورا، وتأكّدت رغبته، وتمهّدت محبّته وتكرّرت موهبته.»(٣٨)

ولا بدّ من القول إن انضمام عماد الدين الأصفهاني إلى خدمة نور الدين، كان من مفاخره، لأن هذا الكاتب أصبح من أكبر مفكّري الجهاد ودعاته ومؤرّخيه في دولتي نور الدين وصلاح الدين. وقد اعتمد على كتاباته كل مَنْ تبعه من مؤرّخين لفترة هذين السلطانين. وتذكرنا تجربة عماد الدين الأصفهاني في الشام بتجربة القاضي الفاضل في مصر، فكلاهما غريب عن المجتمع الذي عمل فيه، وكلاهما أتقن الكتابة، وأدّى دورا في الدولة التي خدم فيها. وعندما اجتمعا أصبحا خيرَ صديقين.

ولقد زاد نور الدين عماد الدين تشريفا عندما ولّاه سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م «إشراف ديوانه»، فزاد من مسؤولياته بأن أضاف إليه المراقبة وتفتيش أمور الدواوين. ويُعلق عماد الدين على هذه الوظيفة الجديدة بقوله أنه كان في منزله يوما عندما جاءه خازن نور الدين، ولي الدين إسماعيل وقال له: «يأمرك (نور الدين) بأن تتولّى إشراف مملكته، وتكون الحافظ الأمين في دولته.» ويعقّب عماد الدين قائلا: فقلت: «يعفيني فأنا وحيد في الغربة، وبهذا العمل عديم الدُربة. وهؤلاء النّواب قد خلا لهم الميدان، وطاوَعَهم على تقادُم السنين الإمكان. ولهم خبرة بالأعمال ومعرفة بالأحوال. وكأنهم على

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٢١ ـ ١٢٢.
(٣٨) المصدر نفسه، ص ٦٧ ـ ٦٨.

حُصُنهم العربية وقد حازوا قصب الرهان، وكأني على برذون أعرج فكيف أسابقهم في الميدان؟» فعاد بالجواب وقال: «اتّبع أوامرنا وأنت على الصواب.» فوافق عماد الدين على حمل هذه المسؤولية الكبرى التي قرّبته من القاضي الفاضل فيما بعد. ويعلّق على مسؤولياته الإضافية بقوله:

«فجمعت بين المنصبين وقسمت زماني على النصيبين، فمرّة للكتب والمناشير، وتارة للإثبات في الدساتير، ولم أثق بنائب، وباشرت العمل بنفسي، على أنهم لا يلتفتون نحوي، ولا يبالون بكدري وصفوي، ولا يجرون إلا على ما ألفوه من العادة، ولا يشاورونني في الإبداء والإعادة. فما زلت أرود من طباعهم، وأصدّ أطماعهم حتى قويتُ على العمل، ورويت من علّه والنهل.»[٣٩]

وعندما أرسل نور الدين الموفّق خالد بن القيسراني، مستوفي دولته، إلى مصر لمحاسبة صلاح الدين، أضاف إلى عماد الدين مسؤولية استيفاء الدولة. ويعلّق عماد الدين على هذه المسؤولية الجديدة بقوله إن الموفّق خالد بن القيسراني أراد «أن يستنيب أحد إخوته ومن يثق بكفايته. فقال له نور الدين: 'يقوم العماد بهذا الشغل'! فجمعت الإنشاء والإشراف والاستيفاء. ووجدتِ الخِدَمُ الثلاثُ بكفالتي وكفايتي الوفاء.»[٤٠]

أصبح نور الدين يعتمد على عماد الدين اعتمادا كبيرا وصفه بقوله: «ثم اعتمد عليّ اعتمادا كليا، وجعلني له نجيّا. وإذا أراد أن يكتب إلى أحد في مهمّ يقول: أكتبْ إليه من عندك. ومن جملة ذلك أن سعد الدين كمشتكين، نائبه في الموصل في خدمة سيف الدين صاحبها أخذ من رجل ألف دينار بعلّة علّلها. فجاء وتظلّم. فأمرني نور الدين بأن أكتب إليه بردِّها عليه. فقال: 'ما ينفعني إلا كتابه وتوقيعه'. فأنهيت ذلك إليه. فقال: 'ما معناه؟ أما يعلم كمشتكين أنّك كاتبي وأميني وصاحبي، ولا تكتب إلا بأمري. فإن خالف كتابك إليه قلعتُ عينيه'، فمضى إليه بكتابي فسارع إلى طاعته، وردّ عليه الألف (دينار) في ساعته.»[٤١]

إذا كنّا أطلنا الحديث عن عماد الدين الأصفهاني، فلأنه شكّل حلقة ذات شأن في تاريخ العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين، إذ كان على اتصال دائم بديوان الإنشاء المصري، أي بالقاضي الفاضل، يُعْلِمه بما يجري، ويستلم منه الأخبار المصرية. وإنْ كان قد أخلص لنور الدين ومن بعده لصلاح الدين، فإنه قام بدور خفيّ في الأحداث التالية لوفاة نور الدين في دمشق والشام وهيّأ صلاح الدين، عن طريق مراسلاته مع

---

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

القاضي الفاضل، لقصد دمشق. ثم انضمّ إلى خدمتهما عندما دخل صلاح الدين الشام سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م.

هذا ما كانت دولة نور الدين عليه عندما آذنت حياته بالنهاية، وقد عمل القاضي الفاضل مع معظم الرجالات الذين أشرنا إليهم في هذا البحث.

ثالثا: الفتنة في الشام
عقب وفاة نور الدين

(أ) وفاة نور الدين (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)
وأثرها في الوضع السياسي في الشام

بينما كانت السلطات الإدارية في مصر تعمل على تجهيز تقرير مفصّل عن وضع مصر المالي لنور الدين، كان نور الدين في دمشق ينشىء المؤسسات الخيرية والثقافية ويتصدّق على الفقراء والمحتاجين بالمال والغلّة، ظانّا أنه أخضع صلاح الدين لسلطته، وأن أموال مصر في طريقها إليه. ولم يكن يدري أنّ المنيّة في انتظاره هذه السنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)، وأنّ صلاح الدين سيرث ملكه.

فقد صام نور الدين شهر رمضان من هذه السنة، وأمر بإعداد احتفالات خاصّة لعيد الفطر الذي أراده عيدا لأهالي الشام بأجمعهم، يشاركونه فيه فرحته بختان ابنه الوحيد الملك الصالح إسماعيل في عيد ميلاده الثاني عشر. فزُينت دمشق وأغلقت محالُّها ومؤسساتها وأقيمت الحفلات في كل مكان.

وركب (نور الدين) كعادته «على الرسم المعتاد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد.»[٤٢] فوقف في الميدان الأخضر الشمالي، كما روى عماد الدين الأصفهاني، «لطعن الحلق ورمي القبق، وحوله كماة الكفاح ورماة الحدق، والأكابر تحت ركابه وقوف، والعساكر للمثول ببابه صفوف، والسوابق مضمرة، والبيارق مشهرة، واليوم يوم الزينة، والنظّارة أهل المدينة.»[٤٣] وضُربت له (لنور الدين) خيمة في الميدان ذاته وضع فيها منبر للخطبة. وبعد الانتهاء من الاحتفالات الدينية والدنيوية عاد نور الدين إلى القلعة، وأنهب سماطه العام على عادة الأتراك لمن يقصده،[٤٤] ثم جمع مع رجالات

---

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) المصدر نفسه؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

دولته وبينهم عماد الدين الأصفهاني على خوانه الخاص والجميع يتسامرون ويمزحون ويضحكون.

وفي اليوم الثاني من أيام عيد الفطر ذهب إلى الميدان مرّة ثانية، محاطا برجال دولته وفقهائها، يتحاورون في شتى الموضوعات، فتركهم ليلعب الكرة المحبّبة إليه، ولكنّه أحسّ بشيء من التعب، فاستأذن، وعاد إلى القلعة حيث اشتد به المرض وتوفّي بعد تسعة أيام. أي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م.(٤٥)

كانت وفاة نور الدين صدمة كبرى للمسلمين الذين كانوا قد التفّوا حوله، واعتبروه القائد الوحيد القادر على مجابهة الفرنج وكسر شوكتهم، والموحّد لصفوفهم. واهتزّت دمشق للصدمة المفاجئة، وتبلبلت قيادتها، فنور الدين لم يخلّف نظاما إداريا يقوم بالأمر أو الإدارة إلى أن يقوم حاكم آخر مقامه، ولم يخلّف سوى ابنه الملك الصالح إسماعيل، الذي كان بحاجة إلى راعٍ أو كافل يكفله؛ ومجموعة من الموظفين العسكريين والمدنيين الذين كان يعتمد عليهم في حياته، وهم شمس الدين المقدَّم، والقاضي كمال الدين الشهرزوري، والطواشي جمال الدين ريحان والي القلعة، وغيرهم، بالإضافة إلى عماد الدين الأصفهاني كما ذكرنا. ولم يكن هؤلاء القادة مهيّئين لتحمّل مسؤوليات كالتي تحمّلها نور الدين لأنه كان لكل منهم أطماعه وطموحاته. ولقد حاولوا، في بداية الأمر، أن ينظّموا أنفسهم بتعيين شمس الدين المقدَّم مقدَّما عليهم وتوكيله بكفالة الملك الصالح إسماعيل. ولكنْ لم تمضِ أيام قليلة حتى بدأوا يتصارعون ويتنافسون، لا بشأن كفالة الملك الصالح فحسب، بل أيضا بشأن أملاك نور الدين وإرثه. وكأن هذه الصراعات بشأن السلطة والأموال لم تكفِ، فقد أعاد بعض هؤلاء القادة المكوس(٤٦) التي كان نور الدين قد ألغاها لعدم شرعيتها، وساء هذا الفعل القاضي كمال الدين الشهرزوري فانشقّ عنهم حالما تحقّق من نياتهم، وطلب من ابن المقدّم إعلام صلاح الدين بما يجري في الشام واستشارته في أمر خلافة نور الدين بالحكم، قائلا: «المصلحة تقتضي أن نشاوره (أي صلاح الدين) في الذي نفعله ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجّة علينا؛ وهو أقوى منّا لأنه انفرد اليوم بمُلك مصر. فلم يوافق هذا القول أغراضهم، وخافوا أن يدخل صلاح الدين الشام ويخرجهم.»(٤٧)

ولقد احتذى عماد الدين الأصفهاني القاضي كمال الدين الشهرزوري، فانفصل عن

---

(٤٥) البنداري، المصدر نفسه، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٤٦) كان نور الدين قد ألغى المكوس قبيل وفاته بقليل، سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م. أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨ ـ ١٢٩؛ البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٤٧) ابن الأثير، «الكامل»، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٥٨.

قادة دمشق لأن رؤيته لمجرى الأحداث ولمستقبل الشام والمنطقة اختلفت عن رؤيتهم؛ فقد أراد الوحدة ولمّ الشمل، بينما عمل هؤلاء على التشتيت والتفرّق، وصبا إلى الجهاد وتحرير القدس، ولكنّ هؤلاء صالحوا الفرنج الذين سارعوا إلى غزو الشام حال وفاة نور الدين، وحاصروا بانياس؛[٤٨] كما دفعوا لهم ثمن انسحابهم عنها مبالغ طائلة من المال، كان من الأولى استخدامها في الجهاد. وأطلقوا أيضا بعض كبار الأسرى الفرنج.[٤٩] ورأى عماد الدين الأصفهاني إنجازات نور الدين على جبهة الجهاد خلال مدة تزيد على العشرين عاما، تذهب هباء، فعبرّ عن مصابه ومصاب الإسلام بوفاة نور الدين، وعن تخاوفه بسبب الفراغ القيادي الناجم عنها، في رثاء طويل لنور الدين يقول من جملته:

الـديـنُ فـي ظُـلَـمٍ لـغـيـبـة نـورِهِ   والـدهـرُ فـي غُـمَـمٍ لـفـقـد أمـيـرِهِ
فـلـيـنـدبِ الإسـلامُ حـامـيَ أهـلِـهِ   والـشـامُ حـافـظَ مـلـكِـهِ وثـغـورِهِ

* * *

ويقول:

مَـنْ يـنـصـر الإسـلام فـي غـزواتـه؟   فـلـقـد أصـيـبَ بـركـنِـهِ وظـهـيـرِهِ
مَـنْ لـلـفـرنـج وَمَـنْ لأسـرِ مـلـوكِـهـا؟   مَـنْ لـلـهـدى يـبـغـي فـكـاك أسـيـرِهِ

* * *

أوَمـا وعـدتَ الـقـدسَ أنـك مـنـجـزٌ   مـيـعـادَه فـي فـتـحِـهِ وظـهـورِهِ
فمتى تـجـيرُ الـقـدسَ من دَنَسِ العِدا   وتُـقـدّسُ الـرحـمـنَ فـي تـطـهـيـرِهِ[٥٠]

ووصف (عماد الدين) الفوضى التي تلت وفاة نور الدين في دمشق قائلا: «وكانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض (القادة الدمشقيين) يُتبعون ما أبرموه أمسِ في يومٍ بنقض. ولهم كل يومٍ قَسَم حدّدوه، ويمينٌ يمينُ الحالف بها لا محالة بما شرطوه فيها منَ المحال وأكّدوه، وكَم عقدوا ما حلّوه، وحلّوا ما عقدوه.»[٥١]

وأشار إلى تضعضع مكانته في الدولة عقب وفاة نور الدين قائلا: «ولما توفّي نور

(٤٨) لتفصيلات حصار بانياس: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨٩؛ البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥ - ١٥٦.
(٤٩) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥ - ١٥٦؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨٩.
(٥٠) قصيدة رثاء نور الدين في: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢٥ - ٦٢٧.
(٥١) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٠.

الدين اختلّ أمري، واعتل سرّي، وفاض دمعي، وغاض بحري، وعلت حُسّادي، وبلغ مرادّهم أضدادي.»(٥٢) ويستشف من أقوال عماد الدين أن القادة الحكّام الجدد ربما حاولوا التخلّص من موظفي نور الدين الذين لهم اتصال بصلاح الدين، واستبدالهم بمن يوافقهم على ما يفعلونه. ولكنْ يبدو أن عماد الدين كان أسرع منهم، فلمّح إلى وضع الفوضى في الشام برسائل كتبها إلى صلاح الدين عن ابن نور الدين، يُعْلِمه بوفاة نور الدين معزّيا ومشيرا إلى الوضع في الشام، ومنبّها بطريقة غير مباشرة إلى ضرورة اتخاذه قيادة الدفة في الشام تلافيا لتفكّك الشام وما قد ينجم عن ذلك من خطر على الإسلام. وربما كتب إلى القاضي الفاضل نفسه عمّا يجري في الشام، لأن رسائل القاضي الفاضل إلى القادة الدمشقيين وغيرهم تدلّ على الكثير من المعلومات عن الوضع.

يذكر عماد الدين في رسالته عن الملك الصالح إسماعيل إلى صلاح الدين، معزّيا بنور الدين:

«أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر وعظّم أجره وأجرنا في والدنا الملك العادل ندب الشام، بل الإسلام، حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد مقتنى فضيلته، ومؤدي فريضته، ومُحْيي سنّته؛ وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعزّ أن يرى الزمان نظيره. وما ههنا ما يشغل السر، ويقسم الفكر، إلّا أمر الفرنج خذلهم الله؛ وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلّا لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل؛ فقد ادّخره لكفايات النوائب، وأعدّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمّله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكّنه قوة لعضده. فما فقد رحمه الله تعالى إلّا صورة والمعنى باقٍ، والله تعالى حافظ لبيته واقٍ؛ وهل غيره، دام سمّوه، من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر؛ وقد عرفناه المُقْتَرَح، ليروّض برأيه من الأمر ما جَمَح. والأهم شغل الكفار، عن هذه الديار، بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار، ويجري على العادة الحسنى في إحياء ذكر الوالد (هناك) بتجديد ذكرنا، راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا.»(٥٣)

ومن الطبيعي أن تكون رسائل عماد الدين الأصفهاني، وربّما غيره من علماء الشام، قد وجدت صدى في نفس صلاح الدين، ولكنّه كان ينتظر الفرصة المواتية للتوجُّه إلى الشام، إذ كان مشغولا آنذاك بمواجهة الأسطول الصقلّي المهاجم للإسكندرية، والقضاء على ثورة كنز الدولة في الصعيد (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م). ومع هذا فقد

---

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(٥٣) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ج ١، قسم ٢، ص ٥٨٦.

(لن نشير إلى الجزء بعد هذا الهامش. لأننا سنستعمل هذا الجزء من هنا فما بعد).

وكّل القاضي الفاضل بالتفاوُض والتراسُل مع القادة الدمشقيين، وفي تخطيط سياسة مصر مع الشام.

(ب) القاضي الفاضل والوضع في الشام:
مراسلاته مع قادة نور الدين

بدأ القاضي الفاضل مهمّته هذه بكتابة مجموعة من الرسائل عن صلاح الدين إلى قادة دمشق وفقهائها، وبينهم القاضي كمال الدين الشهرزوري والقاضي شرف الدين ابن أبي عصرون، قاضي حلب، معزّيا بوفاة نور الدين، ومنبّها إلى ضرورة الوحدة والتعاوُن، ومُنذرا من نتيجة التعامل مع الفرنج، وملوِّحا بأن صلاح الدين يراقب ما يجري في الشام باهتمام بالغ، ولن يسمح بالانقسام والتفكّك والتفاوض مع العدو.

ولا بد من إيراد هذه الرسائل بحسب تسلسلها التاريخي لفهم دور القاضي الفاضل في تخطيط سياسية صلاح الدين الشامية ورؤيته للأحداث.

ففي أول رسالة إلى القادة الدمشقيين يشير منبّها ومحذّرا:

«ورد خبر من جانب العدو اللعين، عن المولى نور الدين، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونوّر بعافيته القلوب والوجوه؛ فاشتدّ به الأمر، وضاق به الصدر، وانقصم بحادثه الظهر، وعزّ فيه التثبّت وأعوز الصبر، فإن كان والعياذ بالله قد تمّ، وخصه الحكم الذي عمّ، فللحوادث تُدّخر النصال، وللأيام تُصْطَنَع الرجال؛ وما رتّب الملوك ممالكها إلا لأولادها، ولا استُودعت الأرضُ الكريمةُ البذرَ إلا لتؤدّي حقّها يوم حصادها؛ فاللهَ اللهَ أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغَ الأعداءُ مرادَها، وتعدمَ الآراءُ رشادَها، وتنتقل النِعَمُ التي تعبت الأيام فيها، إلى أن أعطت قيادَها. فكونوا يدا واحدة، وأعضادا متساعِدة، وقلوبا يجمعها ودّ، وسيوفا يضمّها غمد؛ ولا تختلفوا فتنكأوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل؛ فالعداوة مُحْدِقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيمان. ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله، وقائم لا نسلّمه. وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحقّقت، بأن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه؛ فإن كانت الوصية ظهرت وقُبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أُدِّيت وفُعلت، وإلاّ فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه، وسيف على من عاداه. وإنْ أسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب، والنَذْرُ الذي يحلّ على الأيدي والقلوب.»[٥٤]

(٥٤) رسالة القاضي الفاضل في: المصدر نفسه، ص ٥٩٨ ـ ٦٠٢.

وفي رسالة تالية لهذه موجّهة إلى الملك الصالح إسماعيل، ابن نور الدين، معزّيا وناصحا وممجّدا لصلاح الدين يقول:

«وأمّا العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطلبه ليل نهار، وسيل لقرار، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه؛ وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه. وأصدر هذه الخدمة يوم ذي القعدة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، وهو اليوم الذي أُقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصُرِّح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم؛ وأشْبَهَ يومُ الخادم أمْسَه في الخدمة، ووفّى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام علما أن الجماعة رحمة. والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه، ويوفّق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده، ويُيسر منال كل أمل صالح وتقريب بعيده، إن شاء الله تعالى.»[٥٥]

ويقول «الخادم (أي صلاح الدين) مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها (أي أوامر الحضرة)، والتعرّض لمراسمها، والرفع لكلمتها، والإيالة لعسكرها، والتحقّق بخدمتها، في بواطن الأحوال وظواهرها، والترقّب لأن يؤمر فيمتثل، ويكلّف فيحتمل، وأن يُرمى به نحر عدوه فيتسدّد بجهده، ويوفّي أيام الدولة العالية يوما يكشف الله عنه للمولى ضمير عبده.»[٥٦]

ورسائل القاضي الفاضل المترادفة تضمّ فكرتين أساسيتين: الأولى تشدّد على ضرورة الحفاظ على الوحدة في الشام صدّا للعدو الفرنجي واتقاء لخطره؛ والثانية تلوّح باستعداد صلاح الدين للدفاع عن الملك الصالح والإمساك بزمام الحكم إذا دعي إلى ذلك.

وألحق القاضي الفاضل هذه الرسالة بأخرى إلى الملك الصالح يعلمه فيها بأن الخطبة والطاعة في مصر له كما كانت لوالده، ومع الرسالة دنانير مصرية عليها اسم الصالح. وفي الوقت ذاته يعاتبه على عدم إعلام صلاح الدين بملك سيف الدين غازي ابن عمه الجزيرة.[٥٧] ولكن الملك الصالح لم يكن في وضع يسمح له بأن يكتب لأنه ربما كان لا يعرف الكتابة، ولم يفقه حتى ما كان يدور حوله.

أما رسائل القاضي الفاضل المترادفة إلى ابن نور الدين والقادة الدمشقيين فهدفت

---

(٥٥) رسالة القاضي الفاضل في: المصدر نفسه، ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

(٥٦) من رسالة القاضي الفاضل، المصدر نفسه، ص ٥٨٨.

(٥٧) رسالة القاضي الفاضل، المصدر نفسه، ص ٥٩٠.

إلى تنبيههم إلى ضرورة استشارة صلاح الدين، كبير قادة نور الدين، في أيّ أمر يتّخذونه أو سياسة يتّبعونها في الشام؛ وإلى كسب الوقت حتى تتسنّى لصلاح الدين الفرصة بالتوجّه إلى الشام؛ فحالما دحر صلاح الدين الغزو الصقلي للإسكندرية، وقضى على ثورة كنز الدولة، أخذ يُعِدّ للتوجّه إلى الشام موكّلا وزيره بمتابعة الكتابة للملك الصالح إسماعيل وقادة دمشق. ومع تغيُّر الوضع العسكري على الجبهة المصرية في مصلحة صلاح الدين، أخذت رسائل القاضي الفاضل إلى قادة دمشق تجنح إلى الإنذار والتهديد. ففي رسالة إليهم يشدّد على فكرة أحقيّة صلاح الدين في رعاية الملك الصالح إسماعيل قائلا: «إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي، أو يثق إليه مثل ثقته بي، لسلّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواي. وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصل إلى خدمته وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه، وإهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتى أُخِذَت بلاده.»[٥٨]

كان القاضي الفاضل يراسل هؤلاء القادة ويفاوضهم عندما علم بتوجّه الفرنج إلى بانياس، وخروج الأمير شمس الدين بن المقدّم لمجابهتهم عليها ثم مصالحته لهم، فتألم وتخوّف من مغبّة هذه الأحداث التي ذكّرته بأحداث مصر التي عاشها قبل تولّي صلاح الدين الوزارة. ورأى رغبة لدى صلاح الدين في التوجُّه إلى الشام وإخضاعها لسلطته، فشجّعه عليها، آملا أن يساعده في ذلك، وأن يعيد وحدتها إليها، ويوحّدها مع مصر للجهاد.

ولقد كتب رسالة إلى القاضي شرف الدين بن أبي عصرون محذّرا إيّاه من مساندة القادة الدمشقيين ومنبّها إلى خطر الصلح مع الفرنج والتهاون بأمرهم قائلا، إن صلاح الدين، عندما علم بقصد الفرنج بانياس «تجهّز وسار أربع مراحل، ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذُلّ الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى؛ وسيدنا الشيخ أول من جرّد لسانه الذي تُغمد له السيوف وتُجرَّد، وقام في سبيل الله قيام من يَقظٌ عادية من تعدّى وتمرّد.»[٥٩]

ويختتم الرسالة بقوله: «وكتب من المنزل بفاقوس والفجر قدْ همّ أن يشقّ ثوب الصباح، ولولا أن الثّريا تعرّضت تعرّض أثناء الوشاح، وهذه الليّلة سافرة عن نهار يوم

---

(٥٨) من رسالة القاضي الفاضل، المصدر نفسه.

(٥٩) من رسالة القاضي الفاضل، المصدر نفسه، ص ٥٨٩.

الجمعة ثاني عشر ذي الحجة، بلّغه الله فيه أمله، وقبل عمله، بالغا أسنى المراد وأفضله.» وفحوى الرسالة أنه: «ورد خبر بصلح الفرنج والدمشقيين، وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد، ولا انتظمت في سلك هذا القصد، والعدوّ لهما واحد؛ وصرف مال الله الذي أُعِدّ لمغنم الطاعة، ومصلحة الجماعة في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأمة، وكان مذخورا لكشف الغمة، فصار عوْنا؛ وإن أسارى من صبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديدة، وشوكتهم حديدة، دُفعوا في القطيعة، وجُعلوا إلى السلم السبب والذريعة. فلمّا بلغنا هذا الخبر، وقفنا به بين الورود والصَدَر، وإنْ أتممنا ظُن بنا غير ما نريده، وإنْ قعدنا فالعدو من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد. وإنْ فرّقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد. فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وإخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه ربما عُجز عن الاستدراك، وأن العدو طالب لا يغفل، وجادّ لا ينكل، وليث لا يُضيع الفرصة، مجدّ لا يميل إلى الرخصة. فإن كانت الجماعة ساخطين فيظهر أمارات السخط والتغير، ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير لا سيما ونحن نغار لله ونُغير، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير. وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفا أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته، وثرت به ثروته، وانبسطت به خطوته؛ فإنه ما دام يعلم أنّا مجتمعون، على طلبه مجمعون، لا يمكنه أن يزيل مراكزه، ولا يبادر مناهزه.»[٦٠]

ويبدو أن القاضي الفاضل خصّ ابن المقدّم بعدد من الرسائل التي وبّخه فيها على تفريق الكلمة والتعاون مع الإفرنج، الأمر الذي أثار خوف ابن المقدّم في البداية، وكان رادعا له فيما بعد عندما تفتّحت أمامه الأحداث ورأى أن ما يفعله الأمراء الشاميون، وهو بينهم، قد يؤدّي بالشام إلى أحضان الفرنج. وكان ابن المقدّم قد كتب في بداية الصراع بينه وبين صلاح الدين إلى صلاح الدين يندّد بأنه صنيعة نور الدين وأحد موظّفيه، قائلا: «لا يقال عنك إنك طمعت في بيت مَنْ غَرسك، وربّاك وأسّسك، وأصفى مشربك، وأضفى ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر وفي دسته أجلسك، فما يليق بمالك، ومحاسن أخلاقك وخلالك، غير فضلك وأفضالك.»[٦١]

فرد القاضي الفاضل عليه برسالة عن صلاح الدين قائلا: «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلّا ما جمع شملهم وألّف كلمتهم، وللبيت الأتابكي أعلاه الله تعالى إلّا ما حفظ أصله وفرعه، ودفع ضرّه وجلب نفعه؛ فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنما تظهر

(٦٠) من رسالة القاضي الفاضل، المصدر نفسه، ص ٥٨٩، ٥٩٤ ـ ٥٩٥.
(٦١) من رسالة القاضي الفاضل في: البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٨.

آثارها عند تكاثر أطماع العداة. وبالجملة إنّا في واد، والظانّون بنا ظنّ السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد، ولمن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولمن ألقى السلاح إنك جارح.»[٦٢]

لقد أشرنا في سياق البحث إلى تشديد القاضي الفاضل، في رسائله إلى القادة الدمشقيين، على ضرورة الحفاظ على الوحدة الشامية مصدرَ قوّة لمجابهة قوّة الفرنج، وكوسيلة مهمة للحفاظ على تراث نور الدين الذي ساهم آل أيّوب في بنائه وتثبيته. ولقد كان القاضي الفاضل يعلم أن نور الدين لم يخلّف نظاما إداريا يحافظ من خلاله على الاستمرارية خلال الفترة الانتقالية للحكم في دمشق، ويدرك مدى توزّع الأهواء والمطامع بين هؤلاء القادة، وهذا ما قد يؤدي إلى تفكّك ذريع، لا يستفيد منه سوى العدوّ الفرنجي المحدِق بالبلاد. وفي توجيهاته للقادة، يذكّرهم بمسؤولياتهم الدينية والخُلقية وبواجبهم في الجهاد، ففي قوله ضمن رسالة إلى شمس الدين بن المقدَّم «فالعداوة محدقة بكم من كل مكان. والكفر مجتمع على الإيمان»،[٦٣] تنبيه إلى أن الفرنج ليسوا أعداء مصر أو الشام وحدهما، بل أيضا أعداء الإسلام قاطبة، وأهدافهم الدينية هي مقصدهم البعيد المدى ضد المنطقة. ويلوّح إلى أن أعداء الإسلام أو الفرنج منتشرون داخل أراضي الإسلام وخارجها، في الغرب وبيزنطة وصقلّية.

كان القاضي الفاضل يدرك، أكثر من غيره، مدى تغلغل الفرنج وخطرهم على المنطقة، وضرورة مجابهتهم بوحدة شامية ومصرية؛ فحماية مصر والشام من الفرنج لن تتحقّق من دون وحدتهما، أو تنسيق عملهما العسكري. وبناء عليه فقد رافق صلاح الدين في طريق عودته إلى الشام، ومع أن الرحلة بين مصر والشام لم تكن الأولى لصلاح الدين، فإنها كانت الأولى للقاضي الفاضل، تلاها رحلات عديدة ربطت سيرته بتاريخ مصر والشام.

رابعا: توجّه صلاح الدين إلى دمشق ودور القاضي الفاضل في تأسيس الإدارة الأيوبية فيها

علّق عماد الدين الأصفهاني على توجه صلاح الدين إلى دمشق بقوله: «لمّا خلا باله (صلاح الدين) ممّا تقدم ذكره (الهجوم الصقلّي على الإسكندرية وثورة الكنز) تجهّز

(٦٢) من رسالة القاضي الفاضل، المصدر نفسه، ص ١٦٨ - ١٦٩.
(٦٣) من رسالة القاضي الفاضل، أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨٧.

لقصد الشام، فخرج إلى البركة (بركة الحبش) مستهل صفر (٥٧٠ هـ/ ١١٧٣ ـ ١١٧٤ م) وأقام حتى اجتمع العسكر؛ ثم رحل إلى بلبيس ثالث عشر ربيع الأول. وكانت رسل شمس الدين صاحب بُصرى صِدّيق بن جاولي وشمس الدين بن المقدَّم عنده، تستوري في الحث والبعث زنده، وتستقدمه وجنده؛ وسار على صدر وأيْلة ووصل السير بالسرى، حتى أناخ على بُصرى، بصيرا بالعلا، نصيرا للهدى، فاستقبله صاحب بُصرى وشد أزره، وسدّد أمره واستضاف إلى بُصرى صرخد، وتفرّد بالسبق إلى الخدمة وتوحد.»[٦٤] وبعد بُصرى، سار صلاح الدين وموكبه يرافقهم حاكم بُصرى حتى كسوة، فدمشق التي وصلوا إليها يوم الاثنين في نهاية الشهر، «وسار صلاح الدين في موكب قويّ بالعَدد والعُدد، وحَسِب أن يمتنع عليه البلد، وأن الأطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق، وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق وخرقها، وكأن الله تعالى له خلقها؛ ودخل إلى دار العقيقي مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأبِّيه، فراسله حتى استماله، وأغزر له نواله، وتملّك المدينة والقلعة. ونزل بالقلعة سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين، وملك ابن المقدَّم داره وكل ما حواليها، وبذل له طلبته التي أشار إليها ونص عليها؛ وأظهر (صلاح الدين) أنه جاء لتربية الملك الصالح، وحِفْظ ما له من المصالح، وتدبير ملكه فهو أحق بصيانة حقّه.»[٦٥]

واجتمع إلى صلاح الدين أعيان دمشق، كما زاره القاضي كمال الدين بن الشهرزوري «فوفّاه حقه من الاحترام، ووفّر له حظ التبجيل والإعظام.»[٦٦]

ويضيف عماد الدين قائلا أنه: «نفذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر، بهذا الفتح والنصر، وفي بعضها: 'يوم وصولنا إلى بُصرى وقبله وفدت وهاجرت، وتزاحمت وتكاثرت، وتوافت، الأمراء، والأجناد الأتراك، والأكراد، والعربان، ورجال الأعمال، وأعيان الرجال. وورد كتاب من دمشق بعد كتاب، لكل مخبر وذاكر، وهو غائب بكتابه حاضر، يذكر أن البلاد ممكنة القياد، مُذْعِنة إلى المراد. وأما الفرنج، خذلهم الله، فإنا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكِّم، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخيّر، (وأدلجنا) وعيونهم متناومة، وحُزنا وأنوفهم راغمة، ووطئنا ورقابهم صُعُر، ومررنا وعيشهم مُرّ؛ والله يزيدهم ذلا، ويجعل عداوة الإسلام في صدورهم غِلا، وفي أعناقهم غُلا'.[٦٧]

(٦٤) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦ ـ ١٧٧؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٢.
(٦٥) البنداري، المصدر نفسه، ص ١٧٧؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٢.
(٦٦) البنداري، المصدر نفسه؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٣.
(٦٧) رسالة القاضي الفاضل: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٣.

«وفي كتاب آخر ‹وكان رحيلنا من بُصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م)، وقد توجّه صاحبها بين أيدينا قائما بشروط الخدمة ولوازمها. ثم لقينا الأجلّ ناصر الدين، ابن المولى أسد الدين (شيركوه) رحمه الله عليه وأدام نعمته، والأمير سعد الدين ابن أنر، في (يوم) السبت السابع والعشرين. ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب والأجنادُ الدمشقية إلينا متوافية، والوجوه على أبوابنا مترامية، ولم يتأخر إلّا من أبقى وجهه وراقب صاحبه، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في العافية. ولمّا كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم، وعرّفتهم كيف يكون اللقاء وعلّمتهم. ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه قريرة عيوننا، مستقرّا سكون الرعية وسكوننا، وأذعنا في أرجاء البلد بإطابة النفوس وإزالة المكوس. وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت، واليد قد امتدّت إلى أحوالهم وأجحفت، فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها›.»[٦٨]

قضى صلاح الدين على ما تبقّى من المعارضة الدمشقية مع دخوله دمشق سلما، ولكنّه واجه مقاومة حلبية ـ موصلية دامت ما يقارب تسعة أعوام. وأمّا القاضي الفاضل فقد قام بدور في المفاوضات السابقة لدخوله دمشق والتابعة لذلك. واكتسب إلى جانب صلاح الدين الشخصيات الدمشقية المرموقة مثل القاضي كمال الدين الشهرزوري الذي كانت مساندته لصلاح الدين ضرورية ومهمّة حتى قبل وصول صلاح الدين إلى دمشق.

ويذكر بعض المصادر أن علاقة صلاح الدين بالقاضي الشهرزوري كانت متوترة قبل تولّيه الوزارة في مصر، وأنّة كان يشاكس صلاح الدين ويعارض بعض أعماله فخاف، بعد أن استقر صلاح الدين في دمشق، أن يقتصّ منه ويعفيه من منصبه، ولكنّ صلاح الدين لم يفعل ذلك، ولم يغيّر عليه منصبه على الرغم من بعض الحقد عليه. وقد عزا بعض المصادر تحسين العلاقة بين صلاح الدين والقاضي الشهرزوري إلى وساطة القاضي الفاضل الذي كان يكنّ الكثير من الاحترام للقاضي الشهرزوري، لكونه أعلى موظّفي نور الدين زنكي مكانة وأكثرهم خبرة ومعرفة. ويذكر السبكي أن القاضي الفاضل دخل دمشق قبل صلاح الدين بيوم، ربما ليهيّىء الجوّ الملائم لدخوله المدينة، وأنّة عندما دخلها صلاح الدين في اليوم التالي أخذه القاضي الفاضل صباحا من الجامع إلى دار كمال الدين الشهرزوري للسلام عليه، «وصارت له اليد البيضاء عند كمال الدين الشهرزوري بهذه الوقعة وتصادقا.»[٦٩]

---

(٦٨) من رسالة القاضي الفاضل، أبو شامة، المصدر نفسه، ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

(٦٩) تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي، «طبقات الشافعية الكبرى» (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٠٦)، ج ٤، ص ٧٦.

وكما أن القاضي الفاضل قارب ما بين صلاح الدين والقاضي كمال الدين الشهرزوري، فإنه قارب بينه وبين ابن المقدَّم، أكبر قادة نور الدين الذين ثاروا في البداية على صلاح الدين، ثم عاد فراسله بالصلح. ولقد ظلّ القاضي الفاضل يذكّر صلاح الدين بما قدّمه له ابن المقدَّم من تسهيل دخوله دمشق ويطالبه بالإحسان إليه. وليس من المستبعد أن يكون القاضي الفاضل هدف، بدخوله دمشق قبل دخول صلاح الدين إلى إعداد الزعامة النورية في دمشق لقبول صلاح الدين واستقباله من دون مقاومة. وكان يحمل معه بعض الأموال لتوزيعها على هؤلاء، أو على بعضهم.

حالما استقرّ صلاح الدين في دمشق بدأ القاضي الفاضل ينظّم له إدارته فيها، على أساس أنه وزير لكل من مصر والشام، ولكنّه حافظ على النظام النوري، فترك كمال الدين الشهرزوري قاضيا لدمشق، ولكنّ الزمن لم يطل بالقاضي كمال الدين، إذ توفي في محرّم سنة ٥٧٢ هـ/ تموز (يوليو) ١١٦٧ م، أي بعد دخول صلاح الدين الشام بأقل من عامين عن عمر يناهز الثمانين،[٧٠] وهذا ما تسبّب بأزمة بسيطة بين السلطان ووزيره. فقد كانت ولاية القضاء من أهم المناصب الإدارية الدينية، كما كانت مساندة القاضي للسلطان مهمّة جدّا. ولـمّا كان القاضي كمال الدين الشهرزوري قد توفي في بداية حكم صلاح الدين في دمشق، فقد كان يرغب في أن يظل القضاء في نسْله، فأوصى بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين الشهرزوري علما منه بأن السلطان (صلاح الدين) يُمضي ذلك لأجل قِدَم هجرته عنده (في مصر)، ثم توفّي القاضي كمال الدين، وصلاح الدين محاصِر لحلب، فتولّى ابن أخيه ضياء الدين القضاء.

لكن صلاح الدين كان يفضّل قاضيا شافعيا مثله بدل ضياء الدين، ولعلّه وقع في ذلك تحت تأثير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، أحد رجالاته وأقاربه، فإن الفقيه عيسى كان يفضّل تعيين الشيخ شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون الذي كان قد قصد صلاح الدين من حلب، فأنزله صلاح الدين عنده في دمشق. ويذكر ابن واصل أن ابن أبي عصرون كان رئيس أصحاب الإمام الشافعي ـ رحمة الله عليه ـ في وقته؛ والمقيم بالفتوى في زمانه فآثر السلطان أن يفوّض القضاء إليه، وكره عزل ضياء الدين بن الشهرزوري، فأفضى بسرّه إلى القاضي الفاضل، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري يتعصّب للشيخ شرف الدين لأنه شيخه، فاستشعر ضياء الدين ـ لـمّا بلغه ذلك ـ العزل، وأشير عليه بالاستعفاء، ففعل، فأُعفي، وأُبقيت عليه الوكالة الشرعية من السلطان في بيع الأملاك.[٧١]

---

(٧٠) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٧١) المصدر نفسه.

«ولما استعفى ضياء الدين من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يُعرف بالأوحد داود، كان ينوب عن كمال الدين، فأمره السلطان بالاستمرار، وكان السلطان مائلا إلى بيت زكي الدين، فأمر الشيخ شرف الدين باستنابة القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين الأوحد داود، وكُتب لهما بالقضاء توقيعٌ سلطاني، فكانا في حكم المستقلّين، وإن كانا في الظاهر نائبيْن عن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون.»(٧٢)

ويذكر ابن واصل أنهّ: «لم يزل شرف الدين متولّيا للقضاء من سنة اثنتين وسبعين إلى أن عاد السلطان من مصر عام ٥٧٤ هـ/١١٧٨ م، فتكلّم الناس في ذهاب نور بصره، وأن من يكون أعمى لا يصلح للقضاء، وأنّ في المسألة وجهين، واختار شرف الدين وجه الجواز وكأنه الأظهر إذ لا يمتنع أن يعتمد على تعريف عدليْن بمن يحضر من الخصوم كما في المترجمين بالنسبة إلى القاضي الأصمّ، فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يفوّض القضاء إلى ولده محيي الدين أبي حامد محمد بن شرف الدين، ويكون هو الحاكم في الحقيقة، ويظهر أنه نائب عن أبيه، بحيث لا يظهر للناس صرفه عن القضاء، ففعل السلطان ذلك، واستمرّ هذا الأمر إلى سنة سبع وثمانين وخمسمائة، فصرف عن القضاء، واستقلّ به القاضي محيي الدين بن زكي إلى آخر أيام صلاح الدين.»(٧٣)

قبل أن ننتقل إلى رأي القاضي الفاضل في قضية التعيينات القضائية التي يبدو أن صلاح الدين حاول أن يستقلّ بها على الرغم من أنها من ضمن مسؤوليات الوزير، فمن الجدير الإشارة إلى حذر القاضي الفاضل في التعيينات، وحرصه على عدم إثارة العداء ضد صلاح الدين أو إدارته، واحترامه لأشخاص يعتبرهم أكفاء، ولو اختلفوا عرقيا أو مذهبيا عن صلاح الدين. ولا بُدّ من أنه هو الذي أشار بالإيعاز إلى ضياء الدين الشهروزي بالاستعفاء من دون الإعفاء من صلاح الدين لاحترامه لضياء الدين الذي تعرّف إليه في مصر، ولعمّه. وقد عينّه فيما بعد في ديوانه رسولا للخلافة العبّاسية، وهي وظيفة ذات شأن تتطلب رسولا موثوقا به، ذا قدرة على الإلقاء والتأثير.

وأمّا بالنسبة إلى نصيحة القاضي لصلاح الدين عدم إعفاء القاضي شرف الدين بن أبي عصرون من القضاء وتعيين ابنه نائبا عنه، فهي أيضا نصيحة بالحذر وباحترام ذوي الكفاءات والخدمات، وتعكس صفة إنسانية لدى القاضي الفاضل.

أشار عماد الدين الأصفهاني إلى الخلاف الناشب في بلاط صلاح الدين بشأن

---

(٧٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠.

(٧٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١ ـ ٥٢.

جواز قضاء الأعمى، وكان صلاح الدين قد توجّه من مصر إلى دمشق للمرّة الثانية سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م من دون القاضي الفاضل، فكتب إليه في الموضوع أكثر من كتاب يستشيره في الأمر، ويقول كيف نعمل، وهذه ولاية القضاء، العمى ينافيها.(٧٤) فأجابه القاضي الفاضل بقوله في حاله:

«مثل الشيخ شرف الدين لا يوجد بالجملة، فإنه شيخ المذهب ولسانه المدرّب وحاكمه المدرّب. وإذا كان المولى قد كشف فلم يجد الحكم جرت فيه هفوة، ولا أخذت من خصم على خصم رشوة، ولا ظهرت لولديه ولا لأحدهما نبوة، وكان الذي يستقضيه ممّن يقع الاختيار عليه لا يزيد عن ولده في رتبة العلم، ولم تبقَ حجّة في أن يؤلم خاطر الشيخ. والمملوك لا يشير بإيلامه، ولا أن يكسر قلبه على ما بقي من عدد أيامه، ولا بأن يُعان على حقّه، والمولى أولى من أحسن ضيافته مدّة مقامه. ويجوز أن يجرّب الولد بالاستنابة، فإنْ ظهر ما يوجب الصّرف كان المولى عند عذره، وكان الشيخ قد قضى حقّه بتجريب الولد واختبار أمره. وكانت الأقدار قد أبت إلّا نقل هذا المنصب إلى مستحقّه، وإن كان الولد يحسن تصرفه ولا يبين في هذا المنصب تخلّفه، كان المولى قد أبقى صنيعه عند بيته، وحفظ قديم ما بينه وبينه، وسالف تعصب الشيخ للمولييْن أبيه وعمه رحمهما الله، وتشفّع شفيعَي العلمِ والسنّ. ولا يشمت به الأعداء، ولا ينتقل إلى الآخرة وهو يحمل الداء. ويكونُ الولدُ قد ناب عن بصر الوالد لا غير، فكأنه حاجب له وبقيّة الواردات للسان الشيخ فيها خصائص، وفكره فيها مستفتى، ورأيه مسترشد، ونور قلبه باقٍ. وهذا أمر من العلم، وجانب من الفهم لا يستطيع أحد صرفه عنه إنْ صرفه عن الحكم. وأمّا استخدام زيد وعمرو وقبول عصبيّة فلان لفلان فما سمّى الولي أحدا يستأهل أن يكون في مكانه، ولا يكمل لغير كونه عوضا عن أولاده. ثم إن هذا الشيخ لا يصحّ عليه أن يقدم على الله ويُقدم على الحكم مع فوات شرطه، وهو أعلم من كل مَنْ أفتى فيه. ثم إن له عهدا في وقت خروجه إلى المولى من حلب حتى اشترى دولته وباع الدول، وفتّ في عضد الأعداء بتحيّزه إلى جانبه الكريم. فإن قال (قائل) إنّ الأمور الشرعية لا مجال لها في العهود ولا مدخل لها في الشروط فصحيح، ولكنّه لا يكلّف ما يخالف الشّرع، إذ تقدّم القول إنّ الوالد إنْ صُرف فلا يوجد مثله، والولد إنْ لم يُستصلَح فلا يوجد إلّا نظيره أو دونه. وإذا استوت الدّرجات فُضِّل الولد بقرب مثال الاسترشاد من أبيه، ويسعه أننا نمنعه من تجاوز القول وتعدّيه، ومن إسعاف النفس إلى ما الله عنه مغنيه. أليس المولى يقلّده في الفتاوي فلِمَ لا يقلّده في أمر نفسه،

(٧٤) الأصفهاني، «البرق»، ج ٣، ص ١٣٨.

وإن كان يريد الاختيار لمن يستحق المنصب فدرجة الاختيار دقيقة، وما ظاهر الأمر إلّا أنّ مستند المولى فيها إلى تقليد من يشهد عنده ممّن تقليدُ الشيخ أولى من تقليده، وممّن دعوى الشيخ أحبّ إلينا من برهانه. ودّ المملوك لو أن في الإسلام شخصينْ كابن عصرون، وفي رعيّة المولى بياض الأمة جماعة مثله ولا يليق أن يكون الوالي محجورا عليه، والنائب مأذونا له، فإن هذه الصناعة الأصل وحوطة في الفرع.»[٧٥]

وفي كتاب آخر بشأن نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عصرون إلى ولده، لمّا ذهب من بصره، يقول:

وأما ما أورده المولى دفعة أولى وثانية في معنى الحكم بدمشق، فالمولى متوقّف في مكان التوقّف، متردد في مكان التردّد. وبالجملة فقد أثلج الصدر سلامة الأحكام الجارية في غيبة المولى الظاعن وصحّة اليقين، فإن تلك الشكاوى كانت صادرة عن الأهواء والضغائن. ولن يخلو الأمر من قسمينْ - والله يختار للمولى خير الأقسام، ولا ينسى له هذا التحرج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام: إمّا بقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته وفتياه وبركته، ويتولّى النيابة ولداه، ويشترط عليهما المجازاة لأوّل زلة و(ترك) الإقالة لأقل عثرة، فطالما (بعث) حبّ المنافسة الراجحة على اكتسب الأخلاق الصالحة؛ وإمّا أن يفوّض الأمر إلى الإمام قطب الدين، فهو بقية المشايخ، وصدر الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدّم عليه في بلد إلّا من هو أرفع طبقة في العلم منه.[٧٦]

وكما أنّ القاضي الفاضل ساهم في توطيد إدارة صلاح الدين الدينية في الشام، فإنه اختار أحد كبار كتّاب العصر وعلمائه لينوب عنه في الكتابة والإدارة خلال ابتعاده عن صلاح الدين. ولم يكن هذا الكاتب سوى عماد الدين الأصفهاني، أحد كبار موظفي نور الدين، كما ذكرنا.

كان عماد الدين قد غادر دمشق بعد وفاة نور الدين ناقما على السلطات الدمشقية وما سبّبته من تفرقة ومؤامرات، وذهب إلى الموصل، ولكنّه ما إنْ سمع أن صلاح الدين محاصِر لحلب (جمادى الثانية ٥٧٠ هـ/كانون الثاني (يناير) ١١٧٥ م) حتى عاد مسرعا إلى دمشق، ثم قصد صلاح الدين الذي كان قد غادر حلب إلى حمص وحاصرها. وفي حمص حضر عند صلاح الدين وكان يعرفه شخصيا منذ أيام نور الدين، كما اتّصل بالقاضي الفاضل الذي عرفه من خلال المكاتبة فقط، وقابله. ولعل القاضي الفاضل نفسه كان

(٧٥) رسالة القاضي الفاضل في الموضوع: الأصفهاني، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٨ - ١٣٩.
(٧٦) رسالة القاضي الفاضل: الأصفهاني، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٨.

يتوق إلى التعرّف إليه تقديرا لمراسلاته واعترافا ببلاغته، فعينّه في خدمة صلاح الدين. ولقد وصف عماد الدين مقابلته للقاضي الفاضل وصلاح الدين قائلا إن حُسّاده في دمشق حاولوا أن يحولوا بينه وبين صلاح الدين قالوا: «شغله (العماد) المكاتبة وهي منصب الأجل الفاضل، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضل، وهذا تصرّفه برفد جزيل، ووجه جميل. والسلطان مع شدّة رغبته متوقف، وإلى ظهور وجه النجاح متشوّف.»[77] ثم يذكر عماد الدين أنه اتّخذ من الأمير نجم الدين بن مصال واسطة بينه وبين القاضي الفاضل، ولعله قصد ابن مصال ليُعرّفه بالقاضي الفاضل شخصيا لأنه، كما ذكرنا، كان يعرفه من خلال مراسلاته. وقد عرّف ابن مصال عماد الدين إلى القاضي الفاضل، فقدّم عماد الدين له قصيدة يمدحه فيها قائلا:

عاينتُ طودَ سكينة، ورأيتُ شمسَ فضيلةٍ، ووردتُ بُحرِ فواضلِ
ورأيتُ سحبانَ البلاغةِ ساحباً ... ببيانهِ ذيلَ الفخارِ لوائلِ
أبصرتُ قسّا في الفصاحة مُعْجِزاً ... فعرفتُ أني في فهاهةِ باقلِ

فدخل القاضي الفاضل بعد سماعه هذه القصيدة، إلى السلطان، بحسب قول عماد الدين، «وعرّفه أنهّ فيّ راغب، وقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغدا يكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات وحلّ التراجم؛ والعماد يفي بذلك ولك أختاره وقد عُرف في الدولة النورية مقداره. وأخذ لي خط السلطان بما قرّره لي من شغلي وقد عرف أن الأجلّ الفاضل قد أجلّ فضلي.»[78]

كان القاضي الفاضل يدرك أنه لن يستطيع البقاء في دمشق، لأنه كان يخاف على ما قد يجري في القاهرة أو مصر، البلد الذي تبنّاه. ولا شكّ في أنه ارتاح إلى انضمام عماد الدين إلى خدمة صلاح الدين، علما منه بأن عماد الدين رجل يعتمد عليه من حيث الكتابة والولاء، وكان عماد الدين عند حُسن ظنّه.

ولم تتوقّف مهمّة القاضي الفاضل الإدارية في الشام على تعيين القضاة والكتّاب، فإنه كان يهمّه إعداد جهاز دعائي لصلاح الدين في الشام يضمّ، بالإضافة إلى الكتّاب مثله ومثل عماد الدين الأصفهاني، الشعراء والخطباء وغيرهم.

وقد كان هؤلاء يقصدون الوزير لأنه هو الذي يضمّهم إلى خدمة السلطان، كما أنه هو الذي يقرّر لهم المعاش ويرعاهم ويوجّه أدبهم. وكان بين الشعراء الذين قصدوا صلاح الدين والقاضي الفاضل في حمص، عبد الله المهذّب بن أسعد، الفقيه المدرّس في

(٧٧) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٧٨) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤١ ـ ٦٤٢.

حمص. حضر المهذّب مجلس صلاح الدين وأنشده قصيدة طويلة بدأها بقوله:

ما نام بعدَ البينِ يستحلي الكَرى إلا لـيّطـرقَهُ الـخيالُ إذا سـرى
كـلـفٌ بـقـربـكـمُ، فـلـمّـا عـاقـه بُعدُ المدى سلكَ الطريقَ الأخضرا

وقال أيضا:

تُردي الكتائبَ كُتْبهُ، فإذا غدتْ لـم يُدرَ: أنفذَ أسطراً أم عسكرا
لـم يُحسنِ الأترابُ فرقَ سطورِها إلا لأنّ الـجيشَ يعـقِدُ عِـثْيَرا

كان القاضي الفاضل جالسا بقرب صلاح الدين فطرب لشعر المهذبّ لأنه لمّح، ولو بطريق غير مباشر، إلى أهمية كتابته وقوّة تأثيرها، فالتفت إلى صلاح الدين قائلا: هذا الذي يقول: «والشعرُ ما زال عندَ التُركِ متروكا.»(٧٩)

فعجّل صلاح الدين جائزته وشرّفه وجمع له بين الخلعة والضيعة.

وأمّا البيت الذي قصده القاضي الفاضل فهو من ضمن قصيدة في مدح الملك الصالح بن رزّيك (عندما قصده في مصر). يقول المهذّب فيها:

مَنْ أرتجي يا كريمَ الدهرِ، يُنعشني جدواه، إن خاب سعيي في رجائيكا
أأمدح التُركَ أبغي الفضلَ عندهمُ والشعرُ ما زال عندَ التُركِ متروكا

شاهد القاضي الفاضل مع صلاح الدين في هذه الرحلة فتح كل من حمص وحماة، ثم عاد، بعد إبرام الهدنة مع الفرنج والصلح مع الحلبيين، إلى دمشق في أوائل سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م. ولمّا كان الوضع الاقتصادي سيّئا لجدب الشام في تلك السنة فقد طلب صلاح الدين من قوّاته أن تعود إلى مصر، لتستغلّ إقطاعاتها ثم تعود ثانية إلى الشام. وأرسل القاضي الفاضل برفقة العساكر للإشراف عليها في أثناء عودتها إلى مصر، واستعداداتها للدورة المقبلة في الشام. ولقد علّق عماد الدين على عودة القاضي الفاضل إلى مصر بقوله: «ولمّا تمّت الهدنة أذِن السلطان لعسكر مصر في الانصراف، واستجداد العُدَد منها والاستيناف، والإقامة ريثما يستوعب المغلّ ويُخرج في المهام الدّخل. وسار الأجلّ الفاضل ليزول به هناك الشواغل.»(٨٠)

وأضاف العماد إلى دوره الجديد في دولة صلاح الدين قوله: «ولمّا سار الأجلّ الفاضل إلى مصر اعتمد (صلاح الدين) عليّ في تنفيذ الأوامر والتفرّد للإصدار والإيراد

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٦١٤ ـ ٦١٥.
(٨٠) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥.

بالأمر.»[٨١]

تعلّم القاضي الفاضل دروسا جديدة في السياسة الشامية التي لم تكن لتقلّ تعقيدا عن السياسة المصرية في أثناء رحلته الأولى إلى الشام، وتواصلت بعد ذلك رحلاته بين القاهرة ودمشق وتغيّر بها مجرى حياته.

خامسا: مقاومة آل زنكي في حلب والموصل والجزيرة

(أ) المقاومة الحلبية الموصلية

أشرنا سابقا إلى أن الوحدة الدمشقية تصدّعت في إثر وفاة نور الدين. وحبّذا لو توقّف التصدّع عند ذاك الحد، ولكنّه امتدّ إلى جميع ممتلكات نور الدين في الشام في آن واحد، وبدت المنطقة من دمشق إلى الموصل أنها في طريقها إلى الانقسام إلى إمارات صغيرة متعدّدة، وإقطاعات وحصون مستقلّة يتصارع أصحابها بشأن التوسّع والسلطة. ولقد أعاد ذلك إلى الأذهان وضعَ الشام في بداية القرن عندما اجتاحها الفرنج، كما أنه شجّع، في الوقت ذاته، الفرنج المعاصرين له، في كل من المملكة اللاتينية والشام، على استغلال الفراغ القيادي في المنطقة، والتوسّع فيها، والتدخّل في شؤونها، وضرب أمرائها بعضهم ببعض، كي يتسنّى لهم التحكّم فيها من جديد. ولكن وصول صلاح الدين إلى دمشق حال دون تنفيذ أطماعهم التي سرعان ما تخبّطت وتعرقلت بوفاة الملك أموري بعد نور الدين بثلاثة أشهر، ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م.[٨٢]

لم تكن مهمّة صلاح الدين في الشام سهلة. فبعد أن أقرّ الأمن في دمشق واجه مهمّة إعادة توحيد دمشق، وإخضاع القادة والأمراء المنشقّين كل على حدة، خلال مدة استغرقت أحد عشر عاما بين سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ وسنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م، واستنزفت الكثير من موارده وموارد مصر المالية والبشرية، معوّقة بذلك الجهادَ ضد الفرنج في كل من الشام والمملكة اللاتينية.

وإذ كان القاضي الفاضل كبيرَ مخططي سياسة صلاح الدين فقد شاركه في توحيده

---

(٨١) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(٨٢) تفصيلات الصراع في: البنداري، المصدر نفسه، ص ١٥٥ ـ ١٥٦، ١٥٩ ـ ١٦١؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٥٨ ـ ٦٠، ٦٥ ـ ٦٦؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١ ـ ١١؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٥ ـ ٥٩٨. لوفاة الملك أموري انظر:
William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, pp. 395-396.

للشام، وفي إعداد عساكره لإخضاعها لسلطته، ولو أنه لم يكن مقتنعا بسياسة صلاح الدين في التوغّل في شمال الشام والجزيرة، الأمر الذي استغرق وقتا طويلا كان من الأجدر بذله في الجهاد ضد الفرنج.

ولا بدّ، لفهم مسيرة القاضي الفاضل منذ دخوله دمشق أول مرة سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م حتى توحيد الشام بأكملها وإخضاع الموصل سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م، من أن نعرض الفترة التي تلت وفاة نور الدين في شمال الشام.

ذكرنا سابقا أن نور الدين خصّص معظم اهتمامه لدعم منطقة حلب، أهمّ الثغور الشامية في الشمال، وتحصين مدينة حلب بالذات. ولشدة حرصه على أمنها فقد عيّن رضيعه وكبير أمرائه شمس الدين علي بن الداية لولايتها، تاركا معه قسما كبيرا من عساكره.

وعندما تُوفي نور الدين كان شمس الدين علي بن الداية مريضا، فلم يتمكن من الذهاب إلى دمشق للإشراف على ابن نور الدين والأخذ بزمام الأمر، لكونه كبير قادة نور الدين، واختار الطريق الأسهل له في حلب، إذ استدعى الملك الصالح إسماعيل، ابن نور الدين، إليها ليتمكّن من وصايته عليه، هادفا بذلك إلى أمرين: إعادة مركز الحكم إلى حلب ثم ترسيخ حكم الملك الصالح إسماعيل في حلب والجزيرة؛ والحدّ من أطماع بعض الأمراء من آل زنكي، أمثال سيف الدين غازي وإخوته، في الاستيلاء على الحكم.

وخلافا لتوقّعات نور الدين من قبل، فقد جرت سلسلة من الأحداث بدأت قبل وفاته واستمرّت فيما بعد، وزادت الوضع تعقيدا؛ منها استدعاء نور الدين عساكره من المنطقة الشرقية بهدف التوجّه إلى مصر، بحسب رواية ابن واصل، وإعادتها إلى طاعته، إلّا إن وفاته حالت دون تنفيذ مأربه، فانقسمت قواته، وتصارع قادتها للحصول على القسم الأكبر من ممتلكاته في الشمال. وكان على رأس هذه القوات سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي حاكم الموصل، وسعد الدين كمشتكين، والي قلعة الموصل؛ فما إن سمعا بوفاة نور الدين حتى افترقا، فهرب سعد الدين كمشتكين إلى حلب، حيث تولّى قيادة المعارضة لصلاح الدين فيها، بينما، توجّه سيف الدين غازي إلى الجزير فاستولى على نَصِيبين والخابور وحران والرُّها، باسطا ملكه حتى مشارف حلب.[٨٣]

---

(٨٣) البنداري، المصدر نفسه، ص ١٥٥ ـ ١٥٦، ١٥٩ ـ ١٦١؛ ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٥٨ ـ ٦٠، ٦٥ ـ ٦٦؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١ ـ ١١؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٥ ـ ٥٩٨.

وقد وقعت أحداث عديدة في إثر هذه الحركة أدّت إلى استبداد سعد الدين كمشتكين بحلب وبتربية الملك الصالح. وهكذا انقسمت الشام عدّة مناطق مستقلّة: حلب؛ والجزيرة والموصل؛ ودمشق؛ ثم منطقة حمص وحماة.(٨٤)

وأمّا حكام حلب والموصل فتحالفوا ضد صلاح الدين، وحاولوا استفزازه في بداية أمره بدمشق، إذ أرسلوا إليه رسالة مع قطب الدين ينال بن حسّان المنبجي أحد قادة نور الدين الذين قاوموا تولّيه للوزارة في مصر، مشحونة بالتهديد والوعيد. وقد تلاها حاملها على صلاح الدين بقوله: «إن هذه السيوف التي ملّكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردّت عنك تلك العساكر، هي تردّك وعمّا تصدّيت له تصدّك! وأنتَ فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين وممّن يجب عليك حفظه (الحكم) في ولده.»(٨٥)

فردّ صلاح الدين عليه بقوله: «يا هذا اعلمْ أنني وصلت الشام لجمع كلمة الإسلام، وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكفّ عادية المعتدين.» فردّ عليه قطب الدين ينال قائلا: «إنّك إنما وردت لأخذ المُلْك لنفسك، والمصلحة أنك ترجع من حيث جئت، ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع.» «فأظهر له السلطان التبسُّم، ولم يقابله إلّا باللين والرفق.»(٨٦)

أدرك صلاح الدين أنّ صراعه مع قادة نور الدين وآل زنكي طويل المدى، ولكنْ كان أمامه خياران: إمّا أن يكتفي بحكم دمشق، تاركا الشمال لمن فيه يفكّكونه ويتواطأون مع الفرنج عليه؛ وهذا وضع خطر يشابه وضعه سابقا بين المعارضة المصرية والفرنج؛ وإمّا أن يتقدّم مع عساكره نحو الشمال في محاولة لضم ما يمكنه من الشام ليحمي دمشق، ويختصر المسافة بينه وبين معارضيه في حلب والموصل، بحيث يصبح قريبا منهم على أمل الانقضاض عليهم في الوقت الملائم. وعليه قرّر التوجّه إلى شمالي

(٨٤) أصبحت حلب يلك الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وقد حكم باسمه الخادم سعد الدين كمشتكين، متولي قلعة الموصل في عهد نور الدين. ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ٥٩ ـ ٦٠؛ البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤ ـ ١٦٥. أما الجزيرة لضمّها سيف الدين بن قطب الدين مودود بن زنكي، إلى الموصل، ولايته؛ وأما حمص وحماة وما جاورهما فكانت إقطاعا للأمير فخر الدين مسعود الزعفراني تركها، في إثر وفاة نور الدين، في أيدي ولاة فأخذها منهم صلاح الدين. ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٨ ـ ٥٩، ٦٥ ـ ٦٧؛ وأما دمشق فكانت تحت نفوذ قائد نور الدين، شمس الدين بن المقدّم وقادة آخرين، البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦ ـ ١٧٧؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٢ ـ ٦٠٥.

(٨٥) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٧.

(٨٦) المصدر نفسه.

الشام مصطحبا القاضي الفاضل.

حاصر صلاح الدين حلب أوّل مرّة سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م، ولكن سعد الدين كمشتكين أثار أهاليها على صلاح الدين، إذ طلب من الملك الصالح الاجتماع إلى أهالي حلب، كما دعا أهالي حلب إلى التجمع في أحد ميادين المدينة، فأتَوْه من كل صوب حتى غصّ الميدان بهم؛ فخاطبهم عندئذٍ الصالح ببضع كلمات أثارت شفقتهم عليه وأحقادهم على صلاح الدين ومخاوفهم منه وشعورهم بالولاء لآل زنكي، ولا سيما لنور الدين. وخاطب الملك الصالح المتجمّعين بكلمات بسيطة، بحسب رواية ابن أبي طيّ، أحد أهالي حلب ووجهائها: «يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجىء إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابّكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد. ثم خنقته العبرة، وسبقته الدمعة، وعلا نشيجه؛ فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجّوا بالبكاء والعويل، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك؛ وأقبلوا على الدعاء له والترحمّ على أبيه.»[٨٧] وهكذا نجح المدبرّون لأمر الملك الصالح بإثارة الرأي العام الحلبي، ولكنّهم حاولوا أيضا أن يثيروا الشيعة في حلب بصورة خاصة على صلاح الدين، وكانت قد ازدادت مخاوفهم منه منذ قضائه على الفاطميين في مصر؛ وإنْ كان شيعة حلب من الاثني عشرية.

وطالب شيعة حلب بعدد من المطالب ثمنا لمساعدتهم للسلطات الحلبية ضد صلاح الدين، بينها: «أنهم يعيدون إليهم شرقية الجامع ليصلّوا فيها على قاعدتهم القديمة. وأن يجهروا بحيّ على خير العمل، والأذان، والتذكير في الأسواق وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يُصلّوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأنْ تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسني، وأنْ تكون العصبية مرتفعة، والناموس وازعا لمن أراد الفتنة؛ وأشياء كثيرة اقترحوها ممّا كان قد أبطله نور الدين رحمه الله.» ووافقت السلطات الحلبية لهم على طلباتِهم «فأذّن المؤذّنون في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل (كما يروي ابن أبي طيّ) وصلى والدي (أي والد ابن أبي طيّ) في الشرقية مسبلا، وصلى وجوه الحلبيين خلفه، وذكّروا في الأسواق وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة، وصلّوا على الأموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبية من الإمامية إليه، وفعلوا جميع ما وقعت الأيْمان عليه.»[٨٨]

---

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٦٠٩.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٦٠٩ ـ ٦١٠.

كان مخطّط سعد الدين كمشتكين والزنكيين مدبّرا تدبيرا مُحْكَما. فبعد أن أثاروا أهالي حلب على صلاح الدين اتّصلوا بسنان، صاحب الإسماعيلية الحشيشية، مستنجدين به وبجماعته في مقابل وعود بالأموال والأقطاع. فلم يتوانَ عن تلبية طلباتهم، لأنه كان يحقد على صلاح الدين لقضائه على الإسماعيلية في مصر ويخاف من توسّعه؛ فأرسل بعض رجاله لاغتيال صلاح الدين في أثناء حصاره حلب. ووصل هؤلاء إلى جبل جوشن حيث صلاح الدين، واختلطوا بالعسكر، ولكن ناصح الدين خمارتكين، صاحب بوقبيس الحصن المجاور للإسماعيلية، عرفهم فقال لهم: «لأيّ شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول؟ فبدروه بسكّينهم وقتلوه. وجاء من يدفع عنه ففتكوا به وبالجراح أثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السلطان في مقامه وقد شهر سكّين انتقامه، وطغرل الأمير جاندار واقف ثابت حتى وصل إليه فشمل السيف رأسه، وما قُتل الباقون حتى قتلوا جماعة.»[٨٩]

انسحب صلاح الدين عن حلب بعد هذا الحادث، ولم يكن انسحابه خوفا من الحلبيين والإسماعيلية، بل من فرنج الشام والمملكة اللاتينية، الذين كان يتوقّع استغلالهم الموقف ومباغتتهم إياه في أثناء بُعده عن دمشق. وقد علم وهو محاصِر لحلب أن السلطات الحلبية كانت على اتصال بريموند الثالث حاكم طرابلس يستحثّونه على صلاح الدين؛ أو كما ذكر عماد الدين الأصفهاني أنهم «كاتبوا القومص في طرابلس، وقالوا له: أنت طليقنا. وكنت رفيقنا في الأسر والآن أنت عتيقنا، وحقّنا عليك متعيّن، وبرهان ذلك بيّن.» ويذكر عماد الدين أن ريموند الثالث كان أسيرا عند نور الدين لمدّة تزيد على عشرة أعوام، إلى أن فدى نفسه بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير.[٩٠]

استجاب ريموند للحلبيين وأعدّ لمواجهة صلاح الدين جيشا مؤلفا من قوات المملكة اللاتينية وطرابلس، ثم توجّه إلى حمص، آملا أن يُطلق بعض الرهائن الفرنج المسجونين في قلعتها منذ عهد نور الدين، وأن يُخفّف ضغط صلاح الدين على حلب، بل وأن يحتلّ حمص لموقعها الاستراتيجي بين شمالي الشام وجنوبيها. ولكنّ صلاح الدين كان أسبق عملا، فحالما سمع بتحرّكه فكّ حصار حلب وعاد إلى حماة حيث كان قسم من جيشه محاصِرا لقلعتها.[٩١]

---

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٦١٠ - ٦١١؛ البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٨١.

(٩٠) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٨١ - ١٨٣.

(٩١) المصدر نفسه؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١٣ - ٦١٤؛ أيضا:
William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 405.

«ومع أن الهدف من حركة الفرنج على حمص كان تخفيف ضغط صلاح الدين عن حلب، فإن تلك القوّات [على ما يرى المستشرق ايرنكروتيز] لو تمكّنت من الوصول إلى حمص لاحتلّتها بمساعدة حامية قلعتها، ولو أوقعت بقوات صلاح الدين المحاصِرة للمدينة لأفنتها، ثم لتمكّنت من اللحاق بقوات صلاح الدين المحاصِرة لحلب والتغلب عليها، وقطع خطوط المواصلات بين صلاح الدين ودمشق، وإثارة فتنة عليه في المنطقة الواقعة بين دمشق وحلب.»[٩٢]

هاجم الفرنج حمص في ١ شباط (فبراير) ١١٧٥م/ ٥٧١هـ، ولكنّهم حين علموا بوصول صلاح الدين إلى حماة، تراجعوا، بعد أن نجحوا في إبعاده عن حلب، فشدّد صلاح الدين الحصار على قلعة حمص حتى أخذها بالأمان في ١٧ آذار (مارس) ١١٧٥م/ ٥٧١هـ.[٩٣]

وصف عماد الدين معركة حمص بقوله إن صلاح الدين حاصر القلعة لمدة شهر جرت خلاله معارك استُشهد فيها من الطرفين، وصلاح الدين مقيم في بيت في أعالي المدرسة يُشاهد المعارك إلى أن طلب هؤلاء الأمان وسلّموا الحصن.[٩٤]

(ب) القاضي الفاضل والخلاف بين آل زنكي وصلاح الدين

ولقد وصف القاضي الفاضل الذي حضر ذاك الحصار قلعة حمص وما جرى حولها، في رسالة إلى الفقيه زين الدين علي بن نجا الواعظ في مصر، ذاكرا: «والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجما في سحاب، وعقابا في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قُلامة، عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألّا يحلها بقرعة، عاهدة عصمة صافحها الزمن على ألّا يروعها بخلعة. فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب؛ فلم يكن غير ثالثة من الحد إلّا وقد أثّرت فيها جذريا بضربها، ولم تصل السابع إلا والبحر منذر بنقبها. واتّسع الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع، وفُتِحت الأبراج فكانت أبوابا، وسُيّرت الجبال بها فكانت سرابا. فهناك بدت نقوب يرى القائم من دونها ما وراءها وحشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها.»[٩٥]

---

(٩٢) Ehrenkreutz, *op.cit.*, pp. 130, 132-133.

(٩٣) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(٩٥) رسالة القاضي الفاضل في: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١٢.

كما كتب رسالة عن صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل نائبه في مصر، يشير فيها إلى الهجوم الفرنجي على حمص بقوله: «قد أعلمنا المجلس أنّ العدو، خذله الله، كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم، واستطالوا على الإسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى حمص، فوردنا إلى حماة، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه، فسار إلى حصن الأكراد معلّقا بحبله مفتضحا بحيله. وهذا فتحٌ تُفتح له أبواب القلوب، وظَفَرٌ وإنْ كان قد كفى الله (تعالى) فيه القتال المحسوب، فإن العدوّ قد سقطت حشمته، وانحطت فيه همّته، وولّى ظهرا كان صدره يصونه، ونكس صليبا كانت ترفعه شياطينه.»[٩٦]

والقاضي الفاضل هو الكاتب الوحيد الذي أورد تفصيلات الهجوم الفرنجي على حمص، والإشارة إلى أن قوات ريموند عادت إلى حصن الأكراد، حصن الإسبتارية، كما يشير إلى أنه لم يجر أي قتال بين قوات صلاح الدين والفرنج، بل إن انسحاب القوات الفرنجية كان تهرّبا من مواجهة صلاح الدين. ومع أن روايته تتعارض مع رواية عماد الدين الأصفهاني، إلا إنها تتّفق ورواية وليم الصُّوريّ الذي يذكر أن انسحاب الفرنج زاد في غطرسة صلاح الدين.[٩٧]

وبعد انتهاء المواجهة بين صلاح الدين وفرنج الشام، فإنه عمل على مهادنتهم ومصالحتهم ليضمن حيادهم حيال صراعه مع حلب والموصل. وقد قام القاضي الفاضل بهذه المهمة بكفاءة وحنكة.

وممّا ساعده في مهمّته هذه أنّ المفاوِض عن ريموند الثالث، حاكم طرابلس ووصي الملك بلدوين الرابع، كان همفري التوروني الذي عرفه معرفة جيّدة من أيام شاور في مصر. وكان هدف القاضي الفاضل من المفاوضات تحييد فرنج الشام، كي يتسنّى لصلاح الدين إخضاع القادة والأمراء في شمال الشام والجزيرة.

عرض القاضي الفاضل على همفري، وبموافقة صلاح الدين، عروضا مغرية، بينها إطلاق جميع رهائن الفرنج، من رجال ريموند الثالث، ورينولد حاكم صيدا، المساجين في قلعة حمص، فوافق، وأعيدت الرهائن إلى الفرنج وتمّ الصلح بين الطرفين في مستهل محرّم سنة ٥٧١هـ/ تموز (يوليو) ١١٧٥م. ويبدو مع ذلك أن مجمل حصيلة ذلك الصلح جاءت في جانب صلاح الدين، وأنّ هذا الاتفاق لم يَرُق للفرنج الذين اعتبروه مضرّا بمصالحهم، كما يذكر وليم الصُّوريّ بقوله: «لقد كانت مفاوضة همفري التوروني (مع صلاح الدين)، مضرّة بمصالحنا؛ فقد كان من الأولى مقاومة هذا الحاكم كي لا يزداد

(٩٦) رسالة القاضي الفاضل في: المصدر نفسه، ص ٦١٤.

(٩٧) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, pp. 409-410.

تعدّية علينا مع ازدياد قوّته. ولكننا بدلا من مقاومته أوليناه ثقتنا.»[٩٨]

وعلّق عماد الدين الأصفهاني على الصلح بقوله: «فما زال (صلاح الدين) يردّدهم حتى دخلوا تحت كل ما شَرَط، وقرّبوا من المُراد كل ما شحط، وتقبّلوا بكل ما فيه للإسلام غبطة، فترجحت الفائدة، ووضحت في المصالحة المصلحة الزائدة.»[٩٩]

وفتح الصلح بين صلاح الدين وريموند الثالث صفحة جديدة في تاريخ العلاقات بينه وبين فرنج الشام، وتوطّدت في إثره روابط صداقة بينهما استثمرها صلاح الدين، فيما بعد، لهزيمة فرنج المملكة اللاتينية بحطّين.

حالما تمّ الصلح مع الفرنج، أرسل صلاح الدين القوات المصرية إلى القاهرة برفقة القاضي الفاضل كي تستجمّ وتتزوّد قبل عودتها ثانية إلى الشام لمتابعة إخضاع أمرائها. فأمضى القاضي الفاضل ما يقارب تسعة أشهر في مصر، يراجع بعض الأمور الإدارية في ظلّ الملك العادل سيف الدين، ويشرف على تزويد العساكر المصرية، إلى أن استدعاه صلاح الدين ومعه العساكر المصرية إلى الشام، فعاد إليها في أوائل رمضان من السنة ذاتها، ٥٧١هـ/آذار (مارس) ١١٧٦م.[١٠٠]

وقع في أثناء غياب القاضي الفاضل في مصر، من محرّم إلى رمضان ٥٧١هـ/ تموز (يوليو) ١١٧٥م إلى آذار (مارس) ١١٧٦م، بعض الأحداث التي اضطرّت صلاح الدين إلى استدعاء وزيره، وأهمها تحرّكات السلطات الموصلية والحلبية العسكرية ضد صلاح الدين في الشام.

فقد شاعت الأخبار في فصل الشتاء عن استعداد القوات الموصلية للتحرّك العسكري ضد صلاح الدين في الربيع. وهذا ما أثار مخاوف صلاح الدين، لأنّ قواته كانت بعيدة عنه، فكتب إلى الأمراء مستعديا. فوصل من مصر مِن الأمراء والفِرَق من نصّ عليهم، ومعهم القاضي الفاضل.[١٠١] ولا شكّ في أن استدعاء صلاح الدين للقاضي الفاضل في هذه الفترة المهمة، أو الدورة الثانية من صراعه مع المواصلة والحلبيين، يشير إلى اعتماده الكبير عليه في المفاوضات.

وصل القاضي الفاضل بالعساكر المصرية إلى الشام في الربيع، أكثر الفصول

---

(٩٨) *Ibid.*, pp. 410-411.

(٩٩) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ٢٠٠. ويذكر عماد الدين أن صلاح الدين كتب إلى الأمراء بالاستدعاء لا الاستبطاء، فوصَل من مصر من وَقّع على حضوره التنصيص، ونُفّذ بالأمر التعميم والتخصيص. ووصل الأجلّ الفاضل، وشملت الفواضل، ونجحت الوسائل. المصدر نفسه، ص ٢٠١.

ملاءمة للالتحام، وتوجّه إلى الشمال حيث شاهد معركة كبرى عند تل السلطان، قرب حلب، بين صلاح الدين وآل زنكي من حكّام حلب والموصل، انهزم فيها آل زنكي. وكان هؤلاء قد استنجدوا مرّة ثانية بالفرنج وأطلقوا لهم من سجون حلب بعض كبار معتقليهم مثل رينولد الشاتيوني أمير الكرك، وجوسلين الثاني حاكم الرُّها، وغيرهما من قادة الفرنج أملا بأن يحظوا بمساعدتهم.(١٠٢) ولقد ظلّ رينولد، أميرُ الكرك، شوكة في حلق المسلمين إلى أن قتله صلاح الدين في إثر معركة حطّين.

أقنعت هذه الأحداث القاضي الفاضل بضرورة الاستيلاء على حلب، فوقف إلى جانب صلاح الدين يسانده في صراعه مع حاميتها وأهلها، ويحثّه على أخذها في أثناء بُعده عنه، إلى أن تسلّمها، ووحّد بتسلّمها جميع الشام، وكان ذلك سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م. وقد عبّر القاضي الفاضل في عدد من رسائله عن ارتياحه إلى أخذ حلب، لأنها مدخل الفرنج إلى باقي الشام. ففي كتاب إلى العادل، أخي صلاح الدين، ذكر:

«'ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز'. وقد علم موقع حلب من البلاد وموقعها من المراد، وفاتحة النجدة بها من الله الجهاد، وفادحة فتحها في الكفرة والأضداد. وكتابنا هذا وقد أنعم الله بها بسلم ما شفيت فيها للسيف غلّة، ولا ارتجت للردى علّة، ولا أتى فيها ما يشق على أهل الملّة، ولا عَدَوْنا ما يبني للمسلمين العزّة ويورث عدوّهم الذلّة، وعُوِّض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونَصِيبين والرقّة وسروج والخابور، وهو صرف بالحقيقة أخذنا فيه الدينار وأعطينا فيه الدراهم، ونزلنا عن المبيحات وأحرزنا العواصم، وسرّنا أنها انحلت، والكافر المحارب والمسلم المسالم. وكتابنا هذا وقد تمكّنت أعلامنا موفية على قلعتها المنيعة، وتصرّفت نوّابنا في مدينتها موفية بمواعد عدلنا الجليلة اللطيفة، وفرّقنا إقطاعاتها وبلادها وقلاعها على أهل الغناء، وحصلت بيدنا وما فيها بالحقيقة إلا ما نرجو من آجله الأجر وعاجله الثناء. واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف العزم والمصابرة، وانتظم الشمل الذي كان نثيرا وأصبح المرء بأخيه كثيرا، وذهب الكلال وأرهف الكليل، ونزع الغلّ وشفي الغليل. والحمد لله قولا يسترهنُ النعمة ويستزيدها، ونية تبدي العارفة وتعيدها، ونسأله إيزاع شكر ما بنا من مواهبه التي أحرزناها أولها في التعداد وأوْلاها بالاعتداد.»(١٠٣)

وفي كتاب آخر، يقول: «أوْلى ما انطلقت الأقلام والألسنة بذكره، وتجرّدت

---

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(١٠٣) الأصفهاني، «البرق»، ج ٥، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

الخواطر لقضاء حق شكره، وهنيء الإسلام فيه بيوم ضامن لما بعده من أيام نصره، ما كان لشمل الأمة جامعا، ولعدوه كلّما همّ قاصرا وكلما قام قامعا، وذلك ما منّ الله به من تسلّمنا مدينة حلب وقلعتها بسلم وضعت بها الحرب أوزارها، وبلغت بها الهمم أوطارها، وأحسنت فيها التقية آثارها، وعوّض صاحبها بما لم يخرج عن اليد لأنه مشترط عليها الخدمة بنفسه وبعسكره، ويختلط بالجملة فهو أحد الأولياء في مغيبه ومحضره. وكتابنا هذا وقد ظفر الساري بفجره، وحمد الصابر عقبى صبره، والأحكام في مدينة حلب جائلة، والأعلام على قلعتها محمولة بل حاملة، فالسيوف التي كانت لها مبيحة هي التي كانت بصونها كافلة، وقد حقّق الله الخير وزواجره، وصرف الضير وأخرس زماجره، والألفة واقعة، والمصلحة جامعة، وأشعة أنوار الاتّفاق شائعة.»(١٠٤)

ويقول في آخر: «صدر إليك هذا الكتاب والأوامر بحلب نافذة والرايات بأطواق قلعتها آخذة. وجاء أهل المدينة يستبشرون، قد بلغوا ما كانوا يؤملون وأمنوا ما كانوا يحذرون. والحمد لله على هذا المصير وعلى ما منّ به من هذا الطول الطويل في الزمان القصير، ونحن نستنصر بالله مولانا فنعم المولى ونعم النصير.»(١٠٥)

وفي آخر: «إن الله سبحانه يسوق مقاديره إلى مواقيتها، ويؤلّف بين القلوب أهل طاعته على طواغي الكفر وطواغيتها، ويتِمُّ ما سبق في مشيئته من جمع كلمة هذه الملّة وتأليف شتيتها. ومن ذلك ما أنعم به مِنْ فَتْحِ مدينة حلب سلما سفر فيها وجه الإسلام، ورقي قلعتها سلّما بمشيئة الله تعالى إلى دار السلام. وفتح باب الخير بما سهّله من أبواب الفتوح وفتحه، وأجلى حلبة حلب لإجراء ضوامرنا، وشفى أوام رعايتها بأوامرنا، وجلا علينا الشهباء في شهب سمائها، وأنزل إلى طاعتنا الملك الأشمّ من شمّائها، وملّكنا قيادة كل أبيّ، وتواضع في أفق مملكتنا كل حصن في السموّ كوكبيّ.»(١٠٦)

ومن فصل في كتاب: «صدرت هذه المكاتبة وقد تضوّعت أرجاء الرجا بأرج النجح، وأعقبت ليلة سرى العزم من نصر سفور الصبح، وفازت متاجرنا في سبيل الله بالربح، وأجزل الله لنا نصيب المنّ والمَنْح. وذلك بما يسّره لنا من فتح حلب سلما أبدينا فيه صفحة الصفح، وسفرت وجوه المسلمين كافة بما وقعت السفارة فيه من هذا الفتح. وهو حتف عاجل للأعداء، وتحف ألطاف للأولياء، وبانت شهب السماء بملكنا لها دون محل الشهباء، وجعل الله لنا اليد البيضاء في تسكين الدهماء، ولم يبقَ إلا تصميم العزم على الجهاد في سبيل الله مشحوذة فيه مضارب المضاء، وقد دانت لنا بلاد

---

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(١٠٥) المصدر نفسه.

(١٠٦) المصدر نفسه.

الشام بأسرها وتضاعفت نعم الله التي لا نقوم بشكرها ولا نعرفها حقّ قدرها.»[107]

ومن كتاب إلى ديوان الخلافة في بغداد في فتح حلب:

«أدام الله سلطان الديوان ممتثلة مراسمه، متأثّلة مكارمه، متبارية رياض فضله وغمائمه، متكشّفة بأنوار فضله ظلم الدهر ومظالمه، معليا للأقدار لثم ثراه فينال السماء من هو لاثمه، مخشية مباسمه، مغشية مواسمه، مُقْوِية ربوع أعدائه، فكلها الرّبع الذي أشجاه طامسه. صدرت هذه الخدمة وقد تسلّم مدينة حلب ممتثلا للأمر الوارد عليه، واقفا حيث وقف به الاختيار له وهداه إليه، وعوّض من كانت في يده ما اشترط فيه خدمة عسكره في الغزو الذي هو مراده، والجهاد الذي فيه اجتهاده، وقد كان الخادم أشرف على مدينة حلب عاجلا وقلعتها آجلا، إلّا إنه لما أُمر بالمصالحة والمصلحة سلك إليها هذا الطريق من الطريق وسلّم الأمر إلى وليّه بجمعه بين فريضة المطاع وفضيلة الشفيق. وقد نشر لبصيرته من أنوار الولاء ما لم يكن عنها انطوى، وعلم أن الآراء العالية مهما أرادت فيه أتاه ومهما زوت عنه انزوى. وهو الآن مستقبل بمشيئة الله ما بورك له في لزومه، ولا يملّ العزم المستثير ولا يميل إلى جثومه. ويستأنف من قتال الكفر ما كان إليه ظامئا، ويسوم حظّه من ثواب الغزاة التي ما زال طَرْفُه إليها ساميا. ولو كان من ناضله وناظره لحظ بالأمر من أوّله وأخذ بالحزم من مستقبله، لكان قد قدّم ما أخرّ وأورد ما أصدر. والله سبحانه يديم أيام الديوان لملك يصونه ويتيحه، ولطف يجريه الله على يديه ويبيحه، وضيم عن جهة الإسلام يزحزحه ويريحه.»[108]

اعتقد القاضي الفاضل أن أخذ حلب كان ذروة انتصارات صلاح الدين، وأنّ من الممكن حسم الخلاف مع آل زنكي في الموصل سلميا. ولكنّ صلاح الدين لم يوافقه الرأي. وأصرّ على إخضاع الموصل وحكّامها عسكريا، الأمر الذي ورّطه مدة تزيد على ثلاثة أعوام في محاولات عسكرية فاشلة لاحتلالها، أثارت حقد أهالي الموصل عليه، ومنهم المؤرّخ عز الدين ابن الأثير الذي لم يُخْفِ استياءه مما عدّه اعتداء صلاح الدين على الموصل؛ في تاريخه الكامل؛ (وأثارت) مخاوف القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني من مغبّة تورّط صلاح الدين في منطقة بعيدة عن قواعده العسكرية؛ منيعة؛ مستعدّة لمواجهته ودحره، مهما كان الثمن. فحاولا أن يثنياه عن أخذ الموصل بالقوّة وأشارا عليه بأن يأخذها بالمفاوضة، ولكن صلاح الدين كان يصغي إلى بعض أمرائه وأقاربه الطامعين في المنطقة آنذاك بقضية الموصل أكثر منهما. فلم يصغ إليهما. ولقد تدخّلت عدّة جهات في الصلح بين صلاح الدين والمواصلة، من بينها الخليفة الناصر

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

الذي وكّل مندوبه صدر الدين شيخ الشيوخ بالمفاوضة بين الطرفين، وبعض أمراء الجزيرة. ومع أن مساعي الصلح تلك لم تُفلح، فإن صلاح الدين، اكتسب بهاء الدين بن شدّاد، مندوب الـمواصلة في الـمفاوضات. وقد انضم هذا إلى جانب صلاح الدين فيما بعد، في معركة عكّا، مسجّلا إيّاها بدقائقها. ومسجّلا سيرة مشرقة لصلاح الدين، لـمّح فيها إلى أهمية القاضي الفاضل، وإلى دوره الإداري والمعنوي في دولة صلاح الدين.(١٠٩)

وفي رسالة إلى صلاح الدين ينصح له فيها الصلح مع المواصلة، يذكر: «وأمّا يمين المواصلة وعَوْد رسول المولى (صلاح الدين) بإجابتهم إلى أمره، فلو أطاعوا البحر وهو مزبد لأعطاه الحِلم قياد السكون، ولو سلموا إلى الليث وهو مُلبد لما منيت لهم من وثباته المنون، وباب حِلْم المولى مفتوح، وسمعته ألّا يُجهز على مجروح.»(١١٠)

ويبدو أنه حاول التوسّط في الصلح مع المواصلة سرّا، فضايق ذلك صلاح الدين الموجود في الجزيرة فكتب له مستفسرا، فأجابه: «وأوحشني قوله أنيّ بعثت الكتاب مرتادا للمواصلة ومستأذنا، وكيف نُرمى معشر الطلبة بالعقوق لأستاذنا، إنما الأذن منه لا له وإذا حيّا بتحيّة، فلو قدرنا لحيّينا بأحسن منها، لكن نردّها عنه.»(١١١) ولم ينفِ الاتصال بالمواصلة.

وحاول في رسائله إلى صلاح الدين أن يشجّع وساطة صدر الدين شيخ الشيوخ بين صلاح الدين والمواصلة، فيذكر في إحداها قائلا: «وقد دخل (في الوساطة) من يجب ألا يخرج عنه وقام بها من لا يقعد عن صلاحها إن سمع منه، وهو سيدنا صدر الدين، شيخ الشيوخ:

إذا قالت حَذامِ فصدّقوها فإن القول ما قالت حَذامِ»(١١٢)

ولم يتمّ الصلح بين صلاح الدين والمواصلة إلّا بعد أن مرض صلاح الدين عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، وأشرف على الموت في حرّان، فقصده بهاء الدين بن شدّاد ورُسُل الخلافة يوم

(١٠٩) ابن شدّاد، ص ٦٥، ٧٠. سيرة صلاح الدين أو «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» بقلم ابن شدّاد.

(١١٠) رسالة القاضي الفاضل بشأن الموصل، القاضي الفاضل، «مراسلات» «Morasalat Fadhli,» MS., British Museum, ADD., 7465، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(١١١) القاضي الفاضل، الفاضل من كلام القاضي الفاضل أو: «Ketab al-Mokhtar,» MS., British Museum, ADD., 7307، ص ٢٠.

(١١٢) القاضي الفاضل، Al-Kadi al-Fadil Epistolae, MS., British Museum, ADD., 25757، ص ٩٧.

عرفة سعيا في الصلح، فوجدوه يتماثل إلى الشفاء، واتّفقوا معه على شروط الصلح النهائي. ويعلّق ابن واصل على هذا الصلح بقوله أنه «خُطب في جميع بلاد الموصل للسلطان، وقُطعت خطبة السلاطين السلجوقية بها، وخُطب له في ديار بكر، وجميع البلاد الأرتقية، وضُربت السكّة باسمه.»(١١٣)

وقد هنّأه القاضي الفاضل بالسلامة وبالصلح معا، ونصح له ألّا يحارب مسلما بعدما شفاه الله من مرضه، ويوجّه جلّ اهتمامه إلى مجاهدة الفرنج.(١١٤)

وإذا كان القاضي الفاضل قد أخفق في إقناع صلاح الدين بإيقاف حرب الموصل، فإنه سجّل لنفسه في التاريخ دورا فكريا نادى فيه بحقن دماء المسلمين، وتحويل الطاقات العسكرية الإسلامية إلى الجهاد. وكتاباته إلى صلاح الدين تشير إلى ذلك.

ففي ردّ على رسالة من صلاح الدين في دمشق سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، وهو في طريقه لقضاء فريضة الحج يذكر:

«وأما تأسُّف المولى (صلاح الدين) على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته مهاجرا لأجلها، وتجدّد العوائق التي لا يوصَل إلى آخر حبلها، فللمولى نيّة رشده، أوَليسَ الله بعالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله، لأنه غير مقدور له، ولكن عن النيّة لأنها محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة. وإذا كان المولى يسبّب الأسباب إلى الجهاد وينظّف الطريق إلى المراد، فهو في طاعة قد امتنّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجح موعدها. والثواب على قدر مشقّته، وإنما عظم الحج لأجل جهده وبُعد شقته. ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أول الأيام، وفصل القضيّة بين أهل الإسلام وأعداء الإسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البرّ المكتسب بالمرابطة والانتظار طويت.»(١١٥)

---

(١١٣) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٢؛ ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠ - ٧١.

(١١٤) أحمد بن عبد الوهّاب النويري، «نهاية الأرب في فنون الأدب» (القاهرة: المؤسّسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٣ - ١٩٤٩)، ج ٨، ص ١٠؛ أيضا: القاضي الفاضل، Tübingen MS., University of Tübingen, 24647، ص ١٠٠.

(١١٥) الأصفهاني، «البرق»، ج ٣، ص ٩٩ - ١٠٠.

الفصل السادس
الجهاد

أولا: الجهاد - الإطار العام

عندما دخل الفرنج منطقة الشام وحاصروا أنطاكية، ظنّوا أن المنطقة بأكملها واقعة في أيديهم لا محالة، فصبروا على أبواب أنطاكية مدّة ستة أشهر ذاقوا فيها مرارة الحصار والمقاومة الداخلية من أهالي أنطاكية، كما ذاقوا طعم الحرمان من ضروريات الحياة لبعدهم عن مواطنهم، الأمر الذي اضطرهم في فترة ما إلى أكل أمواتهم وحيواناتهم.

صمدت أنطاكية كما صمد الفرنج الذين دخلوها في النهاية غيلة، بعد أن تواطأوا مع فيروز الأرمني، حارس أحد الأبراج، الذي أباح لهم المدينة فاحتلوها، ولكنّهم لم يتوقّفوا عندها؛ فحالما وطّدوا حكمهم فيها جالوا في باقي الشام يحتلّون ما يقع في طريقهم من دون أن يجدوا مقاومة تُذكر. قتلوا ونهبوا واستباحوا وحملوا الأسرى من نساء ورجال، من دون أن يواجهوا جيشا منظما أو فرقة عسكرية. ولقد وقف سكان المدن، لا حامياتها، في وجه هذه الحشود الكثيرة. وأما الحكام فكانوا موزّعي الأهواء والولاءات، شغل كل منهم الشاغل الحفاظ على مدينته أو إقطاعه. ومن هنا راحوا يتسابقون في إرضاء قادة الفرنج الغزاة، فبعضهم يعرض عليهم أدلّاء لإيصالهم إلى فلسطين، وبعضهم يموّنهم بالغذاء والدواب وحاجات الرحلة والتنقّل، وبعضهم يدعوهم إلى مساعدته ضد غيره من حكّام المنطقة. ولقد فقد الحكّام الذين كان معظمهم من الطارئين على المنطقة، القدرة على الرد على جيوش الفرنج، كما فقدوا إحساسهم بمسؤولياتهم الدينية والخلقية، فتردّدوا وتذبذبوا، حتى سقطت جميع بلاد الشام باستثناء بعض المدن الداخلية من حلب إلى بُصرى. ولم يبقَ من فلسطين في يد المسلمين سوى عسقلان.[1]

في مثل هذه الأوضاع العسيرة التي أخفقت فيها القيادات، تصدّى أهالي المنطقة

---

(١) قاومت عسقلان الفرنج حتى سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م. وقد بحثنا في هذا الأمر في الفصل الأوّل، «المشهد».

من مفكّرين وعلماء للردّ على هذا الاحتلال بأقلامهم وألسنتهم من المنابر، ومن هنا احتلّ المسجد أو الجامع مكانة مهمة كمركز لمقاومة الاحتلال الفرنجي. وظلّ الأمر كذلك حتّى تحرير المنطقة على يد صلاح الدين بين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وسنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م.

كان أول المتصدين في الشام للاجتياح الفرنجي، فكرا وقولا، الفقيه الشافعي اللغوي علي بن طاهر السلمي (٤٣١ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٣٩ ـ ١١٠٦م) الذي اتّخذ جامع دمشق مركزا لتدريسه وبثّ آرائه. ومن هذا الجامع أسس قاعدة للمقاومة الفكرية عمل فيها تلاميذه وتلاميذهم في سلسلة متواصلة، حتى وفد نور الدين على دمشق، متّخذا إياها عاصمة له، وجاعلا منها منارا علميا وثقافيا. ولقد كان نور الدين نفسه، ومن بعده صلاح الدين حصيلة جو المقاومة الفكرية في دمشق، ولكنهما حوّلا حصيلتها الفكرية إلى عمل بعكس سابقيهم من حكّام المنطقة.

كان الفرنج على أبواب أنطاكية عندما بدأ السُّلمي يناشد المسلمين الوقوف صفّا واحدا متّحدا لصدّهم. ولكنّ آذان الحكّام كانت صمّاء، ومع هذا فقد ظلّ يدعو إلى الجهاد، وينادي، ويُهيب بالمسلمين، موجّها ومنبّها إلى مدى خطورة الاجتياح الفرنجي، ومذكّرا إيّاهم بواجباتهم تجاه الله والأرض التي جعلها أمانة في أعناقهم، وملوّحا إلى مدى ما عند المسلمين من الموارد البشرية الكافية لصدّ الهجوم الفرنجي والتخلّص من الفرنج قبل أن يستفحل أمرهم، ومشيرا إلى كيفية التخلص منهم. وقد كانت خطب السُّلمي ذات تأثير بالغ، سجّلها تلاميذه وتناقلوها ونشروها، وجمع بعضهم مجموعة صغيرة منها في كتيّب بعنوان «كتاب الجهاد». ويصحّ القول من دون مبالغة، إنها تشكّل جذور الردّ الإسلامي على الغزو الفرنجي، وبالتالي فلا بد من البحث فيها في هذا السياق.

افتتح السُّلمي خطبه المدوّنة بتحديد مفهوم الجهاد في الإسلام ومسؤوليات المسلمين جميعها تجاهه، بقوله ـ نقلا عن حديث نبوي ـ إنّ «الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الحبشة، والهجرة والجهاد في المسلمين بعدُ.» ويعلّق على قول الرسول «إنّ الجهاد في المسلمين بعدُ»، بأنه دليل ظاهر على أنه في جميع المسلمين، وإذا كان في جميعهم، كان باقيا إلى يوم القيامة. ولقد رأى السُّلمي في الجهاد مسؤولية إسلامية جماعية لا تتوقّف على الجيوش النظامية فحسب، أو على الخلفاء فحسب، بل أيضا على الشعوب المهدّدة بالغزو والاجتياح. فالدفاع الجماعي عن الأماكن أو المدن فرض واجب، في حال إخفاق الجيوش النظامية في التصدي للهجوم. ولمّا كان الهجوم الفرنجي قد تطلّب ردّا جماعيا سريعا فليس هناك عذر لمتثاقل، فالجهاد ضد الفرنج واجب على كل «ذي قدرة وهو من لا مرض به قاطع ولا

زمانة ولا عمى ولا عجز عن شيخوخة. فأمّا من سوى هؤلاء من غني وفقير وذي والدين ومن هو مرتهن بدين، فواجب عليهم النفير في هذا الحال، والبدار لحسن ما يُخشى من عاقبة الونية فيها والتثاقل عنها.»[٢]

وقد وسّع السُّلميّ بقوله هذا بعض مفاهيم الجهاد التي حدّدها الفقهاء قبله؛ لأنه رأى في الوقت عاملا مهمّا للمقاومة السريعة. فالوقت ملحّ والأوضاع تتطلّب عملا سريعا وتفسيرا للنصوص يتفق مع الحاجات والأحوال الحرجة والاستثنائية الطارئة.

وذكّر السُّلمي الدمشقيين بأنّ مكحول، وهو من أئمتهم، كان يذكّر نفسه ومَنْ حوله يوميا بأن الجهاد والغزو واجب، بقوله إن هذا الفقيه «كان يستقبل القبلة يوميا، ثم يحلف عشر أيمان أنّ الغزو لواجب، ويقول إن شئتم زدتم.»[٣]

وإذا كان الخلفاء الأوائل قد تبعوا التعاليم الدينية الناصّة على الجهاد، فلأنهم تفقّهوا بتعاليمه، وتقيّدوا بها، فكانوا يقومون بالغَزاة سنويا. وإن لم يتمكنوا من القيام بها استنابوا من يقوم مقامهم فيها. وهذه الغَزاة السنوية في صلب الجهاد، لأنها بمثابة إنذار للعدو بتهيئة المسلمين المستمرة، ورادع لهم في الوقت ذاته،[٤] كما يشير السُّلمي.

ومع أنّ الخلفاء الأوائل أدّوا فروضهم الدينية، إلا إنّ الخلفاء اللاحقين - ولعل السُّلمي كان يُشير إلى الخلفاء العبّاسيين في عصره - تخلّوا بالتدريج عن الجهاد لضعفهم المعنوي والقيادي، وابتعدوا في الوقت ذاته عن المثل والقيم الدينية والخلقية المنصوص عليها في القرآن، فعاقبهم الله تعالى بسبب أعمالهم بأن «شتّت جمعهم، وخالف بين كلمتهم، وألقى العداوة والبغضاء بينهم، وأطمع أعداءهم في انتزاع بلادهم من أيديهم وشفاء صدورهم منهم؛ فوثبت طائفة من العدو على جزيرة صقلّية، على حينِ تباين وتنافس، وتملّكوا بلدا بعد بلد في الأندلس. وعندما تناصرت الأخبار عندهم بما عليه هذه البلاد من اختلاف أربابها، وتقرُّض أكابرها مع اختلافها واضطرابها، أمضوا عزائمهم على الخروج إليها، وكانت القدس مهائر أمانيهم.»[٥]

لقد أثار السُّلمي في أقواله هذه نقطتين مهمتين في الجهاد، من الناحية التاريخية، ومن ناحية نظره إليه: فأما الأولى فإشارته إلى استغلال عدوّ الإسلام، الفرنج، للانقسام

---

(٢) Ali Ibn Tahir al-Sulami, *Kitab al-Jihad*, ed. by Emmanuel Sivan, in «La genèse de la contre Croisade: un traité damasquin du début XII^e Siécle,» *Journal Asiatique* 34 (1966), pp. 206-214.

سنشير إلى هذا المصدر بـ «السُّلميّ».

(٣) السُّلمي، المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

والتفكّك بين المسلمين شرقا وغربا، عاملا أساسيا في توسّعهم في المناطق الإسلامية، ومن ثَمّ تشريد أهاليها؛ وأما الثانية فإشارته إلى إهمال الحكّام لواجباتهم الدينية، الأمر الذي حرّك غضب الله عليهم، فعاقبهم على تقصيرهم في القيام بفروضهم، بإرسال عدوّ شديد البأس ليزحزحهم عن عروشهم ويحتلّ أراضيهم، ويثأر منهم. ونظرته التاريخية هذه نظرةٌ سماوية إلى الأحداث وما وراءها، تذكّرنا بقصص العقاب الواردة في القرآن الكريم. وهي القصص المتعلقة بأغلب الأنبياء الذين أرسلهم الله لتأدية رسالة دينية سامية لشعوبهم، فتقبّلها بعض الشعوب ونجا ورفضها بعضها فعاقبه الله شرَّ عقاب. ومن هذه القصص ما ورد بشأن مصير أقوام نوح ولوط وهود وغيرهم الذي أُبيدوا بسبب كفرهم وجحودهم لنِعِمَ الله.

فالمسلمون، أو بالأحرى حكامهم، في عصر السُّلمي أو في بداية الغزو الصليبي، كانوا ـ بحسب رأيه ـ لا يقلّون جحودا ونكرانا عن الشعوب السابقة لهم. وما العدوّ (الإفرنج) الذي سلّطه الله عليهم، ونجاحه المبدئي إلّا لتذكيرهم بالتعاليم الدينية وبإقامة الفروض والواجبات التي تخلَّوْا عنها، ولتنبيههم إلى أن غضب الله عليهم وعلى الأمة المسلمة سيظلّ قائما عليهم ومستمرا حتى يهبّ المسلمون للدفاع عن أراضيهم التي هي ملك لله، ويبدّلوا من أنفسهم ويتقيّدوا بالتعاليم الإسلامية. وفي خطاب السُّلميّ للمسؤولين في عصره يقول: «واعلموا يقينا أن هجوم هذا العدوّ على بلادكم ووصولهم إلى ما وصلوا إليه من بعضكم، إنما هو تخويف من الله سبحانه لمن بقي منكم، ليرى ما يكون من إقلاعكم عن معاصيه فينصرّكم عليهم فيؤمّنَ خوفكم، أو تماديكم وإصراركم فيُظفِرَهم بمن قد سلم من جمعكم. وقد ابتلاكم الله سبحانه مع إظلال هذه النازلة التي مغبتّها استيلاء هؤلاء الكفار، والإخراج من البلاد بالقهر والاقتسار، أو الإقامة معهم والتكبُّل والتعذيب في الليل والنهار.»[٦]

وبالإضافة إلى هذه النظرة السماوية إلى الأحداث، يشير السُّلمي إلى الواقع السياسي، فيذكّر المسلمين بأن الفرنج لم ينسوا توسّع المسلمين في بلاد كانت تحت حكمهم مثل الأندلس بصورة خاصة، وصقلّية والشام في بداية الفتوحات الإسلامية ضد البيزنطيين، ففي قوله «في شفاء صدورهم منهم» يعني شفاء صدور الفرنج، أو المسيحيين من فرنج وبيزنطيين من المسلمين بسبب توسّع المسلمين السابق في مناطق كانت تحت نفوذهم. ويعني أيضا أن هذا الثأر، أو شفاء الصدور، لم يتوقف عند حد استعادة أو احتلال الفرنج لبعض الممتلكات الإسلامية في المغرب الإسلامي، مثل طليطلة وغيرها في الأندلس وصقلية، بل امتدّ في حركة توسّعية متّجهة من الغرب إلى

(٦) المصدر نفسه.

الشرق، وكان أحد أهدافهم الأساسية احتلال القدس.

إن رؤية السّلمي لأهداف الحملة الصليبية الأولى على الشام تُصوِّر حربا مسيحية غربية شعواء، ذات أهداف متعدّدة بعضها توسّعي، أي استعماري بلغة عصرنا، باسم استعادة الأراضي المسيحية، وبعضها ديني، وهو قضية «الثأر. . أو شفاء الصدور»، أي أن القوى الغربية بصورة خاصة قد هبّت عندما أُتيحت لها الأوضاع كي تثأر من الإسلام والمسلمين بشيء من العنف لتشفي ما في صدورها من أحقاد.

ولقد غابت هذه الرؤية البعيدة المدى عن معظم مؤرّخي الحروب الصليبية المحدثين الذين أشاروا، من دون تردّد، إلى أن المسلمين لم يدركوا مدى الحملة الصليبية الأولى على الشرق، بل اعتبروها غزوة موقتة كبعض غزوات بيزنطة في الشام.(٧) ولعلها غابت أيضا عن أذهان بعض الحكّام المسلمين الذين فوجئوا بها، أو تظاهروا بالمفاجأة على الرغم من كل ما وصل إليهم من أخبار عن طريق بيزنطة وغيرها.

عرّف السُّلمي مقاومة المسلمين للفرنج بأنّها جهاد دفاعي هدفه طرد العدو من بلاد المسلمين التي احتلّها، أو تحرير الأراضي الإسلامية، والدفاع عن الأرواح والأهل والأموال والأملاك، وحراسة المناطق التي لم يحتلّها العدوّ.(٨) أو بالأحرى بناء سدّ في وجه الفرنج، يوقف توسّعهم في الشام، ويحدّ من أهدافهم التي كانت تتطلّع إلى مصر.

وإن كان السُّلمي قد تمكن من النفاذ إلى أهداف الفرنج البعيدة المدى، المتطلّعة إلى مصر، فإنّ حكّامها آنذاك كانوا ينظرون إليها من خلال منظار ضيّق، باعتبارها حركة ضد الشام قد تريحهم من الحكّام السلاجقة المناوئين لهم فيها.

وفي تعليقاته على الجهاد، ذكّر السُّلمي المسلمين في عصره بضرورة الاستفادة من الفرصة المتاحة أمامهم بسبب ما يعانيه العدوّ المحاصِر لأنطاكية من كَلَلٍ وَخَوَر ونقص في عدده وعدّته وأقواته، وبُعده عن مواطنه ومواننه؛ وحثّ المجاهدين على الثبات والإيمان بالنصر: «والله بقدرته المعين على ذلك والظهير وهو نعم المولى ونعم النصير. فإذا منّ الله سبحانه بلقاء هذا العدو فالثباتَ، الثباتَ، كما أمركم الله سبحانه أيّها المسلمون إذ يقول تعالى: يأيُّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم

---

(٧) Hadia Dajani-Shakeel, «Jihad in 12th Century Arabic Poetry: A Moral and Religious Force to Counter the Crusades,» in *Muslim World*, Vol. LXVI, No. 2 (April, 1976), pp. 96-113.

(٨) السُّلمي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢.

تفلحون.»[9]

نمت رؤية السلمي للجهاد وترعرت على أيدي أجيال من الفقهاء والعلماء المسلمين الذين عاصروا التوسُّع الصليبي، ودَعَوْا إلى صدّ خطره حتى تُوّجت آراؤهم باسترداد بيت المقدس على يد صلاح الدين. وقد تردّدت أصداؤها في رؤية الشيخ محيي الدين بن الزكي سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م، عندما استعاد صلاح الدين الأراضي المقدّسة ومعظم الشام بقوله: «أيّها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا، لِما يسّره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالّة من الأمة الضالّة، وردّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام.»[10] فقد اعتبر ابن الزكي استعادة القدس نهاية محنة الإسلام والمسلمين التي دامت قرابة قرن.

ولم يتمّ النصر والرضوان اللذان أشار ابن الزكي إليهما إلّا بعد أن وحّد المسلمون صفوفهم، ووجّهوا مصادرهم الماديّة والفكرية إلى هذا الغرض. وقد تمّ التوحيد والنصر على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان وراءه من رجال الفكر أمثال القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين بن شداد وغيرهم ممن تأثّروا بأقوال السلمي وتابعيه.

أهاب السلمي في بداية الهجوم الفرنجي على الشام، بحكام المسلمين مستثيرا قائلا: «فشمّروا ـ رحمكم الله ـ عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجهاد ومتعيّن الذبّ عن دينكم وإخوانكم بالمؤازرة والإنجاد، واغتنموا غزوة قد هيّأها الله تعالى لكم لا من تعب ولا نصب، وجنّة قد زُفّت إليكم تتناولونها بتوفيق الله سبحانه مِن كثب، ودنيا عاجلة تحوزونها من أطيب مكتسب، ومفخرا باقية ملابسه عليكم مدى العصور والحِقَب. واحذروا كل الحذر أن تتخلّفوا عن ذلك فَتَصْلَوْا نارا ذات لهب، جعلها الله تعالى شرّ مكان وأسوأ مُنقَلب.»[11]

ظلّت الدعوة إلى هذا النوع من الغزوة الداخلية، الغزوة لاستعادة الأراضي المقدّسة، سارية عبر الأعوام طوال القرن الثاني عشر، وتبنّاها الفقهاء والشعراء وقادة الجهاد حتى حرّر صلاح الدين معظم الأراضي المغتصبة، ثم تخطّاها عندما عزم على

(٩) المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(١٠) خطبة محيي الدين بن الزكي في: ابن خلكان: مصدر سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥. أيضا: مجير الدين الحنبلي، «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» (عمّان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣)، ج ١، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٩.

(١١) السُّلمي، ص ٢٠٩.

متابعة جهاده للفرنج في عقر ديارهم.

تركّزت حركة الجهاد الفكرية في القرن الثاني عشر حول ثلاثة محاور: الوحدة الإسلامية، الدينية والسياسية؛ والجهاد لإستعادة الأراضي المغتصبة كمسؤولية جماعية والقدس بصورة خاصة؛ والحفاظ على الأراضي المستعادة وتأمين مخاوف السكّان.

اتخذت فكرة الوحدة الإسلامية طابع القضاء على عوامل الانقسام في الإسلام كما ذكرنا بتوحيده تحت شعار السنّة، وهذا يعني القضاء على التشيُّع بأشكاله وفرقه المختلفة أنّى كان. ولقد كان أكبر داعية إلى توحيد الإسلام وإعادة السنّة إلى مكانتها القيادية، الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥/ ١١١١ م) في كتاباته المتعدّدة مثل إحياء علوم الدين، والرد على الملاحدة، وغيرهما. ولقد تبوّأ الإمام الغزالي أعلى مكانة علمية في عصره، وخلّف تلامذة كثيرين بينهم علي بن طاهر السُّلمي[١٢] الذي أشرنا إليه. وقد وضع الإمام الغزالي أسس إحياء السنّة عندما كانت الخلافة العباسية تواجه مرحلة من الانحسار، وكان التشيُّع بأشكاله، والإسماعيلية بفرقها، في مركز قوّة يهدّد الخلافة العبّاسية والسنّة، فوجّه اهتمامه في كتاباته لإعادة الهيبة المعنوية والمكانة القيادية إلى الخلافة العبّاسية.

وقد تمت الوحدة المذهبية في الشام في منتصف القرن الثاني عشر بالقضاء على مراكز القوى الشيعية ومؤسساتها في حلب خاصّة، على يد نور الدين زنكي. كما تمّت في القاهرة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر بالقضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة وإضعاف العناصر الموالية للفاطميين إلى درجة كبيرة في مصر على يد القاضي الفاضل وصلاح الدين. كما دعت حركة الوحدة المذهبية إلى إعادة هيمنة الخلافة العباسية كخطوة أساسية للقيام بواجب الجهاد لتحرير الأراضي المقدّسة. وكان من أكبر أبواق الدعوة إلى هذه الوحدة المذهبية والسياسية في الشام، الفقيه والشاعر والكاتب عماد الدين الأصفهاني الذي كان يقيم في دمشق في دولة نور الدين زنكي، ومن بعدها في دولة صلاح الدين منذ سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ ـ ١١٧٥ م. وأصبحت سيرة عماد الدين مرتبطة، إلى حدّ ما، بسيرة القاضي الفاضل وصلاح الدين. وأثمرت صداقة الكاتبين تزويدّنا بعدد كبير من رسائل القاضي الفاضل في الجهاد التي حفظها لنا عماد الدين، وبرؤية الكاتبينْ ودعوتهما إلى الجهاد.

نبّه عماد الدين إلى ضرورة هذه الوحدة في معظم شعره ونثره. فقد قال مادحا نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، ومشيرا إلى توجُّه أسد الدين شيركوه إلى مصر ثاني مرة

(١٢) يشير السُّلمي إلى آراء الإمام الغزالي في بداية «كتاب الجهاد».

بقوله:

أخوك وابنك صِدقاً منهما، اعْتَصَما ... بالله، والنصرُ وعدٌ غيرُ مكذوبِ
غداً يُشِبّان في الكفّار نارَ وغىً ... بلفحِها يُصبح الشبانُ كالشيبِ
بمُلْكِ مصرَ ونصرِ المؤمنين غداً ... تحظى النفوسُ بتأنيسٍ وتطييبِ
ويستقرُّ بمصرٍ يوسفٌ وبهِ ... تَقَرُّ لبُعدِ التنائي عينُ يعقوبِ(١٣)

وفي قصيدة مدح بها صلاح الدين بعد عودته من مصر في الحملة ذاتها في شهر ذي القعدة ٥٦٢ هـ/ ١١٧٠ م:

فلأيّوبٍ من أيابِ صلاحِ الدينِ يومٌ به تُوفّي النذورُ
ولكُمْ عودةٌ إلى مِصْرَ بالنصرِ على ذكرِها تمرُّ العصورُ
فاستردّوا حق الإمام ممنْ خان فيها فإنه مستعيرُ
وافترِعْها بِكراً لها في مدى الدهرِ رَواحٌ في مَدْحِكُمْ وبُكورُ(١٤)

ومن شعر عماد الدين في الوحدة أيضا بمدح أسد الدين شيركوه عندما تولّى الوزارة للخليفة العاضد:

فَتَحْتَ مِصْرَ، وأرجو أن تصير بها ... مُيَسَّرا فتحَ بيتِ القدسِ عن كَثَبِ

ويقول فيها:

رُدَّ الخلافة عباسية، ودعِ الدَّعيَّ فيها يُصادِفْ شرَّ مُنْقَلَبِ
لا تقطعنْ ذنب الأفعى وترسله ... فالحزمُ عند قطعِ الرأسِ والذَّنَبِ(١٥)

وكما أنّ موضوع الوحدة الإسلامية أصبح من محاور الشعر والنثر في القرن الثاني عشر، فإنّ القدس وفلسطين احتلّتا مكانة بارزة في أدب العصر كهدف ديني يستدعي التضحية والاستشهاد للتحرير.

ومن شعر الحافظ أبي القاسم بن عساكر، أحد كبار فقهاء دمشق، في نور الدين قوله:

وإنْ بذلتَ لفتحِ القدس محتسباً ... للأجرِ جوزيتَ أجراً غيرَ محتَسَبِ
والأجرُ في ذاكَ عند الله مرتَقَبٌ ... فيما يُثيبُ عليهِ خيرُ مُرْتَقِبِ
ولستَ تُعذَر في ترك الجهاد وقد ... أصبحتَ تملكُ من مصرٍ إلى حَلَبِ

(١٣) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٩.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٧٣.
(١٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

فطهّر المسجدَ الأقصى وحَوزَتَه — من النجاساتِ، والأشواكِ، والصُلُبِ
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا — وفي القيامة تلقى خير مُنْقَلَبِ(١٦)

ومن قصيدة لعماد الدين الأصفهاني في نور الدين سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧ ـ ١١٦٨م، يشير إلى سيرة نور الدين الجهادية مادحا:

أبشِرْ، فبيتُ القدس يتلو مَنْبِجاً — وَلِـمـنْـبِـجٌ لـسـواهُ كـالأنـموذَجِ
فانهدْ إلى البيتِ المقدّسِ غازياً — وعلى طرابلُسٍ ونابُلُسٍ عُجِ
قد سِرتَ في الإسلام أحسنَ سيرةٍ — مأثورةٍ، وسلكتَ أوضحَ مَنْهَجِ
وجميعُ ما استقريتَ من سُنَنِ الهُدى — جدّدتَ منه كلَّ رسمٍ مبْهِجِ(١٧)

رأى عماد الدين الأصفهاني من خلال عمليات نور الدين التوسعية في الجزيرة ضد الفرنج، شعاع نور يشير إلى البلاد المقدّسة ولكنّ هذا النور لا بد من أن يمرّ بمصر أوّلا، فيهديها إلى العالم السنّي، قبل أن يمتدّ إلى البلاد المقدّسة.

ومع أن الدعوة إلى تحرير البلاد المقدّسة لم تكن بالجديدة كما ذكرنا، إلا إن عماد الدين ركّز عليها في معظم كتاباته، موجّها ومنوّها بأنّها محور الجهاد الأساسي، بعد الوحدة الدينية السياسية. ولقد سبق عماد الدين الأصفهاني إلى الدعوة إلى تحرير بيت المقدس بعض الشعراء اللاجئين من فلسطين والساحل الشامي، مثل ابن القيسراني، وابن منير الطرابلسي، ولم يكونا ليتمكّنا من الإشارة إليها أو التركيز عليها لو لم يريا في حركة عماد الدين زنكي الجهادية ضد الفرنج في الجبهة الشمالية بارقةَ أمل تدعو إلى التفاؤل بالقيام بعملية كبرى كهذه.(١٨)

وابن القيسراني يشير، مادحا وموجّها نور الدين، سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، عند انتصاره على جوسلين، أمير الرُّها الفرنجي، في شمال الشام:

كأنّي بهذا العزم، لا فُلَّ حَدُّهُ — وأقصاه بالأقصى وقد قُضي الأمْرُ
وقد أصبح البيت المقدّس طاهراً — وليس سوى جاري المياهِ له طُهْرُ
وقد أدّت البِيضُ الحدادُ فروضَها — فلا عهدةٌ في عنقِ سيفٍ ولا نَذْرُ
وحلّتْ بِمعراج النبيّ صوارِمٌ — مساجِدُها شَفْعٌ وساجِدُها وِتْرُ
وإنْ يتيمَّمْ ساحل البحر مالكاً — فلاعجبٌ أن يملكَ الساحلَ البَحْرُ(١٩)

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٤٠٥.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.
(١٨) بعض الشعر موجود في: أبو شامة، ج ١، قسم ١، ص ٩٧ ـ ١٠٣، ١١٤ ـ ١١٥، ١٢٦ ـ ١٢٨، ١٣١.
(١٩) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ج ١، قسم ١، ص ١٨٧. القصيدة كاملة: ص ١٨٥ ـ ١٨٨.

ثانيا: نور الدين والجهاد

أصبحت الدعوة إلى تحرير فلسطين أو بيت المقدس موضوعا أساسيا في الشعر والنثر العربيين الصادرين من دمشق، في عهد نور الدين زنكي. ولقد شجّع هو هذه الدعوة، إيمانا منه بصدقها وضرورتها كأساس لجهاده، من ناحية، وتثبيتا لمركزه كقائد الجهاد الأكبر في المنطقة من ناحية أخرى. وأيّ هدف لحركة جهاده أقوى من هذا الهدف الديني. واقتنع نور الدين بأن تحرير بيت المقدس لن يتمّ ما لم تنضمّ مصر إلى الشام، بحيث تتوحّد الجيوش والأموال وتختنق المملكة اللاتينية من الشام شمالا ومصر جنوبا. وكي يثبت صدق نيّته في تخليص بيت المقدس فقد أعدّ منبرا ليوضع في القدس حال استعادتها، وكان كثيرا ما يُشير إلى أمنيته بنوال أجر استعادة بيت المقدس. ولكنّه توفّي قبل أن تتحقّق أمنيته. ومع أن نور الدين مهّد السبيل لتحرير المنطقة فإن التحرير تمّ على يد صلاح الدين. ومع أنه توفّي قبل أن يرى تحقيق أمنيته باستعادة الأراضي المحتلّة فإنّه ترك طابعا فكريا وعسكريا على الشام ومصر، أدّى إلى نجاح حركة الجهاد. فلقد فطن نور الدين إلى أهمية الثقافة الدينية في إيجاد وعي بين الشعوب والعساكر والقادة، بأهمّية استعادة الأراضى وربطها بقضايا الدين والتاريخ المحلي والإسلامي. وعليه فقد بنى كثيرا من المدارس في معظم مدن الشام على المذاهب الأربعة، والحنفية منها خاصة؛ وأنشأ دور الحديث وأوقف عليها وعلى المشتغلين فيها الوقوف الكثيرة، كما بنى مكاتب للأيتام، وأجرى عليها وعلى معلّميها جرايات وافرة؛ وأقام مساجد عديدة، وعيّن فيها مدرّسين للقرآن.[٢٠]

ولم تقتصر جهود نور الدين في هذه الناحية على المؤسسات الثقافية والدينية، بل شجّع المؤسسات الدينية الشعبية، مثل الخانقاهات لأصحاب الطرق الصوفية، ووقف عليها أوقافا كثيرة. وممّا يُروى عنه أنّه كان يدعو مشايخ الخانقاهات إلى مجالسه؛ يقرّبهم ويشترك في حلقاتهم ويُنعم عليهم، ويتواضع لهم، بحيث أنه إذا قصده أحدهم قام له، واعتنقه وجلس معه على سجّادته.[٢١] وكان هؤلاء المتصوّفة حلقة ذات شأن بين الحكّام والشعوب، وقد نشروا تعاليم الدين بشكلها الشعبي المبسّط عن طريق القصص الديني وأدب الفضائل اللذين أوجدا روابط بين الأماكن الجغرافية أو الأرض والإسلام، وهو ما زاد في وعي الفرد بضرورة الدفاع عن الأرض.

---

(٢٠) المصدر نفسه، ج ١، قسم ١، ص ٢١ - ٢٣.
(٢١) المصدر نفسه، ج ١، قسم ١، ص ٢١ - ٢٢.

وبالإضافة إلى نشر التعاليم الدينية عن طريق تلك المؤسسات فإن نور الدين كان يعقد مجالس للوعاظ في قلعة دمشق، ويتقرّب إليهم ويرعاهم، ويتناقش معهم في أمور الدين. وقد رُوي أنّه كان بين المقرّبين إليه زاهد من الجزيرة، كان نور الدين يعتقد فيه. وقد علم هذا الزاهد يوما أن نور الدين يُكثر من لعب الكرة، فكتب إليه: «ما كنت أظنُّك تلهو وتلعب وتعذّب الخيل لغير فائدة دينية»، فأجابه نور الدين قائلا: «والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنّما نحن في ثغر، العدوّ قريب منّا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب. ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا، شتاء وصيفا إذ لا بد من الراحة للجند. ومتى تركنا الخيل على مرابطها، صارت جمادا لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكرّ والفرّ في المعركة. فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها، وتتعوّد سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة.»(٢٢)

ولم تقتصر مساهمة نور الدين في حركة الجهاد على الناحية التعليمية، بل روّج تعاليمها في الناحية العمرانية من خلال تسجيل الآيات والأحاديث المتعلّقة بالجهاد في المباني الدينية كالجوامع والمدارس.(٢٣) كما روّجها عن طريق بعض الألقاب ذات المفهوم الديني والسياسي. فقد أعدّ له الكاتب موفّق الدين بن القيسراني ما يقرأ عن المنبر: «اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوّتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمد بن زنكي بن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين.»(٢٤)

ولقد أوجد نور الدين، من خلال أعماله وأقواله، صورة اتّخذها المؤرّخون نموذجا مثاليا للبطل من بعده. وقد رُوي عنه أنه كان يردّد: طالما تعرّضت للشهادة فلم أدركها. فسمعه قطب الدين النيسابوري يوما وهو يردّدها: فقال له: «بالله عليك، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإنك عمادهم، ولئن أصبتَ، والعياذ بالله، في معركة، لا يبقى من المسلمين أحد إلّا أخذه السيف وأُخذت البلاد.» فأجابه نور الدين: «يا قطب الدين: ومَن محمود هذا حتى يُقال له هذا؟ قَبلي مَن حفظ البلاد والإسلام،

---

(٢٢) المصدر نفسه، ج ١، قسم ١، ص ١٢ - ١٣.

(٢٣) Yasser Tabbaa, «Monuments with a Message: Propagation of Jihad under Nur al-Din (1146-1174),» *The Meeting of Two Worlds: Cultural Exchange between East and West during the period of the Crusades*, ed. Vladimir P. Goss and Christine Bornstein (Assistant editor) (Kalamazoo: Medieval Institute publications, Western Michigan University, 1986), pp. 223-240.

(٢٤) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ج ١، قسم ١، ص ٣٠.

ذلك هو الله الذي لا إله إلّا هو.»(٢٥)

ومن الصُور التي رسمها المؤرخون لنور الدين، قول أبي شامة، إنه «كان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، صليب الضرب، يتقدّم أصحابه، ويتعرّض للشهادة. وقف رحمه الله وقوفا على المرضى ومعلّمي الخطّ والقرآن وساكني الحرم... ثم فتح الديار المصرية، وكان العدو قد أشرف على أخذها، ثم أظهر بها السنّة وانقمعت البدعة.» ومنها أيضا، قول ابن القيسراني في رسالة إلى نور الدين يصفه بأنه: «مَنْ أصبحت أطراف البلاد أوساطا لمملكته، ومعاقل الكُفّار في عقال مملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومَنْ عادت به ثغور الإسلام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجّة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمّة القهر... وهو:

ذو الجهاديْن من عدوّ ونَفْسٍ فهو طولَ الحياةِ في هيجاءِ»(٢٦)

ووصف عماد الدين الأصفهاني نور الدين وجهاده بقوله:

«وكان عصره فاضلا، ونصره واصلا، وحكمه عادلا... ودولته مأمونة... وأزر الدين قويّ، وظمأ الإسلام رويّ، وزند النجح وريّ، والشرع مشروع، والحكم مسموع، والعدل مُولّى والظُلم معزول، والتوحيد منصور والشِّرْك مخذول... وهو الذي أعاد رونق الإسلام، إلى بلاد الشام؛ وقد غلب الكفر، وبلغ الضُر، فاستفتح معاقلها، واستخلص عقائلها، وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد، والإبرام والنقض، والبسط والقبض، والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيّام غيره على بلاد الإسلام قطائع فقطعها، وعفّى رسومها ومنعها، ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم، وبدّد سلوكهم وصان الثغور منهم، وحماها عنهم، وأحيا معالم الدين الدوارس، وبنى للأُمة المدارس، وأنشأ الخانقاهات للصوفية وكثّرها في بلد وكثّر وقوفها، وقرّر معروفها، وأجدّ الأسوار والخنادق، وأنمى المرافق، وحمى الحقائق، وأمر في الطرقات ببناء الرُّبط والخانات... وهو الذي فتح مصر وأعمالها، وأنشأ دولتها ورجالها.»(٢٧)

عندما اجتاح الفرنج الشام لم تكن لها عاصمة أو قيادة، ولكنّ قيادتها تكوّنت بمرور الزمن نتيجة الأحوال والأوضاع، فأصبحت القيادات الضعيفة يقضي بعضها على بعض بينما الفرنج يتوسّعون في المنطقة، إلى أن ظهر عماد الدين ومن بعده ابنه نور الدين الذي وضع أسس الجهاد القوية في المنطقة، ممهّدا الطريق من بعده لصلاح الدين.

---

(٢٥) المصدر نفسه، ج ١، قسم ١، ص ١٩.
(٢٦) المصدر نفسه، ج ١، قسم ١، ص ٤٤ ـ ٤٥.
(٢٧) المصدر نفسه، ج ١، قسم ١، ص ٢٥ ـ ٢٦.

وقد قارن أبو شامة بين هذين المجاهدين، ذاكرا أنّ نور الدين «مهد الأمور أثناء ولايته بعدله وجهاده، وهيبته، في جميع بلاده، مع شدّة الفتق، واتساع الخرق. وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على مَنْ بعده من الحقيقة، سلوك تلك الطريقة. لكن صلاح الدين أكثر جهادا، وأعمّ بلادا، صبر وصابر، ورابط وثابر، وذخر له من الفتوح أنْفَسَه، وهو فتح الأرض المقدّسة. فرضي الله عنهما، فما أحقهما بقول الشاعر:

وألبسَ الله هاتيكَ العظامَ، وإن بلينَ تحتَ الثّرى، عفواً وغُفْرانا

سقى ثرىً أوْدَعُوهُ رحمةً ملأتْ مَثْوى قبورِهِم رَوْحاً وريحانا»[٢٨]

ثالثا: أصداء الجهاد في مصر

وصلت أصداء انتصارات نور الدين إلى العالم الإسلامي فاستجاب لها بعض الحكّام والشعوب بشيء من الحماسة، وبعضٌ آخر بالخوف من نور الدين وتوسّعاته. وكان بين الذين استجابوا لهذه الأصداء الوزير الملك الصالح طلائع بن رزّيك في مصر. (وزارته من ٥٤٩ إلى ٥٥٦هـ/ ١١٥٤ إلى ١١٦٠م)، الذي تولى الوزارة في السنة التي استولى فيها نور الدين على دمشق، خلال فترة عصيبة من تاريخ مصر، تعرّضت خلالها لمحاولات توسّعية فرنجية من جهة المملكة اللاتينية وصقلّية.

أدرك ابن رزّيك أنّ مصر لن تتمكّن من مقاومة توسّعات الفرنج على مرّ الزمن بمفردها، بل تحتاج إلى تعاون مع الشام، على الرغم من الاختلافات العقائدية بينهما. ومن ثَمّ فقد تبنّى جهادا دفاعيا وهجوميا، محاولا إيجاد جوّ مماثل لجوّ الشام في بثّ الوعي العام بمسؤولية المسلمين الدينية في الجهاد. وعليه فقد أمدّ هذا الجوّ الجديد في القاهرة بفكره وبشعره، وشجّع شعراءها ومن أشهرهم عمارة اليمني على إذاعة أعماله الجهادية، والنظم في الجهاد، كما لفّ حوله مجموعة من شعراء الدواوين وكتّابها، موجّها شعرهم وكتاباتهم إلى الجهاد. وكان هؤلاء هم أساتذة القاضي الفاضل. ولم يكتفِ الملك الصالح طلائع بشعراء مصر، بل عمل جاهدا على إعادة الأديب أسامة بن منقذ من الشام إلى القاهرة. ودور أسامة في السياسة المصرية وفي الجهاد معروف. وعندما لم يفلح في إعادته اتّخذه واسطة بينه وبين نور الدين، يراسله بشعره منبئا بأعماله الجهادية وبآرائه، لينشرها له أسامة في قاعة نور الدين، ويقرّب ما بين القائدَيْن.

تأثّر هذا الوزير في جهاده بالآراء الشائعة في الشام، والمركّزة بصورة خاصة على تحرير بيت المقدس، ولو أنّ فكرة التحرير ظهرت متأخّرة في الشعر المصري،

(٢٨) المصدر نفسه، ج ١، قسم ١، ص ٧.

وخصوصا في القاهرة. ولقد عرّف الملك الصالح طلائع الجهاد ضد الفرنج بأنه فرض ديني واجب على كل مسلم في قوله:

ولَعَمْري إنّ المُناصِحَ في الدِّينِ على الله أجرُهُ مَحْسوبُ
وجهادُ العدوِّ بالفعلِ والقولِ على كلّ مسلمٍ مَكْتوبُ(٢٩)

كما وصف الحرب بين المسلمين والفرنج بأنها حرب دينية لا بدّ من أن تنتهي بانتصار الإسلام على المسيحية الغربية. ولمّا كانت المسيحية من الأديان السماوية فإنه حاول أن يفصل في شعره ما بين المسيحية الغربية أو اللاتينية بتفسيرها لطبيعة المسيح، وتدنيسها للمقدّسات الإسلامية، وبين المسيحية، كدين سماوي تمثّل برسالة المسيح السامية، كما يعرّفها الإسلام عندما يقول:

لو رآه (القدس) المسيحُ لم يرضَ فعلاً زعموا أنه له مَنْسوبُ
أبعدُ الناسِ عن عبادةِ ربِّ الناسِ قومٌ إلهُهُمْ مَصْلوبُ(٣٠)

كما اعتبر الجهاد مسؤولية إسلامية جماعية، هدفها صدّ العدوّ، والدفاع عن الأراضي المعرّضة للاحتلال الفرنجي، ثم استرداد المقدّسات الإسلامية. وفي عدد من الرسائل الشعرية إلى أسامة بن منقذ ركّز الملك الصالح طلائع على قضيتي تنسيق العمل العسكري بين مصر والشام وتحرير القدس، معبّرا فيها عن رؤيته للجهاد.

رابعا: دعوة الملك الصالح طلائع بن رزّيك إلى تنسيق العمل العسكري بين مصر والشام

في إحدى رسائل الملك الصالح طلائع الشعرية إلى نور الدين، يُلمّح إلى بعض مسؤوليات مصر والتزاماتها ودورها في الجهاد المشترك مع الشام:

قد كتبنا إليكَ أوضِحْ لنا الآن ماذا عن الكتاب تُجيبُ
قَصْدُنا أن يكون منّا ومنكمْ أَجَلٌ في مسيرنا مَضْروبُ
فلدينا من العساكر ما ضاق بأدناهمُ الفضاءُ الرحيبُ
وعلينا أن يستهلّ على الشام، مكانَ الغيوثِ مالٌ صبيبُ

(٢٩) طلائع بن رزّيك، «ديوان طلائع بن رزّيك» (بغداد: المكتبة الأهلية، لا تاريخ)؛ أسامة بن منقذ، «ديوان أسامة بن منقذ»، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد (القاهرة: المطبعة غير مذكورة، ١٩٥٣)، ص ٦٣ - ٦٤، ١٦٥.

(٣٠) طلائع بن رزّيك، المصدر نفسه، ص ٦٣؛ أسامة بن منقذ، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٥.

أو تراها مثل العروس: ثراها كلّه من دم العدا مَخْضوبُ
لطنينِ السيوفِ في فَلَقِ الصُّبْحِ على هامِ أهلها تَطْريبُ
ولجمعِ الحشودِ من كلِّ حصنٍ سَلَبٌ مُهْمَلٌ لهمْ ونُهوبُ
وبحولِ الإلهِ ذاكَ، ومن غالَبَ ربّي فإنهُ مَغْلوبُ[٣١]

كانت هذه الأبيات من أوائل ما كتبه الملك الصالح طلائع في موضوع التنسيق العسكري بين مصر والشام، إذ بثها ضمن قصيدة طويلة وجّهها إلى أسامة بن منقذ، يعلّق فيها على الزلازل التي ألمّت بشيزر في رمضان ٥٥٢هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٥٧م ويعزيه بأهله. وفي القصيدة قسم تأملي في سبب المصائب المتتالية من غزو أجنبي وكوارث طبيعية، ألمت بالأمة الإسلامية، يقترح حلولا لها. والحلّ في رأيه دينيّ، يتطلب الإيمان والقيام بواجبات الجهاد كاملة، واسترداد المقدسات الإسلامية، ولا سيّما بيت المقدس.[٣٢]

ويبدو أن دعوة الملك الصالح طلائع بن رزّيك إلى التعاون مع نور الدين صادقة، صادرة عن اقتناع بضرورة الجهاد وبإمكان مجابهة الفرنج ودحرهم بقوة إسلامية موحَّدة، وبعمل عسكري منسّق على الجبهتين الشمالية والجنوبية للمملكة اللاتينية. ومع أن كثيرين من المؤرخين أشادوا بدور ابن رزّيك في جهاده وتحريضه نور الدين على الجهاد المشترك، إلّا أنهم لم يوفّوه حقّه كاملا في هذا الدور. وربما كان ذلك لأنه أرمني الأصل ووزير للفاطميين.

ولتفهّم هذا الموقف المصري الجديد تجاه الفرنج، لا بدّ من أن ننظر في الأوضاع التاريخية التي حفزت الملك الصالح طلائع على اتخاذ موقف جريء كهذا الذي ربما جاء من دون استشارة القصر. فقد جرت هذه الدعوة إلى تنسيق الجهاد سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، وهي السنة التي أحرز فيها عددا كبيرا من الانتصارات ضد الفرنج، زادت في ثقته بإمكان الصمود أمام العدوّ؛ هذا من ناحية مصر، وأمّا من ناحية الشام، فقد تمكنت قوات نور الدين أيضا في تلك الفترة من هزيمة عدد من السرايا الفرنجية التي حاولت التغلغل في بلاد الشام من عدّة جهات؛ وتمكّنت من الحصول على الكثير من الغنائم، والأسرى الفرنج، كما فعلت السرايا المصرية. وتكلّلت انتصارات القوّات الشامية باستعادة بانياس في ربيع الأول ٥٥٢هـ/ أيار (مايو) ١١٥٧م.[٣٣]

---

(٣١) طلائع بن رزّيك، المصدر نفسه، ص ٦٥.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ٦٣؛ أسامة بن منقذ، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٣٣) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ٦١ ـ ٦٢؛ المقريزي، «اتّعاظ»، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١، ٢٣٣ ـ ٢٣٥، ٢٣٦؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ج ١، قسم ١، فتح بانياس، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩، ٢٧٠ ـ ٢٧٣.

ولا شكّ في أن تركيز الضغط والحشد الفرنجيين على الجبهة السورية التي كان الفرنج يعتبرونها أكثر قوة وخطورة من الجبهة المصرية، ساعد في نجاح عمليات ابن رزّيك العسكرية في أرض الفرنج، وفي تفكيره في ضرورة فتح جبهتين ضد الفرنج في آن واحد.

لا ندري ماذا كان جواب نور الدين المباشر لهذه الدعوة، ولكنْ حدث لنور الدين مرض شديد في رمضان من هذه السنة كاد يودي بحياته، الأمر الذي حفز الفرنج على الهجوم على شيزر وإضعاف الجبهة الشامية.(٣٤) وأرسل ابن رزّيك قصيدة أُخرى إلى أسامة سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م يشير فيها إلى انتصارات أُخرى احرزتها قوّاته في أرض العدو، كما يشير إلى احتلال الفرنج لحارم (محرم ٥٥٣هـ/ شباط (فبراير) ١١٥٨م) الذي كان نكسة لعمليات نور الدين ضد الفرنج. وفي القصيدة ذاتها يهنّىء نور الدين بشفائه من مرضه الطويل:

فقولوا لنورِ الدينِ: لا فُلّ حدُّه	ولا حكمتْ فيه الليالي الغواشِمُ
تجهّزْ إلى أرض العدوّ، ولا تَهِنْ	وتظهرْ فتوراً إن مَضَتْ منكَ حارِمُ
فما مثلُها تُبدي احتفالاً به، ولا	تُعَضُّ عليها للملوكِ الأباهِمُ
فعندكَ من ألطافِ ربّكَ ما بِهِ	علماً يقيناً أنه لك راحِمُ
أعادك حيّاً بعد أن زعمَ الورى	بأنّكَ قد لاقيتَ ما الله حاتِمُ
بوقتٍ أصاب الأرضَ ما قد أصابها	وحلّتْ بها تلكَ الدواهي العظائِمُ
وخيّمَ جيشُ الكُفرِ في أرض (شيزرٍ)	فسيقَتْ سبايا، واستُحِلّتْ مَحارِمُ
وقد كان تاريخُ الشآمِ ومُلْكِه	ومَنْ يحتويهِ أنه لكَ عادِمُ
فقم، واشكر الله الكريمَ بنهضةٍ	إليهمْ، فشكرُ الله للخلقِ لازِمُ(٣٥)

وقد علّق أبو شامة على هذه القصيدة بقوله: «إن ابن رزّيك أرسل إلى أسامة قصيدة يشرح فيها حال هذه الغَزاة، ويحرّض نور الدين على قتال المشركين، ويذكّره بما منّ الله تعالى عليه من العافية والسلامة من تلك المرضة. وكان كثيرا ما يكاتبه طالبا منه إعلام نور الدين بالغَزاة لحثّه عليها.»(٣٦)

واصَلَ ابنُ رزّيك دعوته لنور الدين إلى الجهاد المشترك بشيء من الإلحاح في قصائد نظمها خلال سنتي ٥٥٣ و ٥٥٤هـ/١١٥٨ و١١٥٩م، ويمكن إثباتها هنا ثمّ التعليق عليها:

---

(٣٤) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ج ١، قسم ١، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٣٥) طلائع بن رزّيك، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.
(٣٦) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ج ١، قسم ١، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠.

والقَ عنّا رسالة عندَ نورِ الدينِ ما في لقائها ما يُريبُ
قُلْ له دام ملكُهُ، وعليهِ من لباس الإقبال بُرْدٌ قشيبُ
أيها العادلُ الذي هو للدينِ شبابٌ وللحروب شبيبُ
والذي لم يزل قديماً عن الإسلام بالعزم منه تُجلى الكُروبُ
وغداً منه للفرنج إذا لاقَوْهُ يومَ الزمانِ يومٌ عصيبُ
إن يَرُمْ نزفَ حقدِهم فلأشطان قناةٍ في كلِّ قلبٍ قليبُ
غيرُنا مَنْ يقولُ ما ليس يُمضيه بفعلٍ، وغيرُكَ المكذوبُ[37]

* * *

وانتظرْنا بزحفِنا بُرءَ نورِ الدين علماً بأنهُ سيُفيقُ
وهو الآن في أمانٍ من الله، وما يعتريه أمرٌ يَعوقُ
ما لهذا المهمِّ مثلُكَ، مجدَ الدين، فانهضْ به، فأنتَ حقيقُ
قل له: لا عداه رأيٌ، ولا زال لديهِ لكلِّ خيرٍ طريقُ
أنت في حَسْمِ داءِ طاغيةِ الكفار ذاك المرجوُّ والمرموقُ
فاغتنم بالجهاد أجرَك، كي تلقى رفيقاً لهُ، ونعمَ الرفيقُ[38]

* * *

أبلِغَنْ قولَنا إلى الملكِ العادلِ، فهو المرجوُّ والمأمولُ
قُلْ له: تُرى تماطل في الكفّار، فاحْذَرْ أن يَغْضَبَ المَمْطولُ
سِر إلى (القُدسِ) واحتَسِبْ ذاكَ في الله فبالسيْرِ مِنْكَ يُشفي الغليلُ
وإذا ما أبطا مسيرُكَ فالله إذاً حسْبُنا ونِعْمَ الوكيلُ[39]

* * *

ويسيِّرُ الأجنادَ جهراً، كي ينازِلَهُمْ نِزالا
ويفي لنا، ولأهل دولته بما قد كان قالا
لرأيتَ للإفرنج طُرّاً في معاقلها اعتقالا
عُذنا بتسليم الأمورِ لحُكمِ خالقنا تعالى[40]

وتتراوح دعوة بن رزّيك لنور الدين بين القوة والضعف، والأمل واليأس والوعد والتنديد، ولكنْ في دعوته إلى الجهاد شيء من التصميم.

---

(٣٧) طلائع بن رزّيك، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤.
(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٠٣.
(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٢٩.
(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

خامسا: مكانة القدس
في جهاد الملك الصالح
طلائع بن رزّيك وشعره

ممّا يُظهر مكانة القدس الإسلامية في الوجدان المصري بعد احتلال الفرنج لها، محاولاتُ الوزير الأفضل للإغارة عليها ومضايقة الفرنج فيها، وفي تلك المحاولات دليل على اهتمام السلطات الفاطمية بها. إلا إنّ هذا الاهتمام بدأ يخف بالتدريج مع ازدياد قوة الفرنج وانهماك مصر في مشكلاتها الداخلية.

وابن رزّيك أول من اتّخذ القدس محورا لجهاده وشعره في القاهرة، ليضفي على حركته الجهادية صبغة دينية كما ذكرنا سابقا، وليجاري شعراء الشام. وهو يشير إلى القدس في ثلاثة مواضع في شعره: أحدها متعلّق بعملية عسكرية، واثنان متعلّقان بمكانة القدس في تفكيره وتخطيطه الحربي. فيقول معلقا على إحدى عملياته العسكرية:

جعلنا جبالَ القدسِ فيها وقدْ جَرَتْ ... عليها الخيلُ كالنُّقُبِ الشُّهْبِ
لقدْ أصبحت أوعارُها وحزونُها ... سهولاً تُوَطّا للفوارسِ والرَّكْبِ(٤١)

يؤكّد المقريزي صحة قول ابن رزّيك إذ يذكر أن العسكر المصري قصد القدس في التاسع من جمادى الأولى ٥٥٣هـ/ حزيران (يونيو) ١١٥٨م، فخرّب وعاد بالغنائم. ومع أنّ العساكر لم تصل إلى القدس نفسها، فإن هدف هذه العملية كان التغلغل في بلاد العدو، واكتشاف مدى حصانتها، ولفت الأنظار إلى بداية تركيز الملك الصالح طلائع على القدس محورا لحركته العسكرية، وأهم ما في الأبيات إشارة إلى دور كتامة البارز في هذه الحملة:

وأبطالُ حربٍ من كُتامةَ دوّخوا ... بلادَ الأعادي بالمسوّمةِ القُبِّ
وعادوا إلينا بالرؤوسِ على القّنا ... وأغناهُمُ كَسْبُ الثناءِ عن الكَسْبِ(٤٢)

وفي إحدى قصائده يرى علاقة ما بين الزلازل التي حلّت بالشام وخراب القدس الناجم عن احتلال الفرنج لها وإخلائها من الدين الإسلامي، وما تبع ذلك من انتهاك لحرمة مقدّساتها. وهذا برأيه، أسوأ ما يمكن أن يصيب بلدا إسلاميا مقدّسا من تدنيس وإهانة، ولذلك فهو يرى أن ما حلّ بالشام من كوارث عقابٌ من الله تعالى لها:

---

(٤١) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٥٩.

أبـذنـبٍ أصـابـهـا قَـدَرُ الله، فـلـلأرضِ كـالأنـامِ ذنـوبُ
إنّ ظنّي، والظنُّ مثلُ سهامِ الرَّمْي، مِنها المُخطي ومنها المُصيبُ
إنّ هذا لـئنْ غَـدَتْ ساحةُ القـدْسِ وما للإسلامِ فيـها نصيـبُ
منزلُ الوحيِ قبلَ بعثِ رسولِ الله فهو المحجوجُ والمحجوبُ
نزلت وسطه الخنازير والخمر، وبارى الناقوسَ فيها الصليبُ
لَهْفَ نفسي على ديارٍ من السكّان أقْوَتْ فليس فيها عريبُ
ولـكـم حـلّـهـا فـأنـسـته أوطـانَ صِـبـاه، والأهـلَ يـومـاً، غـريـبُ
فاحتسِبْ ما أصاب قومَكَ. مَجْدَ الدينِ، واصبرْ فالحادثاتُ ضُروبُ
هكذا الدهرُ: حُكْمُهُ الجَوْرُ والقَصْدُ، وفيهِ المكروهُ والمحبوبُ
إن تُـخَـصِّـصْـكُـمُ نـوائـبُ مـا زالـتْ لـكُـمْ دونَ مَـنْ سـواكُـمْ تـنـوبُ
فـكـذاكَ الـقـنـاةُ يُـكْـسَـرُ يـومَ الـرَّوْعِ مِـنـهـا صَـدرٌ، وتـبـقـى كـعـوبُ
ولَـعَـمْـري إنّ الـمُـنـاصِـحِ فـي الـدِّيـن عـلـى الله أجـرُهُ مَـحْـسـوبُ[٤٣]

ومن جملة الصور التي يوردها ابن رزّيك لتصوير الزلازل، وغضب الله على الشام، قوله:

رَقَـصَـتْ أرضُـهُ عشيّةَ غنّى الرعدُ في الجوِّ، والكريـمُ طـروبُ
وتـثـنّـتْ حـيـطـانـهُ فـأمـالـتْـهـا شَـمـالٌ بـزمْـرِهـا وجـنـوبُ
لا هـبـوبٌ لـنـائـمٍ مـن أمـانـيـهِ، ولـلـعـاصـفـاتِ فـيـهـا هـبـوبُ
ذكروا أنهُ تذوبُ به السُّحْبُ، فما للصخور أيضاً تذوبُ[٤٤]

هذه الصور والإشارات إلى تجهم الطبيعة والرياح العاصفة والزلازل لها تُردِّد أصداءً من قصص العقاب الواردة في القرآن، ولا سيما قصّة هود ونوح وما أصاب قومهما من عقاب محاه عن وجه الأرض. ومن هنا فهو يشبه وضع المسلمين في عصره بوضع قوم هود ونوح، ويعظهم بأن الطريق الوحيد لخلاصهم هو الإيمان والجهاد لاسترداد المقدّسات. وهذا يتّفق مع رأي السُّلمي.

ومعظم إشارات الملك الصالح طلائع إلى أهمية القدس في الوجدان الإسلامي مستوحى من القرآن والحديث والتاريخ، فهو يرى القدس بذرة الأديان السماوية، وبداية الوحي الذي خُتِم في مكّة برسالة الرسول، وللقدس قدسية خاصة بسبب وجود معظم الأنبياء فيها، وهي الحلقة بين الأرض والسماء، إذ منها صعد الرسول إلى العالم الأعلى الأسمى، من خلال إسرائه ومعراجه، وهي قبلة المسلمين الأولى، ومكان حشرهم يوم

---

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٦٣.
(٤٤) المصدر نفسه.

الميعاد ومن هنا الإشارة إلى المحجوج والمحجوب.

كانت هذه الإشارات إلى مكانة القدس شائعة في الشعر الشامي. ولا شكّ في أن ابن رزّيك كان مطّلعا على موضوعات الشعر الديني الصادر في الشام، وعلى أهمية استعمال رمز القدس في الجهاد والأدب. ولقد جعل قضية تحرير القدس الهدف المشترك بينه وبين نور الدين، أي بين مصر والشام، ومن هنا حثّ في إحدى قصائده نور الدين على توحيد الجهود لاستنقاذها.

كان من جملة شعراء الملك الصالح طلائع الفقيه عمارة اليمني الذي قصد مصر في عهده مُشيدا بجهاده للفرنج بعدد من القصائد، يقول في إحداها:

تيقّنتِ الإفرنجُ أنك إنْ تُرِدْ ... ديارَهُمُ لم يُنجِهِمْ منكَ مَهْرَبُ
وخافتك إنْ لَمْ تُعطِها الأمنَ مُنْعِماً ... فجاءتك بالأسْدِ الشَّرى تتغلّبُ
وأهْدَوْا رجال السِلْمِ آلةَ حربِهِمْ ... ومِنْ بعضِ ما أهْدَوْا مِجَنٌ ومِقضَبُ
وذلك فألٌ صادقٌ أنّ عزّهم ... بسيفِكَ يا سيفَ الهُدى سوفَ يُسلبُ[٤٥]

كان عمارة في بداية أمره من المتكسّبين بالشعر، كباقي الشعراء، ولكنّه كان من الموجّهين بشعره إلى الجهاد والمحرّضين عليه حتى عهد صلاح الدين، وانقلابه على الفاطميين.

ويمكننا القول إن الملك الصالح طلائع هو الذي وجّه حركة الجهاد الفكرية في القاهرة، مستمِدّا القوّة في توجيه حركته هذه من منصبه كوزير ذي نفوذ قويّ في الدولة الفاطمية، ولو أن عهده طال لتمكّن من اتّخاذ مكانة في تاريخ مصر الجهادي كمكانة نور الدين في دمشق.

ولقد كان أولّ وزير دخل القاضي الفاضل قاعته ومدحه وصبا لأن يكون من شعرائه، ولكنّ الأوضاع عاكسته آنذاك.

وبعد أحد عشر عاما من وفاة الملك الصالح طلائع، تولّى القاضي الفاضل الوزارة لصلاح الدين، وساهم من خلالها في الجهاد.

---

(٤٥) اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦.

الفصل السابع
رؤية القاضي الفاضل للجهاد: دعوةً وعملاً

وأسلِ الوهاد بدماء العِدا، وارفع برؤوسهم الرُبا،
حتى يأتيَ الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن
يكون مذخورا لأيّامك. ومشهودا به يوم مقامك.

القاضي الفاضل

ذكرنا في مقدمة الفصل السادس أن الفقيه عليّ بن طاهر السُّلمي كان أوّل من تصدّى بفكره لتنبيه المسلمين في الشام والعراق إلى مدى خطورة الاجتياح الصليبي، وأوّل من غرس بذور المقاومة الإسلامية ضد الفرنج في الشام. وما إن مضى خمسة وستون عاما على هذا الغزو الصليبي للشام حتى تعرّضت القاهرة لغزو مماثل للذي تعرّضت الشام له في بداية القرن، وقد اشتركت فيه أجيال جديدة من سلائل الصليبيين الأوائل الذين احتلّوا الشام في بداية القرن الثاني عشر ومن الفرنج الطارئين الجُدد.

كانت مصر آنذاك تعاني وضعا مماثلا لوضع الشام في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، عندما احتلها الصليبيون، من فوضى متفشّية في النظام السياسي، وانقسامات داخلية، وخلافات داخل الجيش وبين الوزراء والخلفاء، وتهديدات خارجية من صقلّية وتهديدات فرنجية، حتى خُيِّل للفرنج أنها فريسة سهلة فحاولوا أن يحتلّوها سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨ ـ ١١٦٩م، كما أشرنا في سياق البحث.

وكان من أوائل المفكّرين المتصدّين لمحاولة الفرنج اجتياح القاهرة في صفر ٥٦٤هـ/ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٦٨ القاضي الفاضل، مع أن العلماء والفقهاء في الإسكندرية سبقوه إلى ذلك. وقد عبّر عن آرائه في الجهاد في بعض السجلات الرسميّة التي كتبها، عن الفاطميين، وحاول فيها بثّ الوعي بمكانة القاهرة في الوجدان المصري والإسلامي، كمحور مهمّ يستوجب الدفاع والصيانة. ففي سجلّ له بتولية الكامل بن شاور نيابة الوزارة عن أبيه، يذكر: «وعندما تمادى عُتاة الكفّار في الإصرار، وجَوْسِهم خلال الديار، ونَفْثِهم في جوّه الأذى والأضرار، وطمعِهم في اجتياح الأعمال والأقطار،

عدّل أمير المؤمنين في استئصالهم على عزمه (عزم الكامل)، واعتضد بذبة وحسمه، وجعل إليه التدبير بالقاهرة المحروسة التي هي عُهدةُ الإيمان والإسلام، ودار هجرة الإمام، ومعقل الخلافة منذ غابر الأيام.»[1]

ويستوقفنا في هذا النص نقطتان: الأولى، الإشارة إلى مدى توغّل الفرنج في مصر ومدى خطرهم المستقبلي المتوقّع؛ والثانية، الإشارة إلى مكانة القاهرة التاريخية، الإسلامية، ومكانتها الدينية في الضمير الإسماعيلي الفاطمي. فالتفريط في القاهرة والتهاون في حمايتها، كالتفريط في أي مركز ديني، وخيم العاقبة الروحية والسياسية. ولعلّ القاضي الفاضل، بتشديده على مكانة القاهرة الدينية «عُهدةُ الإيمان والإسلام»، أراد أن ينبّه الجيوش والحكام إلى «قداستها» في تاريخ مصر، وواجب الاستشهاد في حمايتها. وظلّ يعتبر القاهرة خلال حكم صلاح الدين من أحقّ المدن في الحراسة والتحصين، لأنها مدخل القوات الإسلامية والفرنجية إلى فلسطين.

وكما أنّ القاضي الفاضل نبّه إلى خطورة الفرنج ومدى أهدافهم التوسّعية في مصر، في سجل تولية الكامل، فإنه كرّر هذا التنبيه في سجلات كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، حيث تطرق إلى موضوعات ومحاور جديدة. فهو يشير إلى مساعدة أسد الدين العسكرية لصدّ العدوان الفرنجي على القاهرة، بأنّها مساعدة للإسلام، لا للخلافة الفاطمية فقط، إذ يقول: «وأنقذتَ الإسلام وهو على شفى جُرُف هارٍ، ونفذتَ حين لا تنفذ السهامُ عن الأوتار... وأقدمتَ على الصليب وجمراتهُ متوقّدة، وقابلتَ أولياء الشيطان وغَمَراته متمرّدة.»[2]

ويشير، بطريقة غير مباشرة، إلى أن لا مكان للخلاف المذهبيّ في مثل الأوضاع التي مرّت بالقاهرة. فالإسلام واحد والإيمان متوحّد أمام العدو: «ونصرتَ الإيمان بأهله، وأظهرتَ الدين بمظاهرتك على الدين كلّه، وناهضت الكَفَرة بالباع الأشد، والرأيّ الأسدّ.»[3] وجيوش الإسلام واحدة متوحّدة عندما يحين الوقت لتحرير الأراضي المغتصبة. وهو يصوّر مساعدة أسد الدين للخلافة الفاطمية في صدّ الهجوم

---

(١) يذكر القلقشندي أن كاتب سجلّ تعيين الكامل بن شاور نيابة الوزارة عن والده هو الشيخ موفّق الدين بن الخلّال. ولكنّ الأغلب أنّ القاضي الفاضل هو الذي كتب السجلّ لأن ابن الخلّال كان قد تقاعد آنذاك، وناب مكانه القاضي الفاضل في ديوان الإنشاء. يبحث جمال الدين الشيّال في هذه الأوضاع بحثاً مسهبا في: «مجموعة الوثائق الفاطمية»، ص ١٥٧ ـ ١٧٠. السجلّ في: المصدر نفسه، ص ٣٥٧ ـ ٣٦٦.

(٢) سجلّ أو عهد أسد الدين شيركوه بالوزارة. الخليفة العاضد، الشيّال، المصدر نفسه، ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩. السجلّ بأكمله في: المصدر نفسه، ص ٣٨٣ ـ ٣٩٧.

(٣) السجلّ في: المصدر نفسه، ص ٣٩٠.

الفرنجي بأنّها مُوحى بها من الله تعالى كخطوة أولى للجهاد الذي يتطلّب اشتراك جميع المسلمين للتحرير؛ «وإنك لمبعوث إلى بلاد أمير المؤمنين بعثَ السحاب المسخَّر، ومقدَّم في النيّة، وإن كنت في الزمان المؤخَّر، وطالع يفيء بفيئه الإسلام غيرَ بعيد أن يعيد الله عليها بلاد الكفار، ورجال جهاد عددناهم عندنا من المصطفينَ الأخيار، وأبناء جِلادٍ يشترون الجنّة بعزائم النار، وغُرّر نصرٍ سكونُ العدوّ بعدها غرور ونومه غِرار.»[٤]

ويكرر فكرة «التحرير» في سجلّ صلاح الدين الذي كتبه عقب وفاة أسد الدين بشهرين، فيشير قائلا: «والله يؤيّدك أيها السيد الأجلّ ـ أدام الله قدرتك ـ بالنصر العزيز، ويقضي لدولة أمير المؤمنين على يديك بالفتح الوجيز.»[٥] وكلمة «الفتح» في كلا السجلّين غير مشروحة مع تكرارها، ولكنْ يفهم منها فتح الأراضي المحتلة أو «بيت المقدس» بصورة خاصة. ولا شك في أن آراءه في الجهاد الذي عمل من أجله مع صلاح الدين، أخذت تتطوّر منذ كتابته هذين السجلّينْ؛ فقد رأى في كل من القائدَيْن قدرة على جهاد ذي حدّيْن: أولهما حماية مصر، وذاك جهاد دفاعي؛ وثانيهما جهاد هجومي يسترد ما اغتصب من أراضٍ إسلامية. ولا يخفى أنّ أسد الدين وصلاح الدين عزّزا فكرة الجهاد لتحرير الأراضي المقدسة وتبنياها، الأمر الذي شجّع القاضي الفاضل على التوسُّع والإسهاب فيها: فهو يُعرِّف الجهاد في سجلّ أسد الدين بقوله: «والجهاد: فهو سلطان الله تعالى على أهل العناد، وسطوة الله تعالى التي يمضيها في شر البلاد على يد خير العباد، ولك من الغناء فيه مصرا وشاما، وثباتِ الجأش كرًّا وإقداما... وما زلت تأخذ من الكُفّار باليمين، وتعظّم فتوحك في بلاد الشمال، فكيف تكون في بلاد اليمين، فاطلب أعداءَ الله برًّا وبحرا وأجلِب عليها سهلا ووعرا، وقسّم بينهم الفتكات قتلا وأسرا، وغارة وحصرا، قال الله تعالى في كتابه المكنون: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ.»[٦]

وينهي سجلّ تولية أسد الدين بقوله: والله سبحانه وتعالى يحقّق لأمير المؤمنين فيك أفضل المخايل، ويفتح على يديك مستغلق البلاد والمعاقل، ويصيب بسهامك من الأعداء النحور والمقاتل، ويأخذ للإسلام بكَ ما له عند الشِّرْك من الثارات والطوائل.»[٧]

---

(٤) السجلّ في: المصدر نفسه، ص ٣٩١.
(٥) عهد صلاح الدين بالوزارة للخليفة العاضد، المصدر نفسه، ص ٤١٤. السجلّ بأكمله في: المصدر نفسه، ص ٤٠٥ ـ ٤١٥.
(٦) السجلّ في: المصدر نفسه، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.
(٧) المصدر نفسه، ص ٣٩٧.

وهو في سجل تولية صلاح الدين أقوى نفسا وتشدّدا في قضية الجهاد والتحرير أو الفتح، لأنه رأى في صلاح الدين شابّا متحمسا واعدا بمستقبل في القيادة والجهاد، ورأى لنفسه معه دورا في إدارة دفّة الجهاد.

أولا: مفهوم الجهاد
في سجلّي تعيين
أسد الدين شيركوه وصلاح الدين

والجهاد العسكري، كما يصوّره القاضي الفاضل في السجلّين، لن ينجح إذا لم يواكبه جهاد روحي خُلُقي من ناحية القادة والحكام، والجهاد الروحي يمكن تلخيصه في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؛ فمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتضمّن القيام بالفروض الدينية الواردة في القرآن، والمتعلقة بعلاقة الإنسان بربه وبأخيه الإنسان. لأنّ قوام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو التقوى، على رأي القاضي الفاضل فهي «عروة النجاة، وذخيرة الحياة والممات، وخير ما قدّمته النفوس لغدها في أمسها.»[٨]

والتقوى مرتبطة بمسؤوليات خُلُقية واجبة على الحكّام بصورة خاصة، منها العدل والإحسان إلى الرعايا؛ فالرعايا قاعدة الحاكم، وهم «ودائع الله لأمير المؤمنين وودائعه لديك» (لدى صلاح الدين) ورعايتهم من واجب الحاكم. ومن خلالها يجتذب قلوبهم إليه: «واجعل ألسنتهم بالدعاء من سلاحك، وقلوبهم بالمحبة من أجنادك.»[٩] ولا بُدّ من التعليق هنا على تشديد القاضي الفاضل على معاملة الحاكم للمحكوم بأنها دعوة مستمدة من تعاليم الإسلام الذي يشجب الظلم والطغيان، ونابعة من أعماقه كإنسان مرّت به تجارب مريرة في حياته، إذ رأى ظلم الحكّام وطغيانهم سافرا في مصر، فجاءت دعوته صادقة، آملا بالتخفيف عن المصريين الذين مرّت بهم أوضاع قاسية من فقدان أموال وتشرّد وقتل وأسر. ولو لم يقرن القاضي الفاضل دعوته هذه بعمله مع صلاح الدين فيما بعد، خلال وزارته هو، لقلنا إنها مجرّد كلمات في سجلّ رسمي؛ ولكن القاضي الفاضل أخذ يرعى ما للشعب المصري من حقوق ومصالح مذ تولّى صلاح الدين الحكم في مصر، وظلّ على رعايته هذه يذكّر صلاح الدين بأمور الشعب وواجبه تجاهه إذا ما غاب صلاح الدين عن مصر، ويحاول أن يكف أيدي نوّاب صلاح الدين في

(٨) المصدر نفسه، ص ٤١٨.
(٩) المصدر نفسه، ص ٤١٤.

مصر عن شعبها كلّما غاب صلاح الدين عنها. ولقد كان أول الإصلاحات المالية ـ الاجتماعية التي سنّها صلاح الدين بحسب نصيحة القاضي الفاضل، إلغاء المكوس أو الضرائب غير الشرعية في مصر، والتوفيق بين السنتين الهلالية والخراجية.(١٠)

لم تتوقّف عناية القاضي الفاضل عند الشعب المصري، فعندما نقل صلاح الدين عاصمته من القاهرة إلى دمشق حيث بدأ عملياته العسكرية ضد الزنكيين من جهة والفرنج من جهة أخرى، نبّهه القاضي الفاضل أكثر من مرّة إلى ضرورة رعاية الشعوب وتأمين مخاوفها. وفي إحدى رسائله الإخوانية إلى صلاح الدين بعد أن أتمّ الهدنة مع الفرنج سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، يقول: «فينعم المولى (صلاح الدين) بتأمّل ما أنهاه المملوك مستورا فإنه يسأله أن لا يشارك أحدا فيما يكتبه لا من مهمّ ولا من غير مهمّ: يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كلّ ما يُتقرّب به إلى الله، وما هي بواحدة، في أعمال دمشق من المظالم بين الفلاحين ما يُستغرب معه وقوع القَطْر، ومن تسلّط المقطَعين على المنقطعين ما لا يُنادى وليده. وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة، والسيف الذي يقطر دما ما لا زاجر له، وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة، ومن المهمّات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها.»(١١) وقد نعتبر ما في هذه الرسالة أفضل تعبير عن شخصية القاضي الفاضل الفذّة، وأفكاره المستنيرة الجريئة الواثقة. فهو يتحمّل مسؤولية ما ينصح به صلاح الدين بالسر، وحينما يجهر به يختصّ نفسه بالمسؤولية عمّا يقول ـ من دون غيره ـ «من مهمّ وغير مهمّ». وهو يطالب بقمع مظالم المقطَعين، وأَخْذِهم القانون بأيديهم واعتدائِهم على «المنقطعين» من دون زاجر، ويربط بين الجهاد وحماية الثغور، وبين تأمين العدالة ورفع الظلم، ويرى في كشفه للمظالم عملا «أهمّ من كل ما يُتَقَرَّب به إلى الله»، ويضيف بذلك إلى الإيمان بُعدا اجتماعيا عالي المقام؛ فهو هنا رجل فكر متقدِّم، ورجل دولة ثاقب، ورجل فهم ثاقب لمتطلبات الجهاد الحقيقية، وفي مقدّمها تأمين العدالة وسيادة القانون.

وإنْ عبرّ القاضي الفاضل عن بعض رؤيته للجهاد في سجلّيْ تولية أسد الدين وصلاح الدين، فإنه وسّع رؤيته هذه في كتاباته بعد نهاية الفاطميين في مصر، وبداية

---

(١٠) للمكوس، يُراجَع حسنين محمد ربيع، «النُّظُم المالية في مصر زمن الأيوبيّين» (القاهرة: جامعة القاهرة، ١٩٦٤)، ص ٥٠؛ المقريزي، «الخِطط»، ج ١، ص ١٠٥؛ ج ٢، ص ٢٣٣. للتوفيق بين السنتين الهلالية والخراجية: حسنين محمد ربيع، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢.

(١١) أبو شامة، «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» في:
«Recueil des Historiens des Croisades: Historiens Orientaux» (Paris: Imprimerie Nationale, 1932), Vol. V, pp. 83-84.

سنشير إلى هذا المرجع هكذا: أبو شامة، «Recueil».

جهاد صلاح الدين، وبداية اشتراكه مع صلاح الدين في حروبه ضد فرنج المملكة اللاتينية والشام.

وبالإضافة إلى تأمين مخاوف الرعايا وحمايتهم، فقد شدّد في السجلّيْن المذكوريْن على ضرورة الاهتمام بالعساكر المصرية، قوام الخلافة، وضرورة توحيدهم وتوجيههم إلى الجهاد الحقيقي، بَدَل الصراع العِرقي والطائفي. ومع أنهّ نقض هذه الدعوة في عهد صلاح الدين، إلا إنهّ ساعده في إعداد جيش فيه بعض العناصر المصرية، تمكّن من حماية مصر وساهم في استرداد فلسطين.

ومع أنه لم يُشِر في السجلّين إلى الأسطول المصري الذي كان قد انحلّ أواخر العهد الفاطمي، فإنه ساعد في إعادة بنائه وإعداده في عهد صلاح الدين، وأوصاه برعاية رجاله وإكرامهم.

وفي إحدى رسائله يطالبه بمسامحتهم، على أنهم: «غزاة الإسلام في الكفر، ومساكين يعملون في البحر، وجند من جند الله الغالب، وفرسان من فرسان الدين خيولهم المراكب.»(١٢)

ذكرنا في سياق البحث أن القاضي الفاضل ساهم بدور فكري توجيهي في الجهاد قبل عهد صلاح الدين، وأمّا في عهده فاتّخذ دورا قياديا توجيهيا في الإعداد الفكري والعسكري له، وحثّه على استعادة فلسطين. وقد ركّز، في كتابته عن صلاح الدين وإليه، على قضيّتين أساسيتين للجهاد الحقيقي، وهما: التقيُّد بالولاء للخليفة العبّاسي الحاكم؛ وجهاد الفرنج دفاعا عن مصر واستردادا للأراضي المحتلّة. وأمضى ما يقارب الثلاثين عاما من حياته (٥٦٧ ـ ٥٩٧هـ / ١١٧١ ـ ١٢٠٠م) في سبيل تحقيق هذا الهدف.

ولقد عبرّ عن رؤية موسّعة للجهاد في رسالتين: كتب إحداهما إلى الخليفة المستضيء، سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤ ـ ١١٧٥م، يطلب تفويضا لصلاح الدين بكل ما فتحه من بلاد؛ مصر واليمن وبعض الشام؛ والأخرى إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بالمغرب، يطلب نجدة عسكرية في أثناء معركة عكّا، ٥٨٦هـ / ١١٩٠ ـ ١١٩١م.

---

(١٢) في رجال الأسطول، يشير القاضي الفاضل في رسالته إلى صلاح الدين بشأن رجال الأسطول: «ومنها مسامحة الرجال الأسطولية، فإنهم غُزاة الإسلام في الكفر، ومساكين يعملون في البحر، وجندٌ من جند الله الغالب وفرسان من فرسان الدين، خيولهم المراكب. القاضي الفاضل، «كتاب المختار»، ص ٢٩.

ثانيا: آراء القاضي الفاضل في الجهاد
في رسالة عن صلاح الدين
إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله

لا بدّ قبل البحث في موضوعات الرسالة من أن نذكر أن الهدف من كتابتها كان، بالإضافة إلى طلب التفويض، رسم صورة مشرقة لصلاح الدين في ديوان الخليفة في بغداد وبين المسلمين عامة؛ فقد كتبها عقب وفاة نور الدين، وكان نور الدين يعتبر في المنطقة القائد المجاهد الأول، ومن ثَمّ فمن المنتظر أن يتشبّه به من يحلّ محلّه، أو يُمثّل للمسلمين بصورة مشابهة لصورته إنْ لم يكن أحسن منها. وهكذا فإن القاضي الفاضل حاول، في مقدمة الرسالة، أن يمثّل جهاد صلاح الدين وعائلته بصورة مشرقة في عهد نور الدين، إذ يذكر أنه قام هو وعائلته بالجهاد الحقيقي، ولو أن نور الدين «قبض الثمن». ولكنّ الهدفَ من هذه الكلمات، بما فيها من بعض المبالغة، إعلانُ أحقّية صلاح الدين في وراثة مُلْك نور الدين على أساس الأسبقيّة في الجهاد، لا السلالة. ولقد تأكد هذا المعنى بعد أن أخفقت سلالة نور الدين في اتّباع خطواته في الجهاد. فقد رأى القاضي الفاضل في هذه الرسالة أنّ أهم خطوة تحقّقت في سبيل الجهاد كانت القضاء على الخلافة الفاطمية، ومن ثَمّ توحيد الإسلام بعد أن تفككت الجبهة الإسلامية في وجه العدو لمدة لا تقلّ عن سبعين عاما.

فإنّ توحّد الإسلام المذهبي، وتوحّد مصر واليمن والشام تحت قيادة صلاح الدين، يجعلان الجهاد الشامل ممكنا. فالعدو يصبح محاصرا من جميع الجهات، وإمكانات صلاح الدين المادية لتزويد الجهاد تتضاعف، ومن ثَمّ يمكن تحرير «بيت المقدس». «وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فَهُم يعرفون منّا خصما لا يملّ الشر حتى يملّوا، وقِرنا لا يزال محرم السيف حتى يحلّوا. وإذا شدّ رأيَنا حسنُ الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويد كل مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيرا من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده.»[١٣]

---

(١٣) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢٣.

ثالثا: آراء القاضي الفاضل
في رسالة إلى المنصور بن يوسف
بن عبد المؤمن في المغرب

ولقد عبّر القاضي الفاضل عن رؤية موسّعة للجهاد في كتابه عن صلاح الدين إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن في المغرب، يستنجده فيه على الفرنج في عكّا سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م. وقد يكون هذا الكتاب فاتحة مجموعة من الرسائل إلى أمير المغرب كتب بعضها القاضي الفاضل وبعضها غيره، الأمر الذي تسبّب فيما بعد بحصول شيء من سوء التفاهم بينه وبين صلاح الدين والخليفة العباسي بشأن استعمال لقب خليفة.[١٤] والظاهر أن استعمال اللقب لم يكن بمشورة القاضي الفاضل لأنه يصر، في رسالة كتبها إلى صلاح الدين، على تقيّده بالاعتراف بشرعية الخلافة العباسية اسما وفعلا. وسنشرح هذا في مكانه، غير أننا سنبحث هنا في موضوعات الرسالة المتعلّقة برؤيته للجهاد.

يكرّر القاضي الفاضل في هذه الرسالة أهداف صلاح الدين الجهادية التي تبنّاها هو، وتتلخّص في تطهير مصر واليمن من عناصر الانقسام «من ضلالة أغضت عيون الأيام على قذاها وأنامت عيون الأنام بائعة يقظتها بكراها»، وتطهير بيت المقدس «ممّن كان يعارض برجسه تقديسه، ويزعج ببناء ضلاله تأسيسه.» ويصف بيت المقدس بأنه قبل احتلال الفرنج له: «ما كان إلا جنّة إسلام فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنّة، وأعقبهم فيها إبليس الكفر وما أجارتْهُ ممّا أعقبه اللعنة، وما كانت لنا بذلك قوة بل لله القوة»، والمحافظة على كل ما حرّره صلاح الدين من أراض إسلامية مهما يكن الثمن. «ولما حُطّت لدين الكفر تيجان، وحطمت لذويه صلبان، وأخرس الناقوس الأذان، ونسخ الإنجيل القرآن، وفُكّت الصخرة من أسرها، وخفّ ما كان على قلب الحجر الأسود، بخفة ما كان على ظهرها، وذلك أنّ يد الكفر غطتها وغمرتها، فللّه الحمد أن أحرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط، وطهّرها ماطر من دم الكفر وما كان ليطهّرها البحر المحيط، فهنالك غُلِب الشِّرْك وانقلب صاغرا، واستجاش كافر من أهله كافرا.»[١٥]

ويذكر أيضا أن الفرنج لن ينسوا هزيمتهم وتحرير صلاح الدين للبلاد منهم، ومن

---

(١٤) آراء القاضي الفاضل في هذه القضية موجودة في رسالة بقلمه إلى صلاح الدين، بشأن الرسالة إلى ملك المغرب. الرسالة في: ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٥١٢ ـ ٥١٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٤٩٦.

ثم أتوا إلى عكا بأساطيلهم وجيوشهم. وهذه نقطة مهمّة، وهي أن الجهاد لتحرير الأراضي المقدّسة وللحفاظ عليها، ليس مسؤولية المسلمين في الشرق فقط، بل هو مسؤولية جماعية تضم المسلمين شرقا وغربا، لأن الحرب حرب دينية. فالمسيحية الغربية اتّفقت مع فرنج الشرق على أساس الدين، ومن ثَمَّ فإن مسؤولية حكّام الغرب المسلمين الدينية والخُلُقية تفرض عليهم أن يهبّوا لمساعدة إخوانهم في المشرق، بغضّ النظر عن خلافات سابقة أو سوء تفاهم. وكما أن فرنج الغرب زوّدوا فرنج الشرق وتعاونوا معهم بأساطيلهم، فإن في إمكان حاكم المغرب أن يزوّد المسلمين بأساطيله من ناحية أخرى، وأن يمدّ المسلمين بالمساعدة عن طريقين: أحدهما بالتصدي للأسطول الصقلّي؛ والآخر بالمساعدة البحرية.

وفي كتاب آخر إلى الحاكم نفسه، يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م، ينصح مندوبه إلى الحاكم بذكر إنجازات صلاح الدين مركّزا على فتحه لبيت المقدس، «وتلك على الإسلام منّة الله العظمى.»[١٦] ويطلب منه استنهاض ملك المغرب لمساعدة صلاح الدين في عكّا.

«فإن كانت الأساطيل بالجانب الغربي ميسّرة، والعدّة منها متوفّرة، والرجال في اللقاء فارهة، وللمسير غير كارهة، فالبدارَ البدارَ، وأنت أيها الأمير فيها أوّل من استخار وسار، وإنْ كانت دون الأسطول موانع: إمّا من قلّة عدّة، أو من شغل هناك بمهمة، أو بمباشرة عدوّ ما تحصن منه العوزة، أو قد لاحت منه الفرصة، فالمعونة ما طريقها واحدة، ولا سبيلها مسدودة، ولا أنواعها محصورة، تكون تارة بالرجال وتارة بالمال.»[١٧]

وفي كتاباته إلى هذا الحاكم يشدّد القاضي الفاضل على حتمية الوحدة السياسية العقائدية الإسلامية، وتوحيد الصفوف لمواجهة العدو صفا واحدا، كما يقف العدو في وجه الإسلام صفا واحدا. وإنْ عبرّ القاضي الفاضل عن آرائه في الجهاد في الرسائل والسجلات التي أشرنا إليها، فإنه لم يتوقّف عن التعبير عنها في معظم ما كتبه عن صلاح الدين وإلى صلاح الدين، وقد قرن كتاباته بأعماله عندما شارك صلاح الدين في كثير من معاركه الحربية، وهذا يدل على تقيّده بالمُثُل التي كتب عنها.

(١٦) الرسالة في: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٥٠٦.
(١٧) المصدر نفسه.

رابعا: القاضي الفاضل
والجهاد العملي ضد الفرنج

تحدثنا عن رؤية القاضي الفاضل للجهاد ضمن إطار عصره، ولكن لا بُدّ لفهم هذه الرؤية على حقيقتها من أن نُلمّ بدوره الفعلي في الجهاد. وعندما نتحدث عن دوره الفعلي في الجهاد فإننا لا نقصد اشتراكه في المعارك الحربية، والأغلب أنه لم يحارب بنفسه في عهد صلاح الدين، وإنما نقصد دوره في بناء المؤسسات الحربية الأيوبية، من جيش أيوبي ودواوين أيّوبية جديدة للإشراف على الجهاد؛ ومن تدبير ورصد أموال لبناء تحصينات المدن المعرّضة لهجمات الفرنج مثل القاهرة والإسكندرية، ومراقبة بناء سور القاهرة بصورة خاصة؛ ومن مراقبة تحركات الفرنج بحرا وبرّا وإعلام صلاح الدين عنها؛ ومن نداءات أو استنجادات مؤثّرة، للحكام والقادة المسلمين؛ ومن وقوف كالسد وراء صلاح الدين يسديه النصح ويوجّهه ويثبّت من عزمه، ومن ضمّ أدباء العصر وشعرائه في حلقة واحدة حوله وحول صلاح الدين، سواء في القاهرة أو دمشق، موجّها إيّاهم في الموضوعات التي يتناولونها، ومنها قسم كبير في الجهاد. ولا ننسى أن دور الشعراء والكتّاب كان سابقا كدور الإعلام في العصر الحاضر، ومن ثم يمكن القول إنه وجّه الإعلام في عصره. وبالإضافة إلى هذا كله فإننا نقصد أيضا بجهاد القاضي الفاضل تأريخَه للفترة التي نحن في صددها وتبرّعَه بالمعاهد التربوية التي أدّت دورا في بثّ الوعي، وأعمالَه الخيرية وغيرَها. ولا بدّ من أن نذكر هنا أن القاضي الفاضل قد صاحبَ صلاح الدين في قسم كبير من غزواته الأولى ومعاركه ضد المملكة اللاتينية، لا ليحارب، وإنما ليتابع عمله في مراقبة أحوال الجيش، وتسجيل أحداث المعارك في رسائل إلى كبار القادة المسلمين، مثل الخليفة العباسي، وبعض القادة الشاميين، ونوّاب صلاح الدين في مختلف المناطق الشامية والمصرية، وأقارب صلاح الدين. وكانت هذه المسؤوليات ضمن عمله وزيرا لصلاح الدين، وكاتبا أمينا له، وعضوا بارزا في مجلس شوراه العسكرية. وسنبحث في حركته الجهادية بحسب التسلسل الزمني.

رافق القاضي الفاضل صلاح الدين في غزواته الأولى في العهد الفاطمي إلى غزة وعسقلان وأيلة سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠ ـ ١١٧١م، كما رافقه في غزوته إلى عسقلان والرملة سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧ ـ ١١٧٨م. ولكنّه كان في دمشق مريضا عند انتصار حطّين. ومع هذا فحالما عوفي قصد مخيم صلاح الدين في عكا سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ ـ ١١٨٨م، واشترك معه في تنظيم المدينة. ثم شارك صلاح الدين في فتح حصن كوكب سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨ ـ ١١٨٩م، وكان إلى جانبه خلال القسم الأكبر من معركة عكا أو الجهاد ضد الحملة الصليبية الثالثة منذ ذي الحجة ٥٨٦هـ حتى ٥٨٩هـ / ١٩٩٠ حتى ١١٩٣م.

وبعد أن شهد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، عاد إلى مصر حيث ظل مستشارا لبعض أبنائه حتى وفاته سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩ ـ ١٢٠٠م.

نلاحظ من هذا التسلسل الزمني أن القاضي الفاضل لم يشارك صلاح الدين في حركاته الحربية كافة، وسبب ذلك أن صلاح الدين نقل عاصمته من القاهرة إلى دمشق منذ سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠ ـ ١١٨١م، وعيّن مكانه نوابا في القاهرة كان يثق ببعضهم مثل أخيه العادل، ويشكّ في مطامع بعضهم مثل ابن أخيه تقي الدين عمر، ولا يعتمد على بعضهم مثل ابنه العزيز عثمان الشابّ؛ فكان يترك القاضي الفاضل في القاهرة ليساعد هؤلاء في الإدارة، ويراقب الأحوال ويُعْلِمه بها، ولا سيما أن مصر كانت أقرب إلى الغرب. وفي نيابة العزيز عثمان كان القاضي الفاضل بمثابة النائب الفعلي لصلاح الدين في مصر.

ولنعد الآن إلى بعض معارك صلاح الدين التي حضرها القاضي الفاضل وسجّل لها.

(أ) معركة الداروم وغزّة وعسقلان، ٥٦٦هـ / ١١٧٠ ـ ١١٧١م

كانت أوّل عملية حربية اشترك القاضي الفاضل فيها مع صلاح الدين ضد الفرنج، في منطقة غزّة وعسقلان، سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠ ـ ١١٧١م، قبل نهاية الخلافة الفاطمية في مصر، وعقب القضاء على ثورة مؤتمن الخلافة والسودان. ولا بدّ من أن هذه العملية، أو الغزوة، كانت ضرورية لكسب ثقة المصريين بوزيرهم الجديد من ناحية، بإقناعهم بأن هدف صلاح الدين الأسمى هو الجهاد، وأن حركة تطهير العناصر المناوئة لصلاح الدين المتعاونة مع الفرنج داخل مصر لم تكن سوى مقدمة لتطهير البلاد الإسلامية من عدوّها وعدوّ مصر الحقيقي، الإفرنج. كما أنها كانت للحدّ من توسّع الفرنج في مصر بإقناعهم بأن صلاح الدين ومن معه سائرون في خطّ سياسي جديد، هجومي لا سلبي ولا دفاعي فقط، ولإقناع المسلمين في الشام والعراق بأن أهداف صلاح الدين لا تختلف عن أهداف نور الدين، وبأنها تركّز أيضا على تحرير الأراضي المقدسة من جبهتين: مصرية وشامية، أو جنوبية وشمالية. ولم تكن هذه الحملة بالنسبة إلى القاضي الفاضل كغيرها من الحملات التي اشترك فيها في مصر مع شاور والكامل؛ فقد كانت متّجهة إلى عسقلان مسقط رأسه وملعب صباه. وقد لا يكون اتّجاه هذه الحملة، الأولى لصلاح الدين في فلسطين، من قبيل المصادفات، وربما كانت بتوجيه من القاضي الفاضل، نظرا إلى الأهمية الاستراتيجية لعسقلان وغزّة من ناحية، وإلى حنينه إلى هذه المنطقة المهمّة في العلاقة بين مصر والمملكة اللاتينية، وقد تركّز حولها جزء

كبير من الجهاد. فلعله رأى في حملة صلاح الدين هذه استعادة لعسقلان تليها عودة أهله وبني قومه، أو ثأرا لما سبّبه الفرنج لأهلها قبل سبعة عشر عاما.

ذهب القاضي الفاضل مع صلاح الدين محاطا، كما تعوّد فيما بعد، بأدلّائه من الكنانية والعساقلة ومعاونيه، وربما بعض كُتّابه من الديوان، متوّجهين إلى عسقلان وغزّة، فهاجم صلاح الدين غزّة ثم اشتبك مع الفرنج على الداروم، فهزم الفرنج وملكهم أموري الذي «نجا بحُشاشته»[18] وعاد صلاح الدين ومن معه «مظفّرا غانما».[19]

ولقد وصف القاضي الفاضل هذه الغَزاة في كتاب أرسله إلى والي قوص بقوله: «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم.» وفيه: «توجّهنا من بركة الجبّ يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور، والعساكر بالسهل والوعر منتظمة، والهمم على السهل والصعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المُعْلَمَة، قد أيّدتها جنود السماء المسوّمة. وصابحنا الدير يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهبا، ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال بشهاب القذف ضاربا. فلمّا تعالى النهار ملكنا ربضه، وأطلقنا فيه النيران، ورملنا الرجال بالدم، وأرملنا النسوان؛ وزحفنا إلى أبراجه وهي أبراج قد استعدت للبلى جلبابا، فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وبابا، وسرّحنا إليهم رسل المنايا من النّشاب، وقصدنا أحد الأبراج، والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب، وتقدّمتْ إليها نقّابةُ الحلبية فباتت ليلتها تساوره، وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره. وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه، وتيسّر ترحيقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعا سريعا، وعفّر بين أيدينا سامعا مطيعا. وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره؛ فحصلت في القبضة، وعجز من كان فيها عن النهضة؛ واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النَّفَس والقرار.»[20]

«واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق، وتيسير السّبيل للقتال وتخليص الطريق، هذا والسّلوب والنهوب قد امتارت منها العساكر، وخرجت منها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يوم تُبْلَى السرائِرُ، وطُهِّرت الأرضُ منهم (أي الفرنج) بالدّم المائر.»[21]

(١٨) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣٢٠.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) الرسالة في: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٩ ـ ٤٩١.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٤٩٠.

ووصف المعركة قائلا:

«فلمّا كان بكرة الجمعة وَرَدَتنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزّة في فارسه وراجله، ورامحه ونابله، وحشود دياره، وجنود أنصاره؛ فركبنا مستبشرين بزحفه، موقنين بحتفه، ولقيناه، فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطّراد، وأحدقت به إحداق الأغلال بالأجياد، وانتظرت حملته التي كان قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع؛ فملأ الله قلبه رعبا وثنى صدقه كذبا. ولم يزل يخاتل ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يصاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرمّاح لا تني في عِقابه، حتى تحصّل في الدّير هو وخيله ورَجله، ولم يبق له من مُلك الشام إلا ما وطئته رِجله. فناصبناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه، والوقوف عليه، لعله يبرز ويبارز، ويخرج ولا يحاجز؛ فخرست غمائمه، واستذابت ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا وجعلنا بلاده أمام صدورنا؛ فكنا في توليته مُرْضِين لله تعالى سبحانه لا مُغْضِبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله مُتقرِّبين.

«وواجهنا غزّة بعساكرنا المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بكرا لم تَفْرَعْها الحوادث، وحَصانا لم يطمثها أمل طامث؛ وهي معقل الديوية الذين هم جمرة الشِرْك، وداهية الإفك؛ وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد؛ وفتحناها من عدّة جوانب، ووطئناها وإذا هي كأمْسِ الذاهب، فألقتْ إلينا أفلاذ كبدها، وذخيرة يدها، فمن بين مواشٍ بخراب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسوّمة كأنها لركوبنا أسرجت وألجمت، وحوامل أثقال وزوامل خفّفَت عن عساكرنا وفرّجت، ميرة كثيرة تمكّنت منها يدُ الأجناد وأفرجت، وأسارى المسلمين فُكّوا من القَيْد والقدّ، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدة الجهد. فأمّا الرؤوس المقطوعة وأسارى الفرنج الذي أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإن الفضاء الفضّي تعصفر من دمائهم وتذهّب، وجرى منها ما به اضطرم وَقْدُ الجحيم وتلهّب. وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتعل بها وتشتمل، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله وينتقل، (فهل ترى لهم من باقية)، أو تنظر إلا طلولا على عروشها خاوية، وعِراصا من سكّانها خالية، قد بقيت عبرة للعابر، وذكرى للذّاكر، وموعظة سارّة للمسلم مُرْغِمة للكافر.

«ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك، خذله الله تعالى، راجين أن يحمله الثكل على الإقدام، ويخرجه حرّ النار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقتل أصحابه قد جرحه؛ فبتْنا عليه والألسنة بفرار تعيّره وإستباره يقرّعه ويقرّره.

«وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسب قد أثقل المقاتلة، ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شاملة، والعدو قد

غُزي في عُقره وعُقِر، وأُذلّ في دار ملكه واحتُقر. ووصلنا إلى مستقر سلطاننا في يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور، فاستقبلنا من مولانا، صلوات الله عليه، وتشريفه واستقبال ركابه، ومشافهتنا بمقبولِ دعائه الشريف ومُجابهِ، ما عظمت به النعم وجلّت، وزالت به وعثاء الطريق وتجلّت، وجادتها سماء إنعامه التي لم تزل تجودنا واستهلّت.»[٢٢]

كانت معركة الداروم أوّل معركة خاضها صلاح الدين مع الفرنج على حدودهم، ومع أنه لم يحتلّها فإنه أحرز فيها نصرا اختبر فيه قوّاته الجديدة التي أصبحت نواة للجهاد. وأما القاضي الفاضل فإن رسالته مصدر تاريخي مهمّ ودقيق لهذا الحدث الذي عدّه عظيما بل خَطِرا، إذ أعاد الثقة إلى قلوب العساكر المصرية التي ظلّت في خدمة صلاح الدين، وزرع الثقة في قلوب العساكر الجُدد، وإذا كانت التفصيلات التي أوردها القاضي الفاضل قد فاتت بعض المؤرّخين فإنها تتّفق في بعض الأمور وتختلف في بعضها الآخر عن الروايات الغربية. فإن الروايات الغربية تشير إلى أن قائد الفرنج في حصن الداروم كان أنسِل دي باس (Ansel de Pass)، وأنه دافع دفاعا شديدا عن الحصن ليتيح الوقت للملك أموري ليصل إلى الداروم. وقد وصل أموري مع مئتين وخمسين فارسا من الدواية والإسبتارية وألفي راجل، تمكّنوا من إبعاد المسلمين عن مواقعهم في الحصن، وبالتالي فلم يُطِل صلاح الدين الحصار وانسحب هو وقواته إلى غزّة حيث احتل المدينة قبل طلوع الصباح.[٢٣]

تختلف رواية القاضي الفاضل عن هذه الرواية، إذ تشير إلى أن أموري هو الذي تجنّب القتال وأنّ القوات المصرية حاولت أن تعوق وصوله إلى الداروم، ولكنّه دخلها.

ولربما كان انسحاب صلاح الدين عملية تمويهية تمكّن خلالها من حصر أموري في الداروم، لينسلّ ليلا إلى غزّة التي كانت قد خلت من حُماتها الذين اصطحبوا أموري.

ويضيف القاضي الفاضل قائلا إنّ قوات صلاح الدين غادرت المنطقة بعد أن مرّت بالداروم ثانية تحدّيا للملك، يوم الأحد ثاني عشر ربيع الآخر «والكسب قد أثقل المقاتلة، ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصِلة، ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شاملة، والعدوّ قد غُزي في عقره وعُقر، وأُذلّ في دار ملكه واحتُقر.»[٢٤]

ولقد رأى القاضي الفاضل غَزاة صلاح الدين الأولى في جنوب فلسطين من خلال منظار إسلامي تاريخي في الجهاد، فلمح فيها أصداء من بعض المعارك الإسلامية التي

---

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٩١.

(٢٣) Lane Pool, *op.cit.*, p. 106.

(٢٤) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩١.

اشترك الرسول فيها، كمعركة بدر، تنبيها إلى أهميّتها في تثبيت دعائم الإسلام، في منطقة أخرج منها؛ كما رأى فيها صراعا بين الإسلام والكفر، لا بينه وبين المسيحية. ومن ثَمَّ، صوّر جنود صلاح الدين بأنهم جنود الله في الأرض المُغْلَمَة، التي تقرر مصير هذه المعارك وغيرها لحماية الإسلام وإعادته إلى مواطنه. ولمّا كانت نيّة عساكر صلاح الدين هذه المرّة صادقة. فإن هذه الجنود المسوَّمة، أو القدرة الإلهية، لا بدّ من أن تقودها إلى النصر.

والدير الذي يشير إليه في الرسالة هو الداروم، مع أنّ كلمة «دير» تضفي عليه صبغة دينية تتّفق وتصويره لطبيعة المعركة، فإن سكان الدير، وإن كانوا رهبانا، من فرسان الداوية، فقد أصبحوا راهبين أي خائفين، في وجه صلاح الدين، وكانوا سابقا يُرهِبون المسلمين. ورهبتهم هي، نتيجة لهزيمتهم، باطلة لأن القوّات الإلهية قذفتهم بشهبها وأنكت بهم. وهذه إشارة إلى أنّ السماء بدأت تتخلّى عنهم. والإشارة إلى نصر صلاح الدين على هؤلاء وعلى أهالي المنطقة الفرنج، تُكرِّر أصداء قصص العقاب في القرآن، فكأن الله عاقب هذه الأقوام على انتهاكهم حرمة الإسلام، فجعل مناطقهم «طلولا على عروشها خاوية، وعِراصا من سكّانها خالية، وقد بقيت عِبرة للعابر، وذكرى للذاكر، وموعظة سارّة للمسلم مرغِمة للكافر.»

يبدو من كتاب القاضي الفاضل أن صلاح الدين لم يحارب أو يحاصر قلعة غزّة، كما فعل بالداروم، وإنما وجد أهالي المدينة نياما فاستباحها. وأمّا المصادر الغربية فتشير إلى ما يشبه المأساة داخل المدينة. فالقلعة كانت حصينة تحت حماية ميلو البلانسي، وهو من قادة الفرنج الذين دخلوا القاهرة في عهد شاور، وقد تولّى حمايتها؛ وكان القاضي الفاضل يعرفه منذ دعوة شاور الأولى لأموري إلى مصر. فلقد تحصّن ميلو في القلعة ومنع سكّان غزّة من دخولها (دخول القلعة)، فاضطرّهم هذا إلى الوقوف خارج البوّابة للقتال. ولمّا لم يكن صلاح الدين ينوي أن يطيل حصار القلعة فقد تركها وعاد إلى مصر.(٢٥)

وقبل أن نتحدث عن متابعة غَزاة صلاح الدين في أرض الفرنج، فإننا سنتوقّف عند نقطتين: الأولى تتعلق بأهمية هذه الغزوة في جنوب فلسطين، وقد أشرنا إلى بعض أهميتها بالنسبة إلى معنويات الجيوش والقادة؛ فقد كانت أوّل حملة هجومية في بلاد الفرنج تكلّلت بالنصر. ومع أنّها لم تؤدِّ إلى استعادة غزّة والداروم، فإنها فتحت الطريق لما تلاها من غزوات في المنطقة، ونبّهت صلاح الدين وعسكره إلى مواطن الضعف في تحصينات الفرنج وطبيعة حربهم داخل مناطقهم، بالإضافة إلى جغرافية المنطقة،

---

(٢٥) Lane Pool, *op.cit.*, p. 106.

ومعلومات قد يُحتاج إليها في التخطيط العسكري فيما بعد. وبالتالي فقد كانت لها غاية استكشافية أيضا. ولا بد من أن انضمام القاضي الفاضل إلى هذه الحملة كان بقصد الحصول على المعلومات والتجربة الميدانية التي تفيد في التخطيط المستقبلي، بالإضافة إلى ما ذكرنا عن آماله وتطلّعاته وحنينه إلى المنطقة. وأمّا النقطة الثانية فهي أسلوب القاضي الفاضل وأهمية كتابته التاريخية، لكونه شاهدَ عِيانٍ ومسجّلا لهذه الأحداث.

(ب) معركة الرملة وعسقلان، ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م

كانت الغزوة الثانية التي اشترك فيها القاضي الفاضل في جنوب فلسطين أيضا، وفي منطقة عسقلان بالذات. ولهذه الغزوة أهمية كبرى لكل من القاضي الفاضل وصلاح الدين، إذ إنها لو نجحت لوفّرت على صلاح الدين نحو عشرة أعوام من الحرب المستمرّة، إذ قام صلاح الدين بها بعد أن أخضع دمشق وبعض الشام لحكمه، وعاد إلى القاهرة لعرض جيشه بعد أن قرّر اختباره في معركة ظنّ أنها ستكون فاصلة بينه وبين المملكة اللاتينية. وممّا شجعه (صلاح الدين) على القيام بتحرّك كبير كهذا، أنّ فرنج الشام هاجموا حصن حارم الذي كان نور الدين قد استردّه في أثناء حملة أموري الثانية على مصر سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٦م، فأراد صلاح الدين أن يخفّف الضغط الفرنجي العسكري عن الشام وينتهز فرصة خلوّ المملكة اللاتينية من قسم كبير من محاربيها، فاتّجه إلى جنوب فلسطين محاطا بعساكره ومستشاريه وكتّابه وأقاربه. ورافق القاضي الفاضل صلاح الدين في هذه الغزوة مصطحبا معه عددا من الأدلّاء الكنانية كعادته.

سار صلاح الدين بعساكره من القاهرة يوم الجمعة، كما كانت عادته في بداية حركاته الحربية، في ثالث جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ / تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٧م بعد الصلاة، حتى وصل إلى بلبيس بعد ستة أيام، ثم رحل منها إلى الدير وخيّم في المبرّز. وفي المبرّز فتح سوقا للعساكر وصفها عماد الدين بأنها تبدّت فيها آمال البعض ومخاوف البعض الآخر، وأنشدت فيها قصائد، كما كان يحدث في سوق عكاظ، وعُرضت بضائع للبيع وأخرى للشراء. وقد أورد لنا عماد الدين الأصفهاني الذي اشترك في رحلة صلاح الدين هذه حتى المبرّز، قبل أن يعود إلى القاهرة، صورة حيّة لما جرى في هذه السوق في ذاك اليوم. يقول: «فنودي: خذوا زوّادَ عشرة أيّام أُخرى (كان استعداد العسكر لعشرة أيام فقط) زيادة للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفّار. فركبت إلى سوق العسكر للابتياع، وقد أخذ السعر في الارتفاع، فقلت لغلامي: قد بَدا لي، وقد خطر الرجوع من الخطر ببالي، فأعرض للبيع أحمالي

وأثقالي، وأنتهز فرصة هذا السعر الغالي، وأنا صاحب قلم لا صاحب عَلَم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من عاقبة ندم؛ والمدى بعيد والخَطب شديد؛ وهذه نوبة السيوف لا نوبة الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الإسلام؛ والواجب على كل منّا أن يلزم شغله، ولا يتعدّى حدّه، ولا يتجاوز محلّه، ولا سيما ونواب الديوان قد استأذنوا في العودة، وأظهروا قلّة العدّة. وأظهرت سرّي للمولى الأجلّ الفاضل، فسرّه ذلك، إشفاقا عليّ، وإحسانا إليّ. وكان السلطان أيضا يُؤْثِر إيثاري، ويختار اختياري؛ فقال لي: أنتَ معنا أو عزمت أن تدعنا ولا تتبعنا؟ فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أولى، فقال: تعود وتدعو لنا، وتسأل الله أن يبلّغنا من النصر سؤلنا.» وقبل أن يعود عماد الدين إلى القاهرة مدح القاضي الفاضل بقصيدة يشير فيها إلى عودته، ويعتذر بشيء من التفكّه عن تخلّفه عن السير للمعركة. يقول: وكنت قد كتبت أبياتا إلى المخدُوم الفاضل ونحن بالمبرّز في العشرين من الشهر:

قيل في مصرَ نائلٌ عدةَ الرمل ووَفْرٌ كنيلِها الموفورِ

فاغترزنا بها وسرْنا إليْها ووقعنا، كما ترى، في الغرورِ

وحظِينا بالرمْل والسير فيه ومُنعنا من نيلها الميْسورِ

وبرزنا إلى المبرز نشكو سَدَراً من نزولنا بالسديرِ

قيل لي: سِر إلى الجهاد. وماذا بالغٌ في الجهاد جهدُ مسيري

ليس يقوى في الجيش جأشي ولا قوسي يرمي موتَّراً إلى موتورِ

أنا للكُتْبِ لا الكتائبِ إقدامي وللصُّحُفِ لا الصفاحِ حضوري

كاد فضلي يضيعُ لولا اهتمامُ الفاضلِ الفائضِ النّدى بأموري

فأنا منه في ملابس جاهٍ رافلاً منه في حبير حُبورِ

فهو رَقّى من الحضيض حُظوظي وسما بي إلى سريرِ السُّرورِ

ويعقب على تخلّفه هذه المرّة قائلا: وما انقطعت عن السّلطان في غزواته إلا في هذه الغزوة، وقد عظّم الله فيها من النّبوة؛ وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيَّدة، والسّعادات فيها مجدّدة.

ويصف كيف غادر المخيّم، وفي نفسه شيء من الصراع بين واجبه الديني المعنوي وحبّه للحياة، حاول أن يبرّره أكثر من مرّة في كتاباته، قائلا: «ثم ودّعت السلطان وعدت، وما تأخرت إلّا إلهاما من الله تعالى بالنجاة من تلك الورطة حيث حُكِم في تلك النوبة بالعثرة. ورجعت وأنا بين عاذل وعاذر، وناهٍ وآمر.»

عاد عماد الدين ومعظم الكتّاب إلى القاهرة، وأمّا القاضي الفاضل فقد تابع سيره مع صلاح الدين للجهاد، ولم يكن يرى أمامه إلّا نصرا لصلاح الدين تكون بدايته في عسقلان.

وأورد عماد الدين قصّة الغزوة هذه كما سمع عنها من صلاح الدين وغيره، بقوله: ورحل السلطان بعساكره فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى، فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر، وكسب وكسر، وجمع هناك من كان معه من الأسرى فضرب أعناقهم، وتفرّق عسكره في الأعمال مُغِيرين ومُبيدين، فلمّا رأوْا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا.

وتوسط السلطان البلاد، واستقبل يوم الجمعة، مستهل جمادى الآخرة، بالرملة، راحلا لِقصد بعض المعاقل، فاعترضه نهرٌ عليه تلّ الصافية فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافية، فما شعروا إلّا بالفرنج طالبة بأطلابها، حازبة بأحزابها، ذابّة بذئابها، عاوية بكلابها، وقد نفر نفيرُهم، وزفر زفيرُهم؛ وسرايا المسلمين في الضّياع مُغيرة، ولِرَحى الحرب عليهم في دورهم مُديرة. فوقف الملك المظفّر تقي الدين وتلقّاهم وباشرهم بِبيضه وسُمْره، فاستُشهد من أصحابه عدّةٌ من الكِرام، انتقلوا إلى نعيم دار المقام؛ وهَلَكَ من الفرنج أضعافها. وكان لتقي الدين ولدٌ يقال له أحمد، أول ما طرّ شاربه، فاستُشهد بعد أن أردى فارسا. قال: كان لتقي الدين أيضا ولد آخر، اسمه شاهنشاه، وقع في أسر الفرنج. وذلك أن بعض الفرنج بدمشق خدعه وقال له: تجيء إلى الملك وهو يعطيك المُلْك؛ وزوّر كتابا فسكن إلى صدقه وخرج معه، فلمّا تفرّد به شدّ وثاقه، وغلّه وقيّده، وحملهُ إلى الداوية، وأخذ به مالا، وجدّد عندهم له حالا وجمالا؛ وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكه السّلطان بمال كثير، وأطلق للدّاوية كل من كان لهم عنده من أسير؛ فغَلّظ القلب التقويّ على ذلك الولد، جرّ هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه. قال: ولو أن لتقي الدين ردءا لأردى القوم، لكن الناس تفرّقوا وراء أثقالهم، ثم نَجَوْا برجالهم، وصوّب العدوّ بجملتهم حملتهم إلى السلطان، فثبت ووقف على تقدّمه من تخلّف. وسمعته يوما يصف تلك النوبة، ويشكر من جماعته الصحبة، ويقول: رأيت فارسا يحث نحوي حصانهَ، وقد صوّب إلى نحري سِنانهَ فكاد يُبلغني طِعانهَ، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شانهَ. فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كل واحد إلى واحد منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكّن من قربي فما مكّنوه؛ وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسويد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر. واتّفق لسعادة السّلطان أن هؤلاء رافقوه وما فارقوه، وقارعوا العدو دونه وضايقوه؛ فما زال السّلطان يسير ويقف، حتى لم يبقَ من ظنّ أنه يتخلّف.

ودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزّاد والعلف ولا قليل، وتعسّفوا السّلوك في تلك الرّمال والأوعاث والأوعار، وبقُوا أياما ولياليّ بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا إلى الديار. وأذن ذلك بتلف الدّواب وترجُّلِ الركّاب ولُغوبِ

الأصحاب، ففُقد كثير ممّن لم يُعرف له خبر، ولم يظهر له أثر، وفُقِد الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وأخوه الظّهير، ومَن كان في صُحبتهم، فضلّ الطريق عنهم، وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقُرب الأعداء، فأكمنوا في مغارة وانتظروا من يدلهم من بلد الإسلام على عمارة. فدل عليهم الفرنج من زعم أنه يدلّ بهم، وسعى في أسرهم وعطبهم، فأسروا، وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلّا بعد سنين؛ بستين أو سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكفّار.

قال: وما اشتدت هذه النوبة بكسرة، ولا عدم نُصرة، فإن النّكاية في العدوّ وبلاده بلغت مُنتهاها، وأدركت كلُّ نفسٍ مؤمنة مُشتهاها. لكنّ الخروج من تلك البلاد شتّت الشّمل، وأوعر السّهل، وسُلك مع عدم الماء والدليل والرمل.

ومما قدّره الله تعالى من أسباب السّلامة، والهداية إلى الاستقامة، أن الأجلّ الفاضل استظهر في دخول البلاد الأعداء باستصحاب الكنانيّة والأدلاء، وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء؛ فلمّا وقعت الواقعة خرج بدوابة، وَغِلمانه وأصحابه، وأدلائه وأثقاله، وبثّ أصحابه في تلك الرّمال، والوهاد والتلال، حتى أخذ السلطان وقَصَدَه، وأوضح بأدلّائه جَدَدَه، وفرّق ما كان معه من الأزواد على المنقطعين، وجمعهم في خدمة السلطان أجمعين؛ فَسهُل ذلك الوَعر، وأنِس بعْد الوحشة القَفْر، وجبر الكسر.

وكان الناس في مبدأ توجّه السلطان إلى الجهاد، ودخول الأجلّ الفاضل معه إلى البلاد، ربما تحدثوا وقالوا لو قعد وتخلّف كان أولى به، فإن الحرب ليست من دأبه. ثم عُرف أنّ السّلامة والبركة والنجاة في استصحابه.

وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجّابين فخُلع عليهم وأُركبوا، وأشيع بأن السلطان نصره الله، وأن الفرنج كُسروا وغُلبوا. فركبتُ لأسمع حديث النجّابين وكيف نصر الله المسلمين، وإذا (هم) يقولون: أبشروا فإن السلطان وأهله سالمون، وإنهم واصلون غانمون. فقُلت لرفيقي ما بُشّر بسلامة السّلطان إلّا وقد تمّت كسرة، ومن ثَمَّ سوّى سلامتَه نصرة.

ولمّا قرب خرجنا لتلقّيه، وشكرنا ما يسره من ترقيه وتوقّيه. ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر، ونابت سلامته مناب الدّهر وسيرنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر، لإخراس ألسنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبتُها هائلة، ووقعتها غائلة. وعلق ابن شداد على هذه الغزوة بقوله إنّ السلطان خرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرّملة وذلك في أوائل جمادى الأولى، وكان مقدَّم الفرنج البرنس أرناط، وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيرا بها من زمن نور الدين رحمه الله تعالى؛ وجرى خللٌ في ذلك اليوم على المسلمين. ولقد حكى السلطان، قدّس الله روحه، صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أنّ المسلمين كانوا قد تَعبَّوْا تعبئة الحرب، فلمّا قارب

العدوّ رأى بعض الجماعة أن تغير الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب، ليكون حالَ اللقاءِ وراءَ ظهرِهم تلٌ معروف بأرض الرّملة. فبينما اشتغَلوا بهذه التعبئة هجم الفرنج، قدّر الله كسرهم، فانكسروا كسرة عظيمة؛ ولمْ يكن لهم حصن قريب يأوُون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا الطريق وتبدّدُوا، وأُسر منهم جماعة بينهم الفقيه عيسى. وكان وهْنا عظيما جَبَرَه الله تعالى بوقعة حطّين المشهورة؛ ولله الحمد. قلت: وذلك بعد عشر سنين؛ فكسرة الرّملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين.(٢٦)

ووصف القاضي الفاضل هذه المعركة في رسالة إلى أحد الأمراء عن صلاح الدين، قال فيها:

«نِعمُ الله سبحانه في كلّ ما تصرّفنا عليه أن نصرف إليه شكرنا، وألطافه الجميلة في كل ما يقتضي بنا إليه تقتضي أن نُبليَ في جنبها عُذرنَا. ومكاتبتنا إلى الأمير صادرة في يوم الخميس الخامس عشر من جمادى الآخرة عند قفولنا من الغَزاة التي صرفنا الله فيها عن الكفّار ليبتلي صبرنا، والعساكر المنصورة سالمة بجمهورها، نِعَمُ الله في الكافّة بين آمرها ومأمورها.» وقد كانت هذه العساكر جاست خلال ديار الكفار، وقاتلت البلاد وأهلها بالسيفينْ الحديدِ والنار، وحكّمتْ القتل تحكيما عُجّل فيه الارتياح إلى أمر الله عن مهلة الإسار، واستباحت لهم معاقل، وصابت لهم مقاتل. وشغلت العساكرَ كُسوبُها، وفيها للعساكر قِدْما شغل شاغل. وكان العدو رامها مستيقظة فلم يُطِقْها، وبادرها على باب عسقلان فلم يَثْنها عن غاية ولم يَعُقْها. بل ولاها ظهره عَجِلا، وفرّ تحت الليل وَجِلا. ثم طرقها في حال انبثاث منها وانتشار، وشُغلٍ بالنهب واغترار، وتباعد من الأطلاب وخفة من رجالها وخُلُوّ من الأسلحة التي احتاجت في لباسها إلى (لحاق) أثقالها. فقُتل من العدو أضعافُ المقتولةِ من المسلمين. وكانت البادرة للكافر والعاقبة كما وعد الله للمتقين. وسلّم الله الخلقَ من المهالك الموحشة، والمجاهل المُعْطِشة، والظلماء المُدْهِشة، والافتراقات التي فيها تُفلّل الجيوش المجيّشة، حفظا لدينه ونِعْمَة يجب شكرها على كلّ مسلم. وإلا فإن الأعمال مُوبِقة والسيّئات مُوثِقة، والكثرةُ أعجبت وأعجلت، والثقة بغير القادر أخجلت. ولم يُفقد مع البُعد في المسافة والتتبُّع بالمخافة، وفُقد الماءُ في القَفْر، وعُدم الأدلّاء وكثيرٌ مَنْ أظهر من أمراء العسكر وأكابرها وأصاغرها إلّا نفرٌ قليل أكرمهم الله بالشهادة مُقبلين غير مدبرين، ومتقدّمين غير متأخّرين. وليس

(٢٦) الرواية كاملة في: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩٥ - ٧٠٣؛ البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٢ - ٢٦٤؛ الأصفهاني، «البرق»، ج ٣، ص ٣١ - ٥١. أنظر أيضا: ابن شداد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.

فيهم من لاسمه في الأسماء شُهرة، ولا من يعتدّ العدوّ أن له بقتل مثله كثرة.

«وعُدنا فحملنا الضعيف والمنقطع، ورفقنا في السير حتى لحق المفترق بالمجتمع. والأمير يتلو كتابنا على بياض الثغر وذوي هيئاته، ويستدعي شركتنا في شكر الله الذي هو أيسر واجباته، ليسكنوا إلى (أنّ) الأمور قائمة والعساكر سالمة. والغزوات تتّصل ولا تنقطع، والطلبات للعدو بإذن الله تسهل ولا تمتنع، وراية هذا الدين ترتفع ولا تنخفض، وأنوار هذه الملّة تتّسع ولا تنقص. ولا فلّت لنا ـ والحمد لله ـ هذه النبوة عزيما، ولا أحالت منا عن طلب الكافرين غريما، وما عَدّوْنا ما دلّ الله سبحانه، وما زادهم إلّا إيمانا وتسليما.»[٢٧]

لا بدّ من وقفة عند هذه النصوص ومقابلتها ببعض النصوص الفرنجية لنعطي فكرة كاملة عن هذه المعركة المهمّة التي هزّت المسلمين؛ لولا أن تداركها صلاح الدين ببعض الانتصارات التي أعادت له ولعسكره وشعبه الثقة والطمأنينة، وغطّى عليها القاضي الفاضل بكتاباته كي لا يثير المخاوف ويحيي الأحقاد.

إن أسماء الأماكن الجغرافية التي جرت فيها الحركة منذ بدايتها غامضة، فباستثناء الإشارة إلى عسقلان والرملة وتلّ الصافية، قلّما تفيد المصادر العربية بتفصيلات. وهذا الغموض راجع إلى أن القاضي الفاضل لم يصحب العساكر مع أدلّائه في أثناء انتشارهم قرب عسقلان والساحل، بل ظلّ مع أدلّائه وبعض العسكر في مخيّم في العريش، الحد الفاصل بين مصر والمملكة الفرنجية، ليحموا صلاح الدين في حالة تقهقر أو تراجُع من ناحية، وليحافظوا على فتح الطريق بين مصر والمملكة، أي حمايتها من هجوم فرنجي معاكس؛ وليهيّئوا مركز تجمّع التائهين أو الجرحى أو المتراجعين. وقد تاه صلاح الدين ومن معه في منطقة لم يعرفوا أسماء مدنها وقراها، أو حتى شيئا عن سكانها. ويذكر وليم الصُّوريّ، مثلا، أن بعض التائهين من جند صلاح الدين التجأوا إلى بعض القرى الآهلة بالفرنج، فقبضوا عليهم. وبالتالي فلم يزوّدوا المتقصّين لأخبار الموقعة بأية معلومات جغرافية. وعدا عن الغموض في الأسماء فإنّ هناك شيئا من التغطية على تفصيلات المعركة، ويمكننا أن نعزو هذه التغطية إلى عدم توفُّر رواية متكاملة من المحاربين المسلمين عمّا جرى، لأن مفاجأة الهجوم الفرنجي لهم في حال تفرّقهم أذهلتهم، وفي الوقت ذاته فإنهم لم يكونوا يتوقّعون الهجوم، ولم يعرفوا مركزه بالضبط. . ولقد حرص معظم الكتّاب، بمن فيهم القاضي الفاضل، على ألا يثيروا شيئا من الخوف بين الناس برواياتهم، فطغى على كتاباته أسلوب الحثّ والدعوة إلى الجهاد

(٢٧) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٢.

ثانية، وهذه ناحية دعائية إيجابية. وأمّا وليم الصُّوريّ، أستاذ الملك بلدوين الرابع الفرنجي الذي قاد الحملة ضد صلاح الدين على الرغم من مرضه وصغر سنه، فإنّه يزوّدنا بالتفصيلات الناقصة في الرواية العربية. ويتّضح من أقوال وليم الصُّوريّ أن خسائر المسلمين كانت أكبر كثيرا ممّا وصفه المؤرّخون المسلمون، بمن فيهم القاضي الفاضل. فهو يصف تلك الوقعة بقوله إن صلاح الدين جهّز أعدادا كبيرة من العسكر، وسار عن مصر بعد قطع مسافات طويلة من الفلاة، حتى وصل إلى العريش وكانت مهجورة، فترك فيها المتاع الثقيل ومتاع الجنود، ثم أخذ معه العساكر المزوّدين بالأسلحة الخفيفة وأكثر عساكره، فمرّ بالداروم وغزّة ثم ظهر فجأة أمام عسقلان.

كانت المنطقة آنذاك شبه خالية من عساكر الفرنج، فأمير طرابلس (ريموند) كان قد غادر المملكة برفقة مئة من الفرسان إلى الشام، كما أنّ رئيس الإسبتارية وبعض الفرسان الإسبتارية وعددا كبيرا من الداوية كانوا قد غادروا المنطقة أيضا. وأمّا باقي الدواية فدخلوا غزة مركزهم خوفا من محاصرة صلاح الدين لها، لأنها أوّل مدينة في إمكانه الوصول إليها. ولم يكن مع الملك بلدوين الرابع سوى أقلية من جنوده؛ فعندما سمع أن العدو منتشر في السهول المجاورة لعسقلان توجّه للمعركة.

كان صلاح الدين آنذاك قد ركّز جميع عسكره قرب المدينة، أي عسقلان. فعندما تقدّم الفرنج ورأوا أعداد المسلمين العديدة، نصح لهم ذوو الخبرة منهم ألّا يغادروا مواقعهم فوافقوا، وتصدّى الفرنج لهجوم صلاح الدين حتى المساء، مع أنه جرى بعض المعارك المتفرقة، لقرب الجيشين أحدِهما من الآخر. وعندما اقترب الليل دخل الفرنج عسقلان، فتفرّق عساكر صلاح الدين في مجموعات صغيرة في السهول، وانتشروا في جميع المنطقة، كما أنّ جاولي، أحد قادة صلاح الدين وصل إلى الرملة، وعندما وجدها مهجورة أحرقها. وكان سكانها قد غادروها لعدم تحصينها، فذهب بعضهم مع الملك بلدوين إلى عسقلان وبعضهم الآخر، الرجال والنساء، إلى يافا، بينما ذهب بعض ثالث إلى أماكن أخرى حصينة.

بعد حريق الرملة توجّه هذا القائد (جاولي) بعساكره إلى اللّد، وهناك قسّم عساكره وحاصر المدينة ثم هاجمها بشتى أنواع الأسلحة من دون توقف، فهرب السكّان إلى كنيسة القديس جورج.

خاف الفرنج إلى درجة تراءى لهم معها أن الهرب خير طريق لهم، وخاف كل من في الساحل وفي الجبل، وكاد أهالي القدس يهجرونها لعدم ثقتهم بمناعتها، فالتجأوا جميعا إلى برج داود وهجروا باقي المدينة. وفي الوقت ذاته وصل بعض المسلمين إلى قلقيلية وانتشروا في السهل كله، وكانوا على وشك مغادرة السهل والتوجّه إلى الجبال.

«أصبحت المنطقة خالية مخيفة، مشبعة بالمرارة.» وعندما وصلت أخبار انتشار

المسلمين في السهول إلى الملك، وكان قد دخل عسقلان، غادرها حالا لمواجهة المسلمين.

سار الملك على الساحل كي يفاجىء المسلمين، إلى أن وصل إلى مخيّم صلاح الدين في السهل، فوجّه صلاح الدين جميع عساكره من خيّالة ورجّالة صوبه، ولكن فرسان الداوية الذين ظلّوا في غزة وقفوا مع الملك، واستعدّوا لمواجهة المسلمين، إلا إنّهم «عندما تقدّموا ورأوا النيران التي أشعلها العدو (المسلمون) من كل جانب وسمعوا الأخبار عن مقتل السكان الفرنج ساندتهم قوة إلهية»، «فأسرعوا كالرجل الواحد وواجهوا صفوف العدو.» وكانت الساعة الثامنة من النهار.

في هذه الأثناء علم صلاح الدين بتقدُّم الفرنج، وإذ كان قد حسب حساب القتال معهم فإنه أرسل من يستدعي عساكره المتفرّقة، بالأبواق والطبول، وبالصياح. وقد واجه الملك بلدوين الرابع قوّات صلاح الدين، ومعه رئيس الداوية وثمانون من الفرسان، والأمير أرناط، وبلدوين أمير الرملة، وأخوه باليان الإبليني، ورينولد أمير صيدا، والكونت جوسلين خال الملك وغيرهم. ولم يكن عددهم يتجاوز ثلاثمئة وخمسة وسبعين يتقدّمهم الصليب وقد حمله ألبرت مطران بيت لحم. وتوجّهوا إلى ناحية المسلمين، بينما كان المسلمون المنتشرون في السهول قد بدأوا يتجمّعون وأخذوا يصطفّون للمعركة. تقارب الطرفان ونشبت المعركة فاشتدّ الفرنج على صلاح الدين حتى كسروا صفوفه وقتلوا الكثير من عسكره؛ بينما هرب كثيرون منهم.

ويضيف وليم الصُّوريّ إلى روايته عن وقعة الرملة أنهّ تحرّى من بعض المصادر عن عدد عسكر صلاح الدين، فعلم أن عسكره كان نحو ستة وعشرين ألف خيالة خفيفة بالإضافة إلى غيرهم ممن امتطوا الجمال والبغال وغيرها: ومن بين هؤلاء نحو ثمانية آلاف طواشي، وثمانية عشر ألف فارس معروف بِقَرا غُلام، ونحو ألف فارس كانوا حرّاسا لصلاح الدين ويلبسون الحرير الأصفر فوق دروعهم وهو لون راية صلاح الدين. وقد لاحق الفرنج المسلمين إلى تل الصافية إلى أن دخل الليل. وظلّوا، على رأي وليم الصُّوريّ، طوال الملاحقة، ولمسافة اثني عشر ميلا أو أكثر، يقتلون المسلمين الهاربين؛ وأمّا الأقوياء من المسلمين فهربوا على أحصنتهم بعد أن رموا أثقالهم، تاركين وراءهم الضعاف، ولم يُنجِ هؤلاء من الفرنج سوى الليل والظلماء. ولمّا وصل هؤلاء إلى مستنقع غاصوا في الماء تاركين وراءهم أسلحتهم فيه. فأخذ «جماعتنا» الفرنج كل هذه الأسلحة وعاد الملك بعد هذه الوقعة إلى عسقلان.

كان من حُسن المصادفة أن تلا هذه الموقعةَ عشرةُ أيام متواصلة من المطر والبرد الشديد، فزاد ذلك في معاناة المسلمين. فقد أصبحوا تائهين بلا زاد ولا ماء، يعانون البرد الذي قضى على الكثيرين منهم؛ فتبعهم الفرنج وقبضوا عليهم جماعات ووحدانا، لأنهم كانوا في معظمهم يجهلون طبيعة المنطقة وجغرافيتها، ودخلوا القرى الفرنجية

حيث قبض عليهم.

وفي هذه الأثناء سارع البدو إلى محطة العريش حيث تمركز بعض العسكر لحراسة المتاع. وأخبروا من فيها عمّا جرى للمسلمين، فهرب هؤلاء، فتبعهم البدو، وهكذا فإنّ مَنْ لم يَمُتْ على يد الفرنج مات على يد البدو. وظل الفرنج يُحْضِرون الأسرى التائهين إلى عسقلان لبضعة أيّام من الغابات ومن الجبال ومن الصحراء، وكان بعضهم يستسلم للفرنج. وعاد صلاح الدين إلى مصر مع مئات (بدل الألوف) من فرسانه، ويقال أنه عاد على جمل (بدل الحصان). وقد رفعت هذه الوقعة من معنويات الفرنج كثيرا، فبعد أن كاد وليم الصُّوريّ يفقد الأمل بقدرة المملكة اللاتينية على هزيمة صلاح الدين أخذ يفكر في إمكان استعادة قوتها وصمودها، وعزا ذلك إلى «رحمة إلهية أعانت الفرنج من علٍ.»(٢٨)

إذا قارنّا بين وصفي القاضي الفاضل ووليم الصُّوريّ لمعركة الرملة، لاحظنا أن الأحداث تتطابق إلى حدّ ما. ولو أن القاضي الفاضل يعزو الهزيمة إلى انشغال العسكر بالنهب، وإلى انتشارهم وابتعادهم، وهذا صحيح، ولكن يمكن القول إن صورة وليم الصُّوريّ أدق، لأنه أعلم بالمناطق التي وقعت الأحداث فيها، إمّا عن طريق المشاهدة وإمّا عن طريق السماع. أمّا من ناحية الأرقام والعسكر ومصيرهم فالقاضي الفاضل حذر، وإنْ علم أحد بالأعداد فهو الخبير، لأن الأعداد والأرقام كانت لديه، قبل الخروج للغَزاة وبعدها. وبما أن نقطة التجمّع بعد العودة كانت عنده في العريش، فهو أَوْلى الناس بمعرفتها، ولكنّه لا يذكر شيئا من هذا، ربما لعدم إثارة المخاوف لدى بعض المصريين أو الأحقاد لدى غيرهم. وأمّا أرقام وليم فيبدو أيضا أنّها مبالغ فيها، لأن الجيش لم يصحب صلاح الدين بكامله بل تُرِك قسمٌ منه لحراسة القاهرة. وربما صحبه بعض المتطوعة، وقد يكون القتل بين هؤلاء أكثر. فالقاضي يذكر أن المفقودين أقلية، «وليس فيهم من لاسمه في الأسماء شهرة، ولا من يعتدّ العدو أن له بقتل مثله كثرة»، ولو أن أحد أبناء تقي الدين عمر كان بين الشهداء وابنه الآخر والفقيه عيسى الهكاري وغيرهم بين المفقودين. ويشير القاضي الفاضل أيضا، في قضية العودة إلى مصر، إلى أنهم حملوا الضعفاء وتباطأوا في السير حتى يتبعهم من يصل إليهم من التائهين. ويعقّب أخيرا بقوله إن هذه النكسة لن تخفّف من العزم على مواصلة الغزو، ووصفها العماد بقوله: «قال إنّها كسرة. وهي ببركات الدار العزيزة نُصرة.»(٢٩)

جدد صلاح الدين بعض قوّته بعد عودته من الرملة، وتوجّه سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧ -

(٢٨) التفصيلات في: William of Tyre, *op.cit.*, pp. 428-433.

(٢٩) الأصفهاني، «البرق»، ج ٣، ص ٤٢ - ٤٣، ٤٦.

١١٧٨م، إلى الشام ثانية عندما سمع بشيء من المفاوضات بين الحلبيين والفرنج الذين كانوا يحاصرون حارم.

(ج) دور القاضي الفاضل المعنوي في تثبيت همّة صلاح الدين عقب هزيمة الرملة

أمّا القاضي الفاضل فظلّ في مصر ليساعد في تجديد عساكر صلاح الدين وليساعد نائبها الملك العادل، أخا صلاح الدين، وليقوم بالحجّ في نهاية السنة. كما كان يراقب ما يجري على الحدود المصرية ـ الفرنجية، لأن الفرنج تابعوا نصرهم ببعض الغزوات على قلعة صَدْر وغيرها. ولكنّه واصل مراسلاته مع صلاح الدين يثبّت من عزمه، ويهوّن عليه هزيمة الرملة، ويبشّره بالنصر المنتظر. ولقد كان هذا الدور المعنوي الذي قام القاضي الفاضل به من أهم أدواره منذ وقعة الرملة إلى نهاية حرب عكا، إذ وقف كالسور صامدا في ظهر صلاح الدين يشجّعه على الجهاد ضد الفرنج، ويذكّره بمآثر قادة المسلمين السابقين له، ويخفّف عنه.

فمن أمثلة مراسلاته مع صلاح الدين عن الرملة قوله:

«ونوبة العدو في الرملة، فقد كانت عثرة علينا ظاهرها، وعلى الكفر باطنها، ولزمنا ما نُسي من اسمها ولزمهم ما بقي من غرمها. ولا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة، والحريم المستور والمال العظيم الموفور.»[٣٠]

ومن فصل في ابتداء كتاب لصلاح الدين:

«حاطه الله بعينه وعونه، وصان رداء الإسلام من كل جانب وحادث بصونه، ولا أعدم الله الخلق منه مولى يُعْدِمهم الأصعبينْ الخوفَ والعَدَم، ولا زال ناقدا في الأمتينْ العرب والعَجَم، المرهفينْ السيف والقلم. المملوك يبدأ في كل كتاب خطاب بشكر الله تعالى على ما وفّق سلطان هذه الأمة له من الصلاح، واستعمله به من الصّواب في إقامته هذه، والظاهر / والخفيّ من تدبيره وأجراه على أكثر من عاداته، وأسكن الرّعب في قلوب عداته، واستخدم أترابه ملوك الزمن وساداته، وأراد به الخير وأن يخاف من أراده به رادا لإرادته.»[٣١]

ويلمّح في رسالة أُخرى إلى وقعة الرملة بقوله: «فالحمد لله الذي أذهب عنّا

---

(٣٠) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٤.

(٣١) الأصفهاني، «البرق»، ج ٣، ص ٦٨.

الحَزَن، وأولى من النعمة ما اشترى الحمد عبدا بلا ثمن. وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، وعد الله سبحانه منتظر، إذ يقول في كتابه: «وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا.»[٣٢]

كانت هزيمة الرملة نكراء، يشبه هولها هول هزيمة مصر في سيناء سنة ١٩٦٧م، ويُنبىء بضعفٍ تركيبيّ في الجيش، سواء من جهة التدريب، أو من جهة قيادة الكفاءات، كما يُنبىء بضعف في المعنويات. والظاهر، بعد هذه المعركة، أن حملة الداروم التي كان صلاح الدين قد قام بها لاستعادة معنويات الجيش واختبار قدراته، لم تُحلَّل تحليلا عسكريا كافيا من قِبَل صلاح الدين وقادته. ولعلّه كرّر في حملة الرملة الأساليب التي استعملها في الداروم، والتي كان الصليبيون أنفسهم قد درسوها، واستفادوا ممّا فيها من ثغرات لإلحاق الهزيمة به في معركة الرملة.

ومع أن صلاح الدين قد خسر معركة الرملة، إلاّ إنها كانت ذات أثر حاسم في التخطيط المستقبلي لبناء جيش مصر، وتبيّنُ صلاح الدين أنّ في الجيش الذي ورثه عن الفاطميين واستخدمه بعد تعديل بسيط، أو بالأحرى تجميل بسيط، على أمل أن يحقّق فيه النتائج الكبرى المرجوّة من تحرير الأراضي الفلسطينية والساحل الشامي، واستعادة القدس؛ أنّ في هذا الجيش ضعفا جذريا لا يُمكّن من تعليق مثل هذه الآمال عليه، وإناطة مثل هذه المهمّات به في خِضمّ توجّهه هو نحو الجهاد، ونحو بناء دولة منيعة قادرة على مجابهة الغزو الفرنجي، ومتماسكة من الداخل حول لُحمة من أتباعه الذين يُفترَض أن يكونوا من شعبه الكردي. وهذا الاعتبار هو الذي دفعه فيما يبدو إلى التمركُز في الشام بدلا من مصر. وبعبارة أُخرى فإنّه يبدو وقد يَئس من بناء قدرة عسكرية مصرية. وقد أمضى بعد ذلك عشرة أعوام في بناء الدولة والجيش المحارب قبل أن يستعيد ثقته بنفسه وبقدرته عل إلحاق الهزيمة بالصليبيين.

أما في مصر ذاتها فيبدو أنه كان لمعركة الرملة وتل الصافية أثر حاسم في التفكير العسكري فيها، سواء لأغراض الدفاع ضد الهجمات الفرنجية الممكن حدوثها، أو لأغراض تحرير الأراضي الإسلامية. ومن هنا فإننا لم نعد نسمع بالتركيبة الفاطمية للجيش، المبنية على استقدام عناصر متنوعة ومتناقضة إلى أرض مصر، وتكوين فرق متنابذة منها. كما أن الترهُّل الذي كانت مصر تعانيه، أواخر العصر الفاطمي نتيجة لتسرُّب الترف والاسترخاء والفساد إلى نخبتها الحاكمة، قد تباعد بالتدريج من خلال

---

(٣٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٦.

التغيير الكامل لهذه النخبة. وأمّا بالنسبة إلى الجيش فقد انتقل التركيز إلى الاعتماد على المماليك المستَقْدَمين من شعوب فتية ومحاربة. وقد أظهرت التجارب فيما بعد أنّ هذه الشعوب قد أخذت تنظّم نفسها بالتدريج داخل مصر، وتستبعد من الجيش أي عنصر آخر خلافها، حتى أقامت جيشا يستند إلى نقاء عنصري خارجي، واستخدمته للوثوب إلى الحكم. وقد أثبت هذا الجيش جدارة كُبرى في معاركه اللاحقة مع الفرنج والتتار.

ومن الجائز أن نفترض أن دور القاضي الفاضل، في أول عهد صلاح الدين في مصر، كان في مجال إعادة تنظيم الإدارة، وفي التوجيه لصلاح الدين بصورة خاصة بالنصح والمشورة والتخطيط. وقُيّض له أن يؤدي دورا ذا طبيعة معنوية، إذ كان يواسي صلاح الدين في الهزيمة مثلما كان يحثّه على الجهاد ويؤمّله بالنصر المبارك. ولقد كان لدوره المعنوي أهمية خاصة في معركة عكا التي خاضها صلاح الدين ضد الحملة الصليبية الثالثة، وأحسّ فيها بالتعب والخيبة، وكاد يصيبه اليأس، فراح القاضي الفاضل يهوّن الشدائد عليه، ويقوي عزيمته، ويعيد إليه الأمل والثقة. وكان ذلك من أهمّ ما عمله في أثناء وزارته.

الفصل الثامن
القاضي الفاضل والفتوحات

لِيَهنَ المولى (صلاح الدين) أنّ الله قد أقام به الدينَ القيّم، وأنهُ كما قيل أصبحتَ مولاي ومولى كل مسلم، وأنهُ قد أسبغ عليه النعمتين الباطنة والظاهرة، وأورثه المُلكين مُلكَ الدنيا ومُلكَ الآخرة.

القاضي الفاضل
تهنئة بحطّين

أولا: دولة صلاح الدين
(٥٧٨هـ / ١١٨٢ ـ ١١٨٣م)

ربط القاضي الفاضل في جميع كتاباته إلى صلاح الدين بين الوحدة في مصر والشام تحت راية الخليفة العبّاسي، وبين التنسيق العسكري بين المسلمين المثاغرين للفرنج في الشرق والغرب. ومن هنا حاول أن يستميل الأمير المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، حاكم الأندلس، محاولا تلطيف العلاقات بينه وبين صلاح الدين، بعد ما عراها من شوائب بسبب محاولة تقي الدين عمر التوسع في المغرب.

أمّا الوحدة الجغرافية فقد تحقّقت بجهوده الإدارية والمعنوية، وجهود صلاح الدين العسكرية حتى ضمّت مصر وجميع الشام حتى حلب في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ ـ ١١٨٣م. ومع ضمّ حلب إلى ممتلكات صلاح الدين، اعتبر القاضي الفاضل بداية الجهاد ضد الفرنج حتمية، مركّزا عليها في كتاباته إلى صلاح الدين، في حال غيابه عنه، وإلى أصدقائه وأقارب صلاح الدين. وحاول في تركيزه على جهاد الفرنج أن يحوّل طاقات صلاح الدين العسكرية عن محاربة آل زنكي في الموصل والجزيرة واستقطابهم لطرفه، ثم الاستفادة من مساعدتهم العسكرية بدل مقاتلتهم.

ومن جملة ما كتبه، معبرّا عن هذه الآمال والأهداف، كتابٌ إلى حطّان بن منقذ في اليمن عن صلاح الدين يصف فيه فتوحاته: «إن الله فتح علينا ممالك وأضافها، بلادا آمنها بنا ممّا أخافها، وبلّغنا غرائب صنع لا يبلغ أحد أوصافها.» ويصف هذه البلاد

بأنها: «بلاد الشام بأسرها، مملكة حلب وما حولها والجزيرة بدجلتها.» ويذكر أن بعض الحكام الذين تغلّب صلاح الدين عليهم ظلّوا في إقطاعاتهم على أن يوفّروا العساكر لصلاح الدين إذا طلبها. وأمّا الآخرون فأخذ إقطاعاتهم ووُلّي عليها جماعةٌ من المناصرين لصلاح الدين. ويشير إلى الجهاد بقوله: «ولما لم يبقَ في البلاد الإسلامية إلّا ما هو في يدنا أو يد مطيع لنا، كان من شكر هذه النعمة أن نصرف القوّة، ونثني العزمة، ونحد الشوكة، ونلبس الشِكّة للفرنج الملاعين، فننازلهم ونقارعهم ونخاصمهم إلى الله وننازعهم، فنطهّر الأرض المقدّسة من رجسهم بدمائهم، إلى أن ترقّ السيوف للصخرة الشريفة لِما مرّ منهم بها من قسوة كفرهم واعتدائهم. فنحن نرجو أن نكون عين الطائفة من الأمة التي أخبر نبيُّنا صلوات الله عليه وسلم أنّها لا تزال على الحقّ ظاهرة، وبثواب الله وعدوّه ظافرة، والله تعالى يُعيننا على ما يعنينا ويلهمنا الاستجابة لدعوته إلى ما يُحيينا.»[1] وقد كانت هذه الرسالة إعلانا ببداية فتوحات صلاح الدين في المملكة اللاتينية.

ثانيا: اشتراك القاضي الفاضل في حملات صلاح الدين في فلسطين والأردن

بدأ صلاح الدين الغَزاة، على نطاق ضيّق في ٢٧ جمادى الأولى ٥٧٩هـ / أيلول (سبتمبر) ١١٨٣م، في منطقة الغور مصطحبا معه بعض كبار رجال دولته، بمن فيهم القاضي الفاضل. وكانت هذه الغزوة قريبة من قلب القاضي الفاضل، لأنها أوصلته أول مرّة إلى بيسان وضواحيها. وكان يعدّ كل محطّة من المحطّات التي توقّف فيها، فأوّلها جسر الخشب، وهو الجسر المفضي إلى المملكة اللاتينية، وقد ظل هناك تسعة أيام مع صلاح الدين، ثم الفوّار التي وصلوا إليها في الثامن من جمادى الثانية؛ ثم القُصير (ولعله من قصور الأمويين) حيث نزلوا، فنهر الأردن الذي عبروه وتوجّهوا إلى بيسان. ولمّا وصل هؤلاء إلى بيسان وجدوا أهلها من الفرنج قد غادروها تاركين وراءهم كل ما يملكون، فساروا إلى عين جالوت وهي قرية عامرة، فخيّم صلاح الدين فيها بعد أن أرسل من يستكشف له أمرها، فلاحظ الكشّافة عسكرا من فرنج الكرك والشوبك في طريقهم لنجدة فرنج الغور، فهاجمهم المسلمون. ثم علم صلاح الدين أن الفرنج اجتمعوا بصفّورية، ثم رحلوا إلى الفولة، فسار للقائهم واشتبكوا في القتال، لكنّ الفرنج

(١) أبو شامة في: «Recueil,» Vol. IV, pp. 241-242.

سرعان ما تراجعوا، فعاد صلاح الدين وجماعته إلى دمشق في ٢٤ جمادى الثانية ٥٧٩هـ / تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٣م من دون احتلال أيّ من المناطق.[٢]

لكنّ القاضي الفاضل عدّ هذه الحملة بداية للنصر الأكبر وكتب عنها إلى الخليفة مصوّرا مسيرة صلاح الدين في طريقه لقتال الفرنج بأنها مسيرة الإسلام ضد الكفر، وأن الجنود جنود الإسلام، لا جنود صلاح الدين، وأن العساكر كانت سعيدة في طريقها إلى تأدية واجبها الديني مستعدة للاستشهاد: «وأخذت أهبة وشحذت قضبة وباعوا الله ما اشتراه ومثل لأعينهم ثوابه فكأنّها تراه.» وفي وصفه لاختراق صلاح الدين نهر الأردن يشير إليه بأنه «النهر الفاصل بين الإسلام والكفر»، ويلمّح إلى هجرة السكان منها: «فإذا البلاد قد انهزم أهلها فألحقها المسلمون وسكّانها في الهزيمة وعدّلوا فيها على سيوف المعارك فإذا هي راحلة وكأنها مُقيمة. وهذه البلاد مدن ما كان قبل منها عزْم، مدن وعمارات، ما كان أمل إليها مفضيا بل طال ما كان عنها مُغْضِيا، مثل بيسان وكفربلا (كفرعلا) وزرعين وجينين، كلها بلاد مشاهير، لها قرى مُغِلّة وبساتين مُظِلّة وأنهار مُقِلّة وقلاع مُطِلّة وأسوار قد ضربت على جهاتها وأحاطت بجنباتها واتخذتها المدن سياجا على قصباتها. فغنم المسلمون ما فيها من أقوات مختزنة وشفوا منها حزازات القلوب المضطغِنة وأحرقوا أوعية كفرها بالنار وعذّبوها عذاب أهلها من الكُفّار وقتلوها وكأن الضِرام كان بها دما.»[٣]

بعد حملة الغور كاتب الملك العادل أخاه صلاح الدين طالبا منه أن يولّيه حلب وأعمالها بدل مصر، فوافق، داعيا إيّاه إلى مقابلته في الكرك. ولكن إدارة مصر كانت بحاجة إلى قائد قدير، فاستشار صلاح الدين القاضي الفاضل فيمن يولّيه خلفا للعادل في مصر، فأشار عليه بتولية تقي الدين عمر ابن أخيه، الذي أصبح من أقارب صلاح الدين الذين يعتمد عليهم عسكريا.[٤] ولكن لمّا كان تقي الدين طموحا، ذا أهداف توسعية لهم، وفي معزل عن مصر وسياستها وإدارتها ودواوينها، فقد اقترح صلاح الدين، أو ربما اقترح القاضي الفاضل عليه، أن يرافق تقي الدين إلى مصر ليشرف معه على الإدارة.

توجّه القاضي الفاضل مع صلاح الدين إلى الكرك حيث حاصر قلعتها مدّة، ثم انسحب عنها. وبينما هو على الكرك استقبل أخاه العادل قادما من مصر، وأرسل تقي الدين ومعه القاضي الفاضل إلى مصر في نصف شعبان ٥٧٩هـ / كانون الأول (ديسمبر)

---

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٨؛ أيضا: الأصفهاني، «البرق»، ج ٥، ص ١٥٣.

١١٨٣م. وأشار عماد الدين الأصفهاني إلى أهمية مصاحبة القاضي الفاضل لتقيّ الدين عمر، ومدى اعتماد صلاح الدين عليه بقوله: «وجمّله (أي تقي الدين) بصحبة سيّدنا الأجل الفاضل المتفرّد بأجلّ الفضائل، حتى إذا وصل تقي الدين إلى مصر اقتدى بالتدبير الفاضلي واهتدى بِسنا رأيه الجليل الجليّ. وكان السلطان لا يؤثِر مفارقته، ولا يحضره أُنس إذا فارقَ حضرتهَ، ويستوحش إذا حذِر غيبتَه، فقد أَلِف صحبة السعادة بمساعدته في صحبته، ومعاقدته على صحّة مناصحته، ولم يزل يستأذنه ولا يأذن، ويسأله التمكينَ من السَّفر ولا يتمكن، ويخاف على تشعّث أحوال مملكته ولا يأمَن، وهو برأيه يرى، وبِوَرْيِهِ يرى، وبِبَرْيِهِ وَفَرْيِهِ يَبْرِي ويَفْري. فلمّا لم يجد من توجيه تقي الدين إلى مصر بدّا، وأنه يكون بالأعمال مستبدا، وكانت في تقي الدين حدّة لم تكن في العادل، احتاج في تقويمه إلى تدبير الأجل الفاضل، فأذن له في السّفر بشرط الإسراع في العودة، والمبادرة إلى الإجابة عند تحقيق الدعوة، فسارا سارَّيْن وبمن في صحبتهما بارَّيْن.»[٥]

ذهب عماد الدين لتوديع القاضي الفاضل إلى مصر، وعاد من وداعه حزينا مهموما، لأنه تعوّد صحبته وتعلّق به في أثناء عملهما، في مرحلة صعبة من مراحل صراع صلاح الدين وحروبه في الجزيرة.

وقد علّق عماد الدين على شعوره بعد وداع القاضي الفاضل بقوله: «رجع المملوك من الوداع وداعي الأسى يحفزه، وعادي الأسف يزعجه، فعدم الشمس التي تفيض عليه، والظلّ الذي يفيء إليه، لا مجيب لاستدعائه، ولا مجير لاستعدائه، ولا مقيل لعثراته، ولا متفقد لفقده، ولا موثق لعقده، ولا مروّج لرجائه، ولا مورّج لأرجائه... يا ليت المولى (القاضي الفاضل) قبله صاحبا لركابه وراكبا في ركبه ناشئا في صحبه.»[٦]

لكن لم يكد القاضي الفاضل يرتاح من رحلاته حتى استدعاه صلاح الدين مع تقي الدين عمر، فعاد إلى الشام أوائل سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، لأنه كان ينوي محاصرة الكرك ثانية. وقد التقت القوّات المصرية، بقيادة تقي الدين والقاضي الفاضل، قوات صلاح الدين في الكرك في جمادى الأولى ٥٨٠هـ / أيلول (سبتمبر) ١١٨٤م، فحاصر (صلاح الدين) القلعة مدة قصيرة ثم تخلّى عنها بعد أن رأى تجمّع الفرنج من شتى جهات المملكة لمؤازرتها. وحوّل حركته العسكرية إلى فلسطين فهجمت عساكره على نابلس

(٥) الأصفهاني، «البرق»، ج ٥، ص ١٥٦.
(٦) الأصفهاني، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

ونهبتها ثم عاد إلى دمشق.(٧)

وقد وصف القاضي الفاضل حصار الكرك بقوله: «عذاب الله بالحصن وأهله واقع ما له من دافع وإن دليل النصر قد ظهر وما دونه من مانع، وأمّا المنجنيقات فقد نكأت في الأبراج بالهدم وفي الأعلاج بالهتك.»(٨)

وبقوله: «فلم يبقَ إلّا طمّ الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق والقلوب بحصول الفتح. وقد علم كل منّا أن متجره قد فاز بالربح فما يُسمع منا بحمد الله من أحد ملل ولا ضجر، ولا تسفر هذه النوبة إن شاء الله تعالى إلّا عن نصر وظفر.»(٩) ولقد كانت هذه الحركة استكشافية لجسّ نبض الفرنج ومدى استعدادهم وقدرتهم على المقاومة، ومقدمة لمعركة حطّين.

حالما تعافى صلاح الدين من مرضه في حرّان ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، توجّه إلى دمشق حيث قابله القاضي الفاضل لتهنئته بالسلامة؛ فانفرد الاثنان وتحدّثا حديثا طويلا استعادا فيه ذكريات عشرة أعوام أمضياها في كفاح مستمر ضد كثير من القوى الفرنجية والإسلامية؛ في حركة مستمرّة من مصر إلى الأردن إلى فلسطين إلى الشام فالجزيرة فالموصل. ولكنّهما أبديا ارتياحهما إلى النتيجة النهائية التي تُوجّت بصلح الموصل.

طال الحديث بينهما ففتح الوزير قلبه لسلطانه وأخبره عن سوء الأحوال المالية والاقتصادية في مصر، ونبّهه إلى ضرورة التخطيط لحركته المستقبلية، ولا سيّما أنه تبيّن أن أسس نظامه الإداري القائم على تقسيم الولايات التي أمضى في توحيدها عشرة أعوام، بين أبنائه وأقاربه، واهية. وشدّد على ضرورة القيام بالجهاد ضد المملكة الذي خطّط له منذ انضمامه لخدمة صلاح الدين، في حياة صلاح الدين. وقد ارتاح صلاح الدين إلى الحديث الطويل مع القاضي الفاضل، وبثّه من آماله وآلامه ما لم يكن يبثه سواه، ثم اتكأ قليلا وهو يئن من ألم ألمَّ به، ولكن سرعان ما عادت بشاشته إليه، متظاهرا بالعافية، فأمسك القاضي الفاضل يده، وعيناه دامعتان، تألما لهذا الرجل العظيم الذي لم يشكُ علّة خلال الثمانية عشر عاما التي عمل معه خلالها. ومسح دمعه وشدّ بيده على يد صلاح الدين وقال له: يا مولاي! «لقد أيقظك الله وما يعينك من هذا السوء سواه، فانذر أنك إذا أبللتَ من هذا المرض، تقوم بكل ما لله من المفترض، وأنك لا تقاتل من المسلمين أحدا أبدا، وتكون في جهادك أعداء الله مجتهدا وأنك إذا نصرك الله في المعترك، وظفرت بالقومص (كونت طرابلس، ريموند الثالث) وابرنس الكرك،

---

(٧) أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, pp. 251.
(٨) المصدر نفسه، ص ٢٥٢.
(٩) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(ارناط) تتقرّب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتمّ وجود النصر إلّا بعدمهما، فأعطاه يده على هذا النذر»، «ونجّاه الله ببركة هذا العذر من الذعر، وخلّصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبلّ من مرضه، واستقل بنهضته، واستقبل السنة القابلة بسُنّة الغزو وفريضته.» لمّا عزم صلاح الدين، بعد هذا اللقاء بأشهر، على بداية الغَزاة التي تمّ فيها نصر حطّين، اجتمع إلى القاضي الفاضل في دمشق، فذكّره بحديثهما السابق وقال له (القاضي الفاضل): «ليكن نذرك على ذكرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شكرك، ولا تُخْطِر غيرَ قمعِ أهلِ الكُفْرِ بفكرك فما أنقذك الله من تلك الورطة (أي مرضه)، وأنعشك من تلك السقطة إلّا ليوفّر حظك من هذه الغِبطة.»(١٠)

ثالثا: فتح حطين
(٥٨٣هـ / ١١٨٧ ـ ١١٨٨م)

التخطيط

بدأ صلاح الدين جهاده ضد المملكة اللاتينية في منتصف محرّم ٥٨٣هـ / آذار (مارس) ١١٨٧م، فتوجّه حتى الكرك، كي يجتمع بالعساكر المصرية التي كان قد استدعاها. واستدعى في الوقت ذاته عساكر الشام والجزيرة والموصل، مطالبا إياهم بالغارة على المناطق الفرنجية الواقعة في طريقهم، في حين ظلّ هو في منطقة الكرك حتى وصل الحُجّاج فأمّن وصولهم إلى الشام، خوفا من غدر حاكم الكرك. ومن ضمن الحركة هذه اشتبك عسكر حلب مع الفرنج قرب أنطاكية، في حين توجّه تقي الدين إلى حلب ليخوّف فرنج الشمال ويؤمّن شمالي الشام. وفي ١٧ ربيع أول ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، عاد صلاح الدين من الكرك إلى عشترا حيث التقى عساكره كاملة بقيادة ابنه الأفضل. وطالب تقي الدين بعقد صلح مع فرنج الشام ليتمكّن من الجهاد بجميع قواته في المملكة اللاتينية؛ فقاد تقي الدين العساكر الشرقية: عسكر الموصل وعلى رأسهم (مسعود بن الزعفراني)، وعسكر ماردين، حتى وصلوا إلى عشترا فاستقبلهم صلاح الدين.(١١)

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٩؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(١١) لتفصيلات الإعداد لمعركة حطّين، ونتائجها: ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٥ ـ ٢٠٠؛ ابن الأثير، «الكامل»، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٤٣ ـ ١٤٩؛ ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤ ـ ٧٩؛ عماد الدين الأصفهاني، «الفتح القسّي في الفتح القدسيّ»، تحقيق محمد محمود صبح (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥)، ص ٥٨ ـ ٨٧.

تجمّعت عساكر صلاح الدين في منتصف ربيع الثاني ٥٨٣هـ / حزيران (يونيو) ١١٨٧م في منطقة عشترا، فرتّبها وتوجّه إلى المملكة اللاتينية يوم الجمعة. وكان دائما يقصد أن يقوم بحركته أيام الجمعة، وقت الصلاة (صلاة يوم الجمعة)، تبرّكا بدعاء الخطباء على المنابر. «فربما كانت أقرب للإجابة.» وعلم صلاح الدين أن الفرنج تجمّعوا في صفورية متصدّين له، فقصدهم ونزل على طبريا عند قرية تسمى الصِنَّبرة، ثم عاد ونزل غربي طبريا على سطح الجبل إعدادا للحرب منتظرا قصد الفرنج إليه، فلم يفعلوا. فنزل (صلاح الدين) عندئذ على طبريا تاركا الأطلاب في مواجهة الفرنج، ثم نازل طبريا، وهاجمها، واحتلّها باستثناء قلعتها. فتوجّه الفرنج عندئذٍ إلى طبريا للدفاع عنها، فأعلمت الطلائع صلاح الدين بذلك؛ فترك العسكر لحراستها، ومراقبة قلعتها، واقترب هو من الفرنج على سطح طبريا الغربي. وعندما دخل الليل باتت الجهات على استعداد للاشتباك، وفي صباح الجمعة تعارك العسكران في قرية لوبيا، في معركة دامت حتى الليل، فافترقا: «وجرى في ذلك اليوم العديد من الوقائع العظيمة والأمور الجسيمة.» وبات الفريقان مُتْعَبَيْن حتى يوم السبت، وكانا يعرفان أنّه اليوم الحاسم، «لأن المسلمين تحقّقوا أنهم محاصرون فمن ورائهم الأردن، وأمامهم المملكة اللاتينية. ولا يُنجيهم إلّا الله. وكأن الله قد قدر نصر المسلمين فيسّره وأجراه على وَفْق ما قدّره.» وعندما التقى الفريقان «حملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب كما حمل القلب، وصاحوا صيحة الرجل الواحد فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين وكان حقّا علينا نصرُ المؤمنين.»[١٢]

لمّا رأى ريموند الثالث حاكم طرابلس أمارات الهزيمة، هرب وتوجّه إلى صور، فلحقه بعض المسلمين، لكنّه نجا «وأمِن الإسلام كيده».[١٣] فأحاط المسلمون بالفرنج ونكّلوا بهم، واعتصمت طائفة بتل حطّين فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، فمات بعضهم عطشا، وراح الباقون يستسلمون من دون أية مقاومة؛ وهكذا انتهت المعركة بسرعة.

وصف ابن الأثير نصر حطّين وهزيمة الفرنج قائلا أنه في يوم السبت (يوم النصر) ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ / تموز (يوليو) ١١٨٧م، تقابل المسلمون والفرنج، وأن العطش قد اشتد بالفرنج، فرمى جاليشية المسلمين نشابا كثيرة «كالجراد المنتشر» فقتلوا خيول الفرنج، أمّا الرجّالة الفرنج فساروا في اتجاه طبريا وهم يقاتلون ليصلوا إلى الماء،

---

(١٢) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥ ـ ٧٧؛ أبو شامة «Recueil,» Vol. IV, pp. 282-283.

(١٣) أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, pp. 283-284.

فصدّهم صلاح الدين، وراح يحمّس المسلمين على القتال، فحملوا حملة كبيرة على الفرنج، عندها هرب (القومص). ولمّا هرب القومص انخذل الفرنج، لكنهم عادوا فحملوا عدّة حملات على المسلمين كادوا يزيحونهم عن مواقعهم؛ أحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، فتسلّق من بقي من الفرنج بناحية حطّين، وبدأوا بنصب خيامهم، فقاتلهم المسلمون من جميع الجهات، ليحولوا بينهم وبين ذلك. لكن الملك ظلّ مع نحو مئة وخمسين فارسا على التل. ولقد روى الملك الأفضل بن صلاح الدين عن المعركة قوله: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، لمّا وصل الملك إلى التل حمل ومَنْ معه حملة منكرة على المسلمين المقاربين لهم، حتى ألحقوهم بوالدي. قال: فنظرت إليه وقد بدت عليه كآبة واربدّ لونه وأمسك بلحيته وتقدّم وهو يصيح: كذب الشيطان.. قال (الأفضل): فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا وصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمين يتبعونهم صحتُ من فرحي، هزمناهم! فعاد الفرنج، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أوّلا، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضا هزمناهم! فالتفت والدي إليّ وقال: أسكت! ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي وإذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى، فبكى من فرحه.(١٤)

بدت هزيمة الفرنج واضحة عندما نزلوا عن دوابّهم وجلسوا على الأرض؛ فصعد المسلمون نحوهم وألقوا خيمة المَلِك، وأسروهم بأسرهم، وبينهم الملك، وأرناط وغيرهم مع عدد كبير من فرسان الداوية والإسبتارية.(١٥)

جلس السلطان في دهليز خيمته التي لم يكن قد تم نصبها، والناس يروحون ويجيئون، كل منهم يقود عددا من أسرى الفرنج، وهو سعيد يحمد الله على ما أولاه من نصر لم يُولِه غيره من حكام المسلمين. وحالما تمّ نصب الخيمة، جلس في صدرها، ثم طلب إحضار الملك غي وأخيه جفري وأرناط فأُحضروا، فناول الملكَ شراب ماء الورد المثلّج، وكان هذا يلهث من عطشه، فشربه، ثم ناول الكأس إلى أرناط وكان أيضا يلهث من العطش، فغضب صلاح الدين وقال للمترجم: «قل للملك أنت الذي تسقيه! وإلاّ أنا ما سقيته! وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء لِمَن أسره أمِنَ، فقصد بذلك، الجري على مكارم الأخلاق.»(١٦)

---

(١٤) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٧٨.

بعد هذه المقابلة، ولعلّها الأولى بين صلاح الدين والملك غي وبعض القادة الفرنج، دعاهم إلى موضع مخصّص لنزولهم، فأكلوا ثم استدعاهم ثانية وكان وحده مع بعض الخدم، وأقعد الملك في الدهليز وأحضر أرناط، وعرض عليه الإسلام، فرفض. عندئذٍ سلّ صلاح الدين النمجاة (خنجر مقوّس يشبه السيف القصير) وضربه بها فحلّ كتفه، وطلب من الموجودين قتله ففعلوا، ورموه خارج الخيمة.

ولمّا رأى الملك ما حدث لأرناط خاف على نفسه فطمأنه صلاح الدين قائلا: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأمّا هذا فإنه تجاوز حدّه، فجرى ما جرى. «وبات الناس في تلك الليلة على أتمّ سرور، وأكملِ حبور، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له، والتكبير والتهليل حتى طلع الصُّبح يوم الأحد.» (الخامس والعشرون من ربيع الثاني ٥٨٣هـ / تموز (يوليو) ١١٨٧م). وفي يوم الاثنين أمر بقتل بعض الداوية والإسبتارية، وأرسل الملك وأخاه جفري وهمفري وصاحب جبيل ومقدّم الداوية والأسرى من رجالات الفرنج إلى دمشق.[١٧]

رابعا: صدى الفتح

بعد هذا النصر الساحق الذي فتح الأبواب إلى باقي فلسطين، جلس صلاح الدين وحوله كبار رجال دولته باستثناء القاضي الفاضل، وبين يديه عماد الدين كاتبه وغيره من الكتّاب مثل عبد الله بن أحمد المقدسي، والشعراء، والفقهاء، والمتصوّفة، يتحدثون عن هذا النصر العظيم ويتندّرون بما سمعوا وما شاهدوا متشفّين بما حلّ بالفرنج؛ فروى أحدهم قصّة عائلات بأسرها باعها بمناداة واحدة، كما روى آخر أنه بيع بحضوره رجل وزوجته وخمسة أبناء: ثلاثة بنين وبنتان بثمانين دينارا. وروى غيره أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير وكان بحاجة إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك، فقال: أردت أن يذكر ذلك، ويقال: «بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد.»[١٨] وأنه قابل بحوران شخصا واحدا ومعه طنب خيمة فيه ما يزيد على الثلاثين أسيرا يجرُّهم وحده لخذلان وقع عليهم. فيتضاحكون، لا شماتة بما حلّ بهؤلاء فحسب، فقد كان هذا حكم قانون الحرب والسلم في العصور المتوسطة، بل أيضا نشوة بالنصر السريع الجارف.

---

(١٧) للتفصيلات: ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٧٨ ـ ١٧٩؛ الأصفهاني، «الفتح»، ص ٨٦ ـ ٨٧.
(١٨) أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, pp. 286-289 .

ووقف عماد الدين الأصفهاني منشدا، مشيرا إلى مقتل أرناط الذي شاهده، بقوله:

يا يومَ حطّينَ والأبطالُ عابسةٌ	وبالعَجاجةِ وجهُ الشمسِ قد عَبَسا
رأيتُ فيه عظيمَ الكُفرِ محتقَرا	معفَّراً خدُّه والأنفُ قد تَعَسا
يا طُهرَ سيفٍ بَرى رأسَ البَرْنسِ فقد	أصابَ أعظمَ مَنْ بالشِّركِ قد نَجِسا
وغاص إذ طارَ ذاكَ الرأسُ في دمِهِ	كأنّه ضفدعٌ في الماءِ قد غَطَسا
ما زال يعطسُ مزكوماً بغدرتِهِ	والقتلُ تشميتُ مَنْ بالغدرِ قد عَطَسا[١٩]

وعلّق عبد المنعم الجلياني على ما حلّ بالقيادة الفرنجية قائلا:

ألم ترَ للسلطانِ صدَّقَ نذْرَهُ	دمُ الغادرِ (الأبرنسِ) فاقتيدَ أربدا
وضاقت بنفس (القُمصِ) بالأرض مهرباً	فأدركه الموت المفاجىء مُكْمَدا
وقد أقطع (الكندُ) العراقَ مُوقَّعاً	فأودع سجناً وَسْطَ جلّقَ مؤصدا
أتى الكندُ من إسبانَ يحمي قُمامةً	فكانَ تقضّي مُلْكِهِ قبلَ أنْ يُبتدى[٢٠]

وهو أول مَنْ أشار إلى العلاقة بين إسبانيا المسيحية والقدس. وفي مصير الفرنج يقول:

أتَوْا كحبالٍ أُبرِمتْ لإسارِنا	فسُقْناهُمُ فيها قطيناً مُجَدَّدا
عليهم من البلوى سُرادِقُ ذِلّةٍ	ومَن ذَلَّ ذُلَّتْ نفسُه فتقيَّدا
ترى المِنسَرَ الداويَّ يُلقي سلاحَهُ	وينساقُ ما بينَ السبايا مُلَهَّدا
يُباعون أسراباً شرائحَ أحْبُلٍ	كشلّةِ عُصفورٍ منَ الريشِ جُرِّدا[٢١]

وقد وقف غيرهما من الشعراء يمدحون صلاح الدين بقصائد عديدة عبّرت عن ضمائر المسلمين آنذاك.

وذاعت قصص الفتح في أرجاء العالم الإسلامي، وأصبح بعض سامعيها يربطونها بمعجزات سمعوا عنها، أو بأحلام حُدِّثوا عنها، وما أكثر المعجزات والأحلام في وقت كهذا. ومن جملة المعجزات التنبّئية بهذا الفتح، ما رواه ابن أبي طيّ عن مرضعة له في حلب كانت على معرفة بأخت السلطان صلاح الدين قالت: إن والدة صلاح الدين كانت تخبر أنها أُتيت في نومها وهي حامل بالسلطان صلاح الدين فقيل لها: إن في بطنك

---

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

(٢٠) عبد الجليل حسن عبد المهدي، «ديوان المبشّرات والقدسيّات» (عمّان: دار البشير، ١٩٨٩)، ص ٨١.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٨٢.

سيفا من سيوف الله تعالى.[٢٢] وتحاول هذه القصة أن تقارن معجزات ولادة صلاح الدين ببعض معجزات ولادة الرسول عليه السلام التي يتداولها عامّة الناس.

ومن الأحلام التنبّئية بانتصار صلاح الدين أيضا، ما رواه ابن أبي طيّ عن والده عن أحد التجار قال: كنت في الموصل سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، فزرت الشيخ عمر المُلّا فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم كأنّي بأرض غريبة لا أعرفها وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأنّ رجلا في يده سيف يقتل الخنازير والناس ينظرون إليه، فقلت للرجل: هذا عيسى ابن مريم! هذا المهدي؟ قال: لا، فقلت: من هذا؟ قال: هذا يوسف ما زادني على ذلك. قال: فتعجّب الجماعة من هذه الرؤيا وقالوا أنه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف. وحدست الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب. وكان المستنجد بالله قد وَلِيَ الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجماعة عليه. قال: وأُنسيت أنا هذه الواقعة، فلمّا كانت سنة كسرة حطين ذكرتها فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله!![٢٣]

ومهما يكن من أمر هذه الأحلام والمعجزات، فإنها تعكس الناحية المكبوتة اللاواعية في صدور بعض المسلمين الذين وعوا المأساة الفلسطينية الإنسانية والدينية، وتوارثوها حتى حدث ما كانوا يتمنّون فعبرّوا عنها بشتى الطرق التي راقت لهم، ووجدوا مَنْ يروِّجها في الوقت الملائم ومن يصدّقها، ومن ثَمَّ أوجدت بذور صورة للبطل صلاح الدين نمت في الوجدان الشعبي عامة على مرّ السنين.

خامسا: من حطّين إلى دمشق

القاضي الفاضل والفتوحات

كان القاضي الفاضل خلال نصر حطّين في دمشق، للإبلال من الأمراض المتراكمة عليه، ولمراقبة ما يجري فيها، لأنها أصبحت مركز تجمّع قادة المملكة اللاتينية الأسرى، ومن بينهم الملك غي، كما أسلفنا.

ويذكر أبو شامة أن قادة المملكة اللاتينية اقتيدوا إلى دمشق يتقدّمهم ابن القاضي شرف الدين بن عصرون، يحمل صليب الصلبوت معلّقا على قنطاريته منكّسا، فأوصلوهم إلى الصفي بن القايض، نائب صلاح الدين بالحكم في دمشق وطلب منه أن يقتل كل من يرفض الإسلام من الداوية والإسبتارية، ففعل «وامتنع معظمهم باستثناء مجموعة

(٢٢) أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, pp. 292-293.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

صغيرة أسلموا وحَسُن إسلامهم.»[٢٤]

ولـم يتوقف الأسر والقتل على الأكابر من الفرنج، بل تعدّاه إلى العامة منهم. كما يشير أبو شامة بقوله: «وكل يوم يُرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، هذا بالإضافة إلى الحيوانات من بقر وغنم وخيل وبغال، التي لم نجد من يشتريها لكثرتها وكثرة السبي والغنائم.»[٢٥]

كان القاضي الفاضل يشاهد هذه الأفواج ويشاهد الغنائم فيحاول أن يَعُدّ هؤلاء ويُحصي الآخرين ويتأكّد، كعادته، أن كل شيء مَحصيّ ومُسجَّل. وكان ينظر إلى القادة الموثقين والأسرى ويتذكّر مصير أهله وجدّه، ومصير أهل عسقلان، ومصير أهل مصر فيذرف الدمع فرحا لنصرٍ عَمِلَ على تحقيقه، وشكرا لله إذ حقّق له أحلامه وأمانيه في حياته.

ولـمّا قرأ رسائل صلاح الدين المعلِنة نصره، وكانت تصل إليه مترادفة، ذرف الدمع ساخنا فَرَحا، وأسي لأنه لم يحضر هذا النصر الكبير، وراح يكتب إليه مهنئا ومشجّعا ومعاضدا. ففي أولى (تهانيه) بهذا النصر يقول: «ليهنّ المولى أنّ الله قد أقام به الدين القيّم، وأنهّ كما قيل أصبحت مولاّي ومولى كل مسلم، وأنهّ قد أسبغ عليه النعمتين الباطنة والظاهرة، وأورثه المُلْكَيْنْ ملكَ الدنيا وملكَ الآخرة. كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم تُرفع من سجودها، والدموع لم تُمسح من خدودها، وكلّما فكّر الخادم أنّ البِيَع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه إن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه إنهّ الواحد، جدّد لله شكرا تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جفنه، وجزاء يوسف خيرا عن إخراجه من سجنه، والمماليك ينتظرون أمر المولى فكل من أراد أن يدخل الحمّام بدمشق قد عوّل على دخول حمّام طبرية: تلك المكارم لا قعبان من لبن، وذلك الفتح لا عُمان ولا اليمن، وذلك السيف لا سيف ابن ذي يزن، وللألسنةِ بعدُ في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل.»[٢٦]

كما أدلى بدلوه في التعليق على الأسرى الفرنج ومدى هزيمة الفرنج: «ولو رأيت أطناب الخِيَم في أعناق الأساري يُساقون بها مُقَرَّبين، لحمدت الذي سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنين. وبلادهم قد ألقت ما فيها وتخلّت، وأذِنت لربّها وحُقّت، وشاب بخضاب العجاج ما أرسَلَته رايات الأبرجة من ذوائب مَفْرِقها، وأسلمت وجهها لله وقطعت نار

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٨؛ أيضا: ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٩٧؛ الأصفهاني، «الفتح»، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢٥) أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, p. 288.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

خندقها.»[٢٧]

(أ) عكا

لم تطل إقامة القاضي الفاضل في دمشق بعد هذا الفتح، فقد أراد أن يكون له ضِلع في فتوحات أخرى، ومن ثَم فبعد أن أشرف على أمور الأسرى الكبار، سار من دمشق قاصدا صلاح الدين الذي كان قد غادر طبريا إلى عكّا، أقرب مدينة كبيرة إليها ومركز حكم الإفرنج، فسار عن طريق الجولان إلى طبريا ليشاهد أوّلا آثار نصر صلاح الدين فيها، ثم تابع السفر إلى عكّا حيث سبقه صلاح الدين بجيوشه وأعوانه. وقد نزل صلاح الدين على عكا والقاضي الفاضل في طريقه إليها آخر أربعاء من شهر ربيع الثاني ٥٨٣هـ/آب (أغسطس) ١١٨٧م، وحاصرها يوم الخميس أوّل جمادى الأولى فأخذها سلما لا عَنْوة.»[٢٨]

يذكر ابن واصل أن صلاح الدين خيّم قرب عكا وراء التل وفي صباح اليوم التالي، الخميس، بداية جمادى الأولى راح يخطّط للزحف عليها، وبينما هو يبحث عن مكان ملائم للقتال خرج أهل عكا متضرّعين طالبين الأمان، فأمّنهم على أموالهم وأنفسهم، وخيّرهم بين الإقامة والرحيل، فاختاروا الرحيل حاملين معهم ما تمكّنوا من حمله، تاركين الباقي لمن يدخلها.[٢٩]

كانت عكا من أغنى المدن الفرنجية وأكبر موانئها، وَصفَها الرحالة ابن جبير سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م، أي قبل فتحها بخمسة أعوام، بقوله: «إنها قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحطّ الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبّهة في عظمها بالقسطنطينية. مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، مسالكها وشوارعها تغصّ بالزّحام وتضيق فيها مواطىء الأقدام.... زفرة قذرة، مملوءة كلها رجسا وعذرة، انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة الخامسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه، فعادت مساجدها كنائس، وصوامعها مضارب للنواقيس.»[٣٠]

---

(٢٧) القاضي الفاضل، «عيون الرسائل الفاضلية» مخطوط في:
British Museum, ADD. 25, 756, p. 96.

(٢٨) أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, p. 293.

(٢٩) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠١.

(٣٠) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، «رحلة ابن جبير» (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١)، ص ٢٤٩.

ووصف سكان ضواحي عكا وقراها تحت الحكم الفرنجي بأن معظمهم من المسلمين؛ فقد استضافه في أثناء زيارته لها ناظر إحدى القرى، وكان معينًا من قبل الفرنج، وكل من معه في القافلة من المغاربة والمسلمين وأكرمهم بوليمة كبيرة. كما وصف ابن جبير الخان المُعدّ لنزول القافلة، وذكر أن أمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتّاب الديوان من النصارى بمحابر الآبنوس المذهبة الحلى، يكتبون باللغة العربية ويتكلمونها، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يُعرف بالصاحب.[٣١]

كانت عكا، إذاً، مدينة عامرة بالفرنج وبالمستعمرين من الولايات الإيطالية البحرية مثل البندقية وبيزا وجنوة، وكان لكل من هذه المدن حارة في المدينة، فيها سكّانها بكل ما يحتاجون إليه من مؤسسات تربطهم بالولاية الأم بدل المملكة اللاتينية. وكانت عكا جسرا تجاريا لهم بين الشرق والغرب.

لم تطل إقامة صلاح الدين خارج عكا، إذ سرعان ما استجاب لدعوة أهلها بالتسليم، ودخل المدينة يوم الجمعة الثاني من جمادى الأولى، واستولى مع عسكره على ما فيها من أموال وذخائر، كما أنقذوا من فيها من الأسرى المسلمين، وكانوا نحو أربعة آلاف نفس.[٣٢]

أمّا الأسرى الذين استنقذهم صلاح الدين فقد كان ابن جبير قد شاهدهم عندما نزل بعكّا سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢ ـ ١١٨٣م، وتحدّث عنهم بأسى للذل الذي كانوا يعيشون فيه؛ رآهم وهم «يرسفون في القيود ويُصرَّفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في سيقانهنّ خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئا.»[٣٣]

وصل القاضي الفاضل إلى عكا وصلاح الدين مشرف على أخذها، فدخلها معه، وجازاه صلاح الدين على جميع خدماته السابقة ومواقفه بأن سلّمه جامعها ليعيده إسلاميا ثانية، ففعل ورتّب المنبر والقِبلة، وأقيمت فيه صلاة الجمعة، وهي أول جمعة أقيمت في الساحل. ويعلق عماد الدين بأنّ بحضور الفاضل «تبسّم المسجد بميامنه للإسلام بعد الإظلام.» وأمّا الجامع الذي تشير إليه المصادر وتربط تحريره بالقاضي الفاضل، فكان الفرنج قد حوّلوه إلى كنيسة، ولكنّهم تركوا جزءا صغيرا منه للمسلمين، يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة الصلاة. ووصفه ابن جبير بأنه يجتمع فيه «المسلم والكافر يستقبل هذا مصلّاه، وهذا مصلّاه، وهو بأيدي النصارى معظمه محفوظ، وأبقى الله فيه موضع

---

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

(٣٢) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠١؛ ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٧٩.

(٣٣) ابن جبير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

الصلاة للمسلمين.»[٣٤]

فُتحت بعد عكا الناصرة وقيسارية وحيفا، وأرسوف وصفورية ونابلس، التي كان معظم أهلها من المسلمين. وكانوا قد أخافوا الفرنج قبل وصول القوات الإسلامية إليها، فهرب هؤلاء منها وضواحيها. وتلا هذه المدن فتح الغور حتى جنوب لبنان، حيث فُتحت صيدا وتبنين وبيروت (حاصرها ١٢ جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١١٨٧ ـ ١١٨٨م، وأخذها يوم الخميس ٢٩ جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١١٨٧ ـ ١١٨٨م)، وجبيل.[٣٥]

(ب) عسقلان

عاد صلاح الدين، بعد بيروت وجبيل، إلى ساحل فلسطين فنزل على عسقلان يوم الأحد السادس عشر من جمادى الثانية ومعه أخوه العادل الذي وصل إليها من مصر، فحاصرها مدّة من دون أن يأخذها، وكان صلاح الدين قد عرض على ملك الإفرنج ومقدِّم الداوية أنه يطلقهما من الأسر إذا ساعداه في استعادة البلاد، فلمّا حاصر صلاح الدين عسقلان طالب الملكُ الذي رافقه في أثناء الحصار حاميتها بالتسليم فخرج المقدَّمون وتشاوروا ثم اتفقوا على تسليم عسقلان على أن يغادروها بأموالهم سالمين، فوافق ذلك يوم السبت نهاية جمادى الثانية ٥٨٣هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧م، أي بعد أربعة وثلاثين عاما من احتلالها. وتسلّم صلاح الدين بعد عسقلان حصون الداوية: غزّة والنطرون وبيت جبريل، وكان قد اصطحب معه مقدّم الداوية ليفاوض في تسليمها، على أن يطلقه، ففعل.[٣٦]

(ج) القدس*

توجّه صلاح الدين بعد عسقلان إلى القدس ففتحها. ومع أن الفقهاء والشعراء وقادة المسلمين حضروا في معظمهم هذا الفتح الكبير، إلا إن القاضي الفاضل لم يحضره، لأنه كان ينوب عن صلاح الدين في دمشق، ويتعافى من مرض جديد ألمّ به. وقد كتب عن فتح القدس رسالة طويلة يقول من جملة ما يقوله فيها: «واستردّ المسلمون

---

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

(٣٥) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٩٣ ـ ١١١؛ ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠ ـ ٨١.

(٣٦) الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ١١٢ ـ ١١٣، ١١٦ ـ ١١٧.

* بحثنا فتح القدس مفصّلا في: Dajani-Shakeel, «Some Medieval Accounts of Salah al-Din's Recovery of Jerusalem (*Al-Quds*),» in *Studia Palaestina, Studies in Honour of Constantine K. Zurayk*, ed. Hisham Nashabé (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1988), pp. 83-113.

تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بما لم يصدّقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأي طارقا؛ واستقرّت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قُبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة (قلُوبهم) كما تُشفى بالماء غُلَلُهم.»[٣٧] كما سجّل عددا من الفصول احتفالا بفتح القدس، ربما كان الهدف منها تسجيلَها على جدران المسجد الأقصى، لتحلّ محلّ كتابات الفرنج. وقد ذكر فيها:

١ ـ «فتح الله هذا المسجد الأقصى الذي سمع من ألقى السمع قولَه إنه بارك حوله على الإسلام في الليلة التي فتح باب السماء المُسرى بنبيّه صلوات الله عليه في مثلها، ودلّ بفتحها على شرف وفادته وعلى كرمه... وردّ (الله) على الإسلام مصعد نبيّه ومهبطه وأعزّ المسلمين، فرفعوا إليه من همة التوحيد ما أرضاه، بعد أن أمره المشركون من كلمة الكفر ما أسخطه، وذلك بمباشرة سيف نصره وممتثل أمره يوسف بن أيّوب فرفع المسلمون وقد ظنّوا أنهم إليها يرجعون ودخلوها بسلام ولم يدخلوها وهم يطمعون.»[٣٨]

٢ ـ «قد جعل الله عمارة مساجده أمارة الإيمان، ودالّة على الرضوان، فكيف بفتح مسجد تشد إليه الرحال، يُرَدّ على يد الهدى بعد ما سلبته يد الضلال، وبعمارة محرابه بالقرآن واستنطاق منارته بالأذان بعد أن ضُربت فيه النواقيس وصليب الصلبان. وهذا ما أفاء الله على الإسلام بجهاد قائمه وقوامه، وسيد أهله وإمامه، مولانا أبي العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين الذي نصبه الله إماما يُهتدى بأمره وأيّده بالمؤمنين وبنصره. وألّف بين قلوبهم على ولائه، والجهاد تحت رايته وبرأيه، وولّى من قِبله مباشرة ذلك ناشر لوائه... يوسف بن أيوب بائعا نفسه لمن اشتراها وبائعا بها إمام هُداها.»[٣٩]

٣ ـ «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون أنجز الله وعده لإمام خلقه وقائم حقّه وسيّد عترة رسوله (صلعم) الطاهرة، ثمرة شجرته الطيّبة أبي العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وأعاد عليه مدامه وأصار إليه ميراثه من البيت المقدّس على رغم أنفه... فالحمد لله الغالب الذي لا يُغلب، الناصر لناصر حقّه الذي لا يُسلب، ومُولي هذا الفتح وليّه يوسف بن أيوب الخالص له ولاؤه، بما أنزله الله من النصر الذي استنزل دعاة أمير المؤمنين دعاؤه.»[٤٠]

---

(٣٧) رسالة القاضي الفاضل عن صلاح الدين إلى الخليفة الناصر لدين الله بفتح القدس في: ابن خلّكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ١٨٠. وصفها ابن خلكان بقوله: إنّها بديعة بليغة في بابها.

(٣٨) القاضي الفاضل؛ «مراسلات»، ص ١١٨.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١١٩.

٤ ـ «كان (الرسول) قد فتح هذا البيت الشريف، والمشهد العظيم، والمسجد القديم، والصخرة المقدّسة، والآثار البادية، والأنوار المقتبسة سلف هذه الأمة الموصوف بما وصفه الله به في كتابه. ثم جرى قَدَره بتعطيل منبره ومحرابه، إلى أن أفاء الله على مولانا أبي العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وسيّد ذي القربى من سيّد المرسلين، وردّه على الإسلام في عصره وقوتِل الكفار عليه بأمره، وكان أمير المؤمنين نِعْمَ سفير المسلمين إلى ربه في استنزال نصره، وجرى ذلك بمباشرة عبده يوسف بن أيوب الذي امتثل فيها ما مثله إمامه وظللته في هواجر الحرب أعلامه.»[41]

٥ ـ «وما النصر إلا من عند الله الناصر لناصر دينه، بما مكّن في الأرض فأدام الله تمكين دين بتمكينه، فقد كان نحت الناصر في ردّ القدس أمضى فيه من سيف نحت ناصر، وأعزّ الحق بما رفعه في السماء من الدعوات وبما سرّ به في الأرض من العساكر وكان الكفر قد حلّ بهذا البلد فملكه فاستهلكه فأغلقه... وضاعت مفاتيحه من الإسلام فلم يجدها إلّا في زمان أمير المؤمنين فإذا هي السيوف، وما كاد يضرب في قناته للحرب المصاف حتى ضُربت في مسجده للصلاة الصفوف، فاسترجع أمير المؤمنين الصخرة التي هي فص خاتم الإسلام، كما استرجع سليمانها قِدَمًا خاتِمَه، وكان وكيل الإسلام في استرجاع خاتمه صارِمَه، وذلك على يد عبده يوسف بن أيوب الذي جاهد الكفار والمنافقين وفتح من مصر والشام داري الكافرين والفاسقين، وأقر الاسم العباسي من ذرى المنبر في وكره ما أمر الله به أن يُرفع من بيته وذكره.»[42]

٦ ـ «ومن أحْسَنُ عملًا ممّنْ برّ أمّ الكتاب، فردّها إلى وطنها من محرابها، ألا لعنة الله على الظالمين، ومن أَظْلَمُ ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها وما تبقاه إلّا الذين صبروا ولا يولّاها إلّا الذين شكروا وذلك الفضل من الله الذي آتاه راجي الفضل من أبيه مولانا وسيدنا أحمد بن العباس الناصر لدين الله أمير المؤمنين خليفة ربة على البرِيّة وسيّد العترة النبوية وإمام الأمة المحمدية. فتح له هذا البيت المقدّس بسيفه وطهّر بعدله ما دنّس الكفر منه بحيفه؟ فأهوت إليه الأفئدة بعد أن كانت محصرة ودخلته وجوه الإسلام ضاحكة مستبشرة وخرجت منه وجوه الكفر عليها غَبَرَة ترهقها قَتَرَة. وامتثل أمره في تطهيره، ونفى أهل النار عن نوره عبده ووليُّه يوسف بن أيوب الذي نصر الجمعة على الأحد، وأذل الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة قل هو الله أحد، وبسيف أمير المؤمنين وصل وبيد أمير المؤمنين نال وكال.»[43]

---

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٤٣) المصدر نفسه.

٧ ـ «ردّ الله سبحانه على أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين على العالمين وسيد عترته سيّد المرسلين ومالك أيام الدنيا بأمر مالك الدين يوم الدين، مولانا أبي العباس أحمد الناصر لدين الله في هذا البيت المقدّس تراثه الآبق وأنجز فيه وعده السابق، فدونكم معاشرَ المسلمين مواقفَ أقدام الأولياء ومساجدَ جهات الأنبياء، ومكانَ معراج سيّد أهل الأرض إلى رب الأرض والسماء، حيث لم يكذب الفؤاد ما رأى وحيث كان من ربه قاب قوسين أو أدنى، فتقدير القرب بقاب القوسين شرف القوس جعل سلاح فتحه وذلك عندما حمله الله، ربة فكان سيف أمير المؤمنين لسان شرحه وجرت هذه الصالحة على يد صلاح دينه وسهم إمامه اللابس لدرع نفسه يوسف بن أيوب.»(٤٤)

وملاحظات القاضي الفاضل التي أوردناها في فتح القدس تلخّص مكانتها في الضمير الإسلامي عامّة، وفي وجدانه هو، ورؤيته لفتحها وإبقائها مدينة إسلامية تستوجب الحماية والتضحية.

ولم يتوقّف اهتمام القاضي بالقدس على تهيئة الجو الفكري، وإدارة العساكر المصرية ومرافقتها في أثناء تنقُّلها بين مصر والشام، لفتحها؛ وإعلان الفتح، وتسجيله في رسائل للحكّام المسلمين، وعلى جدران مساجدها، بل ظل يدعو إلى حمايتها، وعدم التفريط بها مرّة ثانية؛ وعندما عاد صلاح الدين، بعد مهادنة الملك ريتشارد إلى القدس لتحصينها، رافقه القاضي الفاضل وساهم معه في حمل الحجارة ومواد البناء لدعم أسوارها، على الرغم من أمراضه وضعف بنيته. وقد وصف عبد اللطيف البغدادي مشهدا مؤثرا لاهتمام صلاح الدين والقاضي الفاضل وغيرهما بتحصين القدس آنذاك بقوله: وأوّل ليلة حضرتُهُ (في القدس)، وجدتُ مجلسا حفلا بأهل العِلم، يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو (صلاح الدين) يحسن الاستماع والمشاركة ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق. ويتفقّه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع. وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه، يتولّى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسّى به جميع الناس الفقراء والأغنياء، والأقوياء والضعفاء، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل؛ ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، ويأتي داره. ويمدّ الطعام، ثم يستريح.»(٤٥)

ولعلّ أبلغ تعبير عن حرص القاضي الفاضل على الحفاظ على القدس، نصيحته لصلاح الدين بتأجيل الحج، إحدى الفرائض الدينية، كيلا ينتهز الفرنج فرصة غيابه،

---

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٤٥) البغدادي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١.

ويحتلّوا القدس.[٤٦] ولم يتمكن صلاح الدين بعدئذٍ من القيام بفريضة الحج، لأنه توفي في السنة ذاتها.

(٤٦) الرسالة في: أبو شامة، «Recueil,» Vol. V, p. 83.

الفصل التاسع
فتوحات صلاح الدين والإفرنج

أولا: رؤية الفرنج لولاية
صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد

تحدّثنا عن معارضة كل من المصريين والموالين للفاطميين والأمراء الدمشقيين والحلبيين، وآل زنكي في الموصل والجزيرة، لانتصارات صلاح الدين السياسية والعسكرية، وأشرنا إلى تحييد صلاح الدين لمعارضة هؤلاء بالتدريج؛ وتحقيق السلام معهم نهائيا إعدادا للحرب مع الفرنج.

وأمّا الفرنج فقد أصيبوا بخيبة شديدة في إثر إخفاق حملات أموري على مصر، وعودته بعد حملته الثالثة من دون تحقيق احتلالها، أو حتى الحصول على الأموال التي كان طامعا في الحصول عليها. وبإخفاقه هذا غرس بذور انهيار المملكة اللاتينية. وحينما أدرك أموري مدى الضرر الذي ألحقه بمملكته بسبب أطماعه، حاول أن يثير حملة صليبية جديدة في الغرب، للقضاء على قوّة القائد الناشىء، صلاح الدين، وللحفاظ على المملكة اللاتينية. فاتصل حال عودته من الحملة الثالثة على مصر، سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨ ـ ١١٦٩م، ببعض ملوك الغرب، وبإمبراطور بيزنطة، مستنجدا بهم على صلاح الدين. وقد لبّى بعضهم دعوته، مثل حاكم صقلية الذي هاجم الإسكندرية بأسطوله،[1] لكن باقي الملوك، تأخروا في الاستجابة لطلبه ما يقارب عشرين عاما هيّأوا خلالها خُلفاءهم الأصغر سنا والأشد حماسة للاستجابة، فيما عُرف بالحملة الصليبية الثالثة.

---

(١) المقريزي، «اتّعاظ»، ج ٣، ص ٣١٥. يذكر المقريزي أنّ الفرنج استعدّوا لغزو مصر خوفا من صلاح الدين ونور الدين، عندما بلغهم تمكّنه من مصر، وكاتبوا فرنج صقلية وغيرهم مستنجدين بهم، فأمدّوهم بالمال والسلاح، كما توجهوا بدباباتهم ومنجنيقاتهم إلى دمياط، محاولين احتلالها ولكنهم أخفقوا. المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١٥. وهاجم الأسطول الصقلّي دمياط في أوّل صفر ٥٦٥ هـ/ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٦٩ م، في بداية وزارة صلاح الدين للفاطميين. للتفصيلات: أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٦ ـ ٤٦٠.

ولقد عبّر وليم الصوريّ، مستشار الملك أموري وأحد مؤرّخي المملكة الصليبية وساستها، عن محاولة أموري احتلال مصر وظهور صلاح الدين قائدا عسكريا في المنطقة وتوسّعه في الشام بقوله:

يا لطمع الإنسان الأعمى، الجريمة التي تفوق كل جريمة!
يا للجنون الشّرير الناجم عن طبيعة جشعة، لا تقنع ولا تشبع!

لقد انتقل بنا الحال من وضع عمّنا فيه الهدوء والسلام إلى حالة شاعت فيها الفوضى، وعدم الاستقرار. كل هذا بسبب الأطماع في الأموال والممتلكات. لقد كانت موارد مصر وأموالها تفي بحاجاتنا، كما كانت حدود مملكتنا آمنة من ناحيتها (مصر)، ولم يكن لنا عدوّ نخشاه على الجبهة الجنوبية (مصر). وأمّا الجهة البحرية، فقد وفّرت لنا ممرّا آمنا للراغبين في الوصول إلى مملكتنا (من الغرب). ولكم تمكّن شعبنا من دخول الأراضي المصرية من دون خوف، والقيام بصفقات تجارية كانت في الأغلب لمصلحتهم. وأمّا المصريون فكانوا يجلبون إلى المملكة المواد الأجنبية والسلع الغريبة التي لم نكن نعرفها. ولطالما حلّوا ببلادها فكان في حلولهم فائدة بل شرف لنا. وبالإضافة إلى هذا كله فإنّ المبالغ الكبيرة التي كانوا يصرفونها في بلادنا أغنت خزينتنا وزادت في ثراء كثيرين منا. وأمّا الآن فقد انعكست الأحوال وتحوّل كل شيء إلى أسوأ ممّا يمكن أن نتصوره. «كيف تحوّل الذهب النقي؟ «إن (نغم) قيثارتي أصبح نغم حزن.» وأينما التفتُّ حولي رأيت ما يبعث على الخوف وعدم الاستقرار. فإن البحر يأبى (الآن) أن يوفّر لنا ممرا آمنا، لأن كل المناطق المحيطة بنا أصبحت تحت سيطرة العدو، والممالك المجاورة لنا أصبحت تستعدّ للتغلب علينا.

لقد جلب علينا طمع رجل واحد (أموري) هذه البليّة، «كما أن طمعه، هو مصدر الشرّ كله، غيّم على الهدوء الذي عمّنا من عل.»[٢]

ويعقّب وليم الصُوريّ على قوله هذا بأن أموري، حالما عاد إلى مملكته بعد حملته الثالثة على مصر، اختار وفدا من رجال المملكة وقادتها سفراء له إلى ملوك الغرب ليخبروا الملوك وغيرهم بالأخطار المُحيقة بالدولة ويستنجدوا بهم؛ فحمل أعضاء هذا الوفد معهم رسائل إلى الملك فريدريك ملك الرومان (ألمانيا) أو (فريدريك بربروسا)، والملك لويس ملك الفرنج (لويس السابع)، وهنري ملك الإنكليز، ووليم ملك صقلية، وإلى فيليب حاكم فلاندرز، وغيرهم. ولكنْ ما أن غادر الوفد المملكة بحرا حتى هبّت عليهم عاصفة قويّة حطّمت مركبهم ومجاذيفهم وأشرعتهم، فعادوا إلى المملكة بعد أن

(٢) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, pp. 357-358.

أشرفوا على الهلاك، الأمر الذي اضطر أموري إلى أن يرسل إلى أوروبا وفدا آخر مؤلفا من مطران بانياس، وبطريرك صور، ولكن سفارة هذين السفيرين لم تنجح لأن مطران بانياس توفّي في باريس بينما عاد البطريرك خائبا إلى المملكة.(٣)

عندما وجد الملك أموري نفسه قاصرا عن مواجهة صلاح الدين عسكريا، راح يتآمر مع بعض الفئات المصرية على حكمه، الأمر الذي تسبب بثورة مؤتمن للخلافة، ومؤامرة بعض رجالات الدولة الفاطمية على حكم صلاح الدين، وقد أشرنا سابقا إلى هاتين الحركتين. وعندما رأى أنّه يصعب عليه التوصل إلى صلاح الدين في مصر، أخذ يبحث عن جهة أُخرى، يعزل بواسطتها صلاح الدين؛ وحالفه الحظ هذه المرة إذ توفي نور الدين وتشعثت الجبهة الشامية في إثر وفاته، فأدخل أموري رأسه في السياسة الشامية وراح يعمل مع بعض القادة المناوئين لصلاح الدين مثل قادة حلب والموصل (٥٦٩هـ/١١٧٣م)، وحتى بعض الدمشقيين الذين كانوا في بداية الأمر ضد صلاح الدين، ولكنّه توفّي (١١ تموز/يوليو ١١٧٣م) قبل أن يتم مخطّطاته، فزالت بوفاته عقبة أُخرى كانت تقف في طريق صلاح الدين وتعرقل محاولاته لتثبيت حكمه وتوسيع مُلكه.

خلّف أموري ابنه بلدوين الرابع الذي كان صغيرا ومريضا بالبرص، وطغى عليه بعض القادة الفرنج مثل ريموند الثالث، حاكم طرابلس، الذي استأثر بالوصاية عليه.(٤) ومع وصاية ريموند تشابكت المصالح الفرنجية في الشام وفي المملكة اللاتينية، كما تشابكت مصالح صلاح الدين في مصر والشام.

ولقد ظل ريموند وغيره من قادة الفرنج يتآمرون مع الدمشقيين أحيانا، ومع المواصلة والحلبيين أحيانا أخرى، إلى أن أربكهم صلاح الدين بأجمعهم بأن حالف ريموند الثالث، وتمكّن عن طريقه من اختراق المملكة اللاتينية حتى طبريا وحطّين، حيث كانت المعركة الفاصلة بينه وبين الفرنج.(٥)

ولقد تحدّث وليم الصُوريّ مرّة ثانية عن مخاوف الفرنج من توسُّع صلاح الدين في الشام، بعد أن أخذ صلاح الدين دمشق وبعض المدن الداخلية بما فيها بعلبك، فأشار إلى قرار الفرنج باحتلال بعلبك بقوله: «لقد كان القرار حكيما، لأن أي زيادة في قوة صلاح الدين كانت مبعث خوف في نفوسنا، ولأن أيّ مظهر من مظاهر قوّته بدا مضرا

---

(٣) *Ibid.*, pp. 360-361.

(٤) *Ibid.*, p. 409.

(٥) للتفصيلات: ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٨؛ أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥، ص ٦١١ ـ ٦١٤. ص ٦٢٢ من رسالة للقاضي الفاضل في الموضوع. وقد بحثنا في هذه العلاقات أيضا في الفصل الخامس من هذه الدراسة.

بمصلحة المملكة (اللاتينية). فصلاح الدين رجل حكيم، وشجاع وكريم. وإن كرمه كان أكثر العوامل المثيرة للخوف في قلوب النبلاء (الفرنج) البعيدي النظر. وحتى يومنا هذا فإنه لا توجد طريقة يكسب فيها الحكام قلوب الناس أفضل من إغراقهم بالأموال. ولهذا السبب فإنّ قادتنا كانوا على صواب عندما تخوّفوا من مضاعفة صلاح الدين لممتلكاته. ومع اتّساع مملكة صلاح الدين فإنّه أصبح يقوى على المملكة اللاتينية، ويضايقنا (في المملكة) بشدة أكثر مما كان يفعل في السابق. وبالرغم من كل ما بذلنا من جهد للحدّ من توسُّعه فإنّ محاولاتنا فشلت؛ وها نحن اليوم نشاهد ونرى بعيون دامعة، مخاوفنا تتحقّق.»[٦]

ويعلّق أيضا على التحالف الزنكي والفرنجي بقوله: «لقد تطلّبت الحكمة أن نساعد الملك الصغير (الملك الصالح إسماعيل، ابن نور الدين)، الذي لم يكن قد بلغ الحلم بعد، لا رأفةً ولا عنايةً به، بل تشجيعا له ليكون عدوّا لعدوّنا صلاح الدين، ولإحباط مخططات صلاح الدين وإضعاف هجماته على المملكة.»[٧]

وفي سياق بحثه في توسّع صلاح الدين في الشام وصراعه مع الحلبيين والزنكيين، يرسم لنا صورة لمخاوف الفرنج الحقيقية من قوة صلاح الدين، ويرثي المملكة رثاء مبكّرا وهي تتهاوى، وكأنّه يحاول أن يذكّر الفرنج في عصره بأمجاد أجدادهم الذين احتلّوا المنطقة، ليعوا وليهبّوا للدفاع عنها فيقول مقارنا الفرنج الأوائل بفرنج عصره، ومحلّلا أسباب نجاح هؤلاء الأوائل وإخفاق الفرنج التالين لهم بقوله:

«لقد نجح الفرنج الأوائل في حملتهم على المنطقة سنة ١٠٩٨م، على الرغم من قلة عددهم قياسا بمعاصريهم المسلمين، لأنهم عُرفوا بتديّنهم. وأمّا الآن فقد حلّ محلهم جيل شرير، أبناء مذنبون، يقومون بأعمال غير مشروعة.

«ثم إنّ الفرنج الأوائل كانوا رجالا محترمين قدموا إلى الشرق مدفوعين بحماسة دينية، وكانوا مدرّبين على فن الحروب والمعارك، عارفين بالأسلحة، مدرّبين على استعمالها. وأمّا الفرنج في الشرق فقد تعوّدوا دعة العيش وقلة الحروب، فجهلوا أصول المعارك، ومن ثَمّ فقد صعب عليهم مواجهة عدوّ قويّ مثل صلاح الدين.

«وساعدهم الوضع الإسلامي المفتّت، إذ إنه عندما دخل الفرنج المنطقة كان لكل مدينة في الشام حاكم مستقل، لا يجمعها ودّ مع غيرها، وقد سهّل هذا نصر الفرنج وتوسّعهم في المنطقة، وكان أسهل عليهم أن يخوضوا معاركهم مع أعداء متنافسين.

---

(٦) William of Tyre, *op.cit.*, Vol. II, p. 405.

(٧) *Ibid.*, p. 406.

وعليه، فإن حكّام المدن الذين كانوا يخافون المسلمين أمثالهم لم يكونوا على استعداد للقضاء علينا. . وأما الآن فإن جميع الممالك المحيطة بنا وقعت تحت سلطة رجل واحد، فمنذ مدة من الزمن احتلّ زنكي (عماد الدين) الرُّها ثم تلاه ابنه نور الدين، وأضاف دمشق إلى ملكه، ومنذ وقت قصير احتلّ نور الدين بقيادة شيركوه مملكة مصر الغنيّة. . وهكذا أصبحت جميع الممالك المحدقة بنا تخضع لحاكم واحد وتأتمر بأمره. . وأمّا صلاح الدين فيملك الآن جميع هذه الممالك، لأن الحظ ابتسم له. . فمن مصر والبلاد المجاورة لها يحصل على أنقى أنواع الذهب، كما أنّ المقاطعات الأُخرى تزوّده بما لا يحصى من الخيّالة والمحاربين المتعطشين إلى الذهب. وهكذا، أصبح من المستحسن، في نظر الجميع، أن يبذل الفرنج كل ما وسعهم لمعارضة هذا الرجل العظيم في أثناء تقدّمه السريع. كما أصبح من الواضح أنه كلما ازداد صلاح الدين قوة صعب على الفرنج القضاء عليه.»(٨)

لقد أذهل دهاء صلاح الدين وليم الصُّوريّ لأنه نجح في تغيير الأحلاف في الشام، فحيّد فرنج الشام واكتسب بعضهم إلى جانبه.

وعلى الرغم من كل ما قاله وليم الصُّوريّ عن مخاوف الفرنج فإنّهم ظلّوا يثيرون ضد صلاح الدين الفتن والمؤامرات في الشرق والغرب حتى وقعة حطّين.

ثانيا: مخاوف الفرنج من انتصارات صلاح الدين قبل حطّين

كان الفرنج قد اقتنعوا منذ سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، أي قبل وقعة حطّين بعامين، بأنهم لن يتمكّنوا من التوسّع في المنطقة، أو حتى من البقاء فيها، من دون مساعدة متواصلة من أوروبا، ولكنّ المساعدة الأوروبية خفّت بمرور الزمن.

ومع ازدياد ضغط صلاح الدين على المملكة اللاتينية والإمارات الفرنجية الشامية فقد ذهب وفد مؤلف من بطريرك القدس هيراكليوس، ومقدّم الداوية أرنولد أوف توروجا، ومقدّم الإسبتارية روجر لومولان، إلى أوروبا للاستنجاد بملوكها (سنة ١١٨٥م) فتوجّهوا رأسا إلى إنكلترا متجنّبين، قصدا، إيطاليا والبابوية في روما. ووصل هؤلاء إلى قاعة الملك هنري الثاني (والد ريتشارد) في رايدنغ وشرحوا له ولمن معه سبب زيارتهم مثيرين بما قالوه: «الكثير من التنهّدات والدموع بين الحاضرين.» ثم قدّموا للملك بعض

(٨) *Ibid.*, pp. 407-408.

التذكارات من فلسطين، وسلّموه مفاتيح برج سليمان وقطعة من الصليب المقدّس ومفاتيح كنيسة القيامة.[٩]

ويمكن القول أنه منذ هذه الزيارة وكّل الفرنج إلى ملك الإنكليز الدفاع عن المملكة اللاتينية، وقد يكون السبب في ذلك أن الملك هنري كان على صلة من القرابة بالملك فولك أوف آنجو، أحد ملوك المملكة اللاتينية. ولقد تبنّت إنكلترا بعدئذٍ الدفاع عن المملكة اللاتينية واستعادة بعضها على يد ريتشارد، كونت أوف بواتو، ابن الملك هنري الذي خلفه على عرش إنكلترا سنة ١١٨٩م، وأصبح يُعرف بقلب الأسد.[١٠]

ثالثا: صدى نصر حطّين
في كتابات الفرنج

كتب أحد فرسان الداويّة في المملكة اللاتينية الهاربين إلى صُور من معركة حطّين رسالة إلى بعض ملوك الغرب: ملك إنكلترا وملك فرنسا، معبّرا عن مشاعر الفرنج من جرّاء هزيمة حطّين، ومستنجدا بهم لمساعدة الفرنج في الشرق في الحفاظ على ما تبقّى لهم، واستعادة ما خسروه. يقول هذا الفارس في رسالته:

«إن المراسلات والأصوات المختنقة لَتَعْجَزُ عن تعداد المصائب التي أحلّها الإله بنا، عقابا على خطايانا. لقد جمع الأتراك جيشا كبيرا هاجموا به المملكة المسيحية،

---

(٩) يذكر هانس ماير أنّ الوفد الفرنجي وصل إلى فرنسا أوّلا، فتخلّص منه ملكها فيليب أوغسطس، وأرسل أعضاءه إلى إنكلترا، فذهبوا وقابلوا ملكها هنري الثاني وسلّموه مفتاح كنيسة القيامة، ولكنّه رفض المفتاح ولم يَعِدهم بمساعدة سريعة، فغادر الوفد إنكلترا خائبا. ولم يتّخذ الغرب موقفا جدّيا من المملكة اللاتينية في فلسطين إلّا بعد هزيمتها في حطّين:

Mayer, *op.cit.*, pp. 135-136.

للتفصيلات: Elizabeth Hallam, *The Plantagenet Chronicles* (Markham (Canada): Viking, 1987), p. 174.

تختلف هذه الرواية المنقولة عن مؤرخ إنكليزي «Diceto» (بين سنة ١١٨٠ م وسنة ١٢٠١ م)، قليلا عن رواية ماير، إذ يذكر راويها أن الوفد قصد ملك إنكلترا، هنري الثاني (١١٥٤ - ١١٨٩ م) أوّلا، فاجتمع إليه وإلى مستشاريه وحدّثهم عما جرى للفرنج، الأمر الذي أثار الحضور وبكّاهم، وأعطى الوفد للملك بعض التذكارات المتعلّقة بمولد المسيح، وبمحنته، كما سلّمه قطعة من الصليب المقدّس (صليب الصلبوت)، ومفاتيح كنيسة القيامة، فعرض الملك هذه الهدايا بشيء من التبجيل والاحترام. ولا تشير الرواية إلى وعد مؤكّد بمساعدة سريعة.

Ibid., p. 174.

(١٠) للتفصيلات: رواية المؤرخ «Diceto» لسيرة الملك ريتشارد ودوره في الحملة الصليبية الثالثة.

Ibid., pp., 195-198, 202-224.

فتجمّعنا في الثالث والرابع من شهر تمّوز/يوليو (١١٨٧م) وزحفنا تجاههم وهاجمناهم، ثم اتجهنا إلى طبريا التي كانوا قد احتلّوها باستثناء قلعتها، ولكنّهم هزمونا وألحقونا بصخرة مخيفة، حيث تغلبوا علينا واستولوا على الصليب المقدّس. ولقد قتل ملك القدس، وقائدنا (قائد الداوية)، كما قُتل معهما معظم جيشنا وإخواننا، ونعتقد أن مائتي فارس من رجالنا أُعدموا، هذا عدا الستة الآخرين الذين قُتلوا سابقا في أيار/مايو (من السنة ذاتها). ولقد نجا كونت طرابلس (ريموند الثالث)، ورينولد، حاكم صيدا، واللورد باليان الإبليني، ونحن (كاتب الرسالة)، إذ تمكّنا من الهرب بصعوبة من تلك الساحة البائسة (حطّين).

«سار المسلمون من حطّين إلى عكّا وهم ملوّثون بدم المسيحيين، فاحتلّوا عكّا، ثم احتلّوا معظم البلاد باستثناء القدس وعسقلان وصور، وقتلوا في أثناء احتلالهم معظم أهالي البلاد (من الفرنج) وإن لم تُحطْ بنا العناية الإلهية، وإذا لم تصل إلينا مساعدة من النبلاء، فلن نتمكّن من الصمود. إن مدينة صور محاصرة الآن، وهم (المسلمون) يهاجموننا باستمرار ليلا نهارا. وتبدو المنطقة من صور إلى القدس إلى غزّة كأنها كثيب من النمل.»[١١]

على الرغم من بعض الأخطاء في بعض الحقائق عن مصير رجالات المملكة الفرنجية، وقد هدف منها كاتب الرسالة إلى التهويل على ملوك أوروبا، فإن الرسالة تعكس نفسية الفرنج من جرّاء انتصارات صلاح الدين وسقوط المملكة. ويبدو أنّها كُتبت قبل أن تبدأ حركة المقاومة الفرنجية في صور.

تبنّى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة بعض رجالات الدين، ولا سيّما في إنكلترا، وكان أكثر المحرّضين عليها «مطران كانتربري ((Archbishop of Canterbury)». وقد رافق هذه الدعوةَ حملةٌ عقائدية مسيحية نُظِمت خلالها قصائد «صليبية» ومراثٍ للقدس باللغة اللاتينية وباللهجات. ومن جملة ما كُتب في هذه الحملة، كتاب بعنوان «الإسراع في الحملة الصليبية»، وآخر بعنوان «سيرة رينولد أوف شاتيون» (أرناط صاحب الكرك الذي قتله صلاح الدين والذي تسبّب بسقوط المملكة). وقد كتب هذين الكتابين بيتر أوف بْلَوا وأرفقهما بهجاء صلاح الدين، في محاولة لإثارة الغرب ضدّه وضدّ المسلمين

---

(١١) *Ibid.*, pp. 184-185؛ أيضا: Mayer, *op.cit.*, p. 136.

يبدو أنّ هذا الفارس هرب من حطّين قبل أن يعرف مصير الملك غي، الذي أُسر ولم يُقتل.

للرّد الدعائي الغربي على سقوط حطين:

Penny Cole, *The Preaching of the Crusades to the Holy Land 1095-1270 A.D* (Cambridge, Massachussets: The Medieval Academy of America, 1991), pp. 63, 79.

في الشرق.[12]

لم تتوقّف حملة الاستنجاد بالغرب عند بعض الرسائل كالتي أوردناها. بل نشطت الحركة في صور حالما وصل إليها كنراد أوف مونتفرات، بعد سقوط عكّا مباشرة، وراح ينظّم أمورها ويجمع الفرسان الهاربين من المملكة. وقد أرسل كونراد أول سفارة إلى الغرب بقيادة هوسياس بطريرك (Archbishop) صور، إذ أرسله إلى البابا ليخبره بما حلّ بالفرنج ويستنجده. فذهب البطريرك أوّلا إلى صقلية، حيث زار الملك وليم الثاني، واكتشف أن وليم بدوره على علم بما حدث للمملكة اللاتينية، وأنه اعتكف مدّة أربعة أيّام من شدّة حزنه. وكتب وليم بدوره إلى ملوك أوروبا يدعوهم إلى حملة صليبية جديدة، بينما راح هو يُعدّ لحملته. وبعد أن أدّى هوسياس رسالته في صقلية توجّه إلى روما مع سفارة صقلّية، فوجد أن البابا أوربان الثالث قد علم بما حدث من الجنّويين، ولكنّه كان مريضا بسبب الصدمة الكبرى هذه، ومات في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧م/٥٨٣هـ، تاركا خليفة له غريغوري الثامن. وقد تبنّى البابا غريغوري الحملة، وأرسل إلى المسيحيين في الغرب مُعْلِما إياهم بضياع الأراضي المقدسة والصليب المقدس (صليب الصلبوت)، وحاول أن يحثّهم في رسالته ويغريهم بشتى المغريات الدينية، كما فرض عليهم جميعا صيام كل يوم جمعة لمدة خمسة أعوام، وحرّم عليهم أكل اللحوم كلّ يوم أربعاء وسبت. وطلب من الهيئة الدينية أن تصوم كل يوم اثنين أيضا.[13]

وفي رسائل أخرى كتبها البابا للأوروبيين فرض هدنة مدّتها سبعة أعوام على جميع الأمراء المسيحيين في أوروبا، وأخذ عهدا من الكرادلة بأن يكونوا أوّل من يحمل الصليب. ولكنّ البابا غريغوري الثامن لم يعش أكثر من شهرين، ومات في بيزا في ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٧م، وخلفه البابا كليمنت الثالث الذي اتّصل بفريدريك بربروسا إمبراطور (ألمانيا) وأكبر حكّام الغرب قدرا. وفي الوقت نفسه كان البطريرك هوسياس المتوجّه إلى ملكي إنكلترا وفرنسا قد وجد (أيضا) أن الأخبار وصلت إلى هذين الملكين عن طريق المطران إيمري الأنطاكي الذي كتب رسائل إلى الملك هنري الثاني ملك إنكلترا يخبره بما حدث، على يد مراسله مطران بانياس، حتى إنه قبل أن يصل هوسياس إلى قاعة هنري الثاني في إنكلترا، كان ابنه ريتشارد (قلب الأسد) قد حمل الصليب استعدادا للرحلة إلى فلسطين.

تمكّن هوسياس من إقناع ملك إنكلترا هنري الثاني وملك فرنسا، فليب

(١٢) Mayer, *op.cit.*, p. 142.

(١٣) *Ibid.*, p. 136.

أوغسطس، بالإغضاء عن خلافاتهما والتوجّه إلى فلسطين، فوافقا. وانضم إليهما فليب أوف فلندرز. ولبس الفرنسيون صلبانا حمرا، والإنكليز صلبانا بيضا، والفلميون صلبانا خضرا.(١٤)

وفرض هؤلاء ضريبة عُرفت بـ «ضريبة صلاح الدين» لتمويل الحملة، ولكنّ رجال الدين اعترضوا عليها خوفا من أن يتجنّب البارونات دفعها عندما ينضمّون إلى الحملة، أو حتى خوفا من احتفاظ الملوك وغيرهم بها.

وشاءت الأقدار أن يتوفّى هنري الثاني في مدينة تور، فخلفه في المُلك ابنه ريتشارد (كونت أوف بواتو) الذي تميّز في الحملة الثالثة أو في حرب عكّا كملك الإنكليز (الإنكتار).(١٥)

وبينما كان ملوك أوروبا يعدّون جيوشهم سبقهم بعض الأساطيل، منها أسطول كبير من الدانماركيين والفلميين، والأسطول الصقلي، والأسطول الإنكليزي، وأسطول بيزا، وتبعتهم مراكب من جنوة والبندقية.(١٦)

وكان أوّل مَنْ سار من ملوك الغرب إلى الشرق الملك فريدريك بربروسا ومعه ابنه فريدريك، حاكم سوابيا، وكثيرون من أمرائه، ولكن لمّا لم يكن لديه أسطول كافٍ فقد اتّخذ في سيره طريق البرّ. وتبع فريدريك بربروسا ليوبولد الخامس حاكم النمسا، الذي اتخذ طريق البحر، وهو الذي أسر الملك ريتشارد في أثناء عودته من فلسطين بعد معركة عكّا، لأن ريتشارد مزّق علمه على سور عكّا.(١٧)

توجّهت جميع الأساطيل والجيوش التي أشرنا إليها إلى فلسطين حيث تجمّعت حول عكّا، وربما كان هذا أكبر تجمّع غربي اشترك فيه معظم أوروبا على مدينة واحدة قاومتهم مدة عامين تقريبا.

هاج الغرب ثانية في غليان صليبي أعدّه للزحف على الشرق الإسلامي ثانية، والثأر لهزيمته، ولم تغب حركة إعداد الحملة الصليبية الثالثة عن المسلمين، وقد وصف هذا الإعداد ابن واصل بقوله: «كان الرهبان والقسوس من حين مَلَك المسلمون بيت المقدس قد لبسوا السواد وأظهروا الحزن. وأخذهم بطرك القدس ودخل بهم بلاد الإفرنج يطوفها بهم جميعا، ويستنجدون أهلها، ويحثونهم على استرجاع القدس. وقد

---

(١٤) Runciman, *op.cit.*, Vol. III, p. 24.

(١٥) Cole, *op.cit.*, p. 71.

(١٦) Runciman, *op.cit.*, Vol. III, p. 24; Mayer, *op.cit.*, p. 137; René Grousset, *The Epic of the Crusades* (New York: Orion Press, 1970), p. 180.

(١٧) Grousset, *op.cit.*, pp. 176-195; Mayer, *op.cit.*, p. 137.

صوّروا المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربي يضربه (بعصا) وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح، وقالوا: هذا المسيح يضربه محمّد نبيّ المسلمين وقد جرحه وقتله. فعظُم ذلك على الفرنج، فحشدوا وحشروا، حتى النساء خرجن للمقاتلة، ومن لم يستطع الخروج استأجر من خرج عوضه، أو تبرّع بالمال على قدر حاله، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء، ولمّا عظمت جموعهم وتكاملوا صمّموا على قصد عكا ومحاصرتها، وساروا إليها نحو النواقير.»[١٨]

(١٨) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

الفصل العاشر
التجمع الغربي الإفرنجي ومعركة عكا
(أو الحملة الصليبية الثالثة)

أولا: حدود مملكة صلاح الدين
في آخر سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٩م

رأى القاضي الفاضل في فتح فلسطين والشام معجزة كبرى تحققت وخلال وقت قصير؛ وثوابا من الله تعالى للمسلمين على توبتهم وجهادهم لاستعادة تراث أضاعه أسلافهم؛ وأدرك أنّ جهاد المسلمين بعد الفتح يجب أن يركّز على الحفاظ على هذا التراث، والعمل على استنقاذ ما تبقّى من أراض إسلامية في الشام في يد العدو. وقد أشار في رسالة كتبها عن صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٩م إلى حدود دولته الجديدة، وإلى ما يجب استخلاصه من الفرنج قائلا: «لقد خلص لنا جميع مملكة القدس، وحدُّها في سمت مصر من العريش، وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك وتشتمل على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبقَ من هذه المملكة إلاّ صور. وفتح أيضا جميع إقليم أنطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحدّه من أقصى بلاد جبلة واللاذقية إلى بلاد ابن لاون. وبقيت أنطاكية بمفردها والقصير من حصونها، ولم يبقَ من البلاد التي لم تُفتح أعمالها، ولم تخل عمّا كانت عليه حالها، سوى طرابلس فإنّها لم يُفتح منها إلا مدينة جبيل، وقد سحبت عليها المهلة الذيل، ومعاقلها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية. والخادم الآن على التوجُّه إليها، وعزم النزول عليها، وإنّه قد رتّب الجانب القبلي والبلد القدسي وشحن الثغور من جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال وآلات العُدَد؛ ورتّب فيها ولده الأفضل عليا لحمايتها وحفظ ولايتها، وقلّد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها.»[١]

---

(١) أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, pp. 391-392.

ووصف عماد الدين الأصفهاني فتوحات صلاح الدين في كتاب إلى ديوان الخلافة في بغداد سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨ ـ ١١٨٩م، يشير فيه إلى استعادة القسم الأكبر من الحدود الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل نحو تسعين عاما باستثناء مدينة صور: «إن من مدن مملكة القدس (المملكة اللاتينية) الساحلية التي لم تُفتح حتى عام (٥٨٤هـ/١١٨٨ ـ ١١٨٩م)، كانت صور، وإن الأمل في فتحها قريب.»[٢] لكن هذا الأمل بفتح صور لم يتمّ إذ أصبحت مركزا للمقاومة الفرنجية من الداخل والخارج، وصارت ميناء لإرساء الأشرعة الحربية الغربية القادمة إلى الشرق لاستعادة حدود المملكة كما كانت عليه قبل فتوح صلاح الدين، ونقطة الانطلاق للحملة الصليبية الثالثة التي واجهها صلاح الدين في ملحمة كبرى دامت عامين حارب فيها ملوك أوروبا حول عكّا وداخلها. ولقد تبدّت في حربه هذه مآثر من البطولة وعدد من المآسي الإنسانية؛ واستعملت فيها شتى الأسلحة الجديدة. كما تبدّت فيها بطولته وصبره على أوضاع لم يكن ليتحمّلها غيره من الأبطال، ولكنّها رسمت له صورة رومانسية في الأدب الشرقي والأدب الغربي.

في هذه الأوضاع الصعبة العصيبة أدّى القاضي الفاضل، على الرغم من متاعبه الصحية وتقدُّمه في السنّ، دورين مهمّين: أحدهما الإشراف على تجهيز وتزويد قوّات صلاح الدين البرّية والبحرية المتوجهة إلى عكّا لمنع سقوطها في يد العدو، وهو أمر قد يؤدي إلى خسران باقي ما حرّره صلاح الدين؛ وثانيهما تثبيت قدم صلاح الدين في المعركة وتشجيعه بكتاباته على خوضها وتوجيهه وتوجيه قادة المسلمين من المغرب الأندلسي إلى المشرق لخوض معركة عكا الحاسمة، أو المعركة الكبرى بين قوى المسيحية الغربية الموحّدة والقوى الإسلامية.

ولا شك في أنّ صلاح الدين كان يتحدث عن دور القاضي الفاضل في هذه المعركة عندما أعلن على أسماع الناس قوله: «لا تظنوا أني فتحت البلاد بسيوفكم، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل.»[٣]

ومن الصعب البحث في دور القاضي الفاضل، في هذه المرحلة، من دون التحدُّث عن بعض الأحداث المؤدّية إليها. ولذلك فإننا سنحاول أن نضع أحداث حرب عكا، أو الحملة الصليبية الثالثة، ودور القاضي الفاضل فيها ضمن إطار تاريخي شامل، نظرا إلى أهميتها، وسنبدأ بوصف صور التي ذكرها ابن الأثير بقوله: صور «أعظم بلاد الشام حصانة وأشدّ امتناعا على من رامها.»[٤]

---

(٢) الرسالة في: ابن واصل: مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٣) الحنبلي، «شذرات»، ج ٤، ص ١٣٢٤ سبط ابن الجوزي، مصدر سبق ذكره، ج ٨، ص ٣٠٤.

(٤) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٥٢.

ثانيا: الهجرة الفرنجية
إلى صور والمقاومة

سبق أن تحدّثنا في بداية دراستنا هذه عن الهجرة الإسلامية من فلسطين إلى مصر والشام الإسلامية بسبب الاحتلال الفرنجي، وما سبق أو تبع هذه الهجرة من مآسٍ شاهدها وعاشها أجيال من أهالي منطقة الشام، من فلسطينيين وسوريين ولبنانيين، طالما تحدّثوا عنها وتناقلوها حتى الجيل المواكب لنور الدين وصلاح الدين الذي فتح الطريق لتحرير مواطن هجرة الآباء والجدود.

ولم تكن هجرة الفرنج بسبب فتوحات صلاح الدين أقل مأساوية من هجرة المسلمين، ولكنّها كانت أكثر عددا لأن صلاح الدين لم يقتل جوالي بأكملها. وكان الجيل المهاجر هذه المرة جيلا ثانيا أو ثالثا ممّن وُلدوا في المنطقة وأصبحوا قسما منها، ولم يعرفوا غيرها. فهم من حيث إقامتهم في المنطقة يتساوون زمنيا مع الجيل الذي شرّده آباؤهم وأجدادهم من قبل، كجيل جد القاضي الفاضل ووالده والقاضي الفاضل؛ ولقد مرّت ببعض هؤلاء الفرنج أوضاع قاسية تشابه بعض الأوضاع التي مرت بالذين شرّدهم أجداد الفرنج من قبل.

لكن الأمر قد تغير بعد معركة حطّين وما تلاها من الفتوحات الإسلامية، وتبدّلت الصورة السكّانية، إذ راح الفرنج - أو القسم الأكبر منهم - يغادرون أماكن سكنهم من مدن وقرى، ملتجئين إلى داخل الأسوار والقلاع، أو منتقلين إلى مدن ذات حصانة ومنعة، ولم يبقَ أمامهم من مدن الساحل الحصينة سوى صور - وهي أقرب المدن الساحلية إليهم - وطرابلس. وهكذا بدأت الجموع الفرنجية تتّجه إلى هاتين المدينتين. وأمّا طرابلس فأغلقت أبوابها أمام الجماهير المتدفّقة المهاجرة، ولم يبقَ غير صور أمامهم، فراحوا يتجمّعون فيها من كل حدب وصوب.(٥) وممّا ساعد في هذا التجمّع أن صلاح الدين نفسه كان يحرص على توصيل الجوالي الفرنجية المستأمنة سالمة إلى

---

(٥) Sidney Painter, «The Third Crusade: Richard The Lion Hearted and Philip Augustus,» *A History of the Crusades*, ed. Kenneth M. Setton (Philadelphia: University of Pennsylvania, 1962), Vol. 2, pp. 46-47. (Full account pp. 45-86).

للمزيد من التفصيلات: الأصفهاني، «الفتح»، ص ١٥٤. وصف عماد الدين الأصفهاني هجرة الفرنج إلى صور بقوله: «وكانت صور على السوء مستوية، وعلى كل مَن خرج من القدس وبلاد الساحل محتوية، فضجّوا وارتجّوا وعاجوا ولجأوا ولجّوا.» المصدر نفسه، ص ١٥٤. أيضا:

Runciman, *op.cit.*, Vol. II, p. 467; Jacque De Vitry, *The History of Jerusalem*, trans. by Aubrey Stewart (London: Palestine Pilgrims' Society, 1896), p. 103.

صور.[٦] ولو اقتصرت الهجرة إلى صور على العامّة من الشعب فلربما تمكن صلاح الدين من فتح المدينة، ولكنها أصبحت مركزا لتجمُّع القادة الفرنج والعائلات الفرنجية الحاكمة، كبطريرك القدس الذي قصدها بجميع أمواله ومدّخراته، وريموند الثالث (القومص) حاكم طرابلس وصديق صلاح الدين قبل حطّين، وباليان الإبليني (ابن بارزان). وكان هؤلاء وغيرهم من قادة الفرنج قد هربوا من معركة حطّين عندما رأوا هزيمتهم، ولم يتصدَّ لهم تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين الذي كان يقاتلهم، بل أمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه.[٧]

وقد تكون هذه الخطّة سليمة ومنطقية من الناحيتين الاستراتيجية والإنسانية، إلّا إن عاقبتها كانت وخيمة. وأمّا صلاح الدين فقد اعتمد على زعماء الفرنج المأسورين لديه مثل الملك غي وصاحب جبيل وغيره في تسليم بعض المدن والحصون كما ذكرنا، حسما للقتال مقابل بعض الصلاحيات والشروط، وبينها إطلاقهم وإطلاق كبار الأسرى الفرنج ثمنا لمفاوضاتهم ونجاحهم في التسليم. ولقد أطلقهم فعلا، ولو بعد حين، فمكّنهم بذلك من تجميع قواهم ومعارضته ثم مقاومته.

ولقد قام هؤلاء القادة بدور في تنظيم اللاجئين داخل صور وتحصين المدينة إلى أن وصلت إليها المساعدة من أوروبا خلال وقت قصير. ويعلّق ابن الأثير على تفريط صلاح الدين في صور وعدم رؤيته لأهميتها العسكرية بقوله: «بقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين، فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لأخذها بغير مشقّة، لكنه استعظمها لحصانتها فأراد أن يفرغ باله ممّا يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها، فكان ذلك سبب حفظها (وكان أمر الله قَدَرا مقدورا).»[٨]

ثالثا: صلاح الدين وصور

مع أن صلاح الدين استرجع جميع فلسطين من دون مشقّة كبرى، إلّا إنه لم يتمكّن من استعادة صور، على الرغم من محاصرتها أكثر من مرّة. ولعله كان على وشك

---

(٦) Dajani-Shakeel, «Salah al-Din's Recovery,» *op. cit.*, pp. 99-101.

أيضا: ابن واصل، ج ٢، ص ٢١٦.

من الأمثلة التي يرويها عماد الدين الأصفهاني، تسيير صلاح الدين لأهالي تبنين ومَنْ حولها مع عساكره ليحموهم في أثناء الرحلة إلى صور. الأصفهاني، «الفتح»، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٧) يذكر ابن واصل أن المسلمين حاولوا أن يمنعوا ريموند الثالث من الحرب، لكنهم أخفقوا. ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٩٠.

(٨) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج ١٠، ص ١٥٢.

احتلالها أول مرة عندما حاصرها سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ولكنّه وجدها منيعة فرفع حصاره عنها، لأن استراتيجيته كانت تعتمد عادة على الاحتلال السريع.

كان ريموند، حاكم طرابلس، قد نزل في صور بعد هربه من حطّين، ولكنه عندما علم بنزول صلاح الدين على صيدا غادرها إلى طرابلس من دون أن يترك فيها قائدا أو حامية، مع أن الفرنج لجأوا في معظمهم إليها، ومات بعد ذلك بوقت قصير.(٩) وأما حاكم أنطاكية، وهو الوحيد الذي ظل بعد ريموند من حكام اللاتين في الشرق، فلم يتبرّع بتقوية حامية صور.(١٠) وعليه، فلم يبقَ من يدافع عن صور سوى رينولد حاكم صيدا وأحد الهاربين من حطّين. وعندما رأى رينولد غياب جميع الفرسان، إمّا لوفاتهم وإما لأسرهم، وأن حامية المدينة صغيرة، والأزواد قليلة، طلب من صلاح الدين أن ينسحب عن حصارها على أن يسلمها اليه في وقت لاحق، ولكنّه وافق مبدئيا على رفع علمين من أعلام صلاح الدين على قلعتها.(١١)

إلا إنه سرعان ما تغيّرت الأحداث إذ كان القدر يخبىء لصور ولصلاح الدين مفاجآت جديدة، منها أن كونراد مركيز مونتفرات (من بيدمونت) أحد فرسان الفرنج الذين كسبوا شهرة في إيطاليا وبيزنطة، كان في القسطنطينية بشأن خلاف شخصي مع حكامها، فغادرها على ظهر شيني يقل بعض أعوانه، بقصد الحج إلى كنيسة القيامة قبل موقعة حطّين بقليل؛ ولم يكن قد سمع على ما يبدو باسترجاع صلاح الدين لفلسطين. وقد وصل كونراد إلى عكا في الثالث عشر من تموز (يوليو) ١١٨٧م/ربيع الثاني ٥٨٣هـ، فأرسى مراكبه فيها ظانّا أنها لا تزال إفرنجية، ولكنّه لاحظ أشياء غريبة، منها أن زي أهل البلد يختلف عن زي الفرنج، وأن الأجراس التي كانت تدق عادة كلما دخلت سفينة الميناء، لم تدق هذه المرة، فشك في الأمر. وكان حاكم عكا آنذاك الملك الأفضل نور الدين، ابن صلاح الدين الأكبر، فأرسل بعض أصحابه إلى المركيز ليستفسروا عنه ويسألوه عن غاياته. فلمّا وصل أحدهم إلى المركيز سأله المركيز عن الأخبار، فأخبره أن الفرنج قد هُزموا، وأن عكا في يد المسلمين. وأعلمه أيضا أن صور وعسقلان لا تزالان مع الفرنج، كما أخبره عن فتوحات صلاح الدين، فخاف المركيز على نفسه، ولكنّه لم يتمكّن من الإقلاع نظرا إلى ركود الرياح. فماطل السلطات في عكا بضعة أيام حتى هبّت الريح، فأقلع إلى صور. ولم يفطن الأفضل وسلطاته لنيات المركيز إلا بعد فوات الأوان، فأتبعوه بالشواني تطلبه، ولكنها أخفقت في توقيفه

(٩) Lane Pool, *op.cit.*, p. 220.

(١٠) *Ibid.*

(١١) *Ibid.*

أو تعويق إقلاعه.(١٢)

وصف عماد الدين الأصفهاني المركيز بقوله أنّه: «من أكبر طواغيت الكفر وأغوى شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وأنجس كلابه، وأنهش صِلاله، وأفحش ضلاله»؛ «وأنه الطاغية الداهية، الذي خُلقت له ولأمثاله الهاوية. ولم يكن وصل إلى بلاد الساحل قبل هذا العام، ولا خلف مقدّمي الكفر غيره في الإقدام على خلاف الإسلام.»(١٣) وصل المركيز إلى صور فالتفّ أهلها حوله وعيّنوه قائدا لهم، مُلغين بذلك شرعية مُلك ملكهم غي.

بدأ المركيز عمله بتحصين المدينة وراح ينظّم أمورها، ورمى أعلام صلاح الدين في الخندق. ولقد حاول صلاح الدين أن يقنعه بتسليم المدينة ووعده بإطلاق والده مركيز مونتفرات الكبير من السجن في دمشق، ولكنه رفض قائلا: «إن أباه عاش حياة طويلة، وإذا أراد صلاح الدين أن يقتله فليفعل، وإنه لن يسمح بتسليم حجر من صور لينقذه.»(١٤)

كان صلاح الدين محاصِرا لصور، فرفع الحصار عندما رأى صعوبة احتلالها وتوجه إلى عسقلان. إذ كان أوّل اهتماماته آنذاك (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، شهر آب/ أغسطس ـ أيلول/ سبتمبر) أن يفتح الطريق بين الشام ومصر، والتوجه من ثم إلى باقي الشام والأردن للفتح. ولقد فتح بعد ذلك ما فتح، لكن صور ظلت حصينة، بل أكثر حصانة ممّا كانت عليه في أي وقت مضى.

ووُجّه إلى صلاح الدين ضغط شديد لفتحها، فالأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، نائبه في صيدا وبيروت، كان يحرّضه على فتحها لقربها منه، وربما لملاحظته ما يجري داخلها يوميا من تحصينات وإعدادات. فكتب إلى صلاح الدين ناصحا بل مشدّدا على احتلالها، فسار (صلاح الدين) من القدس في أوّل رمضان ٥٨٣هـ/ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٨٧م ووصل إلى صور في ٩ رمضان، وخيّم قربها. ولكن المركيز كان قد أحكم تحصيناتها في البر والبحر وشحنها بالمقاتلة والعدّة، فنزل صلاح الدين قربها مدة ثلاثة عشر يوما حتى وصلت عساكره إليه، مع أخيه العادل وابنيه الأفضل والمظفّر. ثم بدأ بحصارها، وكان قد استدعى أسطوله، فأقلع من عكا ووصل

---

(١٢) Grousset, *op.cit.*, p. 177.

للمزيد من التفصيلات: ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩؛ الأصفهاني، «الفتح»، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(١٣) الأصفهاني، «الفتح»، ص ١٠٩.

(١٤) Lane Pool, *op.cit.*, p. 222.

بعشرة شوان إلى صور، حيث دارت معارك برية وبحرية بين الجهتين، إلى أن أخذ الفرنج خمسة شوان من أسطول صلاح الدين وأسروا مقدّميها. وقد اضطُر بعض المسلمين إلى أن يُلقوا بأنفسهم في البحر فهلك بعضهم ونجا بعض. وأمّا الشواني التي لم يأخذها الفرنج فأقلعت من صور إلى بيروت، ولكنها تعرّضت للفرنج في أثناء إقلاعها ولم ينجُ منها سوى شيني واحد. كما رمى كثير من بحّارتها بأنفسهم في البحر كي لا يقعوا في يد العدوّ. وكانت هذه صدمة لصلاح الدين.[١٥]

يلوم ابن شدّاد رجال الأسطول في هذه الكسرة التي تمت في ٢٧ شوال ٥٨٤هـ/ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٨م، مشيرا إلى أن هؤلاء حُذّروا ونُبّهوا إلى ضرورة اليقظة والحذر، ولكنهم أغفلوا النصيحة ففاجأهم الفرنج وهم راسون في الميناء وأخذوا مقدّميهم، وخمسة شوان، كما قتلوا «خلقا عظيما من المسلمين.»[١٦]

كانت هذه أول هزيمة مهمّة لصلاح الدين، بعد فتوحاته السابقة، وكانت نكسة لأسطوله المجدَّد، ولعلها أضعفته فيما بعد عن القيام بأعمال عسكرية ذات شأن. ولا بُدّ من أنّها كانت السبب في إرسال صلاح الدين للقاضي الفاضل من دمشق إلى مصر بعد هذا الحدث بأشهر قليلة للإشراف على إعادة تنظيم الأسطول، وتعويض ما ضاع منه.

أثّرت هذه الكسرة في السلطان إذ جاءت في وقت لم يكن يتمكّن فيه من الثأر، لأن الشتاء كان قد هجم والأمطار تراكمت، حتى اضطر المقاتلون إلى التوقّف عن القتال. وحينئذٍ جمع صلاح الدين الأمراء واستشارهم فيما يعمل، فاقترحوا عليه الرحيل عن صور ليرتاح العسكر من ناحية، وليتمّوا استعدادهم من ناحية أُخرى فوافق، ورحل عن صور إلى عكا في ٢ ذي القعدة ٥٨٣هـ/ ١١٨٨م بعد أن أحرق ما لا يمكنه نقله من الآلات، وتفرّق عسكره إلى مواطنهم وإقطاعاتهم.[١٧]

أمضى صلاح الدين بعد هذه الوقعة شهرين في عكا، ثم قصد حصن كوكب حيث قدم عليه القاضي الفاضل من دمشق، وشاهد فتحه، ثم توجّه إلى مصر للإشراف على تجهيز الأسطول وترميمه،[١٨] كما أسلفنا.

شُغل صلاح الدين عدّة أشهر من هذه السنة، ٥٨٤هـ / ١١٨٨ ـ ١١٨٩م، بفتح الساحل الشامي (السوري اللبناني). بينما ركّز الفرنج على استدعاء المعونة والنجدات من أوروبا، وعلى تحصين صور، بحيث أخذ الأمل باستعادتها يتضاءل.

(١٥) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥؛ الأصفهاني، «الفتح»، ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(١٦) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.
(١٧) الأصفهاني، «الفتح»، ص ١٦١، ١٦٨ ـ ١٦٩.
(١٨) التفصيلات: الأصفهاني، «الفتح»، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

يلوم لين بول، أحد الكتّاب المتأخّرين، صلاح الدين على هذا الانسحاب معلّقا بقوله: «كان انسحاب صلاح الدين عن صور نقطة التحوّل في مسيرته المُكَلَّلة بالانتصارات، وغلطته غير القابلة للتصحيح. فقد كان من عادته أن يتجنّب الحصارات الطويلة، ولم يكن في هذا خطأ. وكانت قواته مؤلفة من عساكر إقطاعية قليلة التدريب، من أجناس مختلفة، ولغات أو لهجات مختلفة، يجمعهم الأمل بجمع الغنائم أكثر من الولاء للسلطان أو حتى الحماسة للجهاد. فإذا حسُنت قيادتهم حاربوا بنجاح في السهول، وإذا حاصروا مدينة أو قلعة فإن أمل الغنيمة وحبّ المبارزة كانا يبثان الحماسة فيهم. وأمّا الحصار الطويل فكان يحبط من عزيمتهم ويخلق مجالا للمنافسات بين هذه العساكر المختلفة... ولكن مهما تكن الأوضاع فإن صور كان يجب ألا تُترك، وكان على صلاح الدين أن يبني أسطولا وأن يخرّب السفن الصورية وأن يملأ الخندق ويهدم الأسوار حتى لو عَدِم نصف عسكره... لكنّ صلاح الدين كان يعرف رجاله ويشعر بأنه لا يستطيع أن يعتمد على مدى تجلّدهم. ولقد أصبحت صور مركز التجمُّع والمقاومة الذي استطاع الصليبيون من خلاله أن يستعيدوا قوّتهم ومكانتهم على الساحل الفلسطيني... ولو أن هذه المدينة لم تقاوم لكان من الممكن التشكّك في قيام الحملة الصليبية الثالثة.»(١٩) ومع هذا فإن صلاح الدين تابع فتوحاته في شمال الشام، وفتح معظم الساحل.

ولقد وصف عماد الدين الأصفهاني الذي كان مع صلاح الدين في أثناء حصاره لصور، مقاومة المركيز وأهالي صور بقوله: «ونزلت النوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس، فوقع في الدردبيس والعذاب البئيس. فكأنما نُفخ في صور (صور). فحُشر أهل جهنم وملأوا السور. واتصلت زيادة الزّيادات للجروح بالجروح وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشروخ... وكانت صور على السوء مستوية وعلى كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتوية. فضجّوا وارتجّوا، وعاجوا وعجّوا ولجأوا ولجّوا. ونصبوا على كل نيق منجنيقا، شدّوا من كل جانب ركنا وثيقا، وشدّوا في الجبال، ومدّوا في الحبال. ورموا من الشرفات بالشرور والآفات.»(٢٠)

حاول صلاح الدين أن يفتحها، ولكنه لم يفلح لأن صور - بحسب رأي عماد الدين الأصفهاني - مرتجة أبوابها، مغتصّة جوانبها... مشحونة أبراجها، مسجونة أعلاجُها... محشودة كتائبها. والمركيس بها متجهّم، وإبليس عليه متحكّم!.»(٢١)

---

(١٩) Lane Pool, *op.cit.*, pp. 242-244.

(٢٠) الأصفهاني، «الفتح»، ص ١٥٤.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

ولمّا طال الحصار وصعب فتح صور على صلاح الدين، جمع أمراءه وكبار خبرائه للمشورة - ولم يكن القاضي الفاضل بينهم فيما يبدو لأنه كان هذه المرّة في دمشق - وخاطبهم بأمرها فردّ عليه بعضهم قائلا: «هذا بلد حصين، ومكانه من الأرض مكين، في البحر ثلاثة أرباعه، وفي السماء ارتفاع يفاعه، وطريقه الذي يُسلك من البرّ إليه، قد أحاط به البحر من جانبيه. وقد قطعوه بخندق في عرضه، وعمّقوه ونزلوا في أرضه. وكان من إحكام الحزم، وإتمام العزم، تكميل الآلات وتتميمها، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها، وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها، وتقريب الجفاتي والجنويات وتصفيفها، وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها، وتنحية أثقال العسكر وتخفيفها، وتنحية الرجال وتصريفها. . . فإذا حضرت هذه الأشياء والأشياع، وتيسّرت وتوفّرت الأصول والأتباع، رحب في الحصر والمضايقة وطال الباع. وإذا حالت الأحوال وضاعت الأوضاع، اختلّ واعتلّ النزال والنزاع.»[٢٢]

ومع هذا فإن صلاح الدين راح يُعِدّ للحصار ونصب المنجنيقات ثم أخذ يقاتل صور، ولكن عساكره أبدت شيئا من الفتور لأنها كانت قد تعودت الفتح السريع.

فلمّا توقف هذا الفتح، بحسب قول عماد الدين الأصفهاني، «توقفوا، وملّوا وضجروا وتأفّفوا. والسلطان مع ذلك يزداد في حدّه حدّة، وفي شدّه شدّة، وفي جدّه جدّة، يثبتهم بحثه ويحثّهم على الثبات، ويقوّيهم بجوده ويوجدهم بالقوات، ويقول: 'إن الله أمر بالمصابرة، ولا مصابرة إلا بالمثابرة فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا'.»[٢٣]

يصوّر لنا عماد الدين صورة عساكر متوانية عن القتال مختلفة الأهواء، وفي بداية التمرُّد. وربما كان هذا من الأسباب التي منعت صلاح الدين عن متابعة حصار صور. ولكنه كان كلّما تأخر عن فتحها ازدادت قوّة في داخلها.

ولمّا تأكّد استعصاء صور اتّجهت مسارح الحرب في اتجاهين مختلفين. فإن صلاح الدين استعاض من احتلالها باحتلال مدن الساحل الجنوبي كما شاهدنا، بينما تمدّدت القوات الصليبية منها في اتّجاه عكا.

رابعا: مدينة عكّا

تقع عكّا على الساحل الفلسطيني، وتبلغ نحو ثلاثة أرباع الميل طولا وربع الميل عرضا، وقد واجهت أطول حرب على أرض فلسطين، وضمّت في ثراها بقايا كثيرين من

---

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٥٨ - ١٥٩.

شهداء المسلمين المدافعين عنها من مختلف الأصول العِرقية، وبقايا المحاربين الغربيين من مختلف نواحي أوروبا. وشهدت الكثير من المعارك والبطولات، وخُلِّدت في تاريخ فلسطين بأنها مركز الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وقد حرّرها صلاح الدين، ثم أعاد الغرب احتلالها ثم حرّرها الملك الأشرف قلاوون، ثم حاصرها نابليون ولم يتمكن من احتلالها، وظلت صامدة تشهد المواكب البشرية تمرّ بها وتتصارع فيها، حتى احتلها الإنكليز سنة ١٩١٨م، وأوثقوها مثلما أوثقوا كل الأراضي الفلسطينية، لينقضّ عليها يهود «الوطن القومي» الذي أقامته بريطانيا وتعهّدته، ويضمّوها إلى دولة إسرائيل التي أقاموها، أو أقيمت لهم.

لقد وصفها لين بول بأنها كانت في العصور الوسطى ذات أسوار قوية، وأبراج متينة تحميها من ناحية البرّ شرقا وجنوبا، بينما كان البحر يحيط بها من جانبيها، ويشرف عليه من ناحية الشمال الشرقي برج، ويحيط بمينائها سلسلة وقلعة صخرية تسمى برج الذبان، لأنها كانت في يوم من الأيام مركزا للتضحية. وكانت أسوارها تكشف مرج عكا لمسافة عشرين ميلا من الشمال إلى الجنوب، ويمرّ بها جدولان وتحيط بها تلال عديدة ذات أهمية عسكرية تبعد مسافة خمسة أميال عن الساحل، كما أن عكّا تبعد بضعة أميال عن حدود لبنان الحديث.[٢٤]

لكن عماد الدين الأصفهاني الذي رآها بنفسه وصفها بصورة تختلف قليلا عن لين بول بقوله: «كانت عكّا مدينة متحرّقة، بيوتها متفرّقة، سورها غير معمور، معظمها بلا سور، رأى البعض تخريبها وحفظ الحصون (من غيرها) بينما أشار البعض بإبقائها مدخلا هاما من جهة البحر: 'إذا صينت عكا، مُلك البحر، وهلك الكفر. وكانت على البلاد الساحلية قُفْلا، وكانت بها بلاد الكفر غُفْلا'. ولقد اقترح البعض حينما حرّرها صلاح الدين إبقاء برج الداويّة لحفظ مينائها، واقترح البعض الآخر تجديد أسوارها وتعميرها 'على أن أسوار هذه البلد سيوفها التي هي عند الفتوح مفاتيح أقفالها'.»[٢٥]

وكان صلاح الدين قد اتخذ قلعة عكّا سكنا موقتا له ينزل فيه متى شاء، كما سكن ولده الأفضل البرج المعروف ببرج الداويّة، ووقف صلاح الدين دار الإسبتار فيها نصفين، نصفا على الفقهاء ونصفا على الصوفية، «والوافدين من أهل الطريقة والمعرفة.» ووقف دار الأسقف بيمارستانا كما وقف عليه أوقافا عديدة، وفوّض إدارتها إلى عز الدين جورديك النوري.[٢٦]

---

(٢٤) Lane Pool, *op.cit.*, pp. 259-260.

(٢٥) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٢٠٨.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٨٢؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٧.

وأبدى صلاح الدين اهتماما خاصا بعكّا فاستدعى بهاء الدين قراقوش، باني سور القاهرة ومصر، إلى عكا ليساعده في تحصينها، فقدم عليه من مصر ومعه كل ما يحتاج إليه من «أدوات العمارة وآلاتها، والعمّال والعمّارين والمهندسين والحجّارين والمعماريين وأسارى الفرنج، والصُنّاع والنُحّات والقطّاع والمال الكثير للنفقة.»[٢٧] ووصل بهاء الدين قراقوش إلى عكّا أوائل سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م، وشرع فورا في البناء والتعمير والتسوير، فعمل على تجديد سورها وتعلية أبراجها وترميمها. وظل على هذا الحال حتى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، وصلاح الدين يشرف معه على عملية التحصين حتى وصل بعض الأمراء من مصر إليها فولّى حسام الدين بشارة واليا عليها وعاد إلى دمشق في صفر ٥٨٥هـ/١١٨٩م.[٢٨]

خامسا: إشراف القاضي الفاضل على الإعداد العسكري والمعنوي لمعركة عكا

كان القاضي الفاضل عند قدوم بهاء الدين قراقوش إلى عكّا مريضا في دمشق، ولكنْ عندما عاد صلاح الدين من عكا إلى دمشق كان (القاضي الفاضل) قد غادرها ووصل إلى القاهرة. وقد عاد إليها هذه المرة في أوضاع صعبة، فالخطر الصليبي الجديد مُحْدِق بالمنطقة، وحاكم مصر ونائب صلاح الدين فيها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين،[٢٩] شاب صغير لعوب، لا يعرف من الإدارة أو أصول الحكم أو تجارب الحرب شيئا، فكيف بالوقوف في وجه عدو عنيد قد يهاجم مصر في أي وقت؟ وكان وجود القاضي الفاضل إلى جانبه ضروريا لمساعدته في الحكم، ولا سيّما أن الأساطيل الغربية الفرنجية كانت تتهادى في البحر المتوسط ولن يُستبعد منها الشرّ. ومن ناحية أُخرى، فإن جمع المعلومات عن تحرّكات الأساطيل والفرنج كان أمرا مهما، ومصر أفضل مركز لها لتوسّطها بين أوروبا والشام، والقاضي الفاضل خير من يدير أمورها في أوضاع حرجة كهذه؛ فإن القاضي الفاضل وصلاح الدين كانا يتخوّفان من مؤامرات سرّية يدبرها بعض الفئات المصرية والفرنج المنتشرين في كل مكان، ولم

(٢٧) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٢٠٩.

(٢٨) المقريزي، «السلوك»، ج ١، ص ٩٩؛ الأصفهاني، «الفتح»، ص ٢٧٦.

(٢٩) أبو شامة، «الروضتين»، ج ٢، ص ١٦٥، ١٨٢. وللمزيد من المعلومات: المقريزي، «الخِطط»، ج ٢، ص ٢٣٥.

ينسيا محاولة بعض العناصر الفاطمية الثورة سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

ومع أن القاضي الفاضل كان في القاهرة، بعيدا عن حروب صلاح الدين ضد الحملة الصليبية الثالثة، فإنه كان على اطّلاع تامّ على كل ما يحدث على الجبهة الفلسطينية الشامية، وعلى الجبهة الأوروبية الغربية. فقد كان يتوقّع قبل عودته من دمشق إلى القاهرة (في ذي الحجة ٥٨٤هـ / آذار (مارس) ١١٨٩م)، هجوما فرنجيا شاملا من المواقع الفرنجية في الشام، ومن بلاد الغرب. وقد بدأ منذ ذلك الحين يكتب نداءاته واستنجاداته للحكّام والملوك المسلمين، ليضمن وصول مساعداتهم في الوقت المطلوب والمبكّر. وكان قد كتب رسالة عن صلاح الدين إلى سيف الإسلام طغتكين ابن أخيه في اليمن يدعوه إلى المشاركة في الجهاد ويُهيب به للقيام بواجب ديني فرضه الله عليه في أوضاع كهذه. فالصراع كما يصفه القاضي الفاضل ليس صراعا محليا، بل صراع شامل للإسلام وللمناطق الإسلامية، هذه المناطق التي تشبه العِقد إذا انفرطت منه حبة انفرط باقي العِقد. وينبّه القاضي الفاضل سيف الإسلام طغتكين إلى عاقبة سقوط فلسطين ثانية في يد الفرنج، لأنها إذا حصلت في أيديهم فلن يكون هو (أي سيف الإسلام) آمنا في اليمن، ولن يكون غيره من الحكّام المسلمين آمنين في مراكز حكمهم. ولقد عبّر في كتابه هذا عن رؤية موسّعة في الجهاد اعتبر فيها الخطر الصليبي استعمارا جديدا لن يتوقّف عند حد معيّن أو عند بلد معين، واعتبر أن الوحدة الإسلامية إنما هي وحدة شاملة، ومعنوية وجغرافية ودينية.[٣٠]

يقول في رسالته هذه:

«والآن فالمجلس السامي يعلم أن الفرنج لا يَسْلَوْن عمّا فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا، وإنهم لعنهم الله أمم لا تحصى، وجيوش لا تُستقصى، ويد الله فوق أيديهم، وسيجعل الله بعد عسر يسرا، وما هم إلّا كلاب قد تعاوت وشياطين قد تغاوت، وإنْ لم يُقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا، وكانوا لباطلهم الداحض أنصر منّا لحقّنا الناهض.»[٣١]

ويشير في الرسالة إلى التقارير الواردة عليه من الموظفين في الإسكندرية وبيزنطة والثغور المغربية التي تنذر بإعدادات الفرنج: «ينذرون بأن العدوّ قد أجمع أمرا، وحاول نكرا، وغضبوا زادهم الله غضبا، وأوقدوا نارا للحرب جعلها الله عليهم حطبا.. وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها. وأمّا نحن فبالله ندفع ما نطيق وما لا

(٣٠) الرسالة في: أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, p. 389.

(٣١) المصدر نفسه.

نطيق، وإليه نرغب في أن يثبت قلوبنا إذ كادت تزيغ قلوب فريق، ونحن الآن نستنجد أخانا وندعوه إلى ما له دُعينا، ونؤمِّل من الله أن ينصرنا دنيا ودينا، نرجو أن يمدنا بنفسه سريعا، وبعسكره جميعا، ويذخره الذي كان لمثله مجموعا، وأن يلبّيها دعوة إمّا أن يطيع بها ربّهُ لأنها دعوته، وإمّا أن ينصر بها نبيّه (صلعم) فإنها شريعته، وإمّا أن يُعِين بها أخاه فإنها شدّة الإسلام لا شدّته. . . فالبدارَ البدار، فإن لم يكن الشام له بدار، فما اليمن له بدار، والجنّةَ الجنّةَ، فإنها لا تُنال إلّا بإيقاد الحرب على أهل النار، والهمّةَ الهمّةَ، فإن البحار لا تُلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لا يقف في وجههم إلا الملوك الكبار.»[٣٢]

وكتب في رسالة أخرى، نرجّح أنها إلى الأمير نفسه، عن مخطّطات الفرنج لمهاجمة عكا يقول: «وصل إلينا أن العدو قد عمّر عمارتين بحرية وبرية، وأنفق أموالا وتكون عليه سوءة وبلية. وهو يخرج في هذا الربيع قولا وفعلا، ويغضب لثكل بيت المقدس زاد الله الكافر ثكلا، وينهض والسيف بمشيئة الله قَيْدُه، ويكيد للإسلام كيده وعليه ليعودَ كيدُه، ويروم أن يتصيّد ما هو بحول الله وقوته صيدُه. وقد كان الأمير يُستدعى فيعتذر فيُعذر، ويُستنهض وربما تأخر، فيكون عند (الثقة) بمودته ما تأخر، والدعوة اليوم ليست كالدعوة أمس، فإنها أمس خاصّة بنا واليوم علّة للإسلام وله ولنا.»[٣٣]

بينما كان القاضي الفاضل في مصر يحكم ويدبّر الأموال ويُشرف على إعداد العساكر وإرسالها إلى عكا، كان صلاح الدين يحضّر لحرب دفاعية استنفدت هذه المرة عساكره وأمواله ورجاله، ولعله كان «يعضّ أصابعه ندما» لأنه تساهل في أمر الملك غي لوسينيان، ملك المملكة اللاتينية التي أطاحها صلاح الدين، وغيره من فرسان الداوية والإسبتارية الذين سرّحهم لأنهم بدأوا الحملة الصليبية الجديدة. وكان صلاح الدين قد أطلق الملك غي من سجنه وهو محاصِر لحصن الأكراد سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، بعد أن اشترط عليه «ألّا يشهر سيفا أبدا ويكون مملوكَه وطليقَه.»[٣٤] ولكن الملك نكث العهد، وجمع من طرابلس جموعه، من قادة الفرنج الذين أطلقهم صلاح الدين وبينهم

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٣٣) القاضي الفاضل، «كتاب فيه من كلام القاضي الفاضل»، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٣٤) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨. يذكر ابن واصل أن صلاح الدين أطلق الملك غي عندما فتح عسقلان. ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٩٨. ولكنْ يبدو أن رواية ابن شدّاد أصحّ، فهو شاهد عيان للأحداث. يذكر ابن شدّاد أن السلطان كان قد اشترط على نفسه حين تسلّم عسقلان أنهُ إنْ أمّر الملك و (الحامية) بتسليمها أطلقه، فأمرهم بتسليمها وسلّموها، فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط، ونحن على حصن الأكراد من انطرطوس.» ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص ٩٨.

همفري التوروني، ابنُ أرملة رينولد (أرناط) صاحب الكرك، وجفري أخو الملك غي وقائدُ الداويّة وعددٌ كبيرٌ من الفرسان.[٣٥]

قصد الملك غي صور على أنه ملك المملكة اللاتينية الشرعي، وأن صور قاعدة ملكه الجديد. وخيّم خارجها مع فرسانه منتظرين إذنا من المركيز كونراد، حاكمها الجديد، في الدخول. ولكن المركيز رفض السماح له ولفرسانه بدخول صور قائلا: «إنني نائب الملوك الذين وراء البحر (الأوروبيين)، وما أذنوا لي في تسليمها إليك.»[٣٦]

ظل غي خارج سور صور عدّة أشهر من دون أن يتمكّن من دخولها، حتى وصل أسطول بيزي إلى مرفأ صور فاستدعاه واتفق مع من فيه على الإقلاع إلى عكا، وتوجّهوا جميعا إليها. ونصب الملك غي مخيمه شرقي عكا على تل المصلّبة. ثم بدأ يحاصرها في ١٣ رجب ٥٨٥هـ/ ٢٨ آب (أغسطس) ١١٨٩م.[٣٧] وعلى الرغم من صِغَر حجم قواته قياسا بقوات صلاح الدين، فقد أوجد لنفسه قاعدة يبدأ منها باستعادة ملكه، كما جعل من عكّا مركزا للحملة الصليبية الثالثة، وفيما بعد عاصمة لمملكة لاتينية مصغّرة دامت ما يقارب القرن.

عندما بدأت حركة الفرنج العسكرية من صور لاسترجاع عكّا، كان صلاح الدين يحاصر شقيف أرنون، فغادره مسرعا إلى عكا في ١٣ رجب ٥٨٥هـ / ٢٨ آب (أغسطس) ١١٨٩م بطريق طبريا. وصادف أن كان هذا اليوم هو الذي وصل فيه الفرنج إلى عكا. ودخل صلاح الدين عكا على غرّة من الفرنج تقوية لمن فيها، وراح يبعث إليها النجدات حتى اجتمع فيها عدد كبير من المسلمين، بينما استقرّ هو في أوائل مرج عكا وراح يُعِدّ للحرب الدفاعية.[٣٨]

أما الفرنج فنزلوا قريبا من عكا وعددهم ألفا فارس خيّالة، وثلاثون ألف رجّالة «ومددهم من البحر لا ينقطع»،[٣٩] بحسب رواية ابن شداد. وبحسب التقارير الغربية فإن قوات الفرنج كانت كما يلي: قوات الملك غي والبيزيين (البياشنة) كانوا نحو تسعة آلاف رجل، بينهم سبعمئة فارس ومعهم اثنان وخمسون شراعا. وقد وصل هؤلاء أوّلا، ثم تبعهم الأسطول الجنوي فالبندقي، فأسطول من شمالي أوروبا، من الدانماركيين

---

(٣٥) Lane Pool, *op.cit.*, p. 253.

(٣٦) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨.

(٣٧) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٢٩٨؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٩١.

(٣٨) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٠٥. (التفصيلات: ص ١٠٤ - ١٠٥).

والفريزيين والفلميين مع عشرة آلاف رجل، ثم الأسطول الصقلّي. ووصلت إلى عكا القوات الألمانية بقيادة الملك فريدريك الثاني ابن فريدريك بربروسا، كما وصل إليها في منتصف أيلول (سبتمبر) بعض القوات الفرنسية بقيادة الملك فيليب أوغسطس، ثم تبعتها أخرى إنكليزية بقيادة الملك ريتشارد، حتى اكتملت الجيوش الأوروبية في أكبر حملة صليبية منظمة خارج أوروبا.(٤٠) ومن ثم تكالبت أوروبا بأجمعها على صلاح الدين، أو على حرب الإسلام، وأصبحت عكّا مركز المقاومة لأنها مدخل الفرنج إلى فلسطين، واعتبر صلاح الدين الدفاع عنها دفاعا عن الإسلام وحماية للقدس، واعتبر الفرنج احتلالها إعادة لنفوذهم في المنطقة وثأرا لهزيمتهم في حطّين والقدس وباقي فلسطين.

ولقد وصف عماد الدين الأصفهاني وضع عساكر صلاح الدين في هذه الأوضاع التي لم يواجهوا مثلها من قبل بقوله: «نزل الفرنج على عكّا من البحر إلى البحر يحيطونها، وضرب الملك العتيق (غي) خيمة على تل المصلّبة، ورُبطت مراكبهم بشاطىء البحر، ثم عبّأ السلطان أطلابه، وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا، فنزل عليه، وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، واختلط العسكر الإسلامي بالعدو، وصار السلطان محاصِرا للفرنج، والفرنج محاصِرين لعكّا.»(٤١)

ويبدو أنه حدثت بلبلة بين عسكر صلاح الدين في بداية الأمر، فإنه وإنْ لم يأتِ زَحْفُ الفرنج من الغرب مفاجئا لهم فإن كثرة الزاحفين وثقتهم بقوّتهم ومدى تنظيمهم كانت مفاجأة أخافت المسلمين. ولقد كثرت الآراء والتخطيطات والمقترحات على كيفية اقتلاع الفرنج، فمن متفائل قائل إن قوّات صلاح الدين قد تقضي عليهم إذا زحفت بحسب خطّة معينة؛ ومن قائل إن على قوات صلاح الدين أن تُدخل الرجّالة إلى عكّا، ثم تتقدم من خارج المدينة ويخرج مع من في المدينة في الوقت نفسه، فيقاتلون العدو من الداخل والخارج. ومن رجال صلاح الدين مَنْ تردد في الموافقة على الهجوم على قوات الفرنج، خوفا من كثرة أعدادهم، طالبين الانتظار حتى يصل باقي القوات الشامية والمصرية. وبينهم مَنْ اقترح استدعاءَ أسطول مصر لمقاتلتهم ثم هزيمتهم، ولقاءَهم في معارك حربية. هذا كله يجري وصلاح الدين في حركة دائمة من الحرب والاستعداد.(٤٢)

ويبدو من تعليقات عماد الدين الأصفهاني أن المسلمين، مع تخوّفهم من أعداد الفرنج، كانوا واثقين بأن النصر لهم، ولِمَ لا، ولمْ يعرفوا حتى ذاك الوقت إلّا النصر،

---

(٤٠) Grousset, *op.cit.*, pp. 180-181.

(٤١) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٢٩٨؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٩١.

(٤٢) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٣٠٠ - ٣٠٣.

غير أنّهم أغفلوا أنهم يواجهون هذه المرة عدوا يختلف عن عدوّهم السابق. فهو عدوّ ذاق طعم الهزيمة والتشرُّد واللجوء، والتفّ الآن حول زعيم عُرف ببطولته وحروبه وخبرته، وقد نظّمهم ودرّبهم وقادهم إلى عكا. وما توقفت القضية عند هذا الحد، إذ أخذ هذا العدو يزداد عددا بوصول المتطوّعين الوافدين من الغرب، طلائع حملة صليبية جديدة، لم يرَ الشرق مثلها من قبل، يقودها ثلاثة ملوك كبار، لا لفيف من الأمراء الإقطاعيين أو من الجيوش الشعبية غير المنظمة كما في الحملة الأولى، بل جيوش منظمة مدرّبة ذات موارد واسعة، تصحبها آلات جديدة لم يشاهد المسلمون مثلها من قبل.

سادسا: معركة عكّا

ملحمة صلاح الدين، والقاضي الفاضل

اشتبكت قوّات المسلمين، في بادىء الأمر، مع قوّات الفرنج المحلّيين وحلفائهم ممّن وصلوا قبل الملوك الفرنج، وجرت بين الجانبين معارك عديدة كان النصر فيها لهذا الجانب تارة ولذاك الجانب تارة أُخرى. وظلّت القوات في كرّ وفرّ ما يزيد على العامين تجمّع خلالهما من الجيوش والعساكر الإسلامية ما لم يتجمّع مثله من قبل.(٤٣) وكان بين هؤلاء عسكر صلاح الدين وعددهم ثمانية أطلاب، ثم العساكر الإقطاعية والشامية كل منها بقيادة أمير المنطقة المُقْطَعة، وبينها عسكر ديار بكر الذي وصل إلى عكّا بقيادة قطب الدين بن نور الدين صاحب كيفا، وعسكر نابلس بقيادة حسام الدين بن لاجين، وعسكر الشام بقيادة تقي الدين عمر، وعساكر سنجار وحلب والجزيرة والموصل وبعلبك وإربل والمماليك الأسدية، والعسكر المصري الذي وصل سنة ٥٨٧هـ / ١١٩٠ ـ ١١٩١م بقيادة الملك العادل، ثم الأسطول المصري الذي وصل بخمسين شينيا مزوّدا بالأزواد والعُدَد، وبين رجاله بعض السودان.(٤٤) وهذه أول مرّة نسمع فيها عن اشتراك السودان بعد أن قضى صلاح الدين على ثورة مؤتمن الخلافة.

وقفت هذه القوات مع صلاح الدين وقفة واحدة تمثّلت فيها وحدة الإسلام في مقابل المسيحية الغربية، وفي مقابل أكبر عدد من الجيوش النظامية الغربية. ومع أن الملك الألماني فريدريك بربروسا، الذي أخاف المسلمين، توفّي في آسيا الصغرى وهو

---

(٤٣) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.

(٤٤) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٣٣٥؛ ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١. لترتيب الجيوش: ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧.

في طريقه إلى فلسطين، فإن ابنه فريدريك الثاني حاكم سوابيا تابع الرحلة واشترك في المعارك في عكّا.(٤٥) واشترك فيها أيضا كل من فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد ملك الإنكليز. ولقد قاوم صلاح الدين هذه القوّات بكل عنف وقوّة وإيمان على الرغم من تململ بعض القادة المسلمين وتخاذلهم، وتجلّت فيها طبيعة صلاح الدين السمحة وبطولته وإيمانه وصبره.

ولقد روى كل من بهاء الدين بن شداد وعماد الدين الأصفهاني قصصا ونوادر عنه خلّدته في عالم البطولة وفي تاريخ فلسطين. ومن جملة هذه الروايات: أنه خلال أوّل معركة كبرى، أو المصاف الأعظم على عكا في ٢١ شعبان ٥٨٥هـ / أيلول (سبتمبر) ١١٨٩م، واجه الفرنج المسلمين بأعداد هائلة، فتصدى لهم المسلمون، وتقابل الجيشان، ووقعت الوقعة على عسكر ديار بكر، وكانوا في ميمنة جيش صلاح الدين، فانهزموا وقُتل منهم أعداد كبيرة، وانهزمت معهم ميمنة جيش صلاح الدين، وهرب معظم العسكر حتى وصل بعضهم قرب طبريا. وكان مع الهاربين عماد الدين الأصفهاني الذي سجّل هذه الواقعة. وعلى الرغم من الهزيمة، ومن ضعف معنويات المحاربين المسلمين، فإن صلاح الدين راح يطوف على الأطلاب فينُهضهم، ويَعِدهم الوعود الجميلة، ويحثّهم على الجهاد، وينادي فيهم: «يا لَلاسلام»، ولم يبقَ معه وهو يطوف على الأطلاب ويتجاوز الصفوف سوى خمسة رجال. وبعد تجميع الشمل استدعى أمراءه وعساكره وخاطبهم، بحسب قول بهاء الدين الذي كان بينهم، قائلا: «بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا، وقد وطىء أرض الإسلام، وقد لاحت لوايح النصرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد

---

(٤٥) لتفصيلات حملة فريدريك بربروسا:

Edgar Norman, «The Crusades of Frederick Barbarossa and Henry VI,» *A History of the Crusades*, ed. by Kenneth Setton (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1962), pp. 90, 114. (Complete account pp. 87-122).

انقسم الجيش الألماني، في إثر وفاة فريدريك بربروسا، عدّة فرق، فعادت فرقة إلى ألمانيا، بينما تابعت فرقة أخرى السير إلى طرابلس من أنطرطوس (بحرا)، وتوجّهت فرقة ثالثة بقيادة الدوق فريدريك (ابن الملك) إلى أنطاكية بحرا، بينما اتخذت فرقة أخرى الطريق البرّي إلى أنطاكية. وحالما وصل الدوق فريدريك وفرقته إلى أنطاكية، أصيبوا بالطاعون، ولكن فريدريك تابع سيره إلى عكّا، حيث توفي بالطاعون، ودُفن فيها في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١١٩١ م.

Norman, *op.cit.*, pp. 114-115.

للمزيد من التفصيلات:

Ehrenkreutz, *op.cit.*, pp. 212-231; Runciman, *op.cit*, Vol. III, pp. 3-75; Mayer, *op.cit.*, pp. 134-148.

بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بُدّ من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك. وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك.»[٤٦]

وتدلّ كلمات صلاح الدين البسيطة على أنهّ رأى صراعه في هذه المعركة صراعا دينيا خالصا، لاستخلاص «أرض الإسلام» التي اعتبرها بلدا له وللمسلمين أيضا «بلدنا». وهي تنمّ أيضا عن اقتناع كامل بواجب الجهاد من ناحية دينية روحية لا مادية ولا توسّعية، فالبلاد المفتوحة يجب أن تظلّ ضمن الحظيرة الإسلامية. وتشير كلماته أيضا إلى اعتماده الكبير على القوات المصرية في الجهاد، وعلى دور مصر البارز فيه، فإشارته إلى أخيه الملك العادل إشارة إلى أحد قادته الحربيين المتدرّبين. وكان الملك العادل آنذاك في طريقه إلى ساحة عكّا الحربية، مصطحبا معه الجيوش المصرية التي أشرف القاضي الفاضل على إعدادها له. وكانت هذه القوات التي اصطحبها الملك العادل معظم ما تبقى من القوات المصرية التي يُعتمد عليها في المعركة، ما عدا أقلية في مصر لحمايتها.

وإن دلّت كلمات صلاح الدين أيضا على شيء فعلى إخلاصه في الجهاد وفي إنجاز مهمته فيه بتطهير فلسطين. ولقد وقعت دعوة صلاح الدين لعساكره على آذان صمّاء، لأن العساكر المشرقية كات قد تعبت من التعبئة المستمرة وراحت تتحسّب عواقب حرب مع عدوّ يزداد يوميا عَدَدا وعُدّة. وكان الضجر قد استولى على نفوسهم ولا سيما أنهم كانوا قد أمضوا نحو خمسين يوما «تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عزك اللجم، وسئمت نفوسها ذلك؛»[٤٧] فاقترح الأمراء والعساكر أخذ إجازة قصيرة، فوافق صلاح الدين لأنه هو نفسه كان يشعر آنذاك بشيء من المرض والضعف.

ويروي ابن شداد أيضا أنه في إحدى المعارك الكبرى على عكّا، يوم الاثنين ١١ شوّال ٥٨٦هـ / تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٠م، كان صلاح الدين مريضا وهو بقربه، فنزل عند رأس الخروبة ليشاهد ما يجري عن كثب، وليتلقى أخبار الفرنج باستمرار، ولكنه عندما سمع يوم الأربعاء، الثالث عشر من شوّال، أن الفرنج قد تحرّكوا للركوب صباحا، ركب ورتّب الأطلاب حتى أتى قرب جبل الخروبة، على الرغم من أنه كان تعبا، «ضعيف القوة، قوي القلب»، ومع هذا أخذ يدير المعركة ولو أنه لم يتمكن من

---

(٤٦) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠ ـ ١١١، ١١٤.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ١١٤ ـ ١١٥.

الاشتراك فيها بنفسه. ويعلّق ابن شداد على موقف صلاح الدين قائلا: «ولقد رأيته ـ رحمة الله عليه ـ وهو يبكي في حال الحرب، كيف لم يقدر على مخالطة القوم، ورأيته وهو يأمر أولاده واحدا بعد واحد بمصافحة الأمر، ومخالطة الحرب، رحمة الله عليه. ولقد سمعت منه وقائل يقول له: إن الوخم قد عظم في مرج عكا، بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين، فأنشد متمثلا:

اقتلاني ومالكاً واقتلا مالكاً معي

يريد بذلك: 'إنني قد رضيت أن أتلف أنا إذا تَلِف أعداء الله'.»[٤٨] ولقد أثار بموقفه هذا قوة عظيمة في نفوس العساكر الإسلامية.

كتب عماد الدين الأصفهاني إلى القاضي الفاضل عن الوضع في عكا وموقف بعض العساكر الإسلامية، فأجابه القاضي الفاضل برسالة طويلة موجّهة إلى صلاح الدين ينتقد فيها تباطؤ الحكّام المسلمين، ووحدة المسيحيين الغربيين، يقول فيها: وقف (أي القاضي الفاضل) على ما أنعم به المجلس العمادي، أوزع الله شكر قلمه ولا عدم الأمل من كرمه، الكتاب المؤرخ بانسلاخ رجب، وورد مصر في ثامنه (ثامن شعبان ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) والقلوب متشوقة والعيون مستشرقة وخواطر الإشفاق في الخواطر متفرّقة... يقول فيها: «وعدمت (الحضرة: أي هو) لهذا المتجدد خطراتها ويؤمل من لطف الله انفتاح الأبواب المبهمة وانجياب الشدائد المظلمة، وأن يجري سلطان الإسلام على ما يعلي ما هو سلطانه، ويشد بنيان ما اشتد به بنيانه. وعرف ما المجلس به من مرابطة ومثاغرة ومجاهدة ومصابرة، ومواجهة بخيامه لخيام الكفّار، ومكاثرة لأصحاب الجنّة الذين يرغم الله بهم أهل النار. وعرف ما شرحه من الأحوال العراقية، والأحاديث عنه، وما ينقضي عجبي من تضافر الكافر على كفره، ومساعدته لجنسه في بره وبحره، وقعود المسلمين عن المسلمين في شرق الأرض وغربها وعلى بُعد المسافة وقربها، فلا مبتدىء فيهم ولا مجيب.» ويتابع القاضي الفاضل القول مقارنا بين الفرنج ووحدتهم وبين المسلمين وتذبذبهم، قائلا: «فانظر إلى الفرنج أي نجدة أُنجدوا وأي عظيمة وُردوا، وأي أموال أنفقوها، وغرامات عظيمة متجمّعة ولكنهم توزّعوها بينهم وفرّقوها، فما تقصر مراكبهم الحمالة والمعاملة في هذه السنين عن عشرة آلاف مركب، كلّها تحمل الخيل والخيالة، والأموال مأكولة ومشروبة والأسلحة، جبنة وسكّرا.. وشعيرا وحنطة، وآلات الحرب صغيرة وكبيرة، وحديد القتال والاستعمال مضروبا، وزبدا وأنواع التقاني والذخائر مساعَدة.. ولم يبقَ طاغية من طواغيتهم، وملك من ملوك مدنهم وجزايرهم،

---

(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

إلا بارى جاره، ونافس نظيره، في أسطول جهّزه وجيش أبرزه ومال أنفذه وميرة منها المراكب الكبار. وليس أحد من الفرنجة من وراء البحر يستشعر أن الإسلام إذا ملك الشام يفتح بلدا بيده، ولا يمدّ يده إلى بلده، ولا صنع الفرنج ما صنعوا وأعطوا ما أعطوا وجمعوا ما جمعوا إلا لمجرد الغيرة لمتعبَّدهم والحميّة لدينهم. ونحن نتوقّع والعياذ بالله لو أرخي لسلطاننا عنان، أعاذه الله مما عنته. . . تهدّم للإسلام عنان، لا أعدمه الله منه، وإن كان الإسلام يعود غريبا كما بدأ غريبا، لاستبدل كل بلد من كل مسجد كنيسة، ومن كل مصحف صليبا، فلا لله من نصروا ولا للعقبى أبصروا، ولا عن السرّ غابوا ولا في الخير حضروا، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما تنذر به هذه الأحوال.»[٤٩]

سابعا: القاضي الفاضل في عكّا

ظل القاضي الفاضل يدير دولة صلاح الدين في مصر حتى شهر ذي الحجة ٥٨٦هـ / كانون الثاني (يناير) ١١٩٠م، عندما قرّر التوجه إلى عكّا، واصطحب معه بعض موظفي ديوانه من مصر استعدادا لاستدعاء النجدات، وللقيام بالمفاوضات في حال حدوثها، وإعداد نسخ المعاهدات إذا ما عُقد صلح بين صلاح الدين والفرنج؛ ولاستلام التقارير عن التحرّكات العسكرية من الغرب وبيزنطة وآسيا الصغرى وغيرها، وبثّ العيون بين الفرنج المحاصِرين لعكا، والموجودين في صور واستلام تقاريرهم، ورفع معنويات المحاربين. كانت مهماته عديدة، على الرغم من أمراضه العديدة التي، وإنْ كانت قد عاقته عن صحبة صلاح الدين في بعض المعارك، فإنها لم تكن لتعوقه هذه المرة. فالمعركة حاسمة، وسيتقرّر فيها مصير فلسطين، وصلاح الدين، والقاضي الفاضل، والإسلام والمسلمين.

ولقد علّق عماد الدين الأصفهاني على قدوم القاضي الفاضل إلى المخيّم في عكّا بقوله: «وفي هذا الشهر كان قدوم الأجل الفاضل، ربّ الفضائل والفواضل من مصر، فأشرقت المطالع، وأشرفت الصنائع، وبشّرت المطالب بنجاحه، وغزرت المواهب بسماحه. وغابت بحضور مكارمه المكاره، ونزع بلبس أفضاله لباس الخمول عن ذوي الفضل النابه، وأعاد روح السلطان بإعادة الروح إلى سلطانه، وسر بمكانه، واقترن إحسانه بإحسانه، وظهرت في وجهه به الطلاقة، وفي قلبه العلاقة، وروى رأيه بريّ رأيه وتلقّن آيات النصر من نص آيه.»[٥٠]

---

(٤٩) القاضي الفاضل، «مراسلات فاضلية»، ص ٨١ - ٨٢.
(٥٠) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٤٦١ - ٤٦٢.

وما كاد يستريح من تعب الطريق حتى علم باستشهاد أحد كتّاب ديوانه (القاضي المرتضى ابن قريش) فشقّ عليه ذلك (٥٨٦هـ/ ١١٩٠م). ونزل (القاضي الفاضل) في خيمته في تلّ العياضية ومعه بعض أبناء صلاح الدين الصغار وكتاب ديوانه، وانكب رأسا على مهمّاته. وقد كان الفصل شتاء، والطقس باردا ماطرا كثير العواصف والبروق والرعود، وكأن الطبيعة كانت تنذر تلك السنة بشر مخبوء، فكان يسير إلى أعلى التل فيرى حشود الفرنج على عكّا، وهم يقاتلونها بشتّى أنواع آلات الحصار والأسلحة، ويقذفونها بالقذائف من دون توقّف، ثم يعود إلى ما وراء التلّ حيث خيمة صلاح الدين الحمراء فيجتمع إليه وإلى أبنائه ورجال دولته، يتبادلون الآراء والأخبار ويتشاورون،[٥١] ثم ينعزل ليسجّل مشاهداته إلى من لم يشترك في هذه الملحمة الكبرى من قادة المسلمين. ولقد شاهد وضع المحاربين في عكّا وترتيبهم، كما شاهد وصول ملك فرنسا في الربيع تحيط به ست بُطس، ورأى من بعده ملك الإنكليز ريتشارد يصل في ١٣ جمادى الأولى ٥٨٧هـ / حزيران (يونيو) ١١٩١م، إلى عكّا تصحبه خمس وعشرون قطعة بحرية. . . لقد شاهد إذاً تجمّع ملوك الفرنج على عكّا إعدادا للمعركة الحاسمة.[٥٢]

في يوم الخميس في الرابع من جمادى الأولى ٥٨٧هـ / حزيران (يونيو) ١١٩١م، زحفت عساكر الفرنج جمعاء تتقدّمها ملوكها على عكّا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق عالية كأنها قلاع، فكتب أهل عكّا وحاميتُها إلى صلاح الدين يستنجدونه ويطلبون منه إلهاء العدو عنهم، ففعل. ورتّب قوّاته ميمنة وميسرة وقلبا، ثم استفسر عن وضع الفرنج، فقيل له إن خنادقهم خالية من الكمائن، فسار حتى وصل إلى خنادقهم بحيث شاهد إعداداتهم عن كثب وأخذ يُعِدّ للمواجهة معهم، ولكن الفرنج ظلّوا دائبين على العمل، وأخذوا يطمرون الخندق بإلقاء أمواتهم ودوابهم، وحتى جرحاهم، فيه. وفي هذه الأوضاع تبدّت بطولة من أهل عكّا وحاميتها لا بدّ من الإشارة إليها. فقد انقسم أهل عكّا عدّة فئات وتوزّعوا المسؤوليات، فكان بعضهم ينزل إلى الخندق الذي رمى فيه الفرنج موتاهم، يقطّعون الموتى والدواب التي يلقيها الفرنج ليسهل نقلها إلى أماكن أُخرى، وبعضهم الآخر ينقلون الأشلاء المقطّعة ويلقونها في البحر، وقسم ثالث يدافعون عنهم حتى يتمكّنوا من القيام بمهمتهم، وقسم يعمل بالمنجنيقات وحراسة الأسوار. ولقد صبروا كثيرا وتعبوا إذ طال الأمر عليهم. وبينما أهل عكّا والفرنج المحاصِرون لهم على هذا الحال إذ وصل الملك ريتشارد في ١٣ جمادى الأولى، ٥٨٧هـ / حزيران (يونيو)

---

(٥١) المصدر نفسه، ص ٤٧٠.

(٥٢) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

١١٩١م فأوقد الفرنج احتفالا بقدومه نيرانا عظيمة رآها جميع من في معسكر صلاح الدين،(٥٣) ومنذ وصوله استعرت المعركة، وانتهت بسقوط عكّا بعد خمسة أسابيع من قدومه.

كانت كبرى عمليات المقاومة الإسلامية في عكّا حريق دبابة كبرى قرّبها الفرنج من سور عكّا، ووصفها ابن شدّاد بأنها دبابة هائلة، بأربع طبقات: الطبقة الأولى من الخشب، والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، كانت تعلو السور وتركبها المقاتلة، وقد أخافت أهل عكّا واحتاروا فيما يفعلونه، فراحوا يضربونها بالنفط ليلا نهارا إلى أن اشتعلت النار فيها، وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء، فعلّت أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل.(٥٤) ووصف القاضي الفاضل هذه الحادثة بقوله: «وعملوا الأبرجة وزحفوا بها إلى أبراج الثغر الحجرية وخصوصا إلى برج الذُبّان، ولكن حماهُ ذباب السيف الإسلامي من الذوبان، فلم يقدروا أن يستنقذوه، وضعفوا عنه فسلبهم أرواحهم الخبيثة، وإنْ يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه.»(٥٥) جرى بعد هذه الحادثة وقعات عديدة انتهت باحتلال الفرنج لعكّا. وسنذكر من هذه الوقعات بعض ما يعكس بطولة صلاح الدين في رواية كل من بهاء الدين بن شداد وعماد الدين الأصفهاني.

كان صلاح الدين يعلم وهن حامية عكّا، فأراد أن يحوّل القتال عنها إلى جبهة أخرى. فركب يوم الثلاثاء في ٧ جمادى الثانية ٥٨٧هـ / تموز (يوليو) ١١٩١م في عساكره واتّجه ناحية الفرنج وزحف على خنادقهم وكان في حالة نفسية صعبة: «كالوالهة الثكلى، يسير من طُلب إلى طلب، ويحثّ الناس على الجهاد، وينادي 'يا لَلْاسلام'، وعيناه تذرفان الدموع، ولم يطعم هو ولا الناس في ذلك اليوم طعاما، وإنما شرب شيئا أشار إليه الطبيب، ثم عاد إلى مخيمه لما هجم الليل...»(٥٦)

وبعد أن اشتدّ حصار الفرنج على عكّا لم يبقَ مجال للاتصال بحاميتها ومَنْ فيها إلّا عن طريق المراسلات التي كان يوصلها رُسُلها سباحة، يخاطرون بحياتهم في سبيل الجهاد، وعُرف هؤلاء الرسُل بالعوّامين واشتهر منهم عيسى العوّام الذي كان يحمل الرسائل والنفقات على وسطه ليلا إلى حامية عكّا، إلى أن استشهد في إحدى رحلاته.(٥٧) فقد خرج يوم الجمعة في ٧ جمادى الثانية ٥٨٧هـ / ٤ تموز (يوليو)

---

(٥٣) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٤٧٩؛ ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١.

(٥٤) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٥٢.

(٥٥) القاضي الفاضل، «عيون الرسائل الفاضلية»، ص ٨١.

(٥٦) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٦؛ ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٥٧) ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

١١٩١م أحد العوّامين من عكّا بكتب تطالب صلاح الدين بمصالحة الفرنج إبقاء على نفوسهم، لأن الأمل بالحفاظ على المدينة أصبح مستحيلا. ونصّت هذه الكتب على شروط التسليم التي كان قادة عكّا قد تحدّثوا فيها مع ملوك الفرنج بمفاوضة المركيس كونراد، وفحواها أن المسلمين يسلّمون عكّا بكل ما فيها من آلات وعدد ومراكب، مع مئتي ألف دينار، وألف وخمسمئة أسير، ومئة أسير من فرسان الفرنج، وصليب الصلبوت، في مقابل خروج رجال المسلمين وعائلاتهم من عكّا سالمين.(٥٨) وعندما علم صلاح الدين بمضمون الرسائل تضايق وجمع «أرباب المشورة من أرباب دولته وأكابرها»، وبينهم بهاء الدين بن شداد، والقاضي الفاضل، وعماد الدين الأصفهاني، واستشارهم ثم قرّر أن يكتب إلى أهل عكّا ناصحا بالصمود، ولكنّه لم يتح له المجال إذ سرعان ما رأى وكل مَنْ معه أعلام الفرنج والصلبان مرفوعة على السور. وقد حدث كل ذلك في يوم واحد، يوم الجمعة ١٧ جمادى الثانية ٥٨٧هـ / ١٤ تموز (يوليو) ١١٩١م. ومع ارتفاع الأعلام صاح الفرنج من طرفهم صيحة الفرح، وردّد المسلمون قوله تعالى: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون.» وارتفع «الصياح والعويل والبكاء النحيب، وكان لكل قلب حظ في ذلك، على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب من هذا الحظّ على قدر ديانته ونخوته.»(٥٩)

وقف القاضي الفاضل إلى جانب صلاح الدين متنهدا وعيناه دامعتان، فقد أمضى اثنين وعشرين عاما من حياته يُعِدّ للاستعادة، وها هو الآن يرى أوّل هزيمة، وما أكبرها، منذ بدأت الاستعادة والمقاومة. وها هو الآن يرى عمله الجاد لمدة تربو على عامين كاملين في مصر من ذي الحجة سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م إلى سنة ٥٨٦هـ/١١٩١م، وهو يدبر الأموال بصعوبة ليزوّد فيها حرب عكّا، ويجهّز الجيوش ويشرف على ترميم الأسطول وتدريب بحّارته، يضيع في مهبّ الريح، فلقد «كانت عكا قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر، وجميع البلاد الإسلامية، (كما) احتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام.»(٦٠) رأى القاضي الفاضل بعض كبار قادة صلاح الدين الذين تعامل معهم منذ دخول أسد الدين مصر أول مرّة، مثل سيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما، يقعون أسرى في يد الفرنج. وإنها لمصيبة كبرى! وكان يفكّر في هذا كله عندما رأى علم الفرنج يُرفع على مئذنة الجامع،(٦١) وهو الجامع الذي أعاده بنفسه جامعا بعد أن كان الفرنج قد حوّلوه إلى

(٥٨) المصدر نفسه، ص ١٧٠ ـ ١٧١.
(٥٩) المصدر نفسه، ص ١٧١.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ١٦٧.
(٦١) المصدر نفسه، ص ١٦٧، ١٧١.

كنيسة. كما رأى العلم الفرنجي يُرفع على برج الداويّة وبرج القتال بدل أعلام صلاح الدين. وكان اليوم يوم حزن في مخيم المسلمين «جرى فيه على أهل الإسلام المشاهدين ما كثر التعجب من الحياة معه.»[٦٢] وأمّا صلاح الدين «فكان أشد حالة من الوالدة الثكلى والوالهة الحيرى»،[٦٣] فدخل مرافقوه ومستشاروه وهو معهم يحدّثونه ويخفّفون عنه ويذكّرونه بمآثر قادة المسلمين وبمُثُل الجهاد. وطال ليلهم واتّصل بصباح يوم السبت ١٨ جمادى الثانية ٥٨٧هـ / ١٥ تموز (يوليو) ١٩٩١م، وعندئذٍ طالب صلاح الدين العسكر بأن ينتقلوا إلى شفرعم، بينما ظلّ هو في تل العياضية، إلى أن وصلته رسل حامية عكّا في ١٩ جمادى الثانية ٥٨٧هـ / ١٦ تموز (يوليو) ١١٩١م مستنجزين تحقيق شروط الصلح، مع أن الفرنج لم يُعطوا صلاح الدين وقتا كافيا لتنفيذ الاتفاقية. وأرسل صلاح الدين رسل الفرنج إلى دمشق، مكان تجمّع الأسرى الفرنج، يوم الثلاثاء ٢١ جمادى الثانية ٥٨٧هـ / ١٨ تموز (يوليو) ١١٩١م، بينما أرسل إلى الفرنج المحاصِرين لعكّا مستفسرا عن المدة المطلوبة لتنفيذ الشروط. فوصل بعض الرسل من طرف الفرنج بالجواب، وظلّت المفاوضات تجري بين الطرفين حتى يوم الجمعة ٩ رجب ٥٨٧هـ / ٦ آب (أغسطس) ١١٩١م.[٦٤]

وصل إلى مخيّم صلاح الدين في هذا اليوم رسول من ناحية المسلمين، اسمه حسان الدين بن باريك المهراني، يرافقه ممثّلان للملك ريتشارد، فأخبروا المسؤولين أن ملك فرنسا قد ذهب إلى صور، كما طالبوا بمشاهدة صليب الصلبوت فأُحضر لهم. وعندئذٍ تحدّث هؤلاء بأمر الصلح، وأشاروا بأن الملوك، والأرجح الملك ريتشارد، وافقوا على إتمام اتفاقية الصلح خلال ثلاث فترات (تُروم)، كل فترة شهر، فوافق صلاح الدين. وجازى ملك فرنسا بأن أرسل إليه هدية قيّمة وطِيبا كثيرا،[٦٥] وربما كان ذلك لانفصاله عن عكّا؛ فمن المعروف أن ملك فرنسا كان على خلاف مع الملك ريتشارد حتى قبل ابتداء الحملة الصليبية الثالثة، وظلت الخلافات والحزازات بينهما من ناحية، وبينهما وبين فريدريك ملك الألمان من ناحية أُخرى، حتى سقوط عكّا.

بدأت العلاقات منذ هذه الفترة تتبلور بين صلاح الدين وريتشارد ملك الإنكليز. وبينما كانت المفاوضات جارية عن طريق رسلهما انتقل صلاح الدين مع مستشاريه وخواصّه إلى تلّ ملاصق لشفرعم. فتمّ تحقيق شروط الفترة الأولى، أو الترم الأول،

(٦٢) المصدر نفسه، ص ١٧١.
(٦٣) المصدر نفسه.
(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٧٢.
(٦٥) المصدر نفسه، ص ١٧٣.

بحسب قول ابن شداد بإعادة بعض الأسرى الفرنج وعددهم ١٦٠٠ أسير، ما عدا بعض الأسرى الذين عيّنهم الفرنج. ودُفع مبلغ معين من المال، وهو مئة ألف دينار. ومع أن صلاح الدين حقّق ما عليه من شروط فإن الفرنج لم يحقّقوا ما عليهم حتى مضي الفترة الأولى في ١٨ رجب ٥٨٧هـ / آب (أغسطس) ١١٩١م، وعندها أرسل الفرنج يطالبون بالأسرى المعيّنين من فرسان الفرنج فقال لهم صلاح الدين: «إمّا أن تُنْفِذوا إلينا أصحابنا وتتسلّموا الذي عُيّن لكم في هذا الترم (الفترة)، ونعطيكم الرهائن على الباقي، يصل إليكم في ترومكم (فتراتكم) الباقية، وإمّا أن تعطونا رهائن على ما نسلّمه إليكم حتى تُخرجوا إلينا أصحابنا.» فأجابوه: «لا نفعل شيئا من ذلك، بل تسلّمون ما يقتضيه هذا الترم (الفترة) وتقنعون بأماننا حتى نسلّم إليكم أصحابكم.»[٦٦] فرفض صلاح الدين هذا العرض خوفا من غدرهم بالمسلمين.

ثامنا: المذبحة في عكّا
واستنجادات القاضي الفاضل

تقرر عصر يوم السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٧هـ / ٢٠ آب (أغسطس) ١١٩١م، مصير ألوف من حامية عكّا وسكانها، قتلا غير مشروع على يد الفرنج، عُدّ استشهادا لدى المسلمين. فلقد صمدت هذه الألوف وحاربت مدّة عامين كاملين صدّت فيهما جيوش الفرنج وتصدّت خلالهما لأحدث أسلحتهم.

خرجت في هذا اليوم جموع الفرنج من عكّا بقيادة الملك ريتشارد بعُدَدها وأعدادها، برجّالتها وخيّالتها وتركبلاتها، سائرة حتى تلّ العياضية، مركز إدارة صلاح الدين السابق، وانتشرت في المرج بين تلّ كيسان والعياضية. وكانوا في حالة من الفرح والحبور يحتفلون بنصرهم الذي كلّفهم آلافا من رجالاتهم، ويعرضون مظاهر قوّتهم على المسلمين الذين كانوا يشاهدونهم من أعلى تلالهم ومن ورائها. ثم وقفوا مصطفّين صفوفا إلى أن أحضر أسرى المسلمين وكانوا نحو ثلاثة آلاف مسلم، مربوطين في الحبال. أحضروهم إلى الساحة التي أشرفوا عليها، وأوثقوهم بالحبال ثم «حملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم صبرا وطعنا وضربا بالسيف.»[٦٧] كان يزك صلاح الدين يشاهدون ذلك من دون أن يعلموا ما يفعلون. وقد وصف عماد الدين نفسية صلاح الدين آنذاك بقوله: «وحضرنا عنده وهو مغتمّ، وبالتدبير للمستقبل مهتمّ، فعزّيناه وسلّيناه.

---

(٦٦) المصدر نفسه.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ١٧٤؛ الأصفهاني، «الفتح»، ص ٥٢٨.

وقلنا: هذه بلدة مما فتحه الله وقد استعادها عداه. وقلتُ له (أي عماد الدين) (إنْ ذهبت مدينة فما ذهب الدين، ولا ضعف في نصر الله اليقين. وما وعكت بعكّاء القلوب إلا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس، ولوحشتها بعد هذه الحادثة الموحشة تأنيس، ولهذا الدين وإن تداعت بقعة من بقاعه بالعز ليفاعه تأسيس).»[٦٨] وفي الصباح، بعد أن خلت الساحة من عساكر الفرنج الذين عادوا إلى مخيمهم، هرع المسلمون إليها ليروا عاقبة ما جرى، «فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم، وعرفوا من عرفوه منهم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم وكآبة عظيمة وما أكرمهم رجالا، وأحسنهم في الشهادة والسعادة، لم يبقوا من المسلمين إلاّ رجلا معروفا مقدّما أو قويا أبدا للعمل في عمائرهم.»[٦٩]

ظل القاضي الفاضل إلى جانب صلاح الدين خلال هذه المحنة يخفّف عنه ويخطّط معه، ويكتب عنه الاستنجادات إلى شتى الأمراء وإلى الخليفة في بغداد، يناشدهم ويستثيرهم ويتوسّل بهم لإرسال المعونات بشتى أشكالها. واستنجاداته هذه مؤثرة، تعكس نفسيته ونفسية صلاح الدين والمسلمين، وتصوّر شيئا من اليأس الممزوج بالإيمان والأمل. ولقد كان القاضي الفاضل يكتب هذه الاستنجادات عندما زاره الطبيب موفّق الدين البغدادي في مخيّمه في عكّا، ووصفه «بأنه يكتب بجميع أعضائه ويملي على اثنين من كتّابه.»[٧٠] والصورة تصور انهماك القاضي الفاضل في كتاباته الاستنجادية هذه التي قصد بها إنقاذ ما تبقّى من أراضٍ حرّرها صلاح الدين، وساهم هو في تحريرها.

ومن استنجاداته بشأن عكّا: كتاب استنجاد إلى الخليفة الناصر، آخر محرم ٥٨٧هـ / شباط (فبراير) ١٩٩١م، من المخيّم المنصور بثغر عكّا يعلمه ما يجري، ويذكّره بواجبه تجاه الإسلام والمسلمين، يقول:

«ما قطع الخادم الخدم إلاّ إنهّ لأمر قد أضجر وأسأم من المطالعة بخبر هذا العدو اللعين الذي استفحل أمره واستشرى شرّه، فإن الناس ما رأوا ولا سمعوا عدوا حاصرا محصورا، غامرا مغمورا، قد تحصّن بخنادق تمنع الجائز من الجواز وتعوق الغرض عن الانتهاز، ولا تقصر عِدّتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل وقد أفناهم القتل والأسر، وأكلتهم الحرب ولقمهم النصر. قد أمدّهم البحر بالبحار، وأعان أهل النار،

(٦٨) ابن شدّاد، المصدر نفسه، ص ١٧٤؛ الأصفهاني، «الفتح»، ص ٥١٤. رواية المدبحة في: الأصفهاني، «الفتح»، ص ٥٢٨.

(٦٩) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٤.

(٧٠) البغدادي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩.

واجتمع في هذه الجيوش الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الأعجمية من لا يُحصر معدودُه ولا يُصوَّر في الدنيا وجودُه، فما أحقهم بقول المتنبي:

تجمّع فيه كلُّ لَسْنٍ وأمّةٍ فما يفهمُ التحديثَ إلا التراجمُ

حتى أنهّ إذا أسر الأسير واستأمن المستأمِن احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ويقول ثانٍ ما يقول أوّلٌ وثالثٌ ما يقول ثانٍ، والأصحاب كلّوا وملّوا وصبروا إلى أن ضجروا، وتجلّدوا إلى أن تبلّدوا، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لا تصل إلّا وقد كلّ ظَهْرُها وقلّ وَفْرُها وضاق بالبيكار صدرُها ولا تستفتح إلّا بطلب الدستور المخيم ويصير ضجرها مضرّا بالسمعة عند العدو المخذول. ولهم (الفرنج) قاتلهم الله تنوّع في المكائد فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة وأخرى بالمنجنيقات ورادفة بالدبابات وتابعة بالكباش وآونة باللوالب ويوما بالنقب وليلا بالسرابات وطورا بطم الخنادق وآناء بنصب السلالم ودفعة بالزحوف في الليل والنهار وحالة في البحر بالمراكب ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب وتلالا تشبه الأبرجة مدوّرة ورفعوها بالأخشاب وعالَوْها بالحجارة، فلمّا كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قُدّامها وهم يتقدّمون أوّلَ أوّلَ وترتفع حالا بعد حال حتى صارت منه كنصف غلوة سهم. وقد كان الحجر والنار يؤثّران في أبرجة الخشب وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب لا تؤثر فيها الحجارة ولا تعمل فيها النار الحامية.»[71]

من رسالة أخرى من عكّا إلى ديوان الخلافة يطالب فيها بشيء من المساعدة:

«ولا شبهة أن هذه الجموع الحافلة، والنواصي التي يأخذ الله بها إلى مصارعها في العاجلة، ما اجتمعت بدينار ولا بدرهم ولا بهيبة السلطان ولا بإكراه مقدَّم، ومَنْ ها هنا من العساكر على ضربين قوي وضعيف، فالضعيف أعطاه دستورا ليترفّق ويستعد ويأخذ من إقطاعه، والقوي أجهده طول البيكار، وتمادي الأسفار، وتعرُّض الوجوه لضرب الشفار، فأقام متحاملا ونهض متثاقلا. ومنهم من أطال الخادم عليهم إلى أن أغضبهم وأغضبوه، واستمهلهم من الدستور واستعجلوه. فإن عسكر الموصل وعسكر سنجار أقاموا عندنا الصيف إلى أن دخل الشتاء وإلى أن دهمت الأنواء وأجهدهم في الاستخدام، وصبر وأصبر الكرام من الأقوام. فأمّا عسكر ديار بكر فاعتذروا بحفظ بلادهم ممّن (نبا بهم)، وبتوقّعه ممن يخالفهم، إلى بلادهم ويعاودهم، ويراوغهم، فكأن

---

(٧١) القاضي الفاضل، «مراسلات فاضلية»، ص ١٠٧ ـ ١١٢. أيضا: أبو شامة، «Recueil,» Vol. V, pp. 15-16.

شاغلهم ما نفع، ولا ترك مَنْ ينفع، ولا سمع ولا أسْمع. هذا، ودعوة الله إلى الجهاد كدعوته إلى الصلاة جامعة، والأموال التي لمنفعتها ضائعة. . وإلى هذه الغاية فعلى ثغر عكّا جَمْعٌ من العدو كبير، وجمٌّ غفير، لا نقوى بمناهضته، ولا ننهض بأكثر من مضايقته.

«ولمّا تطاولت إقامة مَن كان بعكّا من العساكر، وقع الاهتمام ببدل من الأمراء والرجال من الداخل على اختلاف أنواعه، من جنداري، حجاري، ونجار، ومنجنيقي، وزرّاق، ومسدِّد سهم الإصابة إلى كل مرمي ورام. وجهزوا لمؤونة سنة، فإن البحر تارة يمنعه العدو بمراكبه فيتعذر ما يدخل إلى عكّا من القوت، وتارة يدخل إليها المراكب الإسلامية نهارا مراغمة، وليلا مغامضة. فأهم الأمور أن تكون فيه الغلال موفورة والحواصل إلى الثغر من الأسلحة والآلات محمولة وفيه مذخورة. وتردّد من مصر عدة أساطيل حّمالة حربية تحمي الحمالة للأزواد والأسلحة وأصناف المعونات. وكان أمدَّ بها عهدا سبعُ بطس، اشتملت على أقوات واسعة وآلات وأسلحة جهّزها معه مانعة، ووصلت إلى الثغر وتعرّض العدو لها بمراكبه وزاحمها بمناكبه. . ودخلت الثغر على رغمه واطمأن بها المطمئن على زعمه. فلمّا حصلت بالمينا وفيها من المراكب المقلعة والأمواج المندفعة، قضى الله بغرقها وعطبها وتَلَفِ أكثر ما كان محمولا عليها، فعظمت تلك الطايحة واشتدت الفادحة، إلّا إن الله سبحانه أعان من فيه بمراكب تردّدت من ساحل المخيم، فيها ميرة سدّت الأرماق، وأقوات أمدّت الأرزاق. وقد وقع الاهتمام من مصر ببطس أخرى مجهّزة حاملة للأزواد بأساطيل حربية تستعد أتمّ استعداد. فإن العدو أباده الله يُرْجِف بأنّ له شوكة، ونجدة لها عدة، ومعونة لا تتأخر ومؤونة لا تثقله. ويؤمّل الخادم (صلاح الدين) أن تقف الأساطيل في طريق من يخرج إلى العدو، وتردّ عليه، ويقطع الله بها عنه ما يفرّج عنه، وما يصل إليه، والانتظار واقع لتصرُّم هذه الأيام اليسيرة المدّة، وتجمّع العساكر المسعودة المستعدّة. فلا بد من مقام مع العدو الكافر، ومصابرة والعُقبى للصابر، ومكابرة وقد يكون النُجْح للمكابر. فإن الأصحاب كلّوا وملّوا.

«وهذا العدو زرع لا يحصده إلّا جُمْعٌ كرجل الجراد، وهذه عكّا عالة على الإسلام إن لم تقم بها بغداد، وهذه القرية حاضرة البحر لا يحفظها على الدين إلّا نفير الحاضر فيه، وهذه الأوتاد الرئيسية للكفر لا تقلعها إلّا ضرس الأوتاد، وهذه النار المضطرمة لا يطفيها إلّا عزم يُفضي بها إلى ما تُفضي إليه النار من الزناد، وبالله ندفع ما لا نطيق. ولقد ودّ الخادم لو عرف بالكفّ لا الوصف، وبالنظر لا بالاتّزان، جميع البلاد مصريّها وشاميّها وساحلها ويَمَنها. ليس في يده منها إلّا ثلاث ضياع، إحداها بمصر، والأخريان بالشام، وما فيها مردود على المجاهدين، وخارج في حوالات المحلولين، والأسرى له (قَضْمُ كُراعه) وإن كان لا كُراع له لكثرة المتحمّلين عليه. . ولا تقام له قوام العيس إلّا من سوقه

لا من معدنه، بل لو شوهدت الرقاع والمطالب في اليوم الواحد لعلم أنهّ لا يفي به بيوت الأموال الموفورة لا المسفوهة والخزائن المملوءة لا الفارغة. وهذه جُملٌ تحتها كثير من التفصيل، ونصوص ضرورة غير مفتقرة إلى التأويل، وعدو دَفْعُه بغير قوم يسعفه من المستحيل. وما نرفع الدعوة إلاّ إلى مجيبها ولا توصف الأدواء إلاّ لطبيبها، وحضرة الخلافة المعظّمة، شرّف الله محضرها، وأيّد نصرها، وأظهرها، مآلُ كل شكوى ومنتهى كل نجوى، وبها يدفع الله كل بلوى، والعرض على آرائها والجهاد تحت راياتها والعقد لولائها والانتماء لولاتها، فإن لم يكن الإسلام فَمَنْ، وإن لم يُغنِ عنه فَلَنْ، وقد وصف الجدب ليفعل العثّ ما هو فاعله وشكا الدمل ليحمل الطود ما هو حامله...»(٧٢)

استنجاد آخر في استحثاث مظفّر الدين (كوكبوري):

«والمعهود من الأمير المسارعة إلى هذه الدعوة، والإعداد لها ما استطاع من قوّة، والنهوض إذا تقاعدت همم المستنهضين، والتصريح بالعزم إذا تردّدت عزايم المعارضين والمُعْرِضين، فإنهّ أبرُّ من كان يقود جموع الإسلام إلى الكفر، ويجعل العدو لسعة الظَّفَر في أضيق من الظُّفْر، ما لقي الله إلاّ وثَوْبهُ بدمائهم خضيب، ووجهه بضربات سيوفهم صبيب، كم له من مقام ما للعدو عليه مُقام، وكم جمعته وإيّاهم دار تحيّتهم منه فيها طعانٌ فعرفته منهم دارٌ فيها من الله سلام. والجياد على أعراقها تَجْري والسيوف بجواهرها تَفْري، وقد بَعُد عهدنا بالغزاة، وارتحنا إلى أن نطلب الضالّين بالهداة، وبعثنا كل إلى كل ذي قُطر، واستنجدنا بكل ذي إسلام على كل ذي كُفْر. فقد علم أن هذه الشرذمة الملعونة حجّة الله على من حَبَط عمله بالقعود عنهم، وحجّة عند الله على من شكر سعيه ببذل الجهد منهم. ولعلّ مدّة الابتلاء قد وصلت إلى مدّة الانجلاء، فما ذلك على الله العزيز بعزيز، ولا الأمر البعيد من إحسانه البديع ببعيد. إنما أمره واحدة، وإنما آياته بذلك واعدة. ولنا الجهد أن نبذله، وفي الله العمل وعلى كرمه أن يتقبّله، وإذا تساعدت ضاربة السواعد، وتوافقت مضروبة المواعد فما هم ولله الحمد إلاّ السّربُ المروّع والنهبُ الموزّع. والباطل جاءه الحق فجعله هباءً فأزهقه والزبد دهمه السيل فأطاره جُفاءً وبدّده ومزّقه. فالأعمار ظِلٌّ نبادر قُلوصَه وسحاب نُحاذر نكوصه، والسعيد من تزوّد، فإنه في طريق سُمّيَت دارا ومَنْ إن تزوّد تزيّد، وقد نرى هناك الرتب صغارا أو كبارا.»(٧٣)

وفي استنجاد آخر يقول:

---

(٧٢) القاضي الفاضل، «مراسلات فاضلية»، ص ١٠٨ ـ ١١١.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٠؛ القاضي الفاضل، «كتاب فيه من كلام القاضي الفاضل»، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٠.

«والأمير ينهض وعسكره سراعا عجالا وخفافا وثقالا، وبنيّات تقتضي أفعالا، وعزمات تلتظي اشتعالا، وهمّات يستحق الرجال أن تسمّى بها رجالا، وحسبة يحسبها الله ويحتسب له أجرها، ويَسرُّه يوم يرى الله عمله ورسوله (صلعم) ما قدم من ذخرها. فإنّ الغَزاة قد أمكنت والفريضة قد تعينّت، والربيع والرماح قد تقلّدا الحقّين وتكفّلا لنا الرزقين. فالرماح عليها الرزق من فوقنا بباعها الوسيع نستنزله، والربيع عليه الرزق من تحت أرجُلنا بخلقه الكريم يتكفّله، فالمؤن محمولة، والمنن من الله مأمولة، وبلاد العدو لا عاصم لأهلها إلّا جُدُرها ومعاقلها، وإذا نادتها ألسنة الأغماد بكلام صليلها صمت سامعها وسمعت مقاتلها.»(٧٤)

استنجاد آخر:

«ما هي إلّا عزمة لها يتبع النصر، إلى عدو منه يشبع النسر، في نصرة دين يَسُر نَشْرُ راياته يوم النشر، لموعد حقّ، شَرح الله به السمع وشرح به الصدر. وإذا توافت عساكر الإسلام ومقدّموه، وولاة سلطانه ومخوّلوه ومؤمّلوه، واطّلع على جميع نيّاتهم من أجمع على مناواتهم، وقاتلوا بمصاحفهم الصلبان، وبسيوفهم الأوثان، وبرز إلى الكفر الإيمان، فما هم إلّا القرعُ صار به العاصف، والوشل سار به الجارف، والهشيم ذرته الأعاصير، والصريم مَحَتْهُ التباشير، والحق زحم الباطل بمنكبيه فسحقه، والسيف دنا إلى الهام بمضربه فأقلقه، وما هي إلّا وقفة ولا وقفة بعدها للنصر وعزمة ولا عزمة عندها للكُفر صبر، وإن التأييد يُقيل شفاعة الصبر.»(٧٥)

استنجاد آخر:

«وإذا حضر الأمير في هذا المشهد كان واحده الذي تشير إليه راكبا الأصابع، وتُعقد عليه قاعدا المجامع، واعتضد الإسلام وأهله برايه ورايته، وسرنا نحن برواثه ورؤيته، ووُرّيت به الزناد، وكان الفرد الذي بَعده ترتّب الأعداد، وكان الصدر الذي يميل إلى آرائه كل فؤاد، ورجونا برأيه النجح، واستفتحنا به وبرايته آية الفتح. فإن هذه السنة قد توفّرت العزايم فيها على الغزاة، وكوتب بالاجتماع لها كافّة الأمراء والولاة، وشُرح (له) الصدرُ بفَرْضِه، وهانت نفقات الأنفس والأموال، التي هي من فضله، فإذا بُذلت فيه عدّها من قرضه. والعدو خذله الله قد أمكنت فيه المضارب، واتسعت في قصيده المذاهب، وهان أمره. فهيئة القاصد هيئة المسالم وإنْ كان على عزمة

(٧٤) القاضي الفاضل، «كتاب فيه من كلام القاضي الفاضل»، ص ٢٢٦ - ٢٢٧؛ القاضي الفاضل، «مراسلات فاضلية»، ص ٢٠٣.

(٧٥) القاضي الفاضل، «كتاب فيه من كلام القاضي الفاضل»، ص ٢٣٠ - ٢٣٢؛ القاضي الفاضل، «مراسلات فاضلية»، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

المحارب. ومما أشعر بقرب دمارهم، وبشّر بإباحة دمائهم، ما توالى في عقود هُدنهم من غدرات ظاهرة، وكرات فاجرة، وأخايذ قصُرت أيديهم عن أخذها في مواقف الحروب المعقودة، وطالت إلى أخذها في قواعد السلم المعقودة. ومن انتقل أمره من وثبة الافتراس إلى قعدة الاختلاس ومن عزة المحاربة إلى ذلة المواربة، ومن أن يأخذ بيده ضاربا، إلى أن يأخذ بلسانه كاذبا، فقد صرّح بعجزه، وقد تعرّض لأن يصيبه الله بعذابه ورجزه.»[٧٦]

في الاستنجاد (أيضا) وربما الاستنجاد لعكّا:

«لم يزل ملوك الأطراف وأخلاف الكرام الأسلاف يُدعون لمثلها فيُشمّرون، ويُستقدمون ولا يستأخِرون، ولا يُفْقَدُ في كل محضر نصر منهم جُند محضرون. والمجلس أحد ملوك هذا الدهر والعالمين فيه بالأمر والقادرين على إنجاد الإسلام وإصراخه، والتابعين لأسلافه السادة وأشياخه، فإنه يحيي بذلك مأثرتهم المحبوبة وآثارهم المكتوبة. وهؤلاء الملاعين في قلوبهم مرض من فتح القدس، فزادهم الله مرضا، وقد تجرّدنا أسهما ورجونا أن يجعلها الله غرضا. فالبلاد قد ضاقت بل الأجسام بأرواحها قد ضاقت والكلمة قد حقّت والسيّئة بهم قد حاقت، واندثرت عصمتهم من الأرض فلم تكن لهم فراشا، وخلعهم الليل فلم يكن لهم لباسا، وحرمهم النهار فلم يكن لهم معاشا. وما يخرج إلينا، والله أعلم أشكُّ شوكة من الشوكة التي قططناها، ولا ترفع صلبان أقوى من أصلاب الصلبان التي حَطَمْناها وحططناها، فإنما يخرجُ أضغاثٌ؛ فليضمّه حبلُ المستوقد، وبغاثٌ يقطع حبله بأذى المتصيِّد، ولا غنى أن تأخذه في الله الهزّة، التي تأخذ بها الإسلام العِزة فيوفرّ العدد المُرسل من العساكر، من يجود عليها بموجود الذخائر، ويبعثها سارّةً له يوم بعثه ويحثُّها في أوائل الوقت مستغنيا عن حثّه، ويحوز بها الأجر الذي هو حَقّه من نفسه بسعيه، وعن أهله بإرثه. والمودّة أوجبت تنبيهه على هذه الفرصة ومشاطرته في الأجر ليأخذ منه بأوفر الحصّة، وإلّا فما تكاثر جمع الكفر بجمعنا، ولا نثق فيه بحواسّنا ولا صنعنا، بل نعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنّهُ قد كتب بيد فريق الجنّة مصارع فريق السعير، وأن يظهرنا عليهم وإنْ كان بعضهم لبعض ظهيرا، وأنّهُ لو كان للمسلمين معهم يوما فإنّهُ يكون يوما على الكافرين عسيرا، وإنما أردنا أنْ لا تخلو صحايف الحسنات من أسهمه، وأنْ تكون راحة الإسلام من راحته وهمّته من مهمّه.»[٧٧]

استنجاد آخر أيضا:

---

(٧٦) القاضي الفاضل، «كتاب فيه من كلام القاضي الفاضل»، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥؛ القاضي الفاضل، «مراسلات فاضلية»، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

«فأنجدوا المسلمين يا حملة سلاح الصلاح، وابعثوا سرايا دعواتكم فإنّا ننتظر غبَّ سُراها الصباح، فأنتم في ذكر قبلتنا فلهن أدعيتكم خفة الجناح. وما بين المسلمين وبين الفرنج إلّا واحدة كلمح البصر. ونحن نرصد تلك الواحدة، ولا نغمض عنها عيوننا المراصدة. فيا جيران بيت الله اشهدوا لأسنّتها بها وأتوا البيوت فأنتم على أبوابها، واستمطروا الرحمة فأنتم بمجرى سحابها. أين سهام الأسحار التي تكفينا طوارق الليل والنهار، نحن نعلم أن أقدار الله ستجري بما وعدته من نصر دينه، ولكن استعجلوا الأقدار فنحن قد خُلقنا من عجل وأدينا إلى جبل من عزماتكم ليس كذلك الجبل. والله يعمّر بهذا الشريف بيت مجده، ويجعل علوّ حَدّه كعلو جَدّه.»[٧٨]

ظلّ القاضي الفاضل في عكّا حتى دخل شهر شعبان ٥٨٧هـ/ ١١٩١ ـ ١١٩٢م، فطلب منه صلاح الدين أن يتوجه إلى دمشق، فودّعه بعين دامعة، من دون أن يعرف أن مصير عسقلان النهائي سيتقرّر خلال الأشهر التي سيبعد فيها عن صلاح الدين.

كانت دمشق قد أصبحت بعد سقوط عكّا عاصمة لتلقّي رسل الخلافة وغيرها، ومدرجا للوافدين من الأكابر، ويعلّق عماد الدين على ضرورة عودة القاضي الفاضل إلى دمشق بقوله: «ودّع القاضي الفاضل صلاح الدين وسار إلى دمشق لأنّها مدرج الوافدين من الأكابر؛ والنوّاب بها ربما جبنوا عن إقامة الوظائف، وكان الأمر الفاضلي عندهم كالأمر السلطاني، فإذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك.»[٧٩]

جرت في أثناء وجود القاضي الفاضل في دمشق مفاوضات عديدة بين صلاح الدين والملك ريتشارد، تبدّت فيها حنكة الملك العادل، سيف الدين أخي صلاح الدين، وتمّت بصلح نهائي أعاد للفرنج معظم الساحل وأبقى داخل فلسطين بما في ذلك القدس في يد المسلمين، ولقد أورد بهاء الدين بن شدّاد هذه المفاوضات بجميع تفصيلاتها، ولا داعي إلى إيرادها في هذا الفصل، وسنتتبع مسيرة القاضي الفاضل في دمشق في هذه الأثناء.

تاسعا: مراسلات القاضي الفاضل
إلى صلاح الدين وهو في عكّا

وإن تجلّت علاقة القاضي الفاضل وصلاح الدين في أسمى مظاهرها ففي أثناء

---

(٧٨) القاضي الفاضل، «كتاب المختار» «Ketab al Mokhtar,» MS., British Museum, ADD 7307, p. 102؛ القاضي الفاضل، «عيون الرسائل الفاضلية»، مخطوط مصوّر، British Museum, ADD 25, 756, pp. 96-97.

(٧٩) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٦٥؛ أبو شامة، «Recueil,» Vol. V, p. 34.

الحملة الصليبية الثالثة على عكّا، ومجابهة صلاح الدين للفرنج المتحدّين بقوى موزّعة الأهواء متوانية عن القتال. وقد كان الفاضل في أثناء بعض حرب عكّا في مصر يُعِدّ ويُجهّز الجيوش لإرسالها إلى عكّا، ولكنّه كان يراسل صلاح الدين برسائل شخصية باستمرار، يشدّد فيها من عزمه ويحثه على الوقوف في وجه هذا العدو العنيد. وقد أوردنا سابقا بعض رسائله في الاستنجاد، وسنورد هنا رسائله الشخصية التي تتجلّى فيها إنسانيته وإخلاصه للجهاد ولصلاح الدين.

فمن رسائله إلى صلاح الدين وهو على عكّا سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠ ـ ١١٩١م رسالة ينصح له فيها عدم هدم أو تخريب المدينة كما كان بعض قواد صلاح الدين قد أشاروا عليه، ويهوّن عليه أمر ملك الألمان فريدريك بربروسا وابنه، وكان فريدريك قد توفّي في آسيا الصغرى وهو في طريقه إلى الشام، فيقول: «وثبوت مولانا على عكّا هو حراستها وحفظها وقوة نفس من بها، وأهون الأعداء ملك الألمان، لا يشكّ مولانا أن جمعه لا يفي بعشرة قراقر من ستّين قرقورة وصلت إلى الفرنج، وقد هلك، ورأس قد قطع وقائد جيش وقد كبا الحمار.»(٨٠)

وفي رسالة شخصية أُخرى إلى صلاح الدين يقول:

«وعرف المملوك ما يكابده مولانا، وكُلّ بعين الله وما تغلو الجنة بثمن، ومن عرف ما يطلُبُ هان عليه ما يبذل. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعْلَوْن... فإنك نصل والشدائد للنصل، وكلما اشتد الخناق قوي اليقين. إن الله يريد تعظيم موضع الفرج، والحادثات وإن أصابك بؤسها، حوشي مولانا من كل حادثة، لا زعزعتك الخُطوب يا جبل. كل ما يمرّ بمولانا من المغايظ ومن تثاقل الأولياء يتحمّله ويحمله لله ويعلم أن الطباع البشرية يستولي عليها الضجر ويعلم أن الذي يطلب من الناس أكثر من الذي يدفعه إليهم فإنه يعطيهم الأموال ويطلب منهم الأرواح.»(٨١)

ومن رسالة أخرى في الجهاد إلى صلاح الدين يحثّه فيها على الثبات بقوله:

«وهو فتح ضامن له الخلود بذكره، ولله سيف في يد مولانا فإنّه ذو الفقار قلّده الإسلام لأبي بكر، فجعل الله سيف مولانا مفتاح الجنة، ومصباح الدجنة، فإن السيوف في ظلمات الفتنة مصابيح، ولأبواب الجنة مفاتيح، فإذا تقلقل السيف في القلل فكأنما قلقل ما دون الجنة من الفلق، وإذا برق على هام الكفر فكأنما جلا ما في موقف القيامة

(٨٠) أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, p. 507

(٨١) القاضي الفاضل، «المختار من كلام القاضي الفاضل»، ص ٨؛ القاضي الفاضل، «عيون الرسائل الفاضلية»، ص ١٩.

من الغسق!.»[82]

ويقول في رسالة أُخرى إلى صلاح الدين وهو على عكّا، نصحا وتخفيفا:

«ما جمع الله هؤلاء الكافرين إلّا ليفرّقهم ولا أنهضهم إلّا ليصرعهم ولا ساقهم إلى الحتوف ولا مكّن أيديهم من السيوف إلّا ليمكّن من رؤوسهم السيوف والدعاء من الله تعالى، والناس قلوبهم كلها قلب وألسنتهم كلها لسان وفي ذلك ما يُشعر بأن الإجابة لا تبعد والبصر لا يوكل!.»[83]

ويقول في رسالة أُخرى:

«ولعل الله قد رحمنا ونظر إلى الإسلام فأكرمه وأكرمنا وحكم لنا على العدو فقتله وسَلِمْنا، فإنّا لا نقاتله على أنه عدوّنا ولكن على أنه عدو ربنا، ولا نحاربه على أنه أساء إلينا ولكن على أنه بمن لن يأمره بحربنا، وإلّا فما لنا وكلنا لآدم ولولا عمي بعضُنا لما كنّا نتصادم، وقد لبست الأيام هواجرها وبلغت القلوب حناجرها، وإذ مسّكم الضُرّ في البحر وموجبات الابتلاء كثيرة. ونستغرب الصغيرة من البلاء وننسى ما أقدمنا عليه من الكبير والأقلام في يده آلات الآلاء وفي يد غيره إمالات لحروف الهجاء أو لمحارف الهيجاء.

إنّ السلاحَ جميعُ الناسِ تحملُهُ   وليس كلُّ ذواتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ»[84]

ومن رسالة إلى عماد الدين:

«ولعن الله الفرنج المخندقين وقُتل أصحاب الأخدود، فقد قطعوا طرقات المسار وأطالوا عمر البيكار وسبكت نار مُقاساتهم الدينار، فعجّل الله إعلام الكافر لِمَنْ عُقبى الدار. ونجداتهم الفرنجية أخلف الله موعدها إن خفنا يومها ففي قدرة الله أن يكفينا غدها. وبينها وبينهم ربٌّ يعود بفضله، ودهر يتقلّب بأهله وسلطان يجاهد بقلبه ويده ونصله وعماد (عماد الدين) يكتب إلينا المحلّقات بالظفر بطاغيتهم، مُحلّقات بدم قتله، فُرجت وكنا نظنها لا تفرج وما عَوّد الله إلّا الخير وعمّرَ الله المسجد وأخرب الدير.»[85]

والظاهر أن صلاح الدين كاد ييأس من الحرب على عكّا، فكتب إلى القاضي الفاضل مبديا رغبة في التزهد وفي الحج، فأجابه القاضي الفاضل بقوله:

«وأمّا ما نواه مولانا السلطان من الزهد فمتى قيل إنه في الدنيا رغب، وإن كان من الزهد ما يكرهه الله فهو زهد الملك الشجاع العادل. وقفة قدّام قلعة قد امتنعت، بأمة قد

---

(٨٢) القاضي الفاضل، «المختار»، ص ٣٧.

(٨٣) القاضي الفاضل، «مراسلات فاضلية»، ص ٥٩.

(٨٤) القاضي الفاضل، «عيون الرسائل الفاضلية»، ص ٨١.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٨٠.

اجتمعت، قبالة أعداء قد ارتفعت، واستنزالهم منها راغمين، وطلوع أهل الإسلام إليها هاجين، خير من ألف سنة رباط في الكعبة، فدع رباط السُّمَيْساطي فما تمّت العبادة لمن فيه إلّا بالمولى فلولا ما امتدّ فيه من ظل السيوف لتقلّص ما امتدّ على عروشهم من ظل السقوف، فهو شريكهم في أعمالهم التي اشتركوا فيها وما أَحَدٌ شريكه في أعماله التي انفرد بها. وما يتسلّم هذا السيف من يده إن شاء الله، بعد أن يفي الدهر عمرا.. إلّا رضوان، خازن الجنان، فيضرب حديده تاجا يلبسه فيترقى الدرجات العلى، ويكون ملكا على ملوك الخلق الألى.»(٨٦)

بعد أن وقّع صلاح الدين الصلح مع الملك ريتشارد سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، قرّر أن يقوم بفريضة الحج من القدس، فاستشار القاضي الفاضل الذي كان مقيما في دمشق في الموضوع، فكتب له ناصحا بتأجيل الحج قائلا: «إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام، ولا سَلَوْا عن القدس، ولا وُثق بعدهم في الصلح، فلا يؤمن من بقاء الفرنج على حالهم، وافتراق عسكرنا، وسفر سلاطيننا سفرا مقدّرا معلوما مدة الغيبة فيه، أن يسيروا ليلة فيصبحوا القدس غفلة فيدخلوا إليه والعياذ بالله، ويفرط من يد الإسلام ويصير الحج كبير الكبائر التي لا تُغْفَر ومن العثرات التي لا تُقال.»(٨٧)

وفي رسالتين أخريين كتبهما القاضي الفاضل إلى صلاح الدين في موضوع تأجيل الحج، يشدّد على ضرورة بقائه في المنطقة لحراستها، وعلى أجر الجهاد الذي يفوق أجر أية فريضة أخرى. يقول له:

«ذكر سيدنا أنه على نيّة الحج في هذه السنة، بلّغه الله وبلّغ به تلك المشاعر، وقد أتى على ضمير إن لم يأته على ضامر، وما يقوم به من أمور المسلمين مياومة فوق ما يقوم به من تلك القربة الشريفة معاومة، وما أسرّني ببقائه للدنيا وإن كانت لا تستحقّ من أن أُسرّ بما يزينها، فإن بقاءه أمان لهذه الأمة من كل ثلمة، وحجاب بينهم وبين كل غمّة.»

ويبدو أن صلاح الدين كتب له معبرًا عن مخاوفه من أن يُتوفّى قبل أن يقضي هذه الفريضة، فكتب إليه القاضي الفاضل ثانية ناصحا بقوله:

«وأمّا قول المولى إننا نخاف أن نواخذ بذنوبنا، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عُفي عنها بهذه الساعات وعُفيت، فيكفي مستغفرا لسان السيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعا لأبواب الجنّة صوت مقارعة الأضداد، وبعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت في

---

(٨٦) القاضي الفاضل، «المختار من كلام القاضي الفاضل»، ص ١٠١.

(٨٧) أبو شامة، «Recueil,» Vol. V, p. 83.

منهاجك، وطوبى لوجه يُلثم بمثار عجاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقُبِلت، وأن الخواطر بشكر الله فيك عن شكرها لك قد شُغلت.»[٨٨]

كانت هذه آخر نصائح القاضي الفاضل إلى صلاح الدين الذي ظلّ يتشوّق إلى قضاء فريضة الحج، وقرّر أن يعوّض عن تشوّقه هذا باستقبال الحجّاج لدى عودتهم من الحجّ من السنة ذاتها (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، ولكنّه لقي حتفه بعد استقبالهم بقليل.

(٨٨) القاضي الفاضل، «المختار من كلام القاضي الفاضل»، ص ٥٧.

الفصل الحادي عشر
القاضي الفاضل وصلاح الدين

أولا: عرض

تحدثنا في سياق دراستنا عن علاقة القاضي الفاضل بصلاح الدين من حيث عملهما المشترك لمدّة خمسة وعشرين عاما رأيناهما خلالها قائدين، أحدهما إداري مدني والآخر عسكري؛ يعتمد كل منهما في عمله على كفاءة الآخر وقدرته ومدى إخلاصه ومساعدته. وألمعنا أيضا إلى مدى تأثير كل منهما في مسيرة الآخر، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وسنحاول في هذا الفصل أن ننظر في علاقتهما من حيث دور القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين، وحرصه على مصلحتها ومصلحة صلاح الدين نفسه، لا كحاكم، بل كإنسان وصديق حميم شاركه الكثير من إنجازاته وآماله وآلامه؛ مستندين إلى رسائل القاضي الفاضل.

تكشف رسائل القاضي الفاضل عن اهتماماته الكبرى في دولة صلاح الدين، وهي تنصبّ على ثلاثة أمور: اجتماعية، وتنمّ عن آراء صائبة في كيفية معاملة القاعدة الشعبية التي يستند أي حاكم إليها، في نهاية الأمر. ولقد ركّز في هذه الناحية الاجتماعية من عمله على تحسين النظام الضريبي بإلغاء الضرائب الظالمة الابتزازية، ومن ثَمّ التقريب بين صلاح الدين وشعبه، وتحسين جباية الضرائب من خلال تحسين أجهزة الجباية، ومراقبة أصحاب الإقطاعات وإشاعة العدل بين الناس، وفرض هيبة القانون، في وقت يبدو فيه أنّ أصحاب النفوذ كانوا قادرين على التحكّم في القانون.

وبالإضافة إلى هذه الناحية الاجتماعية، فقد ركّز في جملة اهتماماته على ناحية إدارية حربية. ولا نعني بهذا قيام القاضي الفاضل نفسه بعمليات حربية، بل نقصد تركيزه في خبرته وإدارته على أمور التحصينات، والخدمات الخلفية للجيوش، وتدعى في المصطلح الحديث الخدمات «اللوجستية». وأمّا تكوين الوحدات المقاتلة وسوْقها واستخدامها التكتي في المعركة، فمن الأمور التي لم يكن له فيها دراية. ومن الطبيعي أيضا أن يعتبر صلاح الدين وأتباعه أنّ مثل هذه الأمور يدخل ضمن اختصاصاتهم ومعرفتهم؛ كما أنه من الصعب التصوُّر أنّهم كانوا يعتبرون أمثال القاضي الفاضل من

الخبراء بها. ويؤكّد لنا ذلك دورُه في غَزاة الرملة، إذ تمركز في العريش بعيدا عن مسرح المعركة بمئتي كيلومتر تقريبا ليؤمّن الخدمات الخلفية. ولا يُستبعد أن يكون هذا التمركز الخلفي قد حدث بسبب خشيته وتحسّبه من أن تجيء نتائج المعركة في غير جانب النصر المرجو فيكون قادرا في مثل هذه الحالة على إعادة تنظيم الفلول وتأمين القدرة على الانسحاب المنظّم إلى مصر؛ غير أنّ هذا أمر نستطيع أن نستشفه بالاستنتاج، وليس لدينا معلومات مباشرة تؤكده. ونلمح معالم ترتيب آخر من هذا النوع في إبّان معركة عكّا إذ كان القاضي الفاضل متمركزا في تلّ العياضية البعيد عن موقع تجمّع جيوش صلاح الدين. ويبدو أنّ مهمة توفير موقع قيادي خلفي آمن كانت من الأمور التي تمسّك بها القاضي الفاضل، وربما كان ذلك عائدا إلى تجاربه في معارك كثيرة متأرجحة بين النصر والهزيمة. وإن المراقب ليعجب كيف أن مثل هذا الترتيب الحكيم قد غاب عن القيادات العسكرية العربية التي خاضت حرب ١٩٦٧م مع إسرائيل.

إلا إنّ المأثرة العسكرية الكبرى للقاضي الفاضل تكمن في تصوّره الاستراتيجي العظيم. فهذا التصوّر يقوم، كما شاهدنا انعكاسه مرارا في رسائله، على أساس توحيد العالم الإسلامي عامة، ومسرح العمليات ضد الفرنج خاصّة: إداريا من خلال حكم واحد؛ وعسكريا من خلال جيش موحّد القيادة؛ وعاطفيا من خلال مظلّة أو راية واحدة ينضمّ جميع المسلمين تحت لوائها، وهي راية الخلافة العبّاسية؛ ومذهبيا من خلال الحد من سلطة المذهب الإسماعيلي ونفوذه بإعادة الهيمنة السنّية إلى العالم الإسلامي.

ومن اللافت للنظر أنّ رؤيته هذه كانت تقوم على أساس التوجيه السلميّ للأحداث والأشخاص والقيادات في الجانب الإسلامي، على افتراض أن في الإمكان إقناعهم بأن لهم جميعا مصلحة عليا في تحقيق مثل هذه الرؤية، وأنّهم لن يستطيعوا البقاء أو الصمود من دونها. ومن هنا نجده يحثّ صلاح الدين على التصالح مع آل زنكي؛ وعلى الحدّ من طموحاته إلى إخضاع بعض الأمراء المسلمين، والاستيلاء على أراضٍ إسلامية، مؤكدا له أنّ الفتح إنما هو تحرير الأراضي التي يحتلّها الفرنج. ولا عجب في ذلك، فقد أيقن بالتجربة المُرّة أنّ أي صراع داخل المعسكر الإسلامي - حتى وإن جاء بتحريك من قوّة تهدف إلى فرض وحدة إسلامية - سيفتح لا محالة ثغرات لتحالفات مع العدو الفرنجي من جانب هذا الأمير أو ذاك طمعا في استبقاء ملك أو سلطة. وهذا أكبر اهتمامات القاضي الفاضل وأسماها.

ويمكن تلخيص حصيلة عمل القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين بأنه في الدرجة الأولى إدارة، ثم لوجستيات (Logistics)، وإصلاح داخلي يتوخّى إرضاء القاعدة الشعبية، وتصوّر استراتيجي سليم، واقتناع بأنّ تحقيق الوحدة الإسلامية أمر ممكن بالسِلم والإقناع. والمثال لذلك دخول صلاح الدين دمشق سلما، بإيحاء منه (من القاضي

الفاضل)، نظرا إلى جرأته في إبداء رأي مخالف لرأي صلاح الدين، وهو أمر يدلّ على استقلال، واعتزاز بالنفس، وثقة كبرى بمعرفته وقدرته.

ثانيا: القاضي الفاضل وصلاح الدين

العلاقة الشخصية

كان لقاء القاضي الفاضل صلاح الدين من المصادفات التاريخية؛ فقد اجتمعا في القاهرة خلال أوضاع استثنائية تحدّثنا عنها، فربطتهما بأواصر صداقة متينة أثّرت في أحداث عصرهما ودامت من دون أن يشوبها سوى خلافات بسيطة لم تؤثّر فيها أو في ثقتهما أحدهما بالآخر، حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، وظلّت ذكراها تلازم القاضي الفاضل حتى وفاته سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م.

عندما دخل صلاح الدين مصر وبدأ قيادته العملية فيها، كان القاضي الفاضل في مركز مرموق، ولكنْ غير ثابت بحكم الأحداث السياسية والانقلابات العديدة في الدولة الفاطمية، فساعده صلاح الدين في تثبيت مركزه وديمومته، مع ترقيته إلى مركز الوزارة، أعلى المراكز الإدارية رتبة. ومن الممكن القول أنه لو أخفق صلاح الدين في التوصُّل إلى مركزه القيادي الذي توصّل إليه بمساعدة القاضي الفاضل، لتغيّر مجرى علاقتهما، ولكن الأمور سارت على أحسن وجه حتى النهاية.

وكانت أوضاع القاضي الفاضل المالية مضعضعة عندما تولّى صلاح الدين الوزارة، بسبب اجتياح الفرنج لمصر، وبسبب فقدانه كغيره من أهالي مصر أمواله وأملاكه التي أحرقها شاور. ولكنْ بعد أن تولّى صلاح الدين الحكم في مصر، عوّضه من خسائره السابقة وأغدق عليه الأموال والأقطاع جزاءً على مساعدته الثابتة له، وعلى رعايته له ولأبنائه. وفي هذا الصدد يذكر أحد المؤرخين أنّ دَخْلَ القاضي الفاضل السنوي في عهد صلاح الدين من إقطاعه ورباعه وضياعه بلغ خمسين ألف دينار، عدا التجارة مع الهند والمغرب، وعدا قرية أهداها إليه صلاح الدين تُسمى ترنجة، وكان دخلها السنوي اثني عشر ألف دينار.[1] ومع استقرار وضعه المادي وحياته استقرّت نفسية القاضي الفاضل، وتخلت عن تلك الثورة الداخلية الجامحة التي كانت تساوره ضد الكتّاب وموظفي ديوان الإنشاء المعاصرين له في بداية عهده في القاهرة. كما أنّ شكواه إزاء الفقر وسوء الحظ انتهت، ولم يبقَ له ما يشكوه في ظل صلاح الدين، نظرا إلى مكانته

---

(١) الحنبلي، «شذرات»، ج ٤، ص ٣٢٥.

في دولته إذ أصبح يعتمد عليه أكثر من اعتماده على أهله وأقاربه، ويثق به ثقة كبرى، حتى أنه (صلاح الدين) كان يرسله إلى مصر، في أثناء غيابه عنها، ليساعد نوابه فيها وليراقب حركاتهم، كما ذكرنا.

ولقد أثار إيثارُ صلاح الدين القاضيَ الفاضل، واعتمادُه الكبير عليه في الإدارة، ومنحُه الكثير من السلطة، بعض الأحقاد لدى معاصريه، ومنهم صفي الدين بن شكر، وزير الملك العادل، الذي كاد ينتقم من القاضي الفاضل عند دخول الملك العادل مصر ليتملّكها سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، لولا وفاة الفاضل. ويُروى عن القاضي الفاضل أنه كان يصفه بقوله: «وأمّا ابن شكر فهو الذي لا يُشكر وإذا ذُكرت الأشياء فهو الذي لا يُذكر.»[٢] كما حقد على الفاضل غير ابن شكر من الكتّاب والشعراء المعاصرين للقاضي الفاضل وصلاح الدين، إذ عزوا إغفال صلاح الدين لهم إلى نصيحة القاضي الفاضل. ومع ما في هذا من الصحّة فإنّ في إبعاد القاضي الفاضل لهم أسبابا لم تكن كلها شخصية، بل كان معظمها سياسيا. وما يهمنا من هذا الأمر هو أن بعض هؤلاء الكتاب أشاروا، ولو بطريقة هجائية تهكمية، إلى نفوذ القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين. ومن هؤلاء ركن الدين الوهراني الذي أشار إلى هذه الناحية في رقعة موجّهة إلى القاضي الفاضل يقول فيها:

«مجلس مولانا القاضي الأجل الفاضل أطال الله بقاءه مجلس قضاء وتنفيذ، وموضعه موضع إبرام وتحليل، فيه معترك الحظوظ، ومقارعة البخوت، ومنه تتفجّر ينابيع الأرزاق، وفيه مشابه من اللوح المحفوظ، فلأجل ذلك ساعاته مترعة بالأشغال، وأوقاته ملآنة بمهمات الدولة، متدفقة بحوائج الناس، ليس فيها فضلة لمستفيد علم، ولا لمبتغي أنس وتذكار، فكسدت عنده بضاعة الخادم وبارت بضائع البطالين، فيجب على الرجل المطوّق بصنائعه الضعيف المنّة عن القيام بشكره، إذا همّ بخدمته في موسم

---

(٢) بدوي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٣؛ القاضي الفاضل، «كتاب المختار»، ص ٧٦. يبدو أنّ ابن شكر بدأ يستأثر بالإدارة في مصر في ظل الملك العادل منذ سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م في أثناء وجود القاضي الفاضل في عكّا ودمشق مع صلاح الدين. وقد ولّد هذا بعض الخلافات بينه وبين موظفي، بل مديري مؤسّسات صلاح الدين في مصر، وسبّب في الوقت ذاته شيئا من المنافسة الخفيّة بينه وبين القاضي الفاضل، حتى أنهّ رُوي عنه قوله تعليقا على وفاة القاضي الفاضل: لم يبق في قلبي حسرة إلّا كون ابن البيساني لم تتمرّغ شيبته على عتباتي. ولقد صادر أموال بعض مديري صلاح الدين الذين كان يعتمد القاضي الفاضل على إدارتهم، مثل علم الدين إسماعيل بن الحجاج، صاحب ديوان الجيش، والأسعد بن ممّاتي، صاحب ديوان المال، ولاحق القاضي الأشرف، ابن القاضي الفاضل، الأمر الذي اضطرّه إلى أن يهرب إلى بغداد ويتشفّع بالخليفة الناصر. للتفصيلات: المقريزي، «الخطط»، ج ٢، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.

أو رأس شهر جديد، أن يقف على باب داره في وقت ركوبه، فيهنّئه وينصرف ليجمع بين الخدمة والتخفيف والسلام.»[٣]

ومن هؤلاء أيضا الشاعر عمارة اليمني الذي تخلّى القاضي الفاضل عنه عندما تراءت له ميوله السياسية. يقول عمارة في الفاضل:

أجْرِ النسيم إلى الشمائمْ   وانفُثْ رُقاك على السمائمْ
وأشِرْ إلى أخوات كفّك تَسْقِنا، وهي الغمائمْ

مولاي دعوة مُقعَدٍ   والدهرُ بين يديك قائمْ
لي حاجتان عظيمتا   ن وأنت أهل للعظائمْ
قلبي وهمّي منهما   فارحمهما دام ودائمْ
جرّد لرفع شكايتي   عزماً يعضّ على الشكائمْ
وعزيمةً خطراتُها   تطوي الطوى عن ضعف حاتمْ
غرْس الرجاء إلى متى   يُبدي الثمار من الكمائمْ[٤]

وبالإضافة إلى ما ذكرنا، يمكن استنتاج مكانة القاضي الفاضل ونفوذه في دولة صلاح الدين من خلال الفصول المتفرقة في الدراسة.

لا بدّ قبل أن نبحث في العلاقة بين السلطان ووزيره، من أن نتوقّف قليلا عند بعض مراسلات القاضي الفاضل مع صلاح الدين وعماد الدين لنستشف منها بعض المعلومات عنه، وعن علاقته بصلاح الدين وعماد الدين التي لم تتناولها المصادر التاريخية.

أسلفنا أن القاضي الفاضل لم يكن يلازم صلاح الدين في حملاته العسكرية جميعها، ويرجع ذلك إلى بعض الأمور منها تراكُم الأمراض على القاضي الفاضل، حتى أنها كادت تشلّ حركته، ولا سيّما بين سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م وسنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، وتجبره على البقاء في دمشق في أثناء معظم فتوحات صلاح الدين في الجزيرة، وفي أثناء حصاره الأخير للموصل، وحتى في أثناء مرض صلاح الدين في حرّان مرضا أثار كثيرا من البلبلة والخوف من موت محقّق، من دون أن يكون صلاح الدين قد أعدّ العدّة لمن يخلفه، ففي هذه الأوضاع أحسّ مرافقو صلاح الدين بالحاجة الماسّة إلى وجود القاضي الفاضل بينهم وإعانتهم بالمشورة عليهم بأمر المُلك بعده في حال وفاته. وقد كتب عماد الدين إلى القاضي الفاضل في دمشق يشرح له وضع صلاح الدين بشيء من التحسُّر واللهفة داعيا إياه إلى الذهاب إلى حرّان ليكون قريبا من السلطان، وليساعد أهله في

---

(٣) الوهراني، مصدر سبق ذكره، ص ٢١١.
(٤) اليمني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٨.

اتّخاذ قرارات بشأن خليفته. وذكر له أيضا أن السلطان يناديه، ويدعوه في ساعات صحوه وغيبوبته. وقرأ القاضي الفاضل كلمات عماد الدين فبكى تحسُّرا على وضع صلاح الدين، وعلى ما سيحلّ بالبلاد بعده، وعلى وضعه هو في تلك الأثناء، وما سيحلّ به لو توفي صلاح الدين. وإذ كان يحاول أن يقوم من فراشه فتعيده الآلام والأوجاع إليه فإنه لم يجد ما يبثه همّه سوى قلمه. فكتب إلى عماد الدين عددا من الرسائل ينصح له فيها ما يجب عمله في حال وقوع المقدور ووفاة صلاح الدين. وقد حدث مرض صلاح الدين خلال فترة حرجة من العلاقات بينه وبين حاكم الموصل، فخاف كل من عماد الدين والقاضي الفاضل من وفاته قبل إتمام الصلح، الأمر الذي قد يدفع بآل زنكي المواصلة إلى استعادة أملاكهم في المنطقة، وربما المطالبة بالشام. فكتب عماد الدين إلى القاضي الفاضل مستشيرا فيما يمكن عمله في مثل هذه الأحوال، فأجابه بأن مصالحة المواصلة أهم ما يجب عمله. وقد تصادف أنّ وفد المواصلة، برئاسة بهاء الدين بن شداد، كان في حرّان لمراقبة ما يجري، ولو أنه كان يدعو إلى الصلح. فأكد القاضي الفاضل على عماد الدين بضرورة التوكيل إلى الملك العادل، أخي صلاح الدين إتمام الصلح نيابة عن أخيه. ولا شكّ في أنه اعتبر في قراره هذا مكانة العادل في دولة صلاح الدين وسِنّه، لأن أبناء صلاح الدين كانوا آنذاك صغارا، وعاجزين عن التفاوض مع آل زنكي الدهاة. وفي تعليماته لإتمام الصلح في أثناء مرض صلاح الدين، وجّه العمادّ إلى ضرورة استئذان صلاح الدين وحضوره حتى لو لم يكن في كامل قواه الصحية. يقول: «وإذا وقع مشكل فالملك العادل حاضر، والسلطان أبقاه الله، إذا استؤذن باللسان، ولم يُعرض الكتاب، ولاصق صدره، بنظر الدواة، فهو يجيب؛ وما ينقل اللفظة بعد اللفظة، والمثاقلة في المخاطبة، وحسن التوصّل، ولطف التلطّف، لا يحتاج سيدنا إلى تعليمه ولا يفتقر إلى تفهيمه فهو أستاذ أهله ودليل سبله. . . . أمّا أنا فما أنكرت نفسي ولا عدمت صبري ولا قلّ تمالكي ولا اشتدّ تهالكي ولا ظهر ما في قلبي على وجهي، ولا أفرط هلعي كما أفرط في هذه النوبة.»[٥]

وقال ردّا على رسالة مؤثّرة من عماد الدين يصف فيها تشوُّق السلطان إليه: «وأشار سيدنا عماد الدين إلى أن السلطان عزّ نصره، كثيرا ما يظن أني في الطريق إليه وأنه يلهج بذكري لهج من يراه أوّل طالع عليه. فوالله، إنني على هذه النيّة من أول وقوع هذا المرض الذي نسأل الله حمد العاقبة فيه، وعازم في كل رفقة أن أكون معهما.»[٦]

---

(٥) القاضي الفاضل، «مراسلات فاضلية»، ص ١٦٧.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

كما علّق بشيء من الحسرة والأسى على عدم تمكّنه من الوصول إلى مكان صلاح الدين في حرّان سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، قائلا: «وعلائقي بالشام، فقد كثرت، فلا أستطيع قطعها إلّا في مدّة وعليّ مهلة وإلا فأنا محتاج إلى السفر ومضطر إلى أن أكون في المكان الذي استعلم منه الخبر، وأرجو أن يتيسّر أمري، ويخفّ من دمشق ظهري، وينشرح للطريق صدري، وينجبر بالمشاهدة الناصرية كسري ويستريح بالموافقة العمادية سرّي، وإلى هذا التاريخ فما خلوت من ضعف يجاذب العزمة ويدافع الهمّة، ما وجدت للصحة الطعم الذي كنت أجده ولا خلوت من الحاجة إلى الطبيب يتفقّد المزاج ويتعهّده.»[7]

وأضاف قوله: «وقد اكتنف بي همّان: أحدهما ضعف السلطان، والآخر تأخري عن الخدمة. وبالله أقسمت أن المشاهِد للآثار وإنْ كانت رائعة، أروح من المتوقِّع للأخبار وإنْ كانت سارّة، فأنتم فيما هو أروح وإنْ كانت لكم المِنّة، ونحن فيما هو أبرح وإنْ كانت علينا الحجّة.»[8]

ويبدو من خلال مراسلات صلاح الدين مع القاضي الفاضل أنة كان يستشيره في كل صغيرة وكبيرة، ويعتمد عليه في المفاوضات مع غيره من الحكام والأشخاص سواء بالحضور شخصيا أو بالمكاتبة، ويأخذ رأيه في أشخاص قبل أن يعينّهم لمناصب عُليا مثل قضاء دمشق. ولقد أشرنا إلى هذه الناحية من مسؤولياته في الفصل الرابع من هذا البحث.

ثالثا: بين القاهرة ودمشق

ذكرنا في أثناء بحثنا أن صلاح الدين كان يرسل القاضي الفاضل إلى مصر أحيانا لقضاء الكثير من الحاجات والإشراف على الأمور فيها، وأن القاضي الفاضل نفسه كان يفضّل العودة إلى مصر ليكون قريبا من عائلته وحلقته الأدبية ومدرسته التي بناها سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م؛ ومؤسساته الخيرية، بالإضافة إلى إدارته. وكان يأنس إلى إقامته في القاهرة ويفضّلها على دمشق، ولعل هذا راجع إلى كونه ترعرع أدبيا وعمليا في القاهرة، وعاش فيها فترة من حياته زادت في ارتباطه بها واعتباره إيّاها بلدا ثانيا له، وإلى انحراف بعض مجموعة الشام الأدبية عنه، وجعله محورا من محاور تهكّمها، لكونه فلسطينيا أوّلا ولكونه مصريا ثانيا، ناهيك بكونه إنسانا متنفّذا في دولة صلاح الدين ثالثا. وإنْ لم يتقبّل

---

(٧) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٨) القاضي الفاضل، «كتاب المختار»، ص ٤٥.

جميع الشاميين القاضي الفاضل فإنهم لم يتقبّلوا صلاح الدين نفسه، كما قد يبدو من أقاويل المؤرخين، لأنه كان في الشام بعض الموالين لآل زنكي، كما كان فيها بعض من اعترضوا على حروب صلاح الدين المستمرّة في الشام وحلب والموصل، الأمر الذي أرهق إمكاناتهم المادّية. ومن هنا فقد وُجد في الشام بعض المعارضة التي عبّرت عن آرائها بهجاء ذوي النفوذ في دولة صلاح الدين، وبينهم القاضي الفاضل، وقد أشرنا إلى بعض هؤلاء.

ولو ترك صلاح الدين أمر اختيار عاصمته للقاضي الفاضل لاختار القاهرة، لولائه لها ـ كما ذكرنا ـ ولحرصه على سلامتها، ولاعتراضه عى حروب صلاح الدين الطويلة المدى في الشام والموصل. وإذا كانت العلاقة بين الزعيمين قائمة على الإخلاص والودّ، فإن هذه الحرب أوجدت شيئا من التوتّر بينهما، لأن القاضي الفاضل اعتبر الموصل بصورة خاصة خارجة عن نطاق ممتلكات صلاح الدين، وأن الخلاف بينه وبين حكّامها من آل زنكي يجب أن يُفضّ سلما لا حربا، حقنا للدماء وتوفيرا للأموال التي كان يجب أن تُدَّخر لحرب عدوّ الإسلام لا لحرب المسلمين كما ذكرنا.

وإذا كان القاضي الفاضل يفضّل القاهرة على دمشق للأسباب التي أوردناها، فإنه كان يفضّلها أيضا لأن جوّها كان يلائمه أكثر من جوّ دمشق، فهو كثيرا ما يذمّ دمشق في كتاباته، ويشكو تلوّث مائها وهوائها. وكان صلاح الدين يعرف هذه الناحية فيه فيجاريه فيها ويشجّعه على تمضية ما يريد تمضيته من وقت في القاهرة. وفي رسالة منه إلى القاضي الفاضل يقول:

«وردت المكاتبة الكريمة الصادرة عن الحضرة السامية الأجلّة الفاضلية ـ ضاعف الله نمو إفضالها وبلوغ آمالها وسموَّ ظلالها ـ مؤرّخاتٍ بثالث عشر شوّال ورابع عشره ومُنتصفه، مشتملات على نُكت الفضل وطُرفه، والدار والدرِيّ المتألّفين المتألّقين من نظام الطِرس، وظلام دَيْجور النفس، في صدفة وسدفَة، متضمّنات شكر ما منّ الله به من سالف الإحسان، مبشّرات بما أعدّه لنا من مؤتنفه، مهدياتٍ للنصائح والفصائح، والوصايا الصحاح وجوامع الكلم الجامعة شمل المناجع والمصالح، فأضاءت بطلوعهن مطالع المطالب عن سنا النّجح، وحلّت مباهجِ المسارّ ومناهج المبارّ، سافرة الوجه مُسفرة الصبح، وتضاعفت من الأُنس بمطالعة الكُتْبِ الوحشةُ لما ينوب من مشاهدة طلعة القُرْب.

«فأمّا ما أنهاه المجلس السامي بعد رحيلنا من تراعه المقيم فإنه شرح ما تجدّد لنا بغيبته، وأوضح طرفا ممّا وجدناه من الوجد عند عدم الاستيناس بكريم حضرته. أحاط علمه الكريم بأن اليُمن مقرون بحضوره، وأن استقامة الملك في أموره بحسن تدبيره. ولولا متابعة إرادته ومطاوعة بغيته لما سمحنا، على الكُره، بغيبته. ولكنّا ظننّا به أنه يجد

من ذلك التعب الدائم راحة، ويكون جمام موارد الإجمام له مستباحة مستماحة. أنّى والمملكة بآرائه وآلائه (أين حلّ) متسقة العقود، مشرقة السعود، فائزة الجدود، ناجزة الوعود. لا زالت أقلامه لمقاصد النجاح محرِّرة، وأحكامه لقواعد الصلاح مقرِّرة، والأيام بميامنه المباركة مباكِرة، والممالك لمشاركة تدبيراته المشكورة مشارِكة.»[٩]

ولم يكن صلاح الدين دائما من اللباقة بحيث يجاري القاضي الفاضل أو غيره، فقد كانت تمرّ به أوضاع صعبة بسبب حروبه المتواصلة وأطماع أهله وأقاربه وتحزّبات أهل الشام وحلب عليه، وغيرها من أمور كانت تضايقه أحيانا، وبالتالي فقد كان يغضب إذا ألحّ القاضي الفاضل عليه مذكّرا إياه بضرورة عودته إلى مصر والإشراف على أمورها بنفسه وتطمين أهلها إلى أن سلطانهم لم ينسهم، لأن ولاءه لدمشق كان يعادل ولاء القاضي الفاضل للقاهرة. فدمشق مرتع صباه ومكان سكناه فيها ذكريات له ولعائلته، ومن ثمّ أصبح يفضّل العيش فيها على القاهرة، وقد جعلها بعد سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م عاصمة له، كما ذكرنا. ومن هنا فقد حدثت بينه وبين وزيره خلافات، ربما وتّرت علاقتهما موقتا، ولكنّها سرعان ما تبدّدت مع بداية الجهاد.

ولقد عكس بعض رسائل القاضي الفاضل شيئا من هذا الخلاف بقالب طريف، وإنْ كان لاذعا؛ فهو يذكّر فيها صلاح الدين بمسؤولياته تجاه مصر، وبفضل مصر عليه، وهذا يدلّ على أنه كان يعاتب صلاح الدين بصراحة من دون خوف من انتقامه.

ففي رسالة منه يردّ فيها على تشبيه صلاح الدين القاهرة بالمومس ودمشق بالزوجة الصالحة يقول: «في ليل كموج البحر له أنجم كحبب النهر، قد حشر الهموم وحشدها وهدى ضوال القلوب وأنشدها، فأقول له لما تمطّى بصلبه قطع الله صلبك ومتى أدى عمود الصبح قد عجّل الله عليك صلبك، وأهلا بطلعته فإنها في غربة مشرقة وبخواطره فإنها لا تدخل من باب واحد وتدخل من أبواب متفرّقة. وأمّا الكتاب فإنّ له أذنين كالحايط، ورأس القلم قوي ولا يُستدرك له فارط. وهجم بي التأمل على لفظة أطلقها على مصر وكنّى بها عنها ووسمها بما وَصَمَها وبتّ من القلوب عِصَمَها. وأظنّه عاقبها بذنب فرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، وحين قال: أليس لي ملك مصر كما فعل الرشيد وولّى الخصيب. فإنْ كان إلى ها هنا ذهب فقد عاقبها بذنب لم تجنِه وهدمها بأمر لم تبنِه، فلو كان على نفسي لكنت معه عليها. ولو بعث سهما إليها لتولّت يدي العالية إليها. فلقد أخرجني من أرضي بسحره، وندم الخادم على ما فات فيها من عمره، فهو الآن لا يرفع إليها طرفا من كَسَلِه، ولا يرى نيلها إلّا أقل من بَرَداها (نهر

(٩) البنداري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨١. الرسالة مكتوبة بقلم عماد الدين الأصفهاني، ولكنها تضمّ آراء صلاح الدين.

بردى) ومن وَشَلِه، وإذا رأى دينارها الأحمر قال به حُمرة من خَجَلِه، وإذا رأى إبليزها (إبريزها) الأسود قال من سواد عَمَلِه. وإذا رأى هرمها قال انكسر نهداها وإذا رأى رملتها الجافّة قال: شاب فوداها. ثم راجع النظر فإذا اللفظة التي أطلقها مولانا عليها وهي المومسة تأبى العلقة بها، فكيف له أن يقذف المستورة هذا القذف، ويهجم على خدرها بهذا الوصف، وقد وفد إليها عن شامِه حين أخذ الكفر بمخناق إسلامِه. فأنجدته وأصرخته وسكّنت روعه وأفرحته، وعاد إلى الفايت بالدَّرَك، (وقال الناس ما هذا بشرا إن هذا إلّا مَلَك). وإذا كانت دمشق من عتقاء مصر، فلا فخر لها أن تكون مولاتها مومِسَة، وقد سيّرت هذه اللفظة فما كأنها دخلت كتابه ولا مجلِسَه.»(١٠)

وأشار إلى تفضيله مصر على الشام في رسالة أخرى قائلا: «ومصر وإنْ كانت دارا ما خرج عنها من الشام إلّا إلى دهليزها، فإنه عزيز عليها والله وعلى أهلها فراق عزيزها.»(١١)

كما أنه يؤنّب صلاح الدين على ما قاله عن القاهرة ومصر في رسالة أخرى بقوله: «الكتب من سيّدنا توقيعات والألفاظ منه أحكام والفتاوى معتبرة... وشُهر عنه أن رأيه في مصر غير جميل، وكان الناس يتوقّعون أن يكون له بعد مشاهدتها ثيبة. ولما شبهها مولانا في كتابه بأنموذج الجنة، ارتجع الموهبة بما أعقبها من المثلبة فقال ما مثاله: وترك ما سوّلت مومسة مصر من طلاق الزوجة الصالحة يعني دمشق. وهذا لائق إذا سلمنا أن مصر مومس، فإن الله قد نزّهه وطهّره، كما نزّه لسانه (لسان صلاح الدين) ووقّره. وما أعرف في مصر إلّا أنّ الله سمّاها مقاما كريما وذكرها مصرّحا ومشيرا في ستّة عشر موضعا من كتابه. فترى أين ذُكرتِ يا دمشق؟ وكأنني به وهو يحتجّ بقوله تعالى: وآويناهما إلى ربوة، فقد اختُلف في التفسير، ولو كانت مومسا لما سمّاها (الله في القرآن) خزائن الأرض، ولا تَسمَّى من تملّكها عزيزا ولا جُعِل بَرَدى قِرَن الليل. وإنْ كانت دمشق البستان فمصر القصر ولسيدنا على الإسلام المنّة. والمنّة لمصر على سيّدنا فيها، فإنه استصرخ لسانا عن الشام وقد ضاق خناقه فعاد يدا من مصر حلّ بها وثاقه فما

---

(١٠) القاضي الفاضل، «عيون الرسائل الفاضلية»، ص ٢١. أورد ابن فضل الله العمري الرسالة في كتاب «مسالك الأبصار»، على أنّها موجّهة إلى القاضي محيي الدين أبن الزكي. العمري، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩ ـ ٩٠. ولكنّ الأصح أنّها موجّهة، كما أشرنا في النص، إلى صلاح الدين. ولقد ردّ عماد الدين الأصفهاني على رسالة القاضي الفاضل هذه معتذرا وذاكرا أنّ الرسالة المشيرة إلى فضل دمشق على القاهرة، كانت بأمر صلاح الدين، ولو أنّها بقلمه: «وما كتبت ما كتبته في تقرير تقريظ الشام سأما من بلد السأم، بل بأمر السلطان أذكر فضيلة هذه البلاد، وميزها بقرب مسافة الجهاد، فلا وجه للتغضّب، ونسبته إلى التعصّب بالتصعّب.» الأصفهاني، «البرق»، ج ٣، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(١١) القاضي الفاضل، «كتاب المختار»، ص ٣٢.

كسبت به المنّة، وسلك منه طريقا إلى الجنّة فيجب أن لا يُطلق عليها هذه اللفظة الفظّة التي قابلت قلوب أهلها فوجدوا فيها غِلظة.»[١٢]

وبعبارة أُخرى فإننا نلمح في هاتين الرسالتين أن الوصف الذي أطلقه صلاح الدين ظلما وتجنّيا على مصر قد مسّ كبرياء القاضي الفاضل الذي اندمج في مصر حتى بات يعتبر واحدا من أهلها، فاتّخذ لنفسه لقب المصري إلى جانب لقبيه البيساني والعسقلاني. ولا شكّ في أنّ القاضي الفاضل قد وجد بادىء الأمر صعوبة في الردّ على هذا القذف، فبينّ محاولته لأن يستكين له - ربما مجاملة لصلاح الدين - ثم نفور نفسه من هذا القذف وانطلاقها إلى الرد عليه، لا بما يردّ إلى مصر قدرها فحسب، بل بما يبينّ ما لها من جميل على صلاح الدين نفسه. وهذا مثال من أمثلة ثقة القاضي الفاضل بنفسه وبأخلاقه، حتى بإزاء صلاح الدين، وجعله ما يعتقد أنه الحق فوق كل مصلحة أو مجاملة. طيّب الله ثرى أرض أنجبته!!

وكتب إلى صلاح الدين ذمّا في دمشق، ضمن تعليق على مرض الأمير عثمان (الملك العزيز عثمان) وكان ربيب القاضي الفاضل، يقول فيه:

«عرف المملوك من الكتب الواصلة التِياثَ المولى الأمير عثمان. والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم يؤثر في قلوب الأولياء الأثر العظيم. وقليل قذاة العين غير قليل. وماذا يقول في بلد لو صحّت الحِمْية من مائه لكانت أكبر أسباب صحّة المحتمي وشفائِه. فإنه ماءٌ يؤكل، وبقيّة الأمواه تُشرب، ويجد وخامته من يُنصف ولا يتعصّب. ونرجو أن يكون المولى قد أمسك عن الفاكهة الدمشقية التي لا يخفى كثرة فضلاتها، وعن أكل اللّحوم المجلوبة التي ينقلها سير الطريق إلى شرّ حالاتها.»[١٣]

ولعل القاضي الفاضل عاتب عماد الدين الأصفهاني على ما كتبه عن صلاح الدين بشأن مصر الشام، فأجابه عماد الدين معتذرا عن تفضيل الشام، بقوله: «وما كتبت تقريظ ما كتبته في تقرير تقريظ الشام سأما من بلد الشام، بل بأمر السلطان أذكر فضيلة هذه البلاد، ومَيْزَها بقرب مسافة الجهاد، فلا وجه للتغضّب، ونسبته إلى التعصّب بالتصعّب:

فالشام شامةُ وجنةِ الدنيا كما   إنسانُ مقلتِها الغضيضةِ جلّقُ[١٤]

ولقد رأى القاضي الفاضل في دمشق، وفي الشام عامّة، عبئا ماليا على مصر في وقت كانت مصر ذاتها تعاني قلّة الأموال، لكثرة حروب صلاح الدين واستنزافه أموالها

---

(١٢) القاضي الفاضل، «عيون الرسائل الفاضلية»، ص ٦٢ - ٦٣.

(١٣) البنداري، ص ٢٩٩.

(١٤) الأصفهاني، «البرق»، ج ٣، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(مصر)، ولطالما نصح (القاضي الفاضل) صلاح الدين بتخفيف مصروفاته في الشام، ولكنّ صلاح الدين كان يتّهمه أحيانا بالتعصّب على دمشق، وأحيانا يرقّ له ويبثّه مخاوفه من الجدب وقلّة الأموال فيها، ويطلب منه بطريقة لطيفة غير مباشرة أن يبحث له عن مصادر مالية يساعدها بها. ولقد كتب القاضي الفاضل إلى صلاح الدين رسالة يشكو فيها الضائقة المالية في مصر قائلا: «وأما ما هي (الحضرة) بصدده من كلفة، فلو رأى سيدنا أحوال مصر وأهلها في ضيق الخناق، وإنفاق بقايا الأرماق، لعلم أن الذي بدمشق قطرة من بحره ولمحة من دهره، وعهدي بسيدنا يقبض وجهه ويزويه، وينبذ بُكايَ ولا يطويه، ويقول شكوت فعارضني بشكوى، وعاوضني بدعوى، ما تحدّثت إلّا مع الصدى الذي لا يُعَدُّ مع الصوت صوتين ولا استعنت إلّا بالظل الذي لا يُعَدُّ مع الشخص اثنين، ولا شكّ أن الغايب بوجهه يغيب الحيا عن وجه وادّه، ويخلو مكانه فيكون الكتاب غير سادّه، وقد كتبت بما لعله يَرِد وقد غني عنه ويعزّ عليّ أن لا أساعده بذات يدي ولكن غبْنا عن أهلنا سنين، ووصلنا فوجدنا الرجا فينا يحب العاجلة والرجا منا يصحبه قَدْ والسين.»[١٥]

كما كتب إلى صلاح الدين رسالة أخرى يخفّف عنه فيها مخاوفه من الضائقة المالية في دمشق، ويحدّثه عن أمور أُخرى كانت قد أزعجته (صلاح الدين)، وكتب إلى القاضي الفاضل عنها، فأجابه القاضي الفاضل برسالة تدل على مدى الثقة المتبادلة بين السلطان ووزيره، ومدى المحبة والإخلاص المتبادلين. يقول القاضي الفاضل في الرسالة: «ذكر سيدنا أحوال دمشق في سعرها وتأخُّر قَطْرها، فأرجو ألا نكون معاقبين وأرجو أن نكون معاتَبين. فإن الله لا يغيّر ما بقوم، ولو استقاموا على الطريقة. وذكر (أي صلاح الدين) ضجرا في خُلقه، فلا ينسَ قصّة ذي النون فما قصّ علينا الكتاب العزيز قصص السادة الأوّلين لأنها أسمار حظّنا منها حظّنا من سماع الأخبار، لأنها تمر بالأسماع، ولكن لتروض الطباع. ومن ضيق الصدر ما لا سبب له كما يبدو لقرينه، فيكون ذلك عقوبة ذنب قد محصه الله به، وأكرمه عن الموافقة عليه والتقريع به، ومنه ما يكون بالأسباب البادية فليس له ولا للأول دواء إلّا الرجوع إلى مَنْ أورده ويصدره، وإلى من أوقع فيه وينقِذ منه. وقد بررتُ سيّدنا في هذا الكتاب بأن طويت عنه همومي، ولم أستمد بالقلم من دم كلومي، فأُودِع الكتاب ما ينسيه ما هو فيه، والله المشكور على كل حال.»[١٦]

ومع ما جرى بين السلطان ووزيره من خلاف في شأن القاهرة ودمشق، فإن القاضي الفاضل عاد إلى دمشق التي بنى لنفسه خارجها بيتا (جوسقا) كان يستجم فيه خلال مرضه. ويذكر عماد الدين، مثلا، أنة عندما عزم صلاح الدين على فتح فلسطين

(١٥) القاضي الفاضل، «كتاب المختار»، ص ٧١.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٥٢.

كان القاضي الفاضل مقيما في بيته أو جوسقه هذا ليتفرّغ للعبادة، وليستجمّ، فقصده صلاح الدين يوم الثلاثاء حادي عشر ربيع الأول ٥٨٣هـ / أيار (مايو) ١١٨٧م، وأقام عنده في الجوسق حتى الظهر «مستظهرا به على الدهر حتى كشف مهمّاته، وشفّ شفاه مشافهاته، وانتجى معه في الآراء والآراب، وانتجع لريه من رأيه صوب الصواب، وارتجع وديعة سرّ الغيب ممّن عنده علم من الكتاب. ثم استودعه الله وودّعه، ودعا له الأجلّ الفاضل وشيّعه.»(١٧)

رابعا: صورة لصلاح الدين بقلم القاضي الفاضل

رسم المؤرّخون شخصيات تاريخية لملوك وقادة في إطار معطيات وجب توفّرها في ذوي الشأن، فكان المؤرخ يتناول شخصية ما من خلال الخلفية العائلية والإنجازات الإدارية، والصفات أو الخصال المتطلّبة عادة من الحكّام، كالعدل والحلم والصبر والشجاعة والحزم، من داخل الإطار. ولكن القاضي الفاضل شذّ عن هذه القاعدة العامّة في التصوير إلى حدّ ما، فتناول شخصية صلاح الدين من داخل الإطار، فركّز على بعض الصفات المتطلّبة من الحاكم، ولكنّه بدلا من أن يركّز عل خلفيته العائلية أو العرقية، ركّز على نسبه الجهادي، فصوّره منذ البداية بطلا، مكمّلا لرسالة في الجهاد لتحرير الأراضي الإسلامية المغتصَبة، بدأها والده وعمّه في خدمة آل زنكي، منذ بداية حركة التحرير. فأسد الدين شيركوه ساعد عماد الدين زنكي في تحرير الرُّها سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، كما ساعد ابنَه نور الدين في استعادتها من الفرنج مرّة ثانية سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م، ووطّد حكم نور الدين بحيث مكّنه فيما بعد من متابعة جهاده الذي تكلّل بانتصاره على الفرنج في مصر، وتوحيد مصر والشام على يد صلاح الدين. وأمّا دور نجم الدين أيّوب فلا يقلّ عن دور أخيه أسد الدين، لأنه ساعد نور الدين في دخول دمشق والتمركز فيها كقاعدة بدأ منها جهاده ضد الفرنج. فَنَسَبُ صلاح الدين عريق من حيث البطولة التي لازمته طوال حياته.

وفي رسالة عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء بالله، خطّها سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، يشير إلى إنجازات آل أيّوب البطولية في دولة آل زنكي التي أغفلها كتّاب عصره بقوله: «فإنّا كنا نقتبس النار بأكُفّنا وغيرُنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يَستمير، ونَلقى السهام بنحورنا وغيرُنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرُنا

---

(١٧) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

يدّعي التصدير. ولا بدّ من أن نستردّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تُردّ به الغُصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب. وما كان العائق إلّا إنّا كنّا نتتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإنجابا للحَقّ يشاكل إنجابنا للسَّبْق. كان أوّل أمرِنا أنّا كُنّا في الشام نفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفّار متقدّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمّنا، في أي مدينة فُتحت، أو معقل مُلك، أو عسكر للعدو كُسِر، أو مصاف للإسلام معه ضُرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدوّنا أنّا نصطلي الجمرة، ونملك الكرّة، ونتقدّم الجماعة، ونرتّب المقاتلة، وندبّر التعبئة، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجْرُها، ولا يضرّنا أن يكون لغيرنا ذِكْرُها.»[١٨]

ومع أنّ بعض المؤرخين تخبّطوا في قضية نَسَب صلاح الدين محاولين أن يربطوه بقريش والرسول عليه السلام، إلّا إنّ القاضي الفاضل نسب بطولة صلاح الدين، بدل نسبه العائلي، إلى الرسول، وأعماله إلى بعض الخلفاء الراشدين، فهو في رأي القاضي الفاضل يحتذي مثال الرسول في تديّنه وتقواه وزهده، ويلتزم أمور الدين فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويتقيد بالشرع في معاملاته وإنجازاته في الحرب والسِّلم، ويحارب في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، واسترداد الأراضي الإسلامية المغتصبة التي أُخليت من الإسلام؛ فالرسول فتح القدس عن طريق الإسراء والمعراج، والخليفة الثاني عمر بن الخطّاب ضمّها جغرافيا إلى الحظيرة الإسلامية، وأمّا صلاح الدين فأعادها إلى الإسلام بعد احتلال فرنجي لها دام نحو تسعين عاما. وأي فتح يعادل هذا الفتح!!

وصلاح الدين، في نظره، إنسان متواضع على الرغم من علوّ شأنه وإنجازاته النادرة المثيل في عصره. فهو ينتهج سياسة اللين في غير ضعف، والشدّة في غير عنف، ويتعامل مع صديقه وعدوّه على غرار معاملة الخلفاء الراشدين، مثل أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب، في العدل والحرص على سلامة المسلمين وجمع كلمتهم، والشدّة مع الخارجين عن حظيرة الإسلام والمتواطئين مع أعدائه، ومع الفرنج أعدائه.

وصلاح الدين في الوقت ذاته بطل مقدام اجتمعت فيه صفات القيادة والذكاء والدهاء العسكري، وخصوصا في علاقته بالفرنج. وقد استطاع أن يحرّك الوعي الجهادي في المسلمين، وتمكن بإيمانه بالنصر وبالتفاف المسلمين حوله من إيجاد جوّ مثالي لمعركة فاصلة بين المسلمين والفرنج تكلّلت بالنصر المبين في حطّين.

ولم يكتفِ القاضي الفاضل بتناول بطولة صلاح الدين من داخل الإطار التاريخي

---

(١٨) أبو شامة، مصدر سبق ذكره، ج ١، قسم ٢، ص ٦١٦. (الرسالة كاملة في: المصدر نفسه، ص ٦١٦ - ٦٢٣).

للبطولة، بل تجاوزه إلى خارجه، وتعرّض له كإنسان عادي، لا مثالي، له عواطفه وميوله وطباعه. فهو في الحرب شجاع وبطل، ولكنه على ساحة الحياة إنسان يُعاني نواحي الضعف التي تبعد عن المثالية، كغيره من البشر.

ولقد صوّر القاضي الفاضل هذه الناحية الإنسانية لدى صلاح الدين خلال الحملة الصليبية الثالثة الحاسمة للصّراع بين الإسلام والمسيحية الغربية. وخلال الفترة التي تُمثّل ما بلغه صلاح الدين من انحدار يقرب من الهزيمة وظلّ يجاهد بكل ما لديه من قوى معنوية، ومع هذا فقد كانت تمرّ به أوقات يكاد يصاب فيها باليأس فيتمنى أن يتزهّد أو يعتزل السياسة أو يبتعد عن ساحة الحرب، ويفضي بسرّه إلى وزيره فقط. ولكنّ وزيره كان يحثّه على عدم الاستسلام. وقد تحدّثنا عن هذه الناحية. وكما أن القاضي الفاضل صوّر صلاح الدين بصورة البطل الإنسان، فإن صلاح الدين نفسه لم يكن أسير صورته كبطل لانتصاراته في حطّين والقدس. ولم تكن تنقصه الشجاعة ولا التصميم، ولكنه أدرك بنتيجة معرفته بالفرنج أنّ صراعه معهم بشأن عكّا يختلف عنه في المملكة اللاتينية، وأنّ تجنُّب المعركة هو أحيانا أسلم الطُّرق، وهذا ما دفعه في النهاية إلى عقد الصلح مع قوّات الفرنج، بقيادة الملك ريتشارد الإنكليزي. وقد رأى في الصلح سلامة الإسلام والحفاظ على ما تبقّى لديه في فلسطين، على أن يستعيدها مرّة أُخرى، ولكنّه توفي قبل تحقيق هدفه هذا، وناب عنه بتحقيقها بعض سلاطين المماليك.

وإذا كان القاضي الفاضل قد أوجد له صورة مشرقة في كل من مصر والشام، والعراق واليمن، والأندلس، وحتى في المملكة اللاتينية وبيزنطة، من خلال مراسلاته الرسمية والإخوانية، فإنّه عزّز هذه الصورة عن طريق تشجيعه للمؤلفات التاريخية المركّزة على سيرة صلاح الدين، مثل كتابيْ «الفَيْح القُسّي في الفتح القدسي» و «البرق الشامي» لعماد الدين الأصفهاني، اللذين أورد فيهما (عماد الدين) الكثير من رسائل القاضي الفاضل الرسمية والإخوانية، كمصادر لهاتين الدراستين القيّمتين.

هذا عدا الشعر في صلاح الدين الذي شجّعه، بضمّه بعض الشعراء المرموقين إلى حلقته، بحيث كان يوجّه شعرهم ويعرض عليهم موضوعات معيّنة للنظم فيها. ومن أشهر هؤلاء الشعراء ابن سناء المُلك.

ومن جملة المؤلفات التي وجهها القاضي الفاضل كتاب «قوانين الدواوين»، للأسعد بن ممّاتي، رئيس ديوان الجيش في عهد صلاح الدين؛ وقد ركّز على الناحية الاقتصادية في عصر صلاح الدين.

وعدا ما كتبه معاصرو القاضي الفاضل عن صلاح الدين وعصره، فإنّ كتاباتهم ورسائله أصبحت مصادر لمعظم المؤرّخين الذين تناولوا صلاح الدين وعصره؛ ولعل أكثر هؤلاء استشارة لكتابات القاضي الفاضل هو القلقشندي، مؤلف «صبح الأعشى في

صناعة الإنشا»، الذي أبدى اهتماما خاصّا برسائل القاضي الفاضل الرسمية، وأوردها نماذجَ للعصر الأيوبي، والصلاحي منها خاصة.

والرسائل التي أوردناها ذات قيمة تاريخية ودعائية لعصر صلاح الدين. وكذلك أبو شامة الذي حفظ لنا في كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية»، عددا كبيرا من رسائل القاضي الفاضل ذات القيمة التاريخية، في تصوير صلاح الدين وعصره؛ والمقريزي الذي تفرّد، بين المؤرّخين، بإيراد عدد من مذكّرات القاضي الفاضل المعروفة بـ «المياومات»، لتلقي ضوءا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والعسكرية في مصر، في عصر صلاح الدين.

وهكذا يمكننا القول إن القاضي الفاضل خلّد صلاح الدين وعصره، وجعل له من خلال كتاباته وكتابات غيره مكانة خاصة في التاريخين الإسلامي والعالمي؛ لأنّ المؤرخين المحدثين، من شرقيين وغربيين، لا يزالون يعتمدون على رسائله وكتاباته مصادرَ لما يكتبون من تراجم عن صلاح الدين.

وسيرة صلاح الدين بقلم المؤرخين البريطانيين ليونز وجاكسون؛ ودراسات المؤرخ هاميلتون غِب عن صلاح الدين وعصره، خير مثال لهذا. ومِنْ ثم يمكن القول إن القاضي الفاضل خدم صلاح الدين بكل إخلاص ووفاء في حياته وبعد مماته؛ وخطّ لنفسه، في الوقت ذاته، من خلال أعماله وكتاباته في عصر صلاح الدين، مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي.

خامسا: القاضي الفاضل
ووفاة صلاح الدين

وإنّا عليك يا يوسف لمحزونون

عاجل القدر المحتوم صلاح الدين بعد أنْ عقد الصلح النهائي مع الفرنج بوقت قصير، وكأنه كان يشعر بقرب حتفه، عندما أسرّ إلى القاضي بهاء الدين بن شدّاد بأنّهُ يخاف أن يتوفاه الله قبل إتمام الصلح، مع وجود الفرنج بأعدادهم الكبرى في فلسطين، فيهجمون عليها، ويحتلون القدس من دون أن يجدوا مقاومة من المسلمين.[١٩] لقد كان يدرك أن خلفاءه سيعجزون عن تحقيق ما حقّقه هو خلال حياته.

عاد صلاح الدين بعد أن عقد الصلح مع الفرنج وحصّن القدس، إلى دمشق في شهر شوّال ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، فخرج الناس لاستقباله ومعهم القاضي الفاضل، وأولاد

(١٩) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٥.

صلاح الدين الصغار الذين كان يرعاهم. وقد سعد صلاح الدين بهذا اللقاء ووعد وزيره بأن يتوجه قريبا إلى مصر، بعد أن غاب عنها خمسة عشر عاما، ففرح القاضي الفاضل بذلك ظانّا أنهّ الآن قد يستقرّ قليلا لأن حركته كانت تثقل وأمراضه تزداد بمرور الزمن. ولكن صلاح الدين كان قد تعوّد الحركة المتواصلة، ولم يتمكّن من الإقامة الطويلة في دمشق، فحالما وفد عليه أخوه الملك العادل، في ذي القعدة من السنة ذاتها، خرج معه في رحلة صيد ودّعه بعدها، إذ ذهب العادل إلى الكرك، إقطاعه.

وما أن ودّع العادل أخاه حتى وفد بهاء الدين بن شداد على دمشق قادما من القدس، في شهر صفر ٥٨٩هـ/١١٩٣م، فاستقبله صلاح الدين خير استقبال ثم طلب منه أن يرافقه إلى محطة عودة الحجّاج، فخرج معه. ولكن بهاء الدين لاحظ هذه المرّة أن صلاح الدين قد تغيّر كثيرا، فحركته ثقيلة، وبدنه ممتلىء وشهيته مفقودة، وفيه شيء من التكسُّل.

خرج صلاح الدين ثم لحقه بهاء الدين فلاحظ أنه لم يلبس الكزاغندة، ولم يكن قد تعوّد تركها، ولا سيّما أن الناس كانوا مجتمعين جماعات وأفرادا للقاء الحجاج ولقائه، ولو حاول أحدهم أن يعتدي عليه، كما فعل الحشيشي من قبل، لتمكن من القضاء عليه بسهولة.

سار بهاء الدين إلى جانب صلاح الدين وأسرّ بأذنه سائلا إياه عن الكزاغندة، ولكن صلاح الدين كان قد نسيها فطلبها فلم يجدها أحد. فتشاءم عندئذٍ بهاء الدين وإنْ لم يعبّر عن ذلك لصلاح الدين.[٢٠]

وعاد صلاح الدين بعد لقاء الحجاج إلى قلعة دمشق، ولكنه سرعان ما أحس بشيء من الكسل، وبعد ساعات غشيته حُمّى صفراوية ظلت تلازمه حتى اليوم الثالث من عودته. فحضر بهاء الدين والقاضي الفاضل إلى جانبه، وانضم إليهما الملك الأفضل ابنه وراحوا يتحدثون، فبدأ صلاح الدين يشكو الأرق في الليل وظل يتحدث مع ضيوفه، على الرغم من ضعفه حتى قريب الظهر، فقرّروا الانصراف عنه، ولكن صلاح الدين دعا ابن شداد والقاضي الفاضل إلى حضور الطعام في خدمة ابنه الملك الأفضل، فرفض القاضي الفاضل، تشاؤما من ناحية، ولأنهّ لم يتعوّد من ناحية أُخرى الجلوس في خدمة الملك الأفضل الذي عرفه طفلا، بل ربّاه على يده، ومن ثَمّ صعبت عليه خدمته. وحذا ابن شداد حذوه فقرّر الانصراف. وكأن الموجودين في حضرة الملك الأفضل آنذاك أحسّوا بما سيحدث فبكوا. وأخذت حال صلاح الدين تزداد سوءا، والقاضي الفاضل

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

وبهاء الدين يتردّدان عليه صباحا ومساء لعيادته. وكان صلاح الدين يشكو صداعا، فقصده الأطباء، الأمر الذي سبّب له فقدانا في رطوبات جسمه وزاده ضعفا. وفي اليوم السادس من مرضه أجلسه بهاء الدين والقاضي الفاضل، وأحضرا له ماء فاترا ليشربه، فلم يتمكن من شربه إذ وجده حارا، فطلب تغييره فأحضر ماء أكثر برودة فشكا من برده قائلا: «سبحان الله، لا يمكن أحدا تعديلُ الماء؟.»(٢١)

لقد أحسّ كل من القاضي الفاضل وبهاء الدين بالأسى الشديد لمرض صلاح الدين. ويقول ابن شداد: فخرجت، أنا والقاضي الفاضل، من عنده وقد اشتد بنا البكاء، والقاضي الفاضل يقول: «أبصِر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها؛ والله لو أنّ هذا بعض آحاد الناس لكان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره.»(٢٢)

واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن من شهر صفر، وبدأ يغيب ذهنه، حتى التاسع منه فحدثت له رعشة، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الخوف في البلد، «ونقلوا الأقمشة من الأسواق، وغشي الناسَ من البكاء والحزن ما لا يمكن حكايته.»(٢٣)

يقول ابن شدّاد:

«ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد معه كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم نحضر في باب الدار، فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه، وإلا انصرفنا، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا.»(٢٤)

وفي اليوم العاشر من مرضه حُقن دفعتين، فارتاح قليلا، بحيث شرب من ماء الشعير مقدارا جيدا صالحا. وفرح الناس فرحا شديدا. وظلّ ابن شدّاد والقاضي الفاضل يزورانه على العادة إلى أن مضى قسم من الليل. «ثم أتينا باب الدار ـ كما ذكر ابن شدّاد ـ فوجدنا جَمال الدولة إقبال، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدّد، فدخل ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظم توران شاه ـ ولد السلطان ـ يقول: 'إن العرق قد أخذ في ساقيه'، فشكرنا الله تعالى على ذلك، وانصرفنا طيّبة قلوبُنا، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق قد أفرط حتى نفذ من الفراش، وتأثرت به الأرض، وأن اليبس قد تزايد تزايدا عظيما، وخارت القوة، واستشعر الأطباء (خوفا).»(٢٥)

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) المصدر نفسه.

ولمّا رأى الملك الأفضل وضع والده وأيقن اليأس منه أخذ يحلّف الناس لنفسه، وجلس في دار رضوان، سكناه، واستحضر أحد القضاة، فعمل له نسخة يمين، مختصرة محصلة للمقاصد، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته، وله بعد وفاته، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتدّ، وما يعلم ما يكون.

ويذكر ابن شدّاد أنه حلف للأفضل من أعيان الأمراء: سعد الدين أخو بدر الدين مودود الشحنة، وناصر الدين مكنورس بن ناصر الدين خمارتكين، صاحب صهيون، وغيرهما.[٢٦] وفي ليلة الأربعاء، السابع والعشرين من صفر ٥٨٩هـ / شباط (فبراير) ١١٩٣م، وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه، اشتد المرض بالسلطان، وضعفت قوّته، فاستدعى الملكُ الأفضلُ القاضيَ الفاضلَ وابنَ شدّاد والقاضيَ محيي الدين بن زكي الدين، قاضي القضاة في دمشق، وعرض عليهم النوم عند والده، فرفض القاضي الفاضل لأن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزوله وبهاء الدين من القلعة. «وخاف أن لا ننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضا، فرأى المصلحة في نزولنا، واستحضار الشيخ أبي جعفر ـ إمام الكلاسة ـ ليبيت في القلعة، حتى إنْ احتضر صلاح الدين بالليل حضر عنده، وحال بينه وبين النساء؛ وذكّره بالشهادة؛ ففعل ذلك ونزلنا.»[٢٧]

وذُكر عن الشيخ أبي جعفر أنهّ قرأ القرآن، وكان ذهنه (صلاح الدين) غائبا، «فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الذي لا إله إلّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ والشّهادة﴾، سمعه وهو يقول: ﴿صحيح﴾؛ وهذه لفظةٌ قيلت في وقت الحاجة وعنايةٌ من الله به. وقيل أنهّ لما بَلَغَ أبو جعفر في قراءته قوله تعالى: ﴿لا إله إلّا هُوَ عَلَيْهِ تَوكّلت﴾ تبسّم وتهلّل وجهه وأسلم الروح. وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء المذكور، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته.» قال القاضي بهاء الدين أيضا: «ووصلت أنا وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته.»[٢٨]

«فما تمكنا أن ندخل في تجهيزه حبة واحدة إلّا بالقرض، حتى في ثمن التبن الذي يُلَتُّ به الطين، وغسّله الفقيه الدولعي، خطيب دمشق والقاضي الفاضل، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجّى بثوب مفوّط، وجميع ما احتاج إليه في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من وجه حلّ عرفه، وصلى عليه الناس أرسالا، وأول من أمّ بالناس قاضي القضاة محيي الدين بن زكي الدين، ثم أعيد ـ رحمه الله ـ إلى الدار التي في

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

البستان التي كان متمرّضا بها، ودفن بالصُفَّة القريبة منها، وكان نزوله إلى حفرته قريب صلاة العصر.»(٢٩)

بعد أن لُحد صلاح الدين تقدم القاضي الفاضل ودفن سيفه الذي حمله في جهاده معه قائلا: «هذا يتوكأ عليه إلى الجنة.»(٣٠)

ونقل صلاح الدين سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م إلى تربة جديدة قرب المسجد (الأموي)، وهي في حدّ البنيان الذي زاده القاضي الفاضل في المسجد.(٣١)

وبوفاته انتهى عصر بطولي مشرّف من عصور الإسلام.

---

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

(٣٠) أبو شامة، «Recueil,» Vol. V, p. 96.

(٣١) ابن واصل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٢٢.

الفصل الثاني عشر

القاضي الفاضل

بعد وفاة صلاح الدين

(٥٨٩-٥٩٦ هـ / ١١٩٣-١١٩٩ م)

وإنّا عليك يا يوسف لمحزونون

«وإذا شوهد المملوك (القاضي الفاضل) ذكّرت مشاهدته بمالكه ومخدومه فأتحفه كل من يشاهده بهديّة ترضية أو ترحيمة فكان المملوك إمّا عيّوق نجمه الغارب وإمّا سبحة ذكره العازب. كل لفظة موصولة بأنّة، وفي كل قلب من حزنه نار وفي كل دار من فضله جنّة، ولسلوة الأيّام موعدٌ هو الحشر. وإنّ ليلة لقائه هي ليلة القدر. ولقد حيي فطابت الحياة وتوفّاه الله فطابت الوفاة.»[١]

«المملوك (القاضي الفاضل) في عزلة يرجو أن يقطع بها بقية المهلة فلا يسرُّه أن يمتد به طلقها، ولا يسوءه أن ينقطع من الحياة علقُها، فقد صارت الأحبّة تحت التراب، فما تقر عينه أن يكون تحت السحاب، ولقد حَسُنت المواساة وأعان على تحسينها الدهر الذي لو أرانا وجها بسيطا، وعطفا نشيطا، لكان قد اغتالنا وخدعنا وصدّنا عن الوفاء وقطعنا، وشغلنا بالعيش الرقيق، وأقدمنا على مالكنا السابق لنا بالوجه الصفيق.»[٢]

عاد القاضي الفاضل بعد وفاة صلاح الدين إلى مصر وحيدا مفجوعا بأعز إنسان لديه، وسمع أوّل ما دخل مصر قائلا يقول: إن رجلا رأى ليلة وفاة السلطان، كأنّ قائلا يقول له: قد خرج الليلة يوسف من السجن. فعلّق على هذه الرؤيا قائلا: «وهذا من الأثر النبوي: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر. وما كان يوسفنا، رحمة الله عليه، في الدنيا بالإضافة إلى ما صار عليه في الآخرة إلّا في سجن، رضي الله عن تلك الروح وفتح له باب الجنّة فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح.»[٣]

---

(١) القاضي الفاضل، «عيون الرسائل الفاضلية»، ص ٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٤؛ القاضي الفاضل، «كتاب المختار»، ص ٨٧.

(٣) أبو شامة، «Recueil,» Vol. V, p. 97؛ الرسالة في القاضي الفاضل، «كتاب المختار»، ص ٨٧.

أولا: اعتزال السياسة
والدعوة إلى الوحدة

ظلّ القاضي الفاضل محافظا على مكانته المعنوية في البلاد بعد وفاة صلاح الدين، فاهتم العزيز عثمان ملك مصر بأمره وأكرمه، واتّخذ منه ناصحا ومشيرا. إلاّ إن القاضي الفاضل لم يظهر تهافتا أو اندفاعا على التدخّل في أمور الدولة، فقد آثر الانعزال عن العالم السياسي وتكريس الأعوام الباقية من حياته لمدرسته الفاضلية. ولا شكّ في أن اعتزاله السياسة في هذه الفترة يعود إلى أسباب عدة منها: أنه فقد بوفاة صلاح الدين الرجل الذي فيه وضع كل آماله وتوصل في عهده إلى مركز عالٍ لم يكن غيره يحلم بالوصول إليه في عهده. كما كرس قسما كبيرا من حياته في نصحه وإرشاده، ووهبه كل ما في وسعه من محبة وإخلاص، حتى أصبح لا يطيق الابتعاد عنه في حياته، فكيف بعد موته. وافتقاده صلاح الدين ويأسه من الحياة بعد موته ظاهران في عدد من رسائله التي أشار فيها إلى أمنيته بلقاء صلاح الدين في الآخرة:

«وما بايعنا الدنيا على أنّا خالدون فيها مع الأحبّة، ولا أنّ الموت غير زايرنا وإن أطال الغبّة، والأحبّة الراحلون عنّا، إن اشتقنا إليهم فإنّ الأيّام مراحلنا التي تدنينا منهم، والأنفاس خطواتنا التي تخطو بنا نحوهم، فنحن في كل يوم سايرون إليهم، وفي كل يوم قادمون عليهم، فكيف لا ينقص الحزن بمقدار ما ينقُص من المسافة.»[٤]

ولم يترك مناسبة تمر من دون ذكر صلاح الدين، فقد كان إذا رأى معارفه تذكّره، وإذا رأى الناس من حوله وردت صورته لخاطره، فيزداد يأسا وقنوطا؛ ذكر لعماد الدين في إحدى رسائله قوله: «وَلِسَلْوة الأيام موعد هو الحشر، وأن ليلة لقائه هي ليلة القدر، ولقد حييَ فطابت الحياة، وتوفّاه الله فطابت الوفاة، وإن امرءا يحسن به الضدّان وَهُما ما هما، ومولى يطيب به الطوران، والحياة بالطيب أولاهما، لمعذورة فيه القلوب إذا خضعت تحت وطأة الخفقان، والجفون إذا أمردت عليها مؤرة الهملان.»[٥]

كما أنه لم يعد المحرك السياسي للدولة بعد وفاة صلاح الدين، فقد تقسّمت الدولة، وتقسّم العمل الذي كان يقوم به زمن صلاح الدين بين أشخاص عديدين، بينهم أشخاص لم يكن راضيا عن تصرفاتهم زمن تنفّذه، كصفي الدين بن شكر وزير الملك العادل، وضياء الدين بن الأثير وزير الملك الأفضل، الذي حاول أن يبعده عن أصحاب أبيه ومستشاريه منذ البداية. ولقد أدرك القاضي الفاضل نهاية مسيرته بوفاة صلاح الدين،

(٤) القاضي الفاضل، «كتاب المختار»، ص ٦١.
(٥) المصدر نفسه، ص ٨٧.

وعبّر عن مشاعره ببعض رسائله الإخوانية. يذكر في إحداها: «وقد تبرّمت بالحياة، فبعد أن كنت ممّن أخدمه بمكان العين صرت بمكان القذاة، والأعمار أكثرها الأكدار إلّا إن أشدّها مؤونة ما كان في أواخر المدد حيث يكون المرء في أواخر الجلد.»(٦) وقوله: «ونقنع من الدهر بعد فَقْد من كنا به عليه نستطيل وبيده من صروفه نستديل، بهذا العيش المرقّع، الذي هو كالظهر المرقّع، فإن المسافة بيننا وبينه لا يطول ارتحال الأنفاس في قطعها بل لقاؤه أقرب إلينا من رَجْعها.»(٧) وكان في بدء هذه الفترة يحاول أن يشير على أبناء صلاح الدين، إلّا إنه ما لبث أن «تنزّه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها لما رأى من اختلال الأحوال.»(٨)

ويمكن القول أنه تبدّد بوفاة صلاح الدين حلم كبير كرّس القاضي الفاضل له قسطا كبيرا من حياته، فقد تقسّمت البلاد التي طالما سعى لتوحيدها وتقويتها بين أبناء صلاح الدين الذين راحوا يتنافسون في شأنها ويتناحرون مندفعين بأنانيتهم، مُغْفِلِين أمر العدوّ الرابض على حدودهم. فراح يدعوهم إلى التحالف ويحاول التقريب بينهم، ولم يترك مناسبة تمرّ من دون أن يذكّرهم بضرورة توحيد الصف، فكتب للملك الظاهر بن صلاح الدين ضمن رسالة عزاء بوالده يقول: «وأمّا لائح الأمر فإنه إنْ وقع اتفاق فما عدمتم إلّا شخصه الكريم وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته وهو الهول العظيم.»(٩) كما كتب إلى أحدهم يقول: «والبيت الكريم أنا في ولائه وخدمته كما قيل:

إن قلبي لكم لكالكبد الحرّى وقلبي لغيركم كالقلوب

«يسرُّني أن يمدّ الله ظلّهم، وأن يجمع شملهم، كما يسوءني أن تختلف آراؤهم ولا تنتظم أهواءهم.»(١٠) وقام بدور في الصلح بين العزيز عثمان ملك مصر، والأفضل ملك الشام، عندما قصد العزيز الشام لاحتلالها، واضطر إلى أن يعود إلى مصر بعد وصوله إلى أبوابها بسبب اضطراب بعض العسكر الأسدية عليه، فتبعه الملك الأفضل أخوه والملك العادل أخو صلاح الدين إلى بلبيس، والملك الأفضل مُصرّ على دخول القاهرة.

---

(٦) المصدر نفسه.
(٧) عماد الدين إسماعيل بن علي، «المختصر في تاريخ البشر» (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٠٧)، ج ٣، ص ٨١.
(٨) المقريزي، «السلوك»، ج ١، ص ١٤٦.
(٩) ابن خلّكان، مصدر سبق ذكره، ج ٧، ص ٢٠٥.
(١٠) النويري، مصدر سبق ذكره، ج ٨، ص ٨.

أرسل الملك العادل إلى القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين، وكان قد اعتزل التدخّل في أمورهم لما رأى من فساد أحوالهم. فسار إلى الملك العادل واجتمع إليه وأصلح بين الأخوين. ثم اعتزل التدخل في أمورهم نهائيا، حتى أنه عندما اختلف الأمراء الصلاحية والأسدية في شأن أتابكية بهاء الدين قراقوش سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م على الملك المنصور ناصر الدين بن الملك العزيز بعد وفاة والده، قصدوا القاضي الفاضل ليأخذوا رأيه فامتنع من المشورة عليهم فتركوه.(١١) وشاهد في هذه الفترة الفرنج يُغيرون على البلاد محاولين استرجاع أقسام منها، فازداد خوفا من تبديد ما أمضى حياته في بنائه مع صلاح الدين، وهو استعادة البلاد من يد الصليبيين. ولم يجد الحماسة الدينية، أو القوة العسكرية، أو الوحدوية التي وجدها زمن صلاح الدين والتي تمكّن صلاح الدين من خلالها من التغلب على الفرنج، ورأى بعض المدن تقع ثانية في يد الفرنج فراح يشدّ من أزر العادل أبي بكر أخي صلاح الدين، أكبر أقارب صلاح الدين سنّا، وأكثرهم خبرة، لعله يقف وقفات صامدة كأخيه فكتب له في إحدى الرسائل سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م: «وما تجدّد من وصول العدو اللعين إلى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعة، وللإسلام اليوم قدم وإنْ زلّت زلّ، وهمّة وإنْ ملّت فإن النصر منه ملّ. وتلك القدم القدم العادلية، وتلك الهمّة الهمّة السابقة السيفية، فاللّهَ اللّهَ ثبّتوا ذلك الفؤاد ودقّوا ذلك المهاد، واسهروا في الله، فليست بليلة رقاد، ولا يُنْظَر في حديث زيد ولا عمرو، ولا أن فلانا نفع ولا ضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا أن فيهم من مر. أنظروا إلى أنكم الإسلام كله برز إلى الشّرْك كله، وأنكم ظل الله، فإن صمّمتم تلك النسبة فإن الله لا ناسخ لظلّه، واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تهونوا، وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين، فما هي إلّا غمرة وتنجلي، وهَيْعة وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجارة وتربح.»(١٢) لكنّه شاهد بعض المدن يسقط ثانية في يد الفرنج، فراح يتحسّر على انفراط العِقد الذي جمعه مع صلاح الدين، ويزداد يأسا وانعزالا.

كان للأمراض التي تراكمت على القاضي الفاضل أثر في ابتعاده عن الجوّ السياسي، فقد كان ضعيف البنية كثير المرض، وكان هذا يؤخّره عن الاشتراك في بعض الغزوات عندما كان صلاح الدين حيا، وفي رسائله كثير من الإشارة إلى مرضه وضعفه اللذين ازدادا بعد وفاة صلاح الدين. وقد ذكر في إحداها إلى صديقه العماد الأصفهاني قوله: «وسيدنا يعلم كيف حال الكبير إذا فقد الصغير، والضعيف المتثاقل إذا نودي

---

(١١) المقريزي، «السلوك»، ج ١، ص ١٤٦.
(١٢) أبو شامة، «Recueil,» Vol V, pp. 113-114.

للنفير، ما كأني عرفت الأيام، إلا في هذه الأيام، ولا كأن الدنيا لبستها إلا على أن يخلعني الحِمَام، فقد توقعت أمر الله أن يطرقني بياتا وأنا نائم، أو ضحى وأنا هائم.»[١٣]

كما كتب إليه في إحدى رسائله يصف حالته الجسمانية قائلا: «وأصدرت هذه الخدمة ورجلاي قد عاد النقرس إلى تقييدهما وتصفيرهما بالألطخة وتسويدهما، وجنبي طريح، وما فيّ صحيح إلا سقمي فإنه صحيح، وإذا خلوتُ إلى شيطان المرض أصيح.»[١٤] وكتب إليه رسالة أخرى قائلا: «وأما أحوالي في جسمي فلا تسأل عن تداعي البنية، المفاصل مذهبة، والأسنان مضمدة والنقرس يغلي، وزيادة كالنقص زيادة العصا في ظلّي.»[١٥] ووصف أوجاعه في آخر حياته للعماد أيضا، بقوله: «وأخلاق الغلمان وما أدراك ما هيه، نار حامية، وقد صرت أرى الصبر على الضرورة أولى من الابتلاء بهم في الخدمة، فأجوع ولا أقول اطعموني، وأظمأ ولا أقول اسقوني، وألقيت بيدي وقلت مرّوا، ومددت رجلي وقلت جرّوا.»[١٦]

ثانيا: نهاية مكافح

توفي القاضي الفاضل بعد كل هذه الآلام الجسمية والمعنوية في السادس من ربيع الأول ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م. قال العماد الأصفهاني في حوادث هذه السنة ناعيا إيّاه: «تمت الرزية الكبرى والبليّة العُظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء في داره بالقاهرة.»[١٧] وذكر في وفاته أنه عمل ليلة العشاء السابقة لوفاته في مدرسته، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرّسها، وتحدّث معه ما شاء وشوهد من كل ليلة أبشّ وأبسم وأهشّ، وقد طابت المحاضرة وطالت المسامرة وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسان، وقال لغلامه: «رتّب حوائج الحمّام وعرّفني حين أنضى مني المنام، فوافاه سحرا للإعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أن كَلِم الحِمام حَمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمّام. فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر له باغت فلبث يومه لا يُسمع له إلّا أنينٌ خفيّ علم منه أنه بعهد الله وفى، ثم قضى سعيدا.»[١٨]

---

(١٣) القاضي الفاضل، «كتاب المختار»، ص ٥٥.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٥١.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(١٧) أبو شامة، «Recueil,» Vol. V, p. 142.

(١٨) المصدر نفسه.

وعلّق عماد الدين الأصفهاني على وفاته بقوله:

«ومضى شهيدا، حميدا، فوفّاه الله تعالى الوصية، فكانت له بسيّد الأوّلين والآخرين أسوة، وإن تردّى عن رداء العمر فله من حُلل البقاء في علّيين كسوة، ولأنه لم يبق في مدّة حياته عملا صالحا إلّا قدّمه، ولا عهدا في الجنة إلّا أحكمه، ولا عَقدا في البرّ إلّا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سُبُل الخيرات متجاوزة على الحساب لا سيّما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب، وأعان طَلَبة الشافعيّة والمالكيّة عند داره بالمدرسة والأيتام بالكُتّاب والخيرات الدارّة على الأيام، فكانت له حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام، وكان رحمه الله للحقوق قاضيا، وفي الحقائق ماضيا، سلطانه مطاع والسلطان له مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان، وصاحب القران، قد خصّه الله بالمكانة والإمكان، والسلطان رحمه الله من مفتتحات فتوحه ومختتماتها، ومبادي أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلّا بأقاليد آرابه وآرائه، ومقاليد غِناه وغَنائه.

«وكنت من حسناته محسوبا، وإلى مناسب الآية منسوبا، أعرف صناعته ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثمينة بمُزجاة بضاعتي، ولم يزل يجذب بضَبعي، ويجلب نفعي، ما أوسع ذَرعه للخطاب في شغلي، إذا ضاق بالخطب الشاغل ذرعي، وكانت كتابته كتائب النصر، ويراعته للدولة مجمّلة، وللمملكة مكمّلة، وللعصر الصلاحي على سائر الأعصار مفضّلة، ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة، ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعة، وإنّما نسجتُ على مِنواله. ومزجتُ من جرياله، ورويت بزُلاله، وهو الذي نسخ أساليب القدماء بما أقْدَمه من الأساليب، وأغربه من الإبداع وأبدعه من الغريب، وما ألفيتُه كرّر دعاء ذكره في مكاتبته، ولا ردّد لفظا في مخاطبته، بل تأتي فصوله مبتكرة، مبتدعة مبتدهة لا مفتكرة، بالعُرف والعِرفان معرفة لا نكرة، وكانت الدولة بأدالته تدال، والزلّة بأزالته تزال، والكِرام في ظلّه يقيلون، ومن عثرات النوائب بفضله يستقيلون، وبعز حِمى حمايته يعزّون، ولهزّ عطف عطفه يهتزّون، فإلى مَن الوفادة بعده وممّن الإفادة، وفيمن السيادة، ولمن السعادة، والحمد لله الذي له الغيب والشهادة، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولأمره منقادون. ودُفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة.»[١٩]

---

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٤٣ ـ ١٤٥.

ثالثا: تقويم لدور
القاضي الفاضل في عصره

لقد برز القاضي الفاضل في عصره: كأديب، نُسبت إليه مدرسة نثرية عُرفت بمدرسة القاضي الفاضل في النثر، خلّدته بين الأدباء؛ وكإداري قدير، وضعته إدارته في صفّ الوزراء النابغين؛ وكإنسان كرّس حياته لخدمة الشعوب التي احتكّ بها، وفي الجهاد لتحرير مناطق إسلامية اغتصبتها شعوب غريبة قسرا. وقد أجاد القيام بأدواره العديدة كل الإجادة، حتى أن المؤرّخين اعتبروه نموذجا للإنسان المثالي في عصره. ولقد تحدّثنا عن أدواره المختلفة في عصره، وهي ليست بقليلة، لكنّنا سنحاول في خاتمة دراستنا أن نلملم أطرافها في صورة مجملة ملخصة.

يقف الكثيرون في حيرة أمام أسلوب القاضي الفاضل في الكتابة، وقد ذهب البعض إلى حدّ اعتباره من باب التأنُّق والتكلُّف، أو حتى من باب انحطاط التعبير، بما يعكس انحطاطا في المستوى الأدبي لذلك العصر. إلا إننا لا نراه من هذه الزاوية، ذاتها، لأن أسلوب القاضي الفاضل، وإنْ صعب على البعض فهمه، يدلّ على ثقافة واسعة واطلاع دقيق على الأدب والحديث والفقه وغيرها من العلوم؛ وعلى فهم عميق للقرآن. فالقاضي الفاضل كان يملك أكبر مكتبة في عصره، تغنّى المؤرخون بها، وأشادوا بمحتواها، كما ذكروا أن ما فيها بلغ المئة ألف. فكيف يوصف إنسان أو عصره بانحطاط التعبير؟ وهذا الإنسان لم يكن إداريا أو سياسيا فحسب، بل كان أيضا أستاذا كبيرا من أساتذة عصره، أمضى فترة تقاعده في التدريس وتثقيف الأجيال المقبلة.

يمثل أسلوب القاضي الفاضل طريقة ثالثة في التعبير اختصّت اللغة العربية بها، إلى جانب الطريقتين الشائعتين في الآداب الأُخرى، وهما الشعر والنثر المرسل.

لكن التعبير الأدبي العربي يحتوي على ثلاثة نماذج: أولها وأقدمها، النموذج الشعري الذي تصل منابعه إلى الشعر الجاهلي ويمتدّ تدفّقه إلى عصرنا الحالي. والأسلوب الثاني أسلوب النثر المرسل، وهو الذي كُتبت به كتب التاريخ والفلسفة والفقه والأصول والتفسير والعلوم، وغيرها ممّا أبدعه العقل العربي والإسلامي. لكنّ هنالك أسلوبا ثالثا اختص القرآن الكريم به، وهو مختلف عن كل من الشعر والنثر المرسل. صحيح أنه لا يتوفر لنا نماذج عن نثر مرسل معاصر لنزول القرآن الكريم، ولكن لغة الحديث ولغة الخطابة تعبيرات عن مثل هذا الأسلوب، والقرآن الكريم تبعا للموضوعات التي يتناولها، كذلك فإنه يعتمد أنواعا مختلفة من المفردات تبعا للإيقاع الذي يتوخّى إيصاله من خلال السمع. ولكنّه في جميع الأحوال يعتمد نهاية الآية، تتكرّر من حيث الوزن والجَرْس على مدى آيات متعدّدة لينتقل بعد ذلك إلى كلمات

ذات وزن مختلف تنتهي الآيات بها.

إن القرآن الكريم قد شقّ للتعبير العربي أسلوبا ثالثا أُطلق عليه اسم أسلوب النثر الفنّي. وهذا المصطلح يتضمّن أن يكون في هذا الأسلوب شيء من الصناعة. واللغة العربية تسمح بالاسترسال في مثل هذه الصناعة من دون عناء كبير، أو تحريف زائد عن التعبير المرسل، فنجد مثلا في هذا الباب، أدب المقامات، وأدب الرسائل الذي يعود إلى بداية التعبير الأدبي النثري متمثّلا في عبد الحميد الكاتب. ولا مفرّ لمثل هذا الأسلوب من أن يُطل بين الحين والآخر كلون من ألوان التعبير البلاغي. ونجد أنه حتى عصرنا كان هناك كتّاب اعتمدوا هذا الأسلوب، كما أنّ أي كاتب مهما يكن أسلوبه يجد نفسه، بين الحين والحين، وقد وضع بعض الجمل التي تعتمده.

ولا يمكن القول إن اعتماد هذا الأسلوب كان مجرد نوع من الادّعاء والمفاخرة، بل لا شكّ في أنّة كان في عصر القاضي الفاضل الأسلوب المقبول في التعبير، لا من ناحية بلاغته فحسب، بل من ناحية تأثيره أيضا. فالرسائل التي كتبها القاضي الفاضل وأمثاله من أبناء عصره كانت بيانات سياسية واجتماعية، ومقامات تحمل مختلف المعاني، ويمكن اعتبار الكثير منها مماثلا أو مشابها لافتتاحيات الصحف هذه الأيام. وكان هنالك إقبال على قراءتها، ولا شكّ في أنها كانت ذات تأثير لدى الفئة المؤثرة والفاعلة من المجتمع.

وممّا ينفي عن هذه الرسائل أية شبهة بالنسبة إلى مستوى الأسلوب والتعبير اللغوي، ما تحتويه في صلبها من إشارات إلى الأدب والحِكَم والأمثال والأحاديث الشريفة، واقتباس من كتاب الله، فضلا عن الصور التي تستخدمها لتواكب الأحداث وتثير في النفس الخيال البَصَري مثلما تشبع فيها الحسّ السّمْعي، كقوله في رسالته: «في ليل كموج البحر...» التي نرى فيها أصداء من امرىء القيس، وسّعها وأضاف إليها.

ومختصر القول إن هذه الرسائل يجب أن يُحكم عليها من خلال الإطار التعبيري الذي اعتمدته، لا من خلال التفضيلات التي قد يشعر قارىء هذه الأيام بها. وعلينا أن نتذكّر دائما أن اللغة العربية قد حافظت على جميع الأساليب التي اعتمدها كُتّابها على مدى الأزمان، نظرا إلى أنها بقيت محافظة على صرحها من المفردات والتركيبات والنحو والصرف، ولم تفقد شيئا من ذلك، كما جرى في اللغات الأخرى كافة. ولئن كانت الكتابة المعاصرة للقاضي الفاضل لدى الفرنج قد سُجّلت باللغة اللاتينية التي لم تعد لغة حيّة، فإن من محاسن اللغة العربية أننا ما زلنا نستطيع أن نقرأ ما كتبه القاضي الفاضل. ولنتذكّر أننا في ذلك نقرأ ما يوازي الكتابة اللاتينية لكاتبي ذلك العصر، ولا يقرأها إلا المختصون العارفون بتلك اللغة.

ولا شكّ في أن القارىء سيجد حينذاك صعوبة في فهم بعض الجمل، كما سيجد حاجة إلى التأنّي في القراءة لاجتلاء المعاني المقصودة، وقد يزيد في الصعوبة أن النشر الحديث لهذه الرسائل قد يحتوي أخطاء تزيد في تعقيد الأمر، ولكن المعنى العام والروح العامة للرسائل من الأمور التي يمكن التوصّل إليها مهما يكن العناء.

أما أسلوب النثر المرسل الذي يعكس التعبير الشعبي فإننا نجده في أثر غير بعيد زمنيا عن القاضي الفاضل، وهو ملحمة سيرة الملك الظاهر بيبرس التي وضعها الرواة المتعاقبون بأسلوب إلقائي يستعيض من المحسّنات اللفظية بمسرحية الإلقاء وأنغام الرباب المصاحبة.

يمكن اعتبار القاضي الفاضل من عمالقة الرجال؛ سواء من ناحية المعاني الإنسانية التي كانت تتجسّد فيه، أو من ناحية مآثره الكبرى في حقول متّسعة طوال حياته، أو من ناحية تأثيره الكبير الحاسم في مجرى التاريخ في عصره. فإن سيرته تبيّن لنا رجلا نافذ البصيرة، شديد التواضع، عَزوفا عن مظاهر الأبّهة والملك والعظمة، منكبّا على عمله، ومتقنا لهذا العمل، ومؤمنا برسالة حدّدها له وضع تاريخي فذّ، فأحسن استيعابها وأداءها. وتتمثّل هذه الرسالة في تعلّق متدرّج يبتدىء بالأرض الطيّبة التي أنبتته، وتعرُج به إلى السماء. فهو ابن بيسان وعسقلان، متمسّك بحق شعبه في هذا الوطن الذي أنبته، وبواجبه في الدفاع عنه وفي تحريره بعدما استباح العدو أرضه غصبا، واستباح أرض مصر التي استقبلته، ورحّبت به، ووفّرت له فرص العمل والخدمة. ومن فوق هذه الطبقة من التعلق، نجد تعلّقا آخر هو تعلّقه بالإسلام، وشعوره بالحاجة إلى تنقية المعتقدات السائدة في زمنه من شوائب دخلتها وحوّرت في نقائها. إذ إنه على الرغم ممّا وفّره الفاطميون لمصر، ولعالم الإسلام من وسائل ذات أثر كبير في إنارة الأفكار كالأزهر الشريف ودار الحكمة؛ وعلى الرغم ممّا وفّروه من رعاية لعلماء كبار مثل الحسن بن الهيثم وغيره؛ وعلى الرغم أيضا من مناخ حرية الفكر الذي أشاعوه، فإنهم أدخلوا على المعتقدات تحريفا أحدث بلبلة داخل المجتمع. وقد أورثت هذه البلبلة وهنا وارتباكا في عصر اشتدت فيه الحاجة إلى وحدة الصف، وقوة الإيمان، ومضاء العزيمة لمقابلة الصليبيين، ومن ثَمَّ التتار والمغول، في أعتى ما قاساه العالم الإسلامي من تحدّ هدّد حتى وجوده. فالمسألة لم تكن مجرد مسألة تباين آراء واجتهادات، بل تجاوزت ذلك إلى الخروج على نواة التلاحم التي لا يمكن أن يتراصّ ويتكاثف أيّ مجتمع من دونها. ولقد أدرك القاضي الفاضل هذه الحقيقة، فسعى لإعادة الإيمان على المنهج السنّي الإسلامي النقي. ولا شكّ في أنه كانت لديه القدرة الفكرية على التصدّي لهذه المهمة، فأمضى جانبا من حياته مع دعاة السنّة في الإسكندرية، ومن ثَمَّ وضع القدرات التي اكتسبها من خلال وظائفه الإدارية في خدمة العقيدة، حتى وصل به الأمر والوضوح إلى

حدّ العمل على إسقاط الخلافة الفاطمية ذاتها، كي لا تكون عقبة في تاريخ الهدف الكبير الذي سعى له، وهو هدف التوحيد في الفكر والرؤية والعقيدة، كعنصر أساسي وحاسم في صراع البقاء. فلقد كانت الإسماعيلية الفاطمية في نظره ترفا لا يحتمله الوضع، وقد أظهرت الأحداث صدق رؤيته، فجاءت الانتصارات الإسلامية كلها، على الصليبيين وعلى التتار والمغول، تحت راية واحدة؛ وتحت هذه الراية تدافع المسلمون من كل أنحاء الأرض، من أواسط آسيا حتى أقصى المغرب، للدفاع عن أرض أصبحت هي ذاتها الإيمان والعقيدة.

وبزوال الفاطميين، أصبح للإسلام راية واحدة هي راية الخلافة العباسية التي ظلت خفّاقة منذ ذلك التاريخ، وانتقلت بعد سقوط بغداد إلى القاهرة، وسُلّمت بعدما احتل العثمانيون القاهرة إلى الآستانة.

لم يصل القاضي الفاضل إلى ما وصل إليه إلّا بشقّ النفس من كدّ وتعب، وتحمُّل مسؤوليات ومخاطر؛ فلقد اعتلى سُلّم الحياة درجة درجة، بعد أن استزاد في كل درجة من كل ما يحتاج إليه من علم، وخبرة، وتجربة للوصول إلى الدرجة الأعلى منها. وما وصل إلى موقع بطريق مصادفة أو تآمر أو تواطؤ أو استكانة، بل ربّما فَقَدَ - إلى حين - موقعا حصّله بتعبه نتيجة مؤامرات حيكت ضدّه على نهج ذلك العصر؛ بل إن المؤامرات استبَقَت مسيرته كلها حين ألمّت بأبيه، فأفقدته مكانه ومكانته. ويكفي أن نشير إلى مرحلة ابتعاده إلى الإسكندرية واعتزاله هناك إلى أن فرضت الحاجة استعادته ليقوم بعملٍ ما كان غيره يستطيع القيام به. وقلّما يحدث مثل هذا الأمر لرجل في خضم أحداث كتلك الأحداث، بل إن سنّة الحياة أن ينسى، ويُبعد بعد أن يحلّ غيره مكانه، ويعمل على منع أية عودة له حفاظا على مكاسب حقّقها لنفسه. كذلك نرى أن صعوده إلى رئاسة ديوان الإنشاء في عهد الفاطميين قد جاء نتيجة إدراكٍ أنه رجل الساعة والموقع. وربما كان في قرارة نفسه يخشى الدرجات العُليا من سُلّم الحياة، لما يحفّ بها من المهالك. ولعله كان قادرا على تسلّم الوزارة (وزارة التنفيذ) حتى قبل عهد صلاح الدين، ولكنّه لم يَرْتَحْ إليها إلّا مع صلاح الدين. هنا فقط أحسّ بأنه قد حصل على الأمان الذي يفتح له فرصة العمل من خلال تصوُّر بعيد المدى يُطَبِّق خطوة خطوة في تتابع وتلاحق بغير تقطّع ولا نكوص. وهنا أيضا وجد الشخص الذي يستطيع - إنْ يكن في إمكان القاضي الفاضل - أن يصل إليه. وهنا أيضا وجد الصداقة والوفاء والتقدير لفكره ولعبقريته الاستراتيجية والسياسية والإدارية والمالية. وهنا أيضا استطاع أن يعبّر أول مرة عن تعلّقه الآخر والكبير بالشعب، وحقوقه، إلى جانب تعلّقه بالأرض والوطن، وإلى جانب تعلّقه بالإيمان والعقيدة، مُرْسِيا بذلك جميع القواعد التي يحتاج المجتمع إليها لتأمين العيش الكريم، والارتباط، والدفاع، والتطلع إلى آفاق المستقبل. وإن علاقة

القاضي الفاضل بصلاح الدين تكاد تكون فريدة في نوعها؛ إذ قلّما يحظى المستشار المنفّذ بثقة صاحب السلطة المستمرّة على مدى طويل من الزمن، من كل من يصعد ويمتلك قدرا من القوة قد يستعمله في مصلحته. ولقد رأينا رؤوس الوزراء تتطاير في كل العهود، وأمّا رأس القاضي الفاضل فبقي ملتصقا بجسمه حتى وفاته. ولا يمكن لأحد أن يدّعي أن ذلك كان نتيجة لمجرّد الدهاء، والحيطة والحذر. فلقد سقط من قبله من هو أكبر منه وأكثر حذرا. ولئن كان لديه شيء مختص به من الدهاء، فإن ذلك الشيء هو استطاعته أن ينال من صلاح الدين الثقة بأنه أمين له وغير منازع له على سلطة أو جاه، أي أن صلاح الدين استأنس إلى أن القاضي الفاضل هو بطبعه، لا باختياره فقط، رجل قانع بأن يكون في الصفّ الثاني من السلطة لا في صفّها الأول، وقادر في الوقت نفسه على أن يقوم من موقعه المتأخر هذا بمهمة المساندة للصفّ الأول والتخطيط والتوجيه والإرشاد والتحسُّب للطوارىء وتقلّبات الحدثان.

إلى جانب هذا كله فإن القاضي الفاضل لو لم يَخُض غمار الحياة في أحرج مواقعها، وأصعب أيامها مكتفيا بأن يكون رجل فكر وأدب وعلم وتعليم، لكان معلما كبيرا، ومفكّرا من أفذاذ المفكّرين، وأديبا من كبار الأدباء. وقلما استطاع إنسان في التاريخ كله أن يجمع بهذا القدر بين موهبتين: موهبة العمل، وموهبة الفكر، بل يغلب أنْ تتغلّب إحدى الموهبتين على الأخرى. ولكنّ القاضي الفاضل، الوزير، هو ذاته القاضي الفاضل الأديب. والقاضي الفاضل المخطّط، والمصلح الاجتماعي، هو ذاته القاضي الفاضل صاحب المدرسة الفاضلية والأستاذ المعلم فيها.

وقلّما نال رجل في التاريخ شهادة كالشهادة التي نالها القاضي الفاضل من صلاح الدين حين قال لعساكره وقادته، بعد أن اهتزّت صفوفهم في معركة عكا:

ما فتحت البلاد بسيوفكم إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل.

وهذه شهادة لصلاح الدين بقدر ما هي للقاضي الفاضل؛ فهو الرجل الذي لم يقل إنّ الجهاد لحملة السيوف وحدهم، بل قال: الجهاد الأكبر هو لحملة القلم، وبذلك تحقّق له كسب النصر وتجنّب الهزيمة.

الفصل الثالث عشر
عسقلان مجدداً
وقفة بين الماضي والحاضر

«هامدة صامتة، خاوية خالية، لا يُسمع فيها سوى أصداء أبناء آوى، يردّدون عواءهم عبر غبار أمجادها الماضية، ويشعّ عليها القمر بضوئه فيكشف عمّا تبقى فيها من آثار تتحدث عن أمجادها الباقية.»[1]

هذه عسقلان في بداية القرن العشرين، خرائب وآثار مبعثرة فوق الأرض، يجمع أهالي القرى المجاورة لها أحجارها لبناء بيوتهم، من دون أن يعلموا بما قد تخفيه هذه الأحجار من مآس وأفراح، وقصص وأساطير، وسِيَرٍ لأناس جبلوها بأيديهم وبنوا منها بيوتهم وحضاراتهم التي تناقلوها جيلا بعد جيل، تاركين ما تبقّى منها من رسوم ومعالم لتحدّث الأجيال اللاحقة عن حضارتها وتاريخها وأهلها ومسيرة شعبها، عصارة الشعوب المتعدّدة التي بنتها طبقة فوق طبقة حتى جعلت منها «عروس فلسطين».

لم يبقَ من عسقلان سوى بقايا سور، عُدَّ في يوم من الأيام في غاية المنعة والحصانة، ممتدّ من الصخرة العالية الواقفة بتحدٍّ إلى جانب البحر، لمسافة عدّة أميال من الرمال البيض التي ميّزت عسقلان وما جاورها من مدن فلسطينية كغزّة وأسدود. وأمّا باقي المدينة، فقد اندثر بسبب عوامل الطبيعة؛ فالبحر أكلها من ناحية، والرمل الناعم غطى عليها من ناحية أخرى، ويد الإنسان القاسية أعملت معاول الهدم في بيوتها ومعالمها.[2] وإنْ اندثرت عسقلان بمعالمها المادّية فقد تركت للأجيال اللاحقة رموزا وأساطير تبنّتها جيلا بعد جيل، وتناقلتها، واحتضنتها على أنّها من تراثها الخاص.

فهذه قرية الحمامة في فلسطين القرن العشرين، ضاحية من ضواحي عسقلان المندثرة، تشهد باسمها «الحمامة» على جذور عسقلان الفلسطينية التي بناها الفلسطينيون الأوائل؛ فالحمامة كانت ترمز إلى إلهة عسقلان سميراميس. وسميراميس، كما عرفها

---

(١) Duncan Mackenzie, «The Philistine City of Askelon,» *Palestine Exploration Quarterly* (London: Palestine Exploration Fund, 1913), p. 13. Account, pp. 8-23.

(٢) *Ibid.*, pp. 8-23.

أهالي عسقلان القُدماء، ابنة الإلهة ديريكتو. هذه الإلهة التي رمزت إلى طبيعة عسقلان، إذ تجسّدت في نصفها الأعلى بشكل امرأة، رامزة إلى النصف الأرضي من المدينة، وظهرت في نصفها الأسفل بشكل سمكة، رمزا للبحر؛ فسميراميس ترمز إلى الخصب أرضا وبحرا. وُلدت سميراميس، كما عرفها أهالي عسقلان، بين الحمائم التي ربّتها وأنشأتها وغذّتها وحرستها من الأخطار، ومن ثم أصبحت الحمامة رمزا لسميراميس ولعسقلان،[٣] ربطت ماضيها بحاضرها، وحفظت للأجيال المتتابعة تذكارات تنبّههم إلى وجودها. وهذه التذكارات مادية كقِطع من النقود عليها نقش لسميراميس والحمامة، وأعمدة عليها صورة الحمامة، اكتشفها المنقّبون أوائل القرن العشرين (سنة ١٩٢٠)،[٤] وتذكارات معنوية تجلّت في معتقدات لطيفة محبّبة إلى الوجدان الشعبي في ضواحي عسقلان، في القرن العشرين وما قبله من قرون. فمن القصص المتداولة التي صدّقها البعض، ونبذها البعض الآخر، قصّة العذراء التي تحوم وتطيل التحليق يوميا فوق القبّة الخضراء في ظاهر عسقلان. وقد يتساءل البعض ما هي القبّة الخضراء؟ عرّف أهالي عسقلان القبّة الخضراء بأنّها مشهد الشيخ حسين أحد الأولياء، وكانوا يزورونه ويتبرّكون به[٥] حتى جاء المنقّبون وعلماء الآثار الغربيون وألقوا الشك في صدور الناس على المشهد ومن فيه، قائلين لهم إن المشهد مبني فوق معبد ديريكتو الفلسطيني، لكنّهم لم يقولوا لهؤلاء إن الحمامة التي تحلّق يوميا فوق المشهد أو المعبد لم تكن سوى سميراميس، حامية المدينة، التي ربطت ماضي عسقلان السحيق بحاضرها. ولربّما لم يتعمّقوا في التاريخ الإسلامي ويذكروا لهم أن مشهد الشيخ حسين بقبّته الخضراء كان هو المشهد الذي بناه الأفضل الجمالي الوزير الفاطمي، ليضمّ ما اعتقد أنه رأس الحسين بن علي؛ ولعلّه بنى هذا المشهد فوق المعبد السابق. وقد حوّل الفرنج هذا المشهد ذاته إلى كنيسة القدّيسة ماريا، الخضراء.[٦] ومن يدري فلربما رمزت الحمامة، بالنسبة إلى بعضهم، وفي يوم من الأيام، إلى روح الحسين عليه السلام؛ كما أنّها رمزت، بالنسبة إلى الفرنج، إلى السيّدة مريم التي اعتبروها حارسة المدينة. وهكذا فقد تجمّع في عسقلان الماضي والحاضر وربما المستقبل، كما توحّدت فيها الأديان من خلال رمز فلسطيني قديم هو الحمامة!!

---

(٣) «Derceto,» «Semiramis,» *Webster New International Dictionary,* (1957), p. 172, 2275.

(٤) J. Garstang, «The Fund's Excavation of Askalon,» *Palestine Exploration Quarterly,* 1921, pp. 12-16.

(٥) Mackenzie, *op.cit.,* p. 16.

(٦) Benveniste, *op.cit.,* p. 130.

وكما أن الحمامة وأسطورتها والقبّة الخضراء ربطت تاريخ فلسطين القديم بالحديث، فإنّ أسوار المدينة المهدّمة ما زالت تقف شاهدا على تاريخ عسقلان المتواصل المتكامل، وعلى ما جرى على أرض عسقلان من معارك ومآسٍ أدّت إلى إخلائها أكثر من مرّة، وأوصلتها إلى ما هي عليه من خراب. ولقد أشرنا في بداية بحثنا إلى احتلال الفرنج لها وإخلائها من سكانها المسلمين سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، ثم تعبئتها بالسكان من الفرنج والمسيحيين العرب وجعلها مركزا لفرسان الإسبتارية. كماأشرنا إلى استعادة صلاح الدين إياها سلما في شهر جمادى الثانية سنة ٥٨٣هـ / آب (أغسطس) ١١٨٧م، واهتمامه الشديد بها بل تعلّقه الخاص بها، ربما لكثرة ما سمعه عنها من القاضي الفاضل، وإعادتها إلى طبيعتها الإسلامية وإسكانها.

لكن بعدما جرى في عكّا من مقتل حاميتها واحتلالها من قِبَل قوات الفرنج بزعامة الملك ريتشارد، وتهديد الفرنج لباقي الساحل الفلسطيني، خاف صلاح الدين على عسقلان، المدخل إلى مصر، وعزم على تحصينها، ولكنْ سرعان ما عقد الصلح مع الملك ريتشارد، واتفق معه على تخريب عسقلان حتى لا يطمع فيها أحد من الفرنج أو المسلمين.

ولقد ذكر بهاء الدين بن شدّاد أنهّ بعد توقيع الصلح النهائي مع الفرنج، أمر صلاح الدين أن يسير مئة نقّاب، ومعهم بعض الفرنج، لتخريب سور عسقلان، على رأسهم أمير كبير، لإخراج الفرنج منها، وكانوا قد استعادوها لمدة بسيطة من المسلمين.

فسار النقّابة والحجّارون في الخامس عشر من شعبان سنة ٥٨٨هـ/ آب (أغسطس) ١١٩٢م، بقيادة علم الدين قيصر. كان صلاح الدين قد اتّفق مع الملك ريتشارد على أن يرسل مراقبين إفرنج، ولكن عندما وصل مندوبو صلاح الدين والمراقبون إلى عسقلان اعتذر الفرنج الذين في داخلها قائلين: «إنّا لنا على الملك جامكية بلده، فإمّا أن يدفعها إلينا حتى نخرج أو ادفعوها أنتم إلينا.» ووصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا، «ووقع الخراب فيها ضاحي نهار الاثنين» «السابع عشر من شعبان ٥٨٨هـ / آب [أغسطس] ١١٩٢م واستمر تخريبها، وكُتب على الجماعة رقاع في المعاونة على الخراب، وأعطي كل واحد قطعة معلومة من السور، وقيل له دستورك خرابها.»[(٧)]

ولقد علّق عماد الدين الأصفهاني، وهو ذو الحسّ التاريخي العميق، على خراب عسقلان بقوله: «ووصل السلطان إلى عسقلان وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان، ولو حُفِظت لكان حفظها متيقنا، وصونها ممكنا، ولكن وجد كلّا له متجنّبا

(٧) ابن شدّاد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

متجبّنا. وقد راعتهم نوبة عكاء وحفظها ثلاث سنين. وعادت بعد ذلك بحضرة المسلمين. وقال من تعلل واعتذر عن دخولها وحلّ عقد عزمه عن حلولها: 'تدخلها أنت أو أحد أولادك؛ فندخلها اتّباعا لمرادك'. فحينئذٍ لم يجد بدّا من نقض أسوارها، وعصف أنوارها، وفضّ سوارها، وتعفية آثارها، وتطفية نارها. ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها؛ منذ يوم فتحها واقتنائها؛ لما تطرق إليها الخلل، ولا إلى يدها الشلل، ولا إلى حدّها فَلَل، ولا إلى ودّها مَلَل.» وكأنّ عماد الدين كان ينعاها بقوله:

«وقد كنت ركبت إليها وطفتُها، واستحسنتُها واستلطفتُها. ورأيت سورها قبل فصم سواره، ونوْرها قبل ذبول نوّاره، فما رأيت أحسن منها ولا أحصن، ولا أحكم من مكانها ولا أمكن. وسكانها كانوا في رفاهية، فانتقلوا منها على كراهية، وباعوا أنْفَسَ الأعلاق بأبخس الأثمان، وفُجعوا بالأوطار والأوطان. وساءت أسوارها، ونأت أنواؤها، وأناخت لأواؤها، وباخت أضواؤها. وسُمع غناء المعاول في مغانيها المُعْوِلة، ورُئيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة. وناحت تلك النواحي، ومسحتها المساحي، وجرفتها المجارف، وأخافتها المخاوف، ونكرتها المعارف، وبهرجتها الصياف، ونعتها النواعب، ونابتها النوائب.»[8]

ويصف انطباعه لهذه الرؤية المثيرة للحزن والبكاء: «ووقفتُ على طلولها واستوقفتُ، وأسِيتُ عليها وأسفت، وتلهّبتُ وتلهفتُ، وشاهدتها وقد حسرت وحَفِيَت، ومُحي سنى محاسنها وخَفِيَت. وبكيتُ تلك الربوع، وأهديت لسقياها الدموع. فلقد أصيب الإسلام بعروسها، وعبست الوجوه لعبوسها، حين ثار نقع بوسها.»[9]

عندما هُدِمت عسقلان كان القاضي الفاضل بعيدا عنها في دمشق، ولكنّه لم يكن في يوم من الأيام ممن حبّذوا خراب المدن الفلسطينية. وإنْ لم يصل إلينا ما قاله عن خراب عسقلان فقد وصل إلينا ما نصح لصلاح الدين من عدم التعرُّض والتخريب لعكّا. وكان من جملة ما قاله له آنذاك في إحدى رسائله: «خراب البلاد في هذا الوقت الضيّق لا شبهة فيه تقويةٌ لنفس العدو وإضعافٌ لأنفس المسلمين. وكل من يسمعه يفجأه من (بديهة اليأس وما يقطع). وجاء المولى أن العدو أخذها من المصريين في تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرّة وبالهدنة مرّة وبالقتال مرات وبولاة سوء لو كان فيهم خير لما عجزوا عنها ونحن قد حملنا عن العدو المؤونة بتخريب البلاد التي كان العدو يريد أن يحاصرها وينازلها وينصب المنجنيق والبرج عليها، ويخاف النجدة أن تصلها وقوة الإسلام أن تثوب إليها ويتوقّع أن يبدهه المصاف قبل النزول عليها فعرّفناه أنّة قادم على من لا

---

(٨) الأصفهاني، «الفتح»، ص ٥٥٠ ـ ٥٥١.

(٩) المصدر نفسه، ص ٥٥١.

سلاح له إلا أن يلقي السلاح ولا حفظ للبلاد إلّا أن يخربها فقد نكلنا عن اللقاء وفررنا قبل المواجهة وزدنا زيادة عجيبة هي أن المنهزم ينهزم بالرجال ونحن ننهزم بالبلاد.»[١٠] كتب هذه الملاحظات سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠ ـ ١١٩١م.

كما علّق على الصلح بين صلاح الدين والملك ريتشارد، مبديا شيئا من الشك في إخلاص نيّة الملك والإنكليز والفرنج، قائلا: «وقد فعلت الأقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، كيف تشنّع ملك إنكلتيره بالغدر وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا وجهارا، وشهد فيها بخزيه وفضيحته، المسلمون والنصارى، وغدر الفرنج معلوم:

إذا غَدرتْ حسناءُ أوفَت بعهدها ومن عَهْدِها أنْ لا يُداوِمَ عهدُها

«القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون إذا قووا، ونحن ننتظر في ملك إنكلتيره ما تفصح عنه المقادير في أمره: إمّا الهلاك ولا بأس، فيلقى الأحبّة المركيس، والدوك، وملك الألمان، ويؤنس في النار غربتهم ويكثر عدّتهم، وإمّا أن يُعافى فهو بين أمرين: إمّا أن يرجع إلى لعنة الله وإلى مروءة البحر في تغريقه، وإمّا أن يُقيم فهنالك قد أبدى الشرّ ناجذيهْ ونكص الملعون من الوفاء على عقبيه وانتظر الفرصة لينتهز، والعورة ليثب.»[١١] ولعله لمّح إلى إمكان اغتيال الملك ريتشارد.

وفي الختام يمكن القول إنه بكلمات عماد الدين الأصفهاني انتهى تاريخ عسقلان التي عرفها القاضي الفاضل وأجيال قبله. وبكلمات القاضي الفاضل خُتم فصل موقت من مطامع الإنكليز في فلسطين، وبحسب تنبؤه فقد عادوا إلى المنطقة ثانية واثبين عليها حين سمحت لهم الأوضاع.

ولم يبقَ من عسقلان سوى الحمامة التي ربما كانت لا تزال تحلّق فوق القبّة الخضراء أو ما تبقّى منها، وذكرى بعض رجالاتها العظام مثل القاضي الفاضل موضوع كتابنا هذا.

---

(١٠) أبو شامة، «Recueil,» Vol. IV, pp. 506-507.

(١١) المصدر نفسه، Vol. V, pp. 78-79.

المَرَاجِع

المراجع العربية

المراجع القديمة

١ ـ الأزدي، علي بن ظافر. «بدائع البدائه». القاهرة: المطبعة البهية، ١٨٩٨.

٢ ـ الإسنوي، جمال الدين عبد الرحيم، «طبقات الشافعية». تحقيق عبد الله الجبّوري. بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧١.

٣ ـ الأصفهاني، عماد الدين. «البرق الشامي». ج ٣. تحقيق مصطفى الحياري. عمّان: مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٨٧.

٤ ـ الأصفهاني، عماد الدين. «البرق الشامي». ج ٥. تحقيق فالح صالح حسين. عمّان: مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٨٧.

٥ ـ الأصفهاني، عماد الدين. «خريدة القصر وجريدة العصر: شعراء مصر». القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣.

٦ ـ الأصفهاني، عماد الدين. «الفتح القسّي في الفتح القدسي». تحقيق محمد محمود صبح. القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٩٦٥.

٧ ـ البغدادي، عبد اللطيف. «كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدَة والحوادث المُعايَنة بأرض مصر». تحقيق أحمد غسّان سبانو. دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٣.

٨ ـ ابن أبي أُصيبعة، أحمد. «عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء». شرح وتحقيق نزار رضا. بيروت: دار مكتبة الحياة، لا تاريخ.

٩ ـ ابن الأثير، أبو الحسن علي، عز الدين. «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل». تحقيق عبد القادر أحمد طليمات. القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣.

١٠ ـ ابن الأثير، أبو الحسن علي، عز الدين. «الكامل في التاريخ». مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقّاق. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.

١١ ـ ابن إياس، محمد بن أحمد. «بدائع الزهور في وقائع الدهور». تحقيق محمد مصطفى. القاهرة: الهيئة العامّة للكتاب، ١٩٨٣.

١٢ ـ ابن تغري بردي، جمال الدين، أبو المحاسن يوسف. «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». القاهرة: دار الكتب، ١٩٣٩.

١٣ ـ ابن جبير، محمد بن أحمد. «رحلة ابن جبير». بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١.

١٤ ـ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمّد. «وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان». تحقيق إحسان عبّاس. بيروت: دار صادر، ١٩٦٨.
١٥ ـ ابن رزّيك، طلائع. «ديوان طلائع بن رزّيك». النجف: المكتبة الأهلية، ١٩٦٤.
١٦ ـ «ابن سناء الملك: حياته وشعره». ج ١. تحقيق محمد إبراهيم نصر. القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٨.
١٧ ـ ابن شدّاد، بهاء الدين يوسف بن رافع. «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية». تحقيق جمال الدين الشيّال. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤.
١٨ ـ ابن طولون الصالحي، محمد. «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية». تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق: مكتب الدراسات الإسلامية، ١٩٤٩ ـ ١٩٥٦.
١٩ ـ ابن عُنَيْن، شرف الدين. «ديوان ابن عُنَيْن». تحقيق خليل مردم. دمشق: مطبعة دمشق، ١٩٤٦.
٢٠ ـ ابن قاضي شهبة، بدر الدين. «الكواكب الدريّة في السيرة النبوية». تحقيق محمود زايد. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧١.
٢١ ـ ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة. «ذيل تاريخ دمشق». بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨.
٢٢ ـ ابن كثير، عماد الدين. «البداية والنهاية في التاريخ». القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٢٩.
٢٣ ـ ابن ممّاتي، الأسعد. «كتاب قوانين الدواوين». تحقيق عزيز سوريال عطية. القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٤٣.
٢٤ ـ ابن مُنقذ، أُسامة. «ديوان أُسامة بن منقذ». تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد. القاهرة: لا ناشر، ١٩٥٣.
٢٥ ـ ابن مُنقذ، أُسامة. «كتاب الاعتبار». تحرير فيليب حتّي. برنستون: جامعة برنستون، ١٩٣٠.
٢٦ ـ ابن ميسّر، محمد بن علي يوسف. «أخبار مصر». القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩١٩.
٢٧ ـ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم. «مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب». تحقيق جمال الدين الشيّال. القاهرة: دار القلم، ١٩٥٣.
٢٨ ـ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي. «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية». تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٢.
٢٩ ـ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي. «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية». في:

«Recueil des Historiens des Croisades: Historiens Orientaux.» Vols. IV and V. Paris: Imprimerie Nationale, 1932.

٣٠ ـ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل. «المختصر في تاريخ البشر». القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٧٠.

٣١ ـ البنداري، قوام الدين الفتح بن علي. «سنا البرق الشامي». تحقيق رمضان ششن. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧١.

٣٢ ـ الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد. «شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذَهَب». القاهرة: دار الفكر، ١٩٧٩.

٣٣ ـ الحنبلي، مجير الدين. «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل». عمّان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣.

٣٤ ـ سبط ابن الجوزي، يوسف. «مرآة الزمان». تحقيق ريتشارد جويت. شيكاغو: جامعة شيكاغو، ١٩٠٧.

٣٥ ـ السبكي، تاج الدين. «طبقات الشافعية الكبرى». القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٠٦.

٣٦ ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. «تاريخ الخلفاء». القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٤.

٣٧ ـ الشاغوري، أبو محمد فتيان بن علي الأسدي. «ديوان فتيان الشاغوري». تحقيق أحمد الجندي. دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٩٦٧.

٣٨ ـ القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي البيساني. «الدرّ النظيم من ترسُّل عبد الرحيم». تحقيق أحمد أحمد بدوي. القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٥٩.

٣٩ ـ القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي البيساني. «ديوان القاضي الفاضل». ج ١ و ٢. تحقيق أحمد أحمد بدوي. القاهرة: دار المعرفة، ١٩٦١.

٤٠ ـ القلقشندي، أحمد بن علي. «صبح الأعشى في صناعة الإنشا». ج ١ ـ ٤ و ١٠. القاهرة: المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩١٦.

٤١ ـ الكتبي، محمد بن شاكر أحمد. «فوات الوفيات». ج ١. القاهرة: مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥١.

٤٢ ـ الماوردي، علي بن محمد. «الأحكام السلطانية». القاهرة: لا ناشر، ١٩٦٦.

٤٣ ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. «اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا». ج ٢ ـ ٣. تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٣.

٤٤ ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. «كتاب السلوك لمعرفة دُوَل الملوك». ج ١. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦.

٤٥ ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار». ج ١ ـ ٢. القاهرة: دار الطباعة المصرية، ١٨٥٣.
٤٦ ـ النابلسي، عثمان بن إبراهيم. «كتاب لُمع القوانين المُضيّة في دواوين الديار المصرية». تحقيق كلود كاهين. في:
Bulletin d'Etudes Orientales, Vol. XVI (1958-1960), 1-78; 119-134.
٤٧ ـ النعيمي، عبد القادر بن محمد. «الدارس في تاريخ المدارس». دمشق: المجمع العلمي العربي، ١٩٤٨ ـ ١٩٥١.
٤٨ ـ النويري، أحمد بن عبد الوهّاب. «نهاية الأرب في فنون الأدب». ج ٨. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٣ ـ ١٩٤٩.
٤٩ ـ الوهراني، ركن الدين. «منامات الوهراني ومقاماته ورسائله». تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش. القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨.
٥٠ ـ ياقوت، شهاب الدين. «معجم الأدباء». القاهرة: الحلبي، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.
٥١ ـ اليمني، عمارة. «كتاب فيه النُكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية». شالون: مارسو، ١٨٩٧.

المراجع الحديثة

١ ـ إبراهيم، محمود. «صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني». عمّان: مكتبة الأقصى، ١٩٧١.
٢ ـ بدوي، أحمد أحمد. «الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام». القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٥٢.
٣ ـ بدوي، أحمد أحمد. «القاضي الفاضل: دراسة ونماذج». القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٦٧.
٤ ـ البري، عبد الله خورشيد. «القبائل العربية في مصر: في القرون الثلاثة الأولى للهجرة». القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧.
٥ ـ البيّومي، علي. «قيام الدولة الأيّوبية في مصر». القاهرة: دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ١٩٥٢.
٦ ـ حسن، حسن إبراهيم. «تاريخ الدولة الفاطمية». القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤.
٧ ـ حسن، علي إبراهيم. «مصر في العصور الوسطى: من الفتح العربي إلى الفتح العثماني». القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤.

٨ ـ حسين، محمد كامل. «دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين». القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٧.

٩ ـ حسين، محمد كامل. «في أدب مصر الفاطمية». القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٣.

١٠ ـ حمزة، عبد اللطيف. «الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيّوبي والمملوكي الأوّل». القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٨.

١١ ـ الدبّاغ، مصطفى. «بلادنا فلسطين». بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥.

١٢ ـ الدبّاغ، مصطفى. «القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩.

١٣ ـ ربيع، حسنين محمد. «النظم المالية في مصر في زمن الأيّوبيين». القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤.

١٤ ـ زكي، عبد الرحمن. «القاهرة: تاريخها وآثارها». القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٦.

١٥ ـ زيتون، محمد محمود. «الحافظ السلفي: أشهر علماء الزمان». الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة، ١٩٧٢.

١٦ ـ سعداوي، نظير حسّان. «التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي». القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

١٧ ـ سعداوي، نظير حسّان. «جيش مصر في أيام صلاح الدين». القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.

١٨ ـ الشيّال، جمال الدين. «أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي». القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥.

١٩ ـ الشيّال، جمال الدين. «تاريخ مصر الإسلامية». القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧.

٢٠ ـ الشيّال، جمال الدين. «مجموعة الوثائق الفاطمية». القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦.

٢١ ـ كحّالة. عُمر رضا. «معجم قبائل العرب». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨.

٢٢ ـ النجّار، أحمد. «الإنتاج الأدبي في مدينة الإسكندرية في العصرين الفاطمي والأيّوبي». القاهرة: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦٤.

المصادر المخطوطة

1. *Al-Kadi al-Fadil Epistolae*. MS., British Museum, ADD 25757.
2. *Ketab al-Mokhtar* (*Al-Fāḍil min Kalām al-Qāḍī al-Fāḍil*). MS., British Museum, ADD 7307.
3. *Kitāb fihi min Kalām al-Fāḍil*. «كتاب فيه من كلام القاضي عبد الرحيم البيساني». MS., American University of Beirut, 5902.
4. *Morasalat Fadhli*. MS., British Museum, ADD 7465.
5. *'Uyūn al-Rasā'il al-Fāḍiliyya*. MS., British Museum, ADD 25756.
6. *Paris*. MS., Bibliothèque Nationale, Arabe 6024.

المراجع الأجنبية

1. Andressohn, John C. «The Ancestry and Life of Godfrey of Bouillon,» *Indiana University Publications, Social Science Series,* No. 5. Bloomington, 1947.
2. Benveniste, Meron. *The Crusaders in the Holy Land.* Jerusalem: Israel Universities Press, 1970.
3. Cole, Penny. *The Preaching of the Crusades to the Holy Land, 1095-1270.* Cambridge: The Medieval Academy of North America, 1991.
4. Dajani-Shakeel, Hadia. «Displacement of the Palestinians During the Crusades,» *Muslim World,* Vol. LXVIII, No. 3 (1978), pp. 157-175.
5. Dajani-Shakeel, Hadia. «Egypt and the Egyptians: A Focal Point in the Policies and Literature of al-Qadi al-Fadil,» *Journal of Near Eastern Studies,* Vol. 36, No. 1 (1977), pp. 25-38.
6. Dajani-Shakeel, Hadia. «Jihad in 12th Century Arabic Poetry: A Moral and Religious Force to Counter the Crusades,» *Muslim World,* Vol. LXVI, No. 2 (April 1976), pp. 96-113.
7. Dajani-Shakeel, Hadia. «A Reassessment of some Medieval and Modern Perceptions of the Counter-Crusade.» In *The Jihad (Counter-Crusade) and its Times.* Edited by Ron Messier and Hadia Dajani-Shakeel. Ann Arbor: Michigan Center for Near Eastern and North African Studies, Univ. of Michigan, 1992. A Volume in honor of Prof. Andrew Ehrenkreutz.
8. Dajani-Shakeel, Hadia. «Some Medieval Accounts of Salah al-Din's Recovery of Jerusalem *(Al-Quds).*» In *Studia Palaestina: Studies in Honour of Constantine K. Zurayk.* Edited by Hisham Nashabé. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1988, pp. 83-113.
9. Duri, A. A.; Gottschalk, H. L. and Lambton, A. S. K. «Diwan,» *Encyclopedia of Islam,* Vol. II (1960), pp. 323-331.
10. Ehrenkreutz, Andrew S. *Saladin.* Albany: New York University Press, 1972.
11. Fulcher of Chartres. *Chronicle of the first Crusade.* Translated by Martha E. McGinty. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1941.
12. Gibb, Hamilton. «The Armies of Saladin.» In *Saladin: Studies in Islamic History.* Edited by Yusuf Ibish. Beirut: The Arab Institute for Research and Publishing, 1974.

13. Gibb, Hamilton. «The Rise of Saladin, 1169-1189.» In *A History of the Crusades*. Edited by Kenneth M. Setton. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1955, pp. 563-589.
14. Goitein, S. D. «Contemporary Letters on the Capture of Jerusalem by the Crusades,» *Journal of Jewish Studies*, (1952), III:162.
15. Grousset. *The Epic of the Crusades*. Translated from French by Noël Lindsay. New York: Orion Press, 1970.
16. Hallam, Elizabeth, ed. *The Plantagenet Chronicles*. New York: Viking Penguin, 1987.
17. Hartman, R. (B. Lewis). «Askalan,» *Encyclopedia of Islam*, Vol. II (1960), pp. 710-711.
18. Lane Poole, Stanley. *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*. Beirut: Khayyat, 1964.
19. Le Strange, Guy. *Palestine Under the Moslems*. Beirut: Khayyat, 1956.
20. Lewis, Bernard. «Egypt and Syria,» *Cambridge History of Islam*, Vol. I (1970), p. 188.
21. Lyons, Malcolm Cameron, and Jackson, D. E. P. *Saladin: The Politics of War*. Cambridge: Cambridge University Press, 1982.
22. Mayer, Hans Eberhard. *The Crusades*. Translated by John Gillingham. Oxford: Oxford University Press, 1972.
23. Michaud, Joseph. *Histoire des Croisades*. Vol. I. Paris: Furne Jouvent, 1812-1822.
24. Norman, Edgar. «The Crusades of Frederick Barbarossa and Henry IV.» In *A History of the Crusades*. Edited by Kenneth Setton. Vol. II. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1962.
25. Painter, Sidney. «The Third Crusade: Richard the Lion Hearted and Philip Augustus.» In *A History of the Crusades*. Edited by Kenneth M. Setton. Vol. II. Philadelphia: University of Pennsylvania, 1962.
26. Peters, Edward. *The First Crusade: The Chronicle of Fulcher of Chartres and other Source materials*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1962.
27. Richard, Jean. *The Latin Kingdom of Jerusalem*. Translated by J. Shirly. Amsterdam: North Holland Publishing, 1979.
28. Runciman, Steven. *A History of the Crusades*. Vols. 1-3 Cambridge: Cambridge University Press, 1951-1954.
29. Saewulf. *The Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem and the Holy Land*. Translated by William Robert Brownlaw. London: Palestine Text Society, 1896.
30. Sivan, Emmanuel, ed. «La Genèse De La Contre-Croisade: Un Traité Damasquin du début du XII Siècle,» *Journal Asiatique*, Vol. 34, 1966.

31. Stevenson, William B. *The Crusades in the East.* Cambridge: Cambridge University Press, 1907.
32. Tabbaa, Yasser. «Monuments with a Message: Propagation of Jihad under Nur al-Din (1146-1174).» In *The Meeting of Two Worlds; Cultural Exchange between East and West during the Period of the Crusades.* Edited by Vladimir P. Goss and Christine V. Bornstein. Kalamazoo: Medieval Institute Publications, Western Michigan University, 1986.
33. Theodorich. *Description of the Holy Land* (A.D. 1172). Translated by Aubrey Stewart. London: Palestine Text Society, 1896.
34. William of Tyre. *A History of Deeds Done Beyond the Sea.* Translated by C. A. Babcock and A. C. Krey. New York: Columbia University Press, 1943.